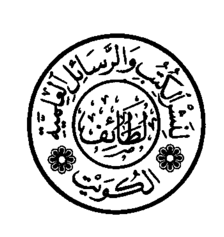
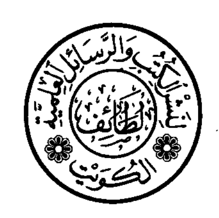


لطائف
لنشر الكتب والرسائل العلمية
دولة الكويت



الحركة الحنبلية وأثرها في بغداد

من وفاة الإمام أحمد إلى نهاية القرن الخامس الهجري

(٢٤١ - ٥٠٠ هجرية / ٨٥٥ - ١١٠٦م)

الأستاذ الدكتور
خالد كبير علال

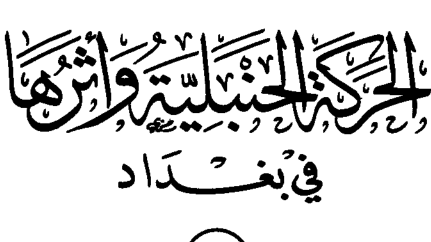
الكتاب الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب

رسالة ماجستير نالت درجة مشرف جداً

من جامعة الجزائر سنة ١٩٩٦م





الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

لطائف

لنشر الكتب والرسائل العلمية

لصاحبها د. وليد بن عبد الله بن عبد العزيز المنيس

دولة الكويت - الشامية - صندوق بريد ١٢٢٥٧ الرمز البريدي ٧١٥٦٣



المقدمة

اختيار الموضوع

ترجع صِلتي بموضوع الحنابلة إلى مرحلة الليسانس (الإجازة)، وفيها كان لي اهتمام بموقف الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) من مسألة خلق القرآن في معارضته للمعتزلة. وبدور أصحابه من بعده في الحفاظ على جماعته، ونشر مذهبه. فازددتُ بذلك رغبة وحرصاً على التعرُّف على حقيقة الحركة الحنبلية، والكشف عن نشاطها في موطنها ببغداد، والتي كنتُ قرأت عنها أنها متعصبة، وتثير الفتن.

فلما سجَّلتُ في الماجستير اخترتُ الحركة الحنبلية موضوعاً لرسالتي، فعرَضته على أستاذي المشرف الدكتور محمد بن عميرة، فوافق عليه مشكوراً.

وحدَّدتُ فترة البحث (ما بين: ٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م)؛ أي: من وفاة أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن (الخامس الهجري/ ١١م). وفي هذه المدة الزمانية، اكتمل بناء الحركة الحنبلية، وتكثَّف نشاطها، وكثر أتباعها، وبلغت أوج قوتها.

وقد واجهتني في بحثي هذا صعوباتٌ لم يكن من السهل تذليلها؛ كنُدرة المصادر الحنبلية، وقلَّة المراجع الحديثة، والمتخصِّصة في الحنابلة.

كما عانيت في مرحلة التحرير، مما يعاني منه كل الباحثين المبتدئين، من صعوبة في الربط بين المادة الموزعة على فصول الرسالة التي تغطي أكثر من ثلاثة قرون.

نقد المصادر والمراجع

فيما يخص المصادر الحنبلية التي اعتمدت عليها، فأهمها:

«طبقات الحنابلة» لأبي الحسين ابن أبي يعلى (ت٥٢٦هـ/ ١١٣١م)، ترجم فيه للإمام أحمد ولأعيان الحنابلة من بعده حسب الطبقات إلى عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م). وضمَّنه مادة غزيرة عن أصحابه، واحتفظ لنا فيه برسائل هامة لعلماء الحنابلة. وكان يُظهر تعصبه لمذهبه، وتهجُّمه على خصومه. وكثيراً ما ركَّز على المسائل الأصولية والفقهية على حساب الحوادث المرتبطة بحياة الشخصيات المُترجم لها.

ثم يأتي كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٥م). وقد جعله ذيلاً لكتاب أبي الحسين ابن أبي يعلى. وبدأه بالترجمة لأعيان الحنابلة من منتصف القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، إلى عصره، وقد أفادني بمعلومات جديدة عن محنة ابن عقيل، وفتنة ابن القشيري، واعتمدتُ أساساً على الطبعة التي حقَّقها سامي الدهان وهنري لاوست، وهي أكثر إتقاناً من الطبعة التي نشرها محمد حامد الفقي.

وكذلك يوميات ابن البناء الحنبلي (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٩م)، دوَّنها يوماً بيوم، وهو شاهد عيان فيما يروى عن أحوال بغداد. ولم يصلنا منها إلا قسم صغير[1]. وقد أكثر فيها مؤلِّفها من أخبار الحنابلة بالمقارنة إلى

---

(١) نشرها جورج مقدسي، في نشرة الدراسات الشرقية والإفريقية. (B.S.O.A.S).
Tome: xviii -1956 - p: 9 - 31.et 239 - 260. et tome: xix - 1957 - p: 13 - 48. et 281 - 303. et 426 - 443.

غيرهم من طوائف البلد. وكان يوجز الحديث عن الخلافات داخل الجماعة الحنبلية، ويكتفي بالتأسُّف والدعاء لهم بلمِّ شملها. ويُؤخذ عليه إسرافه في الاعتماد على الأحلام في تفسير واقعه، وإخلاله ببعض الحوادث باختصاره الشديد لها، وعدم سلاسة أسلوبه.

أما مؤلفات الحنابلة في الجدل والكلام، التي تصور جوَّ الصراع الفكري الذي خاضوه مع خصومهم، فمنها: كتاب «المعتمد في أصول الدين» للقاضي أبي يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م). وكتابا ابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م): «الفنون»، والثاني: «الرد على الأشاعرة العزال».

كما أفادتني كثيراً مصنفات ابن تيمية، لما احتوته في طياتها من مادة غزيرة عن الحنابلة، وباقي الفرق الإسلامية الأخرى، إلى جانب تضمُّنها لتحقيقات علمية مفيدة؛ كمجموع الفتاوى، ودرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السُّنَّة النبوية.

وفيما يخص كتب التاريخ العام، فأهمها: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م). ركز فيه على أوضاع بغداد وأعيانها، أكثر من غيرها من حواضر العالم الإسلامي. وقد انتفعتُ به كثيراً فيما ذكره من أخبار غزيرة عن الحنابلة. وقد احتفظ فيه مؤلفه بوثائق هامة عن الجماعة الحنبلية، لم أجدها عند غيره من المؤرخين. كما أنه لم يُخفِ تحيزه لأصحابه والدفاع عنهم.

ومنها كتاب «البداية والنهاية» من تأليف أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٦م). روى فيه أخباراً كثيرة عن الحنابلة وأصحاب الحديث، وكان أحياناً يكتفي بإدراج الحنابلة في أهل السُّنَّة، أو يشير إلى أحيائهم ولا يذكرهم صراحة. ولم يُبدِ تحيزه لا للحنابلة ولا للشافعية، لكنه لم يخف انتصاره لهؤلاء في نزاعهم مع الشيعة والمعتزلة.

وكتاب «تجارب الأمم»، لأبي علي مسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، أورد فيه أخباراً عن الحنابلة في سنوات: (٣١٠هـ/ ٩٢٢م، و٣٢١هـ/ ٩٣٣م، و٣٢٣هـ/ ٩٣٥م). واحتفظ لنا فيه بمنشور الخليفة الراضي بالله، الذي أصدره زجراً للحنابلة. ويُعد المنشور وثيقة هامة في موضوع الحنابلة.

وأما «الكامل في التاريخ» لعز الدين بن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). فلم يذكر عن الحنابلة إلا القليل، وكثيراً ما ألحقهم بأهل السُّنَّة، وكان يُظهر ميله للشافعية، وتحامله على الحنابلة أثناء تعرُّضه للفتن التي جرت بين المذهبين. وهو أيضاً أورد منشور الخليفة الراضي في حق الحنابلة، فمكَّننا من مقارنته بالذي احتفظ به مسكويه.

ومن المؤلفات التي تمثل وجهة نظر الشافعية الأشاعرة: كتاب «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري» لأبي القاسم علي بن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م). وقد انتفعتُ به فيما رواه من أخبار عن علاقة الأشعري بالحنابلة، وقد وجدتُ فيه خطاب الأشاعرة إلى الوزير نظام الملك، على ما أصابهم على يد الحنبلية عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)، ولم أعثر عليه في مصادر أخرى. وكذلك كتاب «طبقات الشافعية» لمؤلفه تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت٧٧١هـ/ ١٣٧٣م)، أورد فيه روايات عن جماعة من الحنابلة لها علاقات بالشوافع، وجاهر بخصومته لغالبية الحنابلة، واتهمهم بالتجسيم، والانحراف عن عقيدة أحمد بن حنبل.

وأما المراجع العربية، فلم أجد فيها أي كتاب متخصِّص في الحركة الحنبلية، ما عدا كتاب «القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية» لعبد القادر أبي فارس. درس فيه الفكر السياسي عند أبي يعلى

في القرن (الخامس الهجري/ ١١م). وهناك مؤلفات عامة، أشارت إلى الحنابلة إشارة عابرة.

أما المصنفات التي تناولت حياة أحمد بن حنبل ومذهبه فهي متوفرة، منها: «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد» لابن بدران الدمشقي، و«كتاب ابن حنبل» من تأليف محمد أبي زهرة.

وفيما يخص المراجع المعرَّبة، فأهمها كتاب: «أحمد بن حنبل والمحنة» للمستشرق ملفيل ولتر باتون، ترجمة عبد العزيز عبد الحق، وقد انتفعتُ كثيراً بالتذييل الذي ألحقه المترجم بالكتاب، عن إنتاج الحنابلة العلمي، وكذلك كتاب «شخصيات قلقة في الإسلام» من تأليف المستشرق لويس ماسينيون، وتعريب عبد الرحمٰن بدوي، والذي أفادني فيما تضمَّنه من آراء حول الحلَّاج، والخليفة ابن المعتز.

وأما المؤلفات الفرنسية، فمنها ما كتبه المستشرقان: هنري لاوست وجورج مقدسي، وقد نشرا معظم أعمالهما عن الحنابلة في دوريات مهتمة بتاريخ المشرق؛ كمجلة الدراسات الإسلامية، ونشرة الدراسات الشرقية. ولجورج مقدسي كتاب عن ابن عقيل الحنبلي، وقد استعنتُ به في دراسة محنة ابن عقيل، ومعرفة أحياء بغداد السكنية. كما نشر هنري لاوست كتاب ابن بطة العكبري الحنبلي «الإبانة عن أصول الديانة»، وألحق به الترجمة الفرنسية للكتاب، ووضع له مدخلاً موسَّعاً. وقد انتفعتُ بملاحظاته وتعليقاته عن الحنابلة خاصة وباقي الطوائف الإسلامية عامة.

ومن أعماله المفيدة، ترجمة كتاب «السياسة الشرعية» لتقي الدين أحمد ابن تيمية إلى اللغة الفرنسية، وجعل له مقدمة مطولة ضمَّنها خلاصة آرائه، واستنتاجاته عن الحركة الحنبلية.

ويُلاحظ على إنتاج جورج مقدسي، وهنري لاوست أن أعمالهما كثيراً ما تفتقد إلى الانسجام بسبب كثرة الاستطرادات.

منهج البحث

واتبعت في تحرير الرسالة منهجاً تمثَّل في:

الاعتماد على ما أوردته المصادر من أخبار أولاً، ثم الاستعانة بالكُتَّاب المحدَثين ثانياً، للاطلاع على ما طرحوه من آراء وما توصَّلوا إليه من نتائج. وبعد ذلك تحليل الحوادث، ومقارنتها، ومناقشتها حسب الاستطاعة. مع إبراز دور الحنابلة في مجتمع بغداد، وتتبع مدى موافقة سلوكهم لمذهب إمامهم أحمد بن حنبل.

خطة البحث

قسمتُ الرسالة إلى أربعة فصول:

تناولتُ في الأول أوضاع بغداد السياسية، والاجتماعية، والمذهبية، والاقتصادية، في زمن أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هجرية/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م). وقد حرصت على إبراز دور أحمد بن حنبل في تلك الأوضاع، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وفي مبحثه الثاني تناولتُ حياة أحمد بن حنبل ومؤلفاته بشكل موجز، ثم ركزتُ على دراسة فكره وجمع مذهبه، وتدوينه ونشره على أيدي متقدمي الحنابلة؛ كمدخل لنشأة الحركة الحنبلية في بغداد. والفصل كله هو بمثابة تمهيد لمعرفة الظروف العامة التي ظهرت فيها الجماعة الحنبلية أيام إمامها أحمد بن حنبل وبعده.

وتطرقتُ في الفصل الثاني لنشاط الحنابلة السياسي والاجتماعي فيما بين عامي (٢٤١هـ و٥٠٠هـ/ ٨٥٥ و١١٠٦م). فركّزتُ على موقفهم من الخلافة العباسية، وما قدَّموه لها، وما أخذوه عليها، وما أحدثوه من فتن استدعت تدخُّلها. ثم تعرضتُ لأعمالهم الخيرية، ولدورهم في القيام بالحسبة.

وأفردتُ الفصل الثالث للنزاع الطائفي الذي شهدته بغداد من وفاة

أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن الخامس الهجري (٨٥٥ ـ ١١٠٦م)، بين الحنابلة من جهة وخصومهم من المعتزلة، والشيعة، والصوفية، والشافعية الأشاعرة من جهة أخرى. ثم انتقلتُ إلى الخلافات المذهبية التي حدثت بين الحنابلة وبعض علماء بغداد كالطبري، وأبي الحسن الأشعري، والخطيب البغدادي. وبعدها تعرضتُ للنزاعات داخل الجماعة الحنبلية ذاتها.

وأما الفصل الأخير، فخصَّصتُه لأثر الحنابلة في حياة بغداد العلمية بين عامي (٢٤١ و٥٠٠هـ/ ٨٥٥ و١١٠٦م)، تناولت فيه نشاطهم التعليمي والتربوي. وتطرقتُ للانتشار الواسع الذي عرفه فكرهم في مدينة السلام وخارجها. وأفردتُ مبحثاً مطوَّلاً لمواقفهم من قضايا عصرهم التي شغلتهم في مختلف المجالات العلمية. وبعده عرضتُ ما أنتجوه من تراث علمي في الشريعة وغيرها من العلوم.

وختمتُ كل فصل بخلاصة مختصرة تضمَّنت أبرز الاستنتاجات، وأنهيت الرسالة بخاتمة لأهم النتائج التي توصلتُ إليها، وبعدها ألحقت بالبحثُ ملاحقه وفهارسه.

وأُنبِّه هنا إلى أني لم أتناول أثر الحنابلة في حياة بغداد الاقتصادية لعدم توفر المادة التاريخية الكافية في هذا المجال.

ولا يسعني في الختام إلا التوجه بالشكر الجزيل إلى كل من قدَّم لي يدَ المساعدة لإنجاز هذه الرسالة، وأخصُّ بالذكر أستاذي المشرف الدكتور محمد بن عميرة، الذي راجع البحث مراراً، ولم يبخل عليَّ بوقته، ولا بتوجيهاته القيمة، وتصويباته الصائبة.

والله الموفق لما يحبُّه ويرضاه

خالد كبير علال





الفصل الأول

الإمام أحمد بن حنبل الشيباني
عصره وحياته،
أعماله العلمية والاجتماعية

المبحث الأول: أوضاع بغداد العامة في عصر أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١هجرية).

المبحث الثاني: حياة أحمد بن حنبل وأعماله ومذهبه.



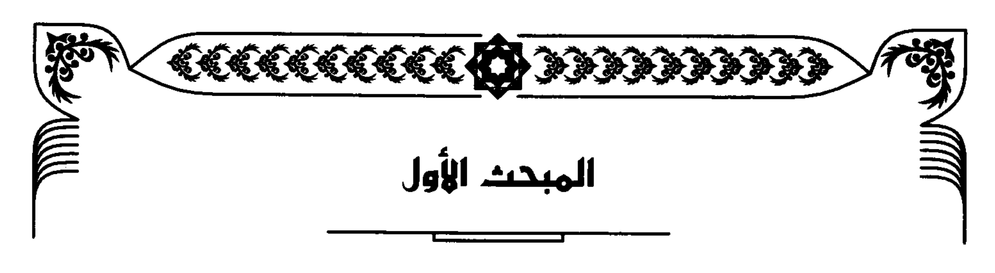
تمهيد

عاشَ الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) عصراً شهدت فيه بغداد نزاعاتٍ سياسيةً واجتماعيةً ومذهبيةً كثيرةً كان لها تأثير كبير وخطير على العباسيين والناس معاً. فدخل بعض خلفاء الدولة العباسية في حرب أهلية مدمرة من جهة، ودخلت هي في حروب كثيرة ضد الخارجين عليها من جهة أخرى.

وشهدت الطوائف المذهبية خلافات وصراعات فكرية حادة فيما بين مكونات الطائفة الواحدة من ناحية، وفيما بينها وبين الطوائف المخالفة لها من ناحية أخرى.

تلك الظروف ـ وغيرها ـ هي التي نشأ فيها أحمد بن حنبل، فتأثر بها، وأثر فيها بمواقفه التي اتخذها منها.



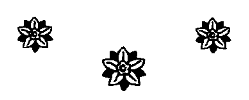


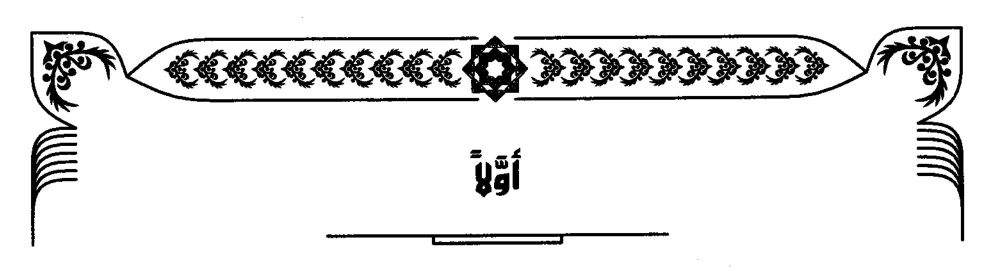
أوضاع بغداد العامة في عصر أحمد بن حنبل

(١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

شهِدت مدينة بغداد أوضاعاً سياسيةً واجتماعيةً، ومذهبيةً وعلميةً متباينةً ومتقلبةً زمن الإمام أحمد بن حنبل، وذلك بسبب اضطراب الأوضاع العامة التي سادت المدينة زمن دولة بني العباس.

فما تفاصيل ذلك، وهل كان لأحمد بن حنبل دور في تلك الأوضاع؟





أولاً

أوضاع بغداد السياسية في عصر أحمد بن حنبل(1)

(١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

يتضمَّن هذا المبحث ثلاثة مطالب، هي: أحوال خلفاء بغداد، وعلاقة أحمد بن حنبل بهؤلاء الخلفاء، ونفوذ الجنود الأتراك في الدولة العباسية.

فبالنسبة لأحوال خلفاء بغداد فقد امتاز معظم خلفاء العصر العباسي الأول(2) ما بين (١٦٤ و٢٣٢هجرية/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) بالقوة والحزم؛ فتحكَّموا في زمام السلطة، وحافظوا على أراضي الخلافة وهيبتها(3).

---

(١) يهدف هذا المبحث إلى إعطاء نظرة عامة عن أحوال بغداد السياسية، مع إبراز أثر أحمد فيها ما أمكن.

(٢) يبدأ العصر العباسي الأول من عام (١٣٢ هجرية/إلى سنة ٢٣٢هجرية). وخلفاء عصر أحمد بن حنبل هم: المهدي بن المنصور: (١٧٠ ـ ١٩٣ هجرية)، والهادي بن المهدي (١٦٩ ـ ١٧٠ هجرية)، وهارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هجرية)، والأمين ابن الرشيد (١٩٣ ـ ١٩٨ هجرية)، والمأمون ابن الرشيد (١٩٨ ـ ٢١٨ هجرية)، والمعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧ هجرية)، والواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هجرية)، والمتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هجرية).

(٣) من مظاهر قوة الخلافة وهيبتها آنذاك، أن المهدي أرسل إلى ملوك كابل، والترك، والهند يدعوهم إلى الطاعة فاستجابوا له. (اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، بيروت، (١٩٧٠م)، ٢/ ٣٩٠ ـ ٣٩١).

وكانوا بالمرصاد لخصومهم من الخوارج[1]، والشيعة[2]، والانفصاليين الثائرين عليهم[3]. وتمكَّن هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هجرية/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م)، من وضع حدٍّ للبرامكة[4] الذين سيطروا على دولته سبعة عشر عاماً[5]، واستعاد مقاليد الحكم التي كادت أن تفلت منه[6].

وحين توفي الرشيد سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٩م)، دخل ولداه الأمين (ت١٩٨هـ/ ٨١٣م) والمأمون (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م) في صراع دموي عنيف

---

(١) تركزت ثورات الخوارج في عهد أحمد بن حنبل في العراق، غير أن الخلافة تمكَّنت من قمع ثوراتهم الكثيرة، أكبرها ثورة عام (١٧٨هـ/ ٧٩٤م)، بأرض الجزيرة، لكن الرشيد أخمدها بشدة. (انظر: ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٤٢). وفي القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، كانت أخطر ثوراتهم بين عامي: (٢٥٢ ـ ٢٨٣هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٩٦م) بالموصل، وبعد تبادل الانتصارات مع جيوش الخلافة، انهزم الخوارج. (نفس المصدر ٧/ ٤٧٧).

(٢) تركزت ثورات الشيعة بالعراق عموماً، والكوفة خاصة، وكذلك في المدينة واليمن، وكانت الدولة العباسية تتصدَّى لهم بحزم، لإدراكها خطر الشيعة الذين يعملون للإطاحة بها. (انظر: ابن كثير؛ البداية: ١٠/١٥٧، ٢٤٥، ٢٤٦).

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٩٥.

(٤) كان الرشيد قد سلَّم للبرامكة كل مقاليد دولته، يتصرَّفون فيها بمطلق الحرية. (الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٦/ ٤٤٤).

(٥) نفس المصدر ٦/ ٤٨٤.

(٦) ذكر المؤرخون أسباباً عديدة كانت من وراء نكبة البرامكة منها: استئثارهم بالأموال واتهامهم بالزندقة، وتخطيطهم لنقل الخلافة إلى العلويين، وقصة العبَّاسة أخت الرشيد، والصراع الخفي بين العرب والعجم. (أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ط٢، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٧٢م)، ص٨٥، ٨٦)، وكذلك تعصُّبهم للعنصر الفارسي والمجوسي. (عبد الله الجميلي: في تاريخ الخلافة العباسية ط١، الرباط، مكتبة المعارف، ١٩٨٤م، ص٧٥).

انتهى بانتصار المأمون[(١)]. فاستتبَّ له الوضع، ونشر نفوذه على عاصمته إلى حين من الزمن[(٢)]، ثم أقدم سنة (٢٠١هـ/٨١٦م)، على تعيين الإمام الشيعي الاثنى عشري علي الرضا خليفة له من بعده[(٣)]، فأنكر عليه العباسيون فعلته وبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة[(٤)]، واندلعت الحرب بين الخليفتين في بغداد، ولم تتوقف إلا بعد وفاة ولي العهد علي الرضا عام[(٥)] (٢٠٣هـ/٨١٨م). فبايع أهل السُّنَّة المأمون مرة ثانية وخلعوا إبراهيم بن المهدي[(٦)]. وبعد ذلك تمكن المأمون من بسط نفوذه على دولته ولم ينازعه فيها أحد. وتصدَّى لثورة الشيعة باليمن عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) بحزم وحنكة أنهى بهما ثورتهم[(٧)].

وفي نهاية العصر العباسي الأول أعاد المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، للخلافة هيبتها بانتصاره على الحركة الخُرَّمية عام (٢٢٢هـ/ ٨٣٧م) التي ظهرت سنة[(٨)] (٢٠١هجرية/ ٨١٦م)، وبتوسعاته في

---

(١) اليعقوبي: المصدر السابق ٢/ ٢٣٦.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٥٠.

(٣) ابن خلدون: العبر ـ مج٣، القسم٣، ص٣٢٦.

(٤) أبو الفداء: المصدر السابق مج١، ٣/ ٣١.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٩.

(٦) عندما توفي علي الرضا، أرسل المأمون إلى أهل بغداد يطلب منهم السمع والطاعة، فاختلفوا بين مؤيد له، ومعارض له، وفي النهاية تغلَّبت النزعة المأمونية، وبايع الجميع المأمون يوم جمعة، وخلعوا إبراهيم ابن المهدي. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٩). الذي اختفى عندما دخلت جيوش المأمون بغداد وبقي مختفياً حتى عام (٢٠٨هـ)، حيث قُبض عليه متنقباً في زي امرأة، فأخذه المأمون وعفا عنه. (اليعقوبي: المصدر السابق ٢/ ٤٥٨).

(٧) أرسل جيشه لردعهم، ومعه كتاب أمان، فأطاع زعيمهم عبد الرحمٰن بن أحمد العلوي، وجيء به إلى بغداد وألبس السواد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٠).

(٨) مؤسِّسها بابك الخرمي (ت٢٢٣هـ/ ٨٣٨م) كانت تهدف إلى إسقاط الدولة =

بلاد الروم، وفتحه لمدينة عمورية سنة[١] (٢٢٣هـ/ ٨٣٨م).

وأما الخليفة الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) فقد سار على نهج المأمون، والمعتصم، في الدعوة إلى القول بخلق القرآن وفرضها على الرعية[٢]. ولم تعرف فترة حكمه القصيرة ـ نسبيّاً ـ حوادث شكلت خطراً داهماً على دولته[٣]، إلا ما كان من أمر الثورة التي قادتها طائفة من أهل الحديث ضده، فقمعها بشدة، وقتل زعيمها أحمد بن نصر الخزاعي شر قتلة[٤].

وفي عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٣٤٧ ـ ٨٦١م) دخلت الخلافة العباسية مرحلة الضعف[٥]، وقد تآمر عليه الأمراء الأتراك وقتلوه[٦]، وقبل وفاته وضع حدّاً لقضية خلق القرآن وانقلب على المعتزلة، ورفع من شأن الإمام أحمد بن حنبل، وجعل كلمته نافذة في دولته[٧].

وأما فيما يخص علاقة الإمام أحمد بن حنبل بخلفاء بغداد، فقد عاش فترة شبابه في عهد قوة الخلافة العباسية أيام المهدي بن المنصور (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٤ ـ ٧٨٥م)، وموسى الهادي بن المهدي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م)، وهارون الرشيد بن المهدي (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٨م) وفيها اعتزل السلطة ورفض تولي مناصبها[٨]. كما أنه

= العباسية، وقد حاول المأمون القضاء عليها لكنه فشل. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٨٢).

(١) نفس المصدر ١٠/ ٢٨٦.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤.

(٣) لم تذكر المصادر حوادث خطيرة كالحركة الخرَّمية.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٥.

(٥) أي: العهد العباسي الثاني الذي يمتد من (٢٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٨٤٧ ـ ١٣٥٨م).

(٦) ابن كثير: نفس المصدر ١٠/ ٣٤٩.

(٧) نفس المصدر ١٠/ ٣٤٠.

(٨) نفس المصدر ١٠/ ٣٢٨.

لم يشارك مع جماعة أهل الحديث التي ألَّبت العامة وشجَّعتهم على حمل السلاح في وجه الخليفة إبراهيم بن المهدي عام (٢٠١هـ/٨١٦م)[١]، وأنكر على أصحابه عندما استأذنوه في الثورة على الواثق ونصحهم بالصبر حقناً لدمائهم[٢].

فلم يكن أحمد بن حنبل رجل سيف، ولا سياسة، لذلك نأى بنفسه من الاتصال بالدولة، ولم يتعرَّض لها تصريحاً ولا تلميحاً، وانصرف إلى العلم، وهذا ما يتفق مع طبعه[٣].

لكنه دخل في معارضة السلطة علانية حين فرض المأمون، والمعتصم، والواثق على الناس القول بخلق القرآن، ورفض مسايرتها في دعوتها، وتحمّل في سبيل ذلك السجن، والعذاب[٤]. لكنه مع ذلك لم يعلن أمام الملأ كُفر هؤلاء الخلفاء وضلالهم، مع أنه كان قد أفتى بكفر القائلين بخلق القرآن صراحة[٥]. ربما لم يفعل ذلك لخوفه من العواقب الوخيمة التي قد تنجر عن ذلك.

ثم تغيرت علاقته بالخلافة عندما وضع المتوكل حدّاً لفتنة خلق القرآن، فأصبح موضع اهتمام الخليفة ورعايته، وأغدق عليه الهدايا والأموال[٦]، فحاول الابتعاد عنه، وكان يقول: «سَلِمتُ منهم طوال عمري، ثم ابتليتُ منهم في آخره»[٧]. لكن المتوكل ظل على اتصال به

---

(١) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/٣٠٣، وابن الأثير: المصدر السابق ٦/٣٤٦، والطبري: المصدر السابق ٧/٣٢٦، ٣٢٧.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/١٤٥.

(٣) أبو زهرة: ابن حنبل ص١٠٦.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/٣٣٣.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/٤١٤.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/٣٣٣، ٣٣٨.

(٧) نفس المصدر ١٠/٣٣٩.

يسأله عن أشياء تقع له، ويستشيره في تعيين قضاته[١]. لكن يبدو أنه بقي يتخوف منه، لِما رُوي أنه أرسل الشرطة لتفتيش بيت أحمد بن حنبل لما أُخبر أن علوياً يختبئ في بيته ويبايع الناس سرّاً، فلم يجد أحداً. وهناك جدَّد أحمد ولاءَه المطلق للخلافة العباسية[٢].

فالإمام أحمد قد سالم الخلفاء واعتزلهم، عكس الإمام أبي حنيفة الذي حرّض الناس على الثورة عليهم، أما الإمام مالك فقد هادنهم، وتقرَّب منهم رجاء إصلاحهم[٣].

ولم يكن سخط ابن حنبل على مجتمعه[٤] حرباً يعلنها على الدولة التي والاها من جهة، ولم يرتضِ أن يساهم في تقويضها من جهة أخرى؛ مع أنه قد شاهد مظاهر الضعف تدب إليها حين هبت عليها الفتن، وسيطر عليها الأعاجم.

وأما بالنسبة لنفوذ الجند الأتراك في بغداد (٢١٨ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٦١)، فقد استكثر الخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) من الأتراك[٥] وجعلهم قوام جيشه[٦]، ليتخذهم سنداً له في مواجهة العباس بن المأمون المدعوم من الفُرس والجيش[٧]، وليُحدث توازناً بين

(١) ابن كثير: المصدر ١٠/ ٣٤٠.
(٢) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٧.
(٣) أبو زهرة: المرجع السابق ص١٠٦.
(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣١٧.
(٥) يرى محمد شعبان أن المصادر العربية لم تكن دقيقة في إطلاقها اسم الأتراك على معظم الشعوب التي لم تكن خاضعة للإمبراطورية الساسانية، وأكثر القوات التي تسمَّت بالأتراك، لم تكن تركية في حقيقة أمرها، ومن ثَمَّ فإن عزو ما حدث لسيطرة الأتراك في منتهى التضليل (محمد شعبان: الدولة العباسية، ط١، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، (١٩٨٦م)، ص٨٤).
(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٨٦.
(٧) الجميلي: المرجع السابق ص١٠١.

الخراسانيين المؤيدين للمأمون، وبين الهاشميين المعارضين له[1]، وليحد من الصراع العنيف الدائر بين العرب والفرس[2].

وحين تعاظم نفوذهم في الدولة، وأصبح منهم الأمراء، والوزراء[3]، وقادة الجيش[4]، وكثرت اعتداءاتهم على الناس، نقلهم الخليفة المعتصم إلى عاصمته الجديدة سامراء[5] عام (٢٢١هـ/ ٨٣٥م). وعندما أحسَّ بخطرهم يتهدَّده عقد لكبيرهم الأفشين[6] محاكمة اتهمه فيها بالخيانة والزندقة[7]، ثم حبسه حتى توفي بالسجن سنة[8] (٢٢٦هجرية/ ٨٤٠م).

وفي أيام المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٧٦ ـ ٨٦١م) ذاع صيت القائد إيتاخ ودُعي له على المنابر[9] فقرَّر وضع حدٍّ له، وأرسله إلى الحج[10]، وعند عودته واقترابه من بغداد بعث إليه من قبض عليه، وأدخله السجن،

---

(١) الجميلي: نفس المرجع ص١٠٠.

(٢) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: منير بعلبكي وأمين فارس، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٧٤م)، ص٨٠٨.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ط١، بيروت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، (١٩٨٢م)، ٢/ ٤٧.

(٤) منهم: أشناس (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، والأفشين قاهر البابكية (ت٢٢٦هـ/ ٨٤٠م)، وإيتاخ (ت٢٣٥هـ/ ٨٤٩م).
انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٢، ٣١٣.

(٥) الطبري: المصدر السابق ٧/ ٢٣٢.

(٦) كان الخليفة المعتصم قد قلَّده وشاحين من جوهر، حين هزم الحركة الخرمية مكافأة له. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٨٥).

(٧) نفس المصدر ١٠/ ٢٩٢.

(٨) نفس المصدر ١٠/ ٢٩٣.

(٩) نفس المصدر ١٠/ ٣١٢.

(١٠) الخليفة هو الذي دس له من أشار عليه باستئذان المتوكل للذهاب إلى الحج فاستأذنه، فأذن له. (نفس المصدر ١٠/ ٣١٢).

فبقي فيه إلى أن توفي عام[1] (٢٣٥/ ٨٤٩م). وبذلك تمكن المتوكل من وضع حدٍّ لإيتاخ، بعدما أبعده، وهيَّأ له أسباب اعتقاله عند رجوعه من الحج.

لكن الأتراك تنبَّهوا لما يُحاك ضدَّهم، بعد الذي أصاب قائدهم، فالتفوا حول المنتصر بن المتوكل، وحرَّضوه على والده الذي صرف عنه الخلافة. فتآمر معهم على قتله سنة (٢٤٧هـ/ ٨٦١م)[2]. فانتقموا من المتوكل، وأنهوا عهد قوة الدولة العباسية، الذي عاش فيه الإمام أحمد.

ويُستنتج من دراسة أوضاع بغداد السياسية فيما بين (١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م). أنها تمتعت باستقرار نسبي مدة تزيد عن الثلاثين عاماً، ثم عصفت بها رياح الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، نحو عشر سنوات، وبعدها استتب الأمر للمأمون.

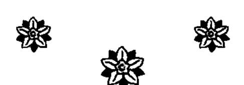
ولم يكن لأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، أثر كبير في حياة البلد السياسية؛ لأنه اعتزل السلطة، ونأى بنفسه من الخوض في قضاياها، أيام الخلفاء المهدي، والهادي، وهارون الرشيد، ثم عارضها عندما فرض المأمون، ومحمد المعتصم بالله، والواثق بالله، على الرعية القول بخلق القرآن، وفي عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)، أسدى لها نصائحه، وأعلن ولاءه لها، ولم يبخل عليها بعلمه، ولا بتوجيهاته، رغم حرصه على الابتعاد عنها.

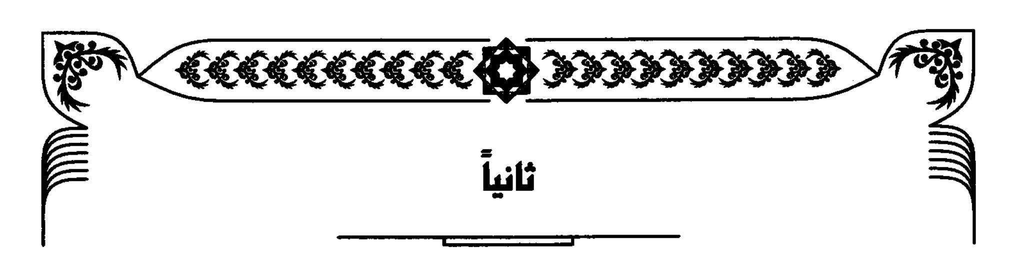
---

(١) ابن كثير: نفس المصدر ١٠/ ٣١٢.

(٢) كان المتوكل قد عهد لابنه بالخلافة، ثم لأخيه المعتز من بعده، وعندما أمر الخليفة ابنه المعتز بالخطبة يوم الجمعة، حنق المنتصر على أبيه وشقيقه، فسمع به المتوكل، فجيء به إليه، فأهانه وضرب على رأسه، ثم صرف عنه الخلافة لأخيه، فازداد المنتصر حقداً وكرهاً مما كان عليه. (ابن كثير، المصدر السابق ١٠/ ٣٤٩).

أما الأتراك، فقد بثُّوا نفوذهم في الدولة العباسية، أيام المعتصم، والواثق، وتمكنوا من السيطرة التامة على مقاليدها بعد قتلهم الخليفة المتوكل، وبذلك أصبح تأثيرهم على أوضاع بغداد الاجتماعية كبيراً.





ثانياً

أوضاع بغداد الاجتماعية في عصر أحمد بن حنبل
(١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

يتضمَّن هذا المبحث أربعة مطالب تصوّر لنا جوانب متناقضة من أوضاع بغداد الاجتماعية في عصر أحمد بن حنبل.

فالمطلب الأول يتعلق بحياة الترف والإسراف التي عاشها الخلفاء ورجال دولتهم. من ذلك أن هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) صادر ثروة كبيرة لأحد عماله، فأفاض منها بسخاء على ندمائه، ومغنِّيه، ثم حمل الباقي إلى خزائنه[١]. ومدحه أحد الشعراء فأعجبه شعره، فأمر له بخمسة آلاف دينار، وكساه خلعته وزاده عشرة رقيق من الروم[٢].

وحين تزوج الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م)، فرّق على أصفيائه الإقطاعات والضياع، وبلغ ما صرف من النقود أكثر من خمسين مليون درهم[٣]، ونثر الدنانير والدراهم على الأعيان، والأمراء والعامة[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/ ١١٩.

(٢) الطبري: المصدر السابق ٦/ ٥٣١.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٥.

(٤) المسعودي: المصدر السابق ٢/ ٤٣٠.

وبالغ بعض رجال السلطة العباسية في اقتناء الجواري على اختلاف أعمارهن للغناء، وإشباع رغباتهم الجنسية[1]. وقد وصل عددهن في دار هارون الرشيد أربعة آلاف جارية[2].

وتجاوز الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٣م) حد الاعتدال في التمتع بالحياة المادية، تلبية لمتطلبات عيشة القصور[3]، فكان كثير اللهو والشراب مع ندمائه ومحظياته، وبغداد تحت حصار أخيه المأمون سنة (١٩٨هجرية/ ٨١٣م)[4]. وانتهى به الأمر إلى تبديد أموال الخلافة[5]، وبيع كنوزها وتحفها[6]، وتناسى بؤس الطبقات الدنيا[7]، ولم يُعر اهتماماً للشرع القاضي باجتناب الانغماس في الملذات الجسدية[8].

وأما الإمام أحمد فلم يكن من أهل اليسار، فقد عاش معظم عمره على الكفاف[9]، وحين تغيرت علاقاته السياسية في أخريات حياته مع المتوكل الذي قرَّبه إليه، وأغدق عليه الأموال والهدايا[10] رفض قبول

---

(١) المسعودي: المصدر نفسه ٢/ ٤٣٠.
(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٢٠.
(٣) كان خلفاء بغداد، رغم بذخهم ولهوهم، يحرصون على التظاهر بمظاهر التقوى، مثل ارتداء بردة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحمل قضيبه، ووضع خاتمه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٢). وكذلك اشتدادهم في مقاومة الزندقة والتنكيل بأهلها (ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٨٩)، وربما كانت هذه المظاهر، هي حرصاً منهم لتورية انحرافهم عن الغيورين على الدين. (روم لاندو: المرجع السابق ص٨٩).
(٤) المسعودي: المصدر السابق ٧/ ٧٠.
(٥) الطبري: المصدر السابق ٧/ ٧٠.
(٦) نفس المصدر ٦/ ٥٠.
(٧) بروكلمان: المرجع السابق ص٢٣٦.
(٨) روم لاندو: المرجع السابق ص٨٠.
(٩) عن ذلك انظر المبحث الثاني.

عطايا الدولة، وأقبل على الصيام، ولم يأخذ إلا ما يسد رمَقه، وعندما قيل له: إن من الصحابة[1] من قَبِلَ جوائز الخلفاء؛ قال: «لا، وما هذا وذاك سواء، فلو أعلم أن هذا المال أخذ من حقه وليس بظلم ولا جور لم أبال»[2].

ولم تكن حياة الإسراف والبذخ التي عاشها المترفون في بغداد على منهاج الإسلام، بينما كانت فئات عريضة من المجتمع تعاني من البؤس والفقر[3]. لكن بعضهم لم يُنْسِه نعيمه المادي من التقرُّب إلى الناس، والاهتمام بما ينفعهم.

وذلك يُبيِّنه المطلب الثاني المتعلق بإحسان السلطة إلى الرعية. فقد اهتم رجال السلطة بمصالح الرعية - إلى جانب ترفهم وتبذيرهم - وأظهروا حرصاً على الإحسان إليهم، ومساعدتهم بأموالهم. من ذلك أن الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٥ - ٧٨٥م) خصَّص عطايا للمجذومين والمسجونين في كامل دولته[4].

وكان هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م) مداوماً على التصدُّق بألف دينار على الفقراء كل يوم[5].

وأنفق البرامكة[6] آلاف الدراهم والدنانير على المحتاجين في مختلف وجوه البر[7]، وذاع صيتهم بين الجماهير، بفعل الخيرات

---

(١) ابن كثير: البداية ١٠/ ٣٣٨، ٣٣٩.
(٢) منهم: ابن عمر، وابن عباس. (نفس المصدر ١٠/ ٣٣٩).
(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٣٣٩.
(٤) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ ص١٣٧.
(٥) الطبري: المصدر السابق ٥/ ٣٧٣.
(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢١٤.
(٧) يرى بشار قويدر أن البرامكة أقاموا المشاريع الخيرية، وأحسنوا إلى الناس، ليسكتوا الورعين من المسلمين؛ لأنهم ساهموا من جهة أخرى في إدخال =

واصطناع المكارم[1].

وقسّم الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هجرية/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) أموالاً كثيرة على بيوتات بغداد وعلى عامة الرعيَّة[2]. وتكفَّل المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) بالمعوزين، ووفر الأمن، ورخاء العيش في البلد[3].

ولم يكن للإمام أحمد من مال لينفقه على الناس[4]، غير أنه حرص على تعليمهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، وحثِّهم على هجر المنكرات[5]. وعندما أغدق عليه المتوكل الأموال لم يقبلها، وإن أخذها ـ بعد إلحاح شديد ـ سارع في التصدق بها على المحتاجين رغم حاجته إليها؛ فحين أرسل إليه عشرة آلاف درهم، قام ووزعها على الفقراء ما بين الخمسين والمائتين[6].

وما قدَّمه أهل اليسار للمجتمع لم يكف لإنقاذه من بؤسه وفاقته، فقد بقيت منه شريحة عريضة تعاني من الجور والعوز، يُبينهما المطلب الثالث المتعلق بانتشار الظلم والفقر في بغداد.

ومفاده أنه وُجد الظلم في ظل الاستقرار السياسي الذي عرفته بغداد قبل فتنة الأمين والمأمون عام (١٩٣هـ/ ٨٠٩م)، فقد عانى

= المنكرات والعادات القبيحة إلى مجتمع بغداد. (بشار قويدر: دور البرامكة في الخلافة العباسية، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، (١٩٨٥ ـ ١٩٨٦م)، ص٢٠٠ وما بعدها).

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) المسعودي: المصدر السابق ٢/ ٣٦٨.

(٣) اليعقوبي: المصدر السابق ٢/ ٤٨٣.

(٤) المسعودي: المصدر السابق ٢/ ٥٠٣، ٥٠٤.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٧٣ و٢/ ٢٨٠.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.

الفلاحون من قسوة بعض عمَّال الخراج، الذين عذَّبوهم بتعليق الحجارة في أعناقهم[(١)] عند جبايتهم للضرائب[(٢)].

لذلك حذر القاضي أبو يوسف (١٨٢هـ/٧٩٨م) هارون الرشيد من سوء معاملة عمَّاله للمزارعين، ونصحه باستبدالهم بأهل الصدق، والعلم، والمشورة[(٣)]. ونظراً للنقائص والثغرات التي كانت سائدة في نظام الخراج آنذاك، سعى هارون الرشيد (ت١٩٣هجرية/ ٨٠٩م) إلى تغييره لرفع الظلم عن الرعية وإصلاحها[(٤)].

وكثُرت الاعتداءات على الناس، وتأزَّمت أوضاعهم، حين اجتاحت بغداد حرب أهلية مدمِّرة[(٥)]، فيما بين عامي: (١٩٣ ـ ٢٠٣هجرية/ ٨٠٩ ـ

---

(١) ربما حدث ذلك في فترة سيطرة البرامكة على دولة الرشيد، قبل نكبتهم عام (١٨٧هـ/ ٨٠٢م)، ومما يرجح ذلك أنهم تحكموا في مقدرات الخلافة مدة سبعة عشر عاماً. (الطبري المصدر السابق ٦/ ٤٤٤)، وفي تلك الفترة كثرت شكايات الناس منهم. (ابن خلدون: العبر مج٣، القسم ٢/ ٤٧٣)، كما أن الرشيد كان يهدف من تغيير نظام الخراج إلى رفع الظلم عن الرعية وإصلاحها. (أبو يوسف: كتاب الخراج، ط٥، القاهرة، المطبعة السلفية، (١٣٩٦هـ)، ص١١٤). ويرى بشار قويدر أن سياسة البرامكة المالية، قامت على المحاباة، والتحايل، فتمكَّنوا من جمع أموال طائلة وعيَّنوا الموالين لهم في المناصب الحكومية، واحتالوا على الملاك، ليتخلوا عن أراضيهم، بإغرائهم بالعطايات والمنح. (بشار قويدر المصدر السابق ص١٦١). وحمَّل محمد شعبان البرامكة مسؤولية إفساد النظم الاقتصادية في الدولة العباسية، إذ تراكمت مفاسدها بين أوساط الطبقة الحاكمة فيما بعد، فانتهت إلى تحوُّل رجال السلطة إلى ملَّاك كبار يمارسون الاحتكار والمضاربة. (محمد شعبان ـ المرجع السابق ص١١٤).

(٢) أبو يوسف: المصدر السابق ص١١٤.

(٣) نفس المصدر ص١١٤ ـ ١١٥.

(٤) المرجع السابق ص٣.

٨١٨م). فعمَّت الحرائق، وانتشرت اللصوصية، وغلت أسعار السلع[١]، واعتدى الجنود على العامة، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً بغير حق، وأخذوا أموالهم[٢]. واستغل العيَّارون والشُّطَّار[٣] أحوال البلد السيئة، فتسلطوا على أهله[٤]، ودخلوا البيوت، واستولوا على أمتعتها، ونهبوا حيّاً بكامله، ولم يتركوا شيئاً ذا قيمة لسكانه وهجموا على قرية مجاورة لبغداد فاغتصبوا غلمانها ونسائها، وأخذوا ثرواتها[٥].

وفي أيام الخليفة إبراهيم بن المهدي عام (٢٠٢هجرية/ ٨١٧م)، اجتاح العساكر أرض السواد الزراعية[٦] فاستولوا على ما وجدوه من منتوجات وممتلكات الفلاحين، ولم يذَروا لهم شيئاً قدروا على

---

(١) أصاب بغداد في هذه الحرب دمار كبير، فرثاها شعراء كثيرون لهول ما حلَّ بها من خراب، من ذلك قول أحدهم:

ومن ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزَّين
أستودعُ اللَّه قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدَّر ماء العين من عيني
كانوا ففرَّقهم دهر وصدَّعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ٢٣٨.

(٣) نفس المصدر ١٠/ ٢٣٩.

(٤) العيَّار: هو الذكي كثير الطواف، الذي يتردد بدون عمل، ويترك نفسه على هواها. (بطرس البستاني: محيط المحيط، طبعة (١٨٧٠م)، مكتبة لبنان ٢/ ١٥٠٥)، والشاطر: اسم فاعل، وهو الشخص الذي أعيا أهله خبثاً. (نفس المرجع ١/ ١٠٨٥). وقد تحوَّل العياريون إلى طبقة اجتماعية مؤثرة في بغداد.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٣٨.

(٦) المصدر نفسه ١٠/ ٢٤٧.

(٧) هي الأراضي المحيطة ببغداد، سُمِّيت سواداً، لسوادها بالزرع والنخيل والأشجار، ولأنها تاخمت جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، =

حمله[1]. وازداد شرَّهم في عهد المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هجرية/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) فعاثوا فساداً في بغداد: سَطْواً وقتلاً بدون رادع، حتى كادت أن تقع فتنة بينهم، وبين أهلها، لولا أن الخليفة سارع إلى نقلهم إلى عاصمته الجديدة سامراء[2].

وفي أيام الخلفاء: المأمون، والمعتصم، والواثق، عاش الناس سنوات طويلة مليئة بالخوف والقلق، عندما فرض هؤلاء على رعيتهم القول بخلق القرآن بالقوة[3]، فعُذِّب من عُذِّب، وقُتل من قُتل[4]، حتى انتهى الأمر بطائفة من أصحاب الحديث إلى حمل السلاح لمقاومة السلطة العباسية[5]، يُوضحها المطلب الرابع المتعلق بالمعارضة الشعبية في بغداد.

وقد ضمَّت تلك المعارضة أعياناً من بغداد، وخلقاً كثيراً من العوام[6]، وتولى الجميع مهمَّة الإنكار على المفسدين. وكان الإمام أحمد بن حنبل يحثُّ على التصدِّي لكل من يخالف الشرع، لتغيير

= وكان العرب إذا خرجوا من بلادهم ظهرت لهم خضرة الزروع سواداً، وهم يسمُّون الأخضر سواداً، والسواد أخضر. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٢٧٢).

(١) كان سبب خروجهم، أنهم طالبوا الخليفة إبراهيم بن المهدي بالأرزاق، فماطلهم، ثم عاد وأعطاهم لكل واحد منهم مائتي درهم، ثم كتب لهم تعويضاً من أرض السواد، فخرجوا واجتاحوا مزارع الفلاحين بغير حق. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٨).

(٢) الطبري: المصدر السابق ٧/ ١٣٢.

(٣) أكرهت الدولة كل من خالفها، ومن لم يستجب اضطهدته، فبعضهم عُزل من منصبه، وإن كان له رزق في بيت المال قُطع، ومن كان مفتياً عُزل عن الإفتاء. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٧٢).

(٤) نفس المصدر ١٠/ ٢٣٥، ٢٧٤.

(٥) نفس المصدر ١٠/ ٣٠٣.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٦٠٨.

المنكرات بالوسائل السلميَّة عند الاستطاعة[1]. لكنه لم يشجع الثورة على الخلفاء، وأمر بطاعتهم في المعروف فقط، مع الصبر على أذاهم حقناً للدماء[2]، وقد وجد هو في اعتزالهم ملاذاً يلوذ به معظم حياته[3].

وقد ساهمت دعوة أحمد بن حنبل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في إيجاد طائفة من أهل الحديث[4]، تجاوزته ولم تلتزم بنصائحه، وأخذت على نفسها حمل السلاح لمقاومة المفسدين، من ذلك أن سهل بن سلامة جمع حوله الأعوان وتصدَّى لمواجهة الفسَّاق والعيَّارين الذين تسلطوا على الناس، ونشروا فيهم الرعب، فتمكن منهم، وأوقف شرَّهم[5]. ثم وسَّع نشاطه داعياً إلى الالتزام بالكتاب والسُّنَّة، ودخل في قتال مع جند الخليفة إبراهيم بن المهدي عام (٢٠١هـ/ ٨١٦م)، فانتهى بانكسار شوكته والقبض عليه[6].

وعندما فرض الخلفاء: المأمون والمعتصم، والواثق، على الرعية القول بخلق القرآن عارضهم الإمام أحمد، وتحمَّل أذاهم في سبيل معتقده ولم يَثُر عليهم، غير أن جماعة من أصحابه[7] قادها أحمد بن

---

(١) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٣٧٣، وابن الجوزي: مناقب الامام أحمد، ص٢٧٩، وابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية ص٢٠٥ ـ ٢٥١.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ١٤٥.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٩.

(٤) كانت جماعة من أصحاب الحديث قد استشارت أحمد بن حنبل في حمل السلاح على الواثق، لكنه لم يوافقها فلم تأخذ برأيه وثارت على الخليفة. (أبو الحسين بن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ١٤٥).

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٧.

(٦) حين انهزم هرب واختفى بين النساء، لكن الشرطة قبضت عليه وسجنته مدة سنة. (نفس المصدر ١٠/ ٢٤٨).

نصر الخزاعي[1] حملت السلاح على الواثق سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٠م) لكن الشرطة أفشلت خطَّتها[2]، وشرَّدت أتباعها، وأعدمت زعيمها[3].

وكانت المعارضة الشعبية تهدف إلى تطهير المجتمع من المظالم والانحرافات المنتشرة فيه، لكنها لم توفق في وضع حدٍّ لها، فقد بقيت أوضاعه في تدهور مستمر من سيِّءٍ إلى أسوأ[4].

ويُستنتج من دراسة أحوال بغداد الاجتماعية، أن المجتمع قد نَعِم بالهدوء والأمن النِّسْبِيَّيْن فيما بين عامي (١٦٤ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٠٩م)، ثم افتقدهما في الحرب الأهلية التي دارت بين الأمين والمأمون، وبعدها استرد استقراره حين استتب الأمر للمأمون.

ولم تكن حياة الناس تجري في تيار واحد، فقد وُجد فيها الالتزام والانحلال، والاعتدال والتطرف، والزهد والترف، والظلم والعدل.

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ١٤٥.

(٢) كان من أئمة أهل السُّنَّة، ومن علماء أصحاب الحديث. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٣).
وكان أحمد بن حنبل يترحم عليه، ويعترف له بالصبر والشجاعة. (نفس المصدر ١٠/ ٣٠٦).

(٣) كانت جماعة ابن نصر قد اتفقت على موعد محدد للثورة ليلاً، لكن بعض أعضائها أفشى السرَّ عندما كان في حالة سكر، قبل الوقت المحدد، فاكتشف الحراس الخطة وأحبطوها.
(نفس المصدر ١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤).

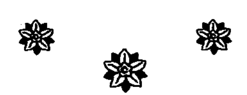
(٤) لم يقتل أحمد بن نصر مباشرة، وإنما أخذ إلى الواثق، فناظره، ثم طعنه، وعلَّق رأسه ببغداد حتى أيام المتوكل الذي أنزل الجثة بعدما أنهى محنة خلق القرآن. (انظر: الطبري: المصدر السابق ٧/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧، وابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٤، ٣٠٥، وص٣١٦).

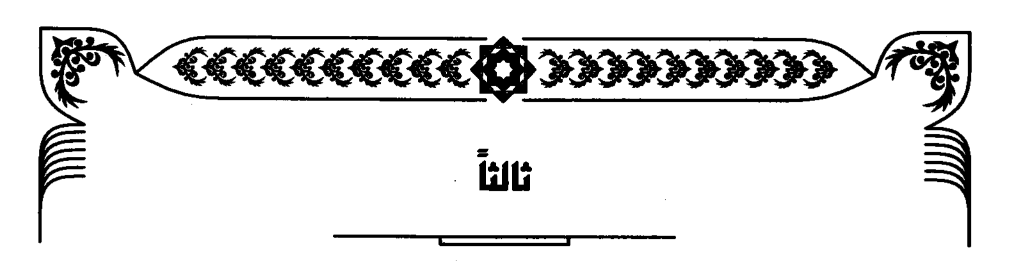
(٥) عرفت بغداد في عصرها الثاني فتناً مذهبية رهيبة بين طوائفها، سيأتي ذكر بعضها لاحقاً بحول الله تعالى.

كما ساهم الإمام أحمد بن حنبل في التخفيف عن الرعية من بؤسها وفاقتها من جهة، وحثَّها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالطرق السلمية من جهة ثانية، وحذَّرها من استخدام القوة لمقاومة السلطة حقناً لدمائها من جهة ثالثة.

ومن ناحية أخرى وَجدت المعارضة الشعبية في نقائص الدولة وانحرافاتها سلاحاً بيدها لتأليب الناس عليها، أملاً في تطهيرها وتحقيق مقاصد الشريعة وطموحات الجماهير.

وقد أدَّت الفتن التي شهدتها مدينة بغداد إلى تعميق الانقسامات بين أبنائها، وهذا الأمر سيدخلها مستقبلاً في دوامة من الصراع الدموي، متخذاً طابعاً مذهبياً في كثير من الأحيان.





ثالثاً

أوضاع طوائف بغداد المذهبية في عهد أحمد بن حنبل

(١٦٤ ـ ٢٤١هجرية/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

شهدت بغداد صراعاً مذهبيّاً حادّاً بين طوائف بغداد الرئيسية الفاعلة في المجتمع، زمن الإمام أحمد بن حنبل، وهي المتمثلة في: أهل السُّنَّة، والشيعة، والمعتزلة.

فبالنسبة لأهل السُّنَّة فهم يعترفون بشرعية خلافة العباسيين القرشيين[١]. ولم يثوروا عليهم إنكاراً لحقهم فيها، وإنما ثاروا عليهم انتقاداً لسياستهم المنحرفة عن الكتاب والسُّنَّة، فدعوهم إلى الالتزام بهما في ظل دولتهم.

وعارض السُّنِّيُّون المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) حين مال إلى الشيعة والمعتزلة. فأنكروا عليه تعيين الإمام الشيعي علي الرضا خليفة له من بعده، وبايعوا إبراهيم بن المهدي خلفاً له عام (٢٠١هـ/ ٨١٦م)، واحتجوا عليه بشدة عندما أمر بلعن معاوية ابن أبي سفيان عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، فتراجع عن موقفه خوفاً من غضب جماهير السُّنَّة عليه[٢]. ولم يسايروه عندما فرض على رعيته القول بخلق القرآن وأبوا

(١) الإمامة عندهم في قريش، والعباسيون قرشيون، ومن ثَمَّ فإن خلافتهم شرعية. (انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق، ١/ ٢٦).

(٢) أبو الفداء: المختصر ١/ ٢/ ٢٢٦.

الاستجابة له[1].

واستمر الإمام أحمد في معارضته للسلطة ـ بعد وفاة المأمون ـ في دعوتها لخلق القرآن ولم يستجب للخليفة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) الذي حاول إكراهه على الموافقة وتحمَّل في سبيل ذلك العذاب والسجن[2].

وعندما تولى الواثق الخلافة (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) سار على نهج أبيه المعتصم وعمِّه المأمون، وكان أشد منهما قولاً بخلق القرآن[3]، فتصدَّت له طائفة من أصحاب الحديث وحرَّضت الناس على حمل السلاح لمقاومته، لكن الشرطة أفشلت خطتها، وشرَّدت أتباعها وقبضت على قائدها أحمد بن نصر الخزاعي، وأخذته إلى الخليفة، فأعدمه سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٠م)[4].

ثم تغير حال أهل السُّنَّة[5]، وحقَّقوا أول وأكبر انتصار لهم على

(١) الطبري: المصدر السابق ٧/ ١٨٨، وابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٧٢.
(٢) ابن كثير: البداية ١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤.
(٣) نفس المصدر ١٠/ ٣٠٣.
(٤) كان المعتزلة وراء الخليفة الواثق في تحريضه على قتل أحمد بن نصر الخزاعي. (نفس المصدر ١٠/ ٣٠٥).
(٥) ذكر عبد الرحمٰن سفر الحوالي، أن مصطلح أهل السُّنَّة، كان واضحَ المعالم، قبل انتشار الأشعرية في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، فكان يقابله الشيعة والمعتزلة، ثم تغير الحال بعد ظهور الأشاعرة، فجعلهم البعض من السُّنَّة في معناها العام مقابل الشيعة. (سفر الحوالي: منهج الأشاعرة في العقيدة، ط١، الجزائر، الدار السلفية، (١٩٩٠م)، ص١٥وما بعدها)، وأخرجهم البعض الآخر من أهل السُّنَّة في معناها الخاص، لأنهم تعاطوا الكلام، واستمدوا بعض مفاهيمهم من غير النص، وعارضوا السنة في مسائل عديدة (نفس المرجع ص١٦، ١٧)، غير أنهم من أهل القبلة بلا شك، (نفس المرجع ص٢٢).
وقسَّم محمود صبحي أهل السُّنَّة إلى جماعتين: السلف وهم الحنابلة وأصحاب =

المعتزلة، الذين فقدوا مواقعهم السياسية[1] عندما وضع المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) حدّاً لفتنة خلق القرآن عام (٢٣٧هجرية/ ٨٥١م)، وأمر بالكفّ عن الخوض فيها، والبُعد عن الكلام[2]، والاشتغال بالسُّنَّة دون سواها. وقرّب إليه الإمام أحمد وأكرمه[3]. وانتقم من خصومه[4] بعدما تبين له عدم جدوى مواصلة فرض القول بخلق القرآن على بغداد ومعظم سكانها أهل سُنّة مثله[5]، فتقرب منهم

= الحديث، والخلف وهم الأشاعرة. (محمود صبحي: في علم الكلام ٢/ ١٧). ويرى أحمد أمين أن مصطلح أهل السُّنَّة أطلق ـ قبل مجيء الأشعري والماتريدي ـ على الجماعة التي عارضت المعتزلة، ثم جاء الأشعري والماتريدي، وأطلق على أتباعهما: أهل السُّنَّة، وذكر أحمد أمين أن السبكي قسَّم أهل السُّنَّة إلى ثلاث فئات هي: أهل الحديث وهم نصِّيُّون، وأهل النظر وهم الأشاعرة والماتريديون، والصوفية وهم أصحاب كشف ووجدان، (أحمد أمين: ظُهر الإسلام ٤/ ١٤٩)، وأخطأ مصطفى الشكعة عندما ادعى أن أهل السُّنَّة أطلق أولاً على جماعة الأشاعرة، ثم اتسعت دائرته، وشملت الفقهاء والشافعي، ومالك، وأبا حنيفة وأحمد وغيرهم. (مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، القاهرة، دار القلم، (١٩٦١م)، ص٢٩٦).

(١) George Makdisi: quatre opuscul d'ibne A'qil B.E.O - Tom: XX IV - 1971. P: 55.

(٢) ذهب جولد تسيهر إلى القول بأن المدرسة السلفية، رفضت الكلام مطلقاً، سواء أدى إلى نتائج سنية، أو بدعية. (جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام ص١٩٤). وهذا ليس صحيحاً؛ لأن السلف تغير موقفهم من المسألة، وأصبح من الجائز عندهم استخدام الكلام بالرد على خصوم الدين لنصرته، كما فعل الإمام أحمد، وسنبين موقفه هذا قريباً.

(٣) كان مقيماً ببغداد، فاستدعاه المتوكل إلى سامراء، وأغدق عليه الجوائز، فكان يرفضها، لكن ابنيه صالح وعبد الله، كانا يقبلانها، وهو لا يعلم. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٦).

(٤) نفس المصدر ١٠/ ٣١٥، ٣١٦.

(٥) ولتر باتون: أحمد بن حنبل والمحنة ص١٨٢.

ليتخذهم سنداً له لمواجهة العلويين[1].

وقد أحبَّ أصحاب الحديث الخليفة المتوكل، حين أبغض الشيعة، وأساء إليهم. وأعرض عنهم[2]، وقتل منهم من سبَّ السلف[3]. ومنع المعتزلة من الدعوة لمذهبهم[4]. وجعل السجن المؤبد لكل من تعلَّم الكلام أو مارسه[5]. وقد شبَّهه بعضهم بأبي بكر الصديق في قتل المرتدين وبعمر بن عبد العزيز في رد مظالم بني أمية[6]، عندما قمع البدعة ونصر السُّنَّة[7]، وأنصف أحمد بن حنبل، وأخذ بنصائحه[8]. بخلاف أخيه الواثق، ووالده المعتصم، وعمِّه المأمون الذين أساؤوا لأهل السُّنَّة، وقرَّبوا إليهم المعتزلة والشيعة[9].

وأما الشيعة الإمامية فهم لم يعترفوا بالخلافة العباسية، واعتبروها غير شرعية لاعتقادهم أن الإمامة حقٌّ إلٰهي لعليٍّ وبنيه دون سواهم[10]، ومن ثَمَّ فإن العباسيين اغتصبوا منهم حقهم[11] حسب زعمهم. لذلك لم يُوقفوا ثوراتهم عليهم، أملاً في الإطاحة بهم لاسترداد ما أخذوه منهم

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢١٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٧٩.
(٣) المصدر نفسه ٧/ ٧٩.
(٤) ابن كثير: ١٠/ ٣١٥.
(٥) نفس المصدر ١٠/ ٣١٥، ٣١٦.
(٦) نفس المصدر ١٠/ ٣٥١.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) نفس المصدر ١٠/ ٣٤٠.
(٩) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٥٥.
(١٠) الكليني: الأصول من الكافي، ط٣، دار الكتب الإسلامية، طهران، (١٣٨٨هـ)، ١/ ١٨٥، وإحسان إلٰهي ظهير: الشيعة والسُّنَّة، ط١، القاهرة، دار الصحوة، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٥٠، ٥١.
(١١) أمينة البيطار: المرجع السابق ص١١٧ ـ ١٩٦.

حسب زعمهم، فكان رد فعل الدولة العباسية تجاههم قويّاً ورادعاً في أغلب الأحيان[1]. فتصدى لهم الخليفة الهادي بحزم وأخمد ثورتهم بالمدينة المنورة عام (١٦٩هجرية/ ٧٨٥م)[2]. وهادنهم هارون الرشيد، وعطف عليهم، وأعطاهم الأمان[3]، لكنه اشتد في قمع تمردهم عليه ببلاد الديلم عام (١٧٦هجرية/ ٧٩٢م)، وأسر زعيمهم يحيى بن عبد الله (ت١٧٦هـ/ ٧٩٢م)، ثم عفا عنه وأمّنه على نفسه وأكرمه[4].

وعرَف الشيعة أعزَّ أيامهم في عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) حين بايع إمامهم عليّاً الرضا بالخليفة من بعده[5]، وأمر بضرب الدراهم والدنانير باسمه، والدعاء له على المنابر[6].

واستمر المدُّ الشيعي في توسُّعه، ولم توقفه العثرات التي أعاقته[7]، إذ تمادى المأمون في التمكين له، والانتصار لأتباعه، عندما أعلن تفضيل علي بن أبي طالب على كل الصحابة[8]. وأمر بلعن معاوية بن أبي سفيان

(١) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ١٥٧، وص٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ١٥٧.

(٣) عبد الله الجميلي: المرجع السابق ص٦٦.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ١٦٧، ١٦٨.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٤٨.

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٤٤٨.

(٧) منها نقمة أهل السُّنَّة على المأمون حين ولَّى عليّاً الرضا الخلافة من بعده، فبايعوا إبراهيم ابن المهدي بالخلافة بعد خلع المأمون. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٧). وموت علي الرضا في الطريق أثناء عودته مع الخليفة إلى بغداد. (نفس المصدر ١٠/ ٢٥٠). وكذلك نقمة المأمون على الشيعة عندما ثاروا عليه باليمن، فأرسل من أخمد ثورتهم، وأمر الطالبيين ببغداد بلبس السواد، ومنعهم من الدخول عليه. (الطبري: المصدر السابق ٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٨) ذكر ابن كثير أن المأمون أظهر عام (٢١٢هـ)، «بدعتين فظيعتين، إحداهما أطمُّ =

في المساجد، وبراءة الذمة ممن يذكره بخير أو يفضّله على أحد من الصحابة، ثم تراجع أمام غضب أهل السُّنَّة واحتجاجهم عليه[1].

وكان المأمون في موقفه من العلويين واقعاً تحت تأثير وزيره الشيعي الفضل بن سهل الذي حثه على التمكين لهم في خلافته[2]. إلى جانب أنه ربما كان يهدف من تقرّبه منهم معرفة أخبارهم[3]، وضمان استمرار تأييد الفُرس له، الذين يوالون الشيعة[4]. وواصل النفوذ الشيعي توسُّعه في عهدي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، والواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م)، فمكَّنا له في دولتيهما، وأحبَّا العلويين وقرَّباهم منهما[5].

ثم تغير حال الشيعة حين تولى المتوكل الخلافة (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)، فكان شديد البغض لهم، وناقماً على أخيه الواثق، وأبيه المعتصم، وعمِّه المأمون الذين أحبوهم. وقد زينت له بطانته ذمَّهم، وأشارت عليه بإبعادهم والإساءة إليهم. وكان يتلذذ بهجاء علي بن أبي طالب ﵁ في مجالس لهوه وشربه[6]. كما اشتد في مطاردتهم أين وجدهم[7]، وقتل منهم جماعة كانت تسبُّ أبا بكر الصديق، وعمر بن

= من الأخرى: وهي القول بخلق القرآن، والثانية: تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد الرسول ﷺ، وقد أخطأ في كلٍّ منهما خطأً كبيراً فاحشاً وأثماً عظيماً». (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٧).

(١) المسعودي: المصدر السابق ٢/ ٤٣٠.

(٢) أمينة البيطار: المرجع السابق ص١٣١.

(٣) عبد الله الجميلي: المرجع السابق ص٩٥.

(٤) المصدر نفسه ص٩٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٧/ ٥٥.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) في سنة (٢٢٥هـ/ ٨٤٩م) وصله خبر جماعة شيعية تجتمع على علوي بضواحي =

الخطاب، وعائشة، وحفصة ﷺ[1]. وهدم لهم قبر الحسين الذي يزورونه[2] عام (٢٣٦هجرية/ ٨٤٨م). فَحدّ بذلك من نشاطهم العلني[3]، وأجبرهم على دخول العمل السري[4].

وكان المتوكل - في تضييقه على الشيعة[5] - يرمي إلى إضعافهم، وإبعاد خطرهم عن دولته، بعدما تقووا في أيام المأمون، والمعتصم، والواثق. فاضطهدهم، وشرَّدهم. وفي المقابل قرَّب إليه أهل السُّنَّة، ليتخذهم سنداً له في مواجهة خصومه. إلى جانب رغبته في التمكين لأصحاب الحديث بعدما وقع تحت تأثير الإمام أحمد الذي كان يحثه على اتباع السُّنَّة والابتعاد عن البدعة[6]، ويعلن أن الشيعة والمعتزلة على ضلال[7].

وأما المعتزلة فهم فرقة كلامية ظهرت في أواخر القرن (الأول الهجري/ ٧م)، وكانت بعيدة عن السياسة، ثم انغمست فيها[8]. وشهدت

= بغداد، فأرسل من شتَّت شملها وجيء بزعيمها إليه، فعذَّبه ثم سجنه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٤).

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٧/ ٣٦٥.

(٣) تميزت الدعوة الشيعية أكثر من غيرها، بأنها دعوة خفية مستترة، أكثر مما هي مكشوفة. (جولد تسيهر: المرجع السابق ص١٨٠).

(٤) انظر: ابن الأثير المصدر السابق ٧/ ٧٩، وابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٤.

(٥) يرى عبد العزيز عبد الحق مترجم كتاب «أحمد والمحنة»: أن معارضة المتوكل للشيعة كان مبعثها الاعتقاد، رداً على باتون وغيره من المستشرقين الذين نفوا الصبغة الدينية عن معارضة المتوكل للعلويين. (ولتر باتون: أحمد والمحنة، هامش ص١٨١).

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٦، ٣٤٠.

(٧) عن ذلك انظر مذهبه في المبحث الثاني.

(٨) وسُميت بالمعتزلة، لاعتزال إمامها واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، =

أعزَّ أيامها في عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) الذي يُعد أول خليفة متشيِّع عرفته بغداد[١]. فمكَّن لهم في دولته وأيَّدهم بحماسة، ونصرهم على خصومهم، وتبعهم في القول بفكرة خلق القرآن، وفرضها على الناس بالقوة[٢].

وقد تألق نجم زعيم المعتزلة أحمد بن أبي دُؤَاد (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) في خلافة المأمون، وهو الذي أساء إلى أحمد بن حنبل، وقال فيه للمأمون: «هو والله يا أمير المؤمنين ضالٌّ مُضِلٌّ مبتدع»[٣]. واستطاع الحفاظ على مكانته في عهدي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م). فبسط نفوذه عليهما، وأخضعهما لإرادته[٤] في الدعوة إلى القول بخلق القرآن وامتحان الناس بها[٥]، وتولى القضاء والمظالم[٦]. وعندما جيء بأحمد بن نصر الخزاعي[٧] (٢٣١هـ/ ٨٤٦م) إلى الخليفة لمناظرته تدخّل ابن أبي دُؤَاد وقال فيه: «... هو كافر يُستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل»[٨].

وبلغ تأثر الخليفة الواثق بالمعتزلة إلى حد أنه اشترط على الأسرى

= لقوله بأن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، ولا مؤمناً، بل هو في منزلة بين المنزلتين. وللمعتزلة مدرستان: مدرسة البصرة، ومدرسة بغداد. (الموسوعة العربية العالمية، مادة: المعتزلة. والموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٧١٨).

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٢.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ٣١٩.

(٣) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٣.

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق ٢/ ٤٨٣.

(٥) أبو الفداء: المختصر مج٢، ٣/ ٤٧.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٢.

(٧) كان سبب إحضاره أن الشرطة اكتشفت أمر جماعته التي حاولت الثورة على الواثق. (ابن خلدون: العبر مج٣، القسم٣، ص٥٧٧).

(٨) نفس المصدر ١٠/ ٣٠٤، ٣٠٥.

المسلمين، القول بخلق القرآن وعدم رؤية الله تعالى في الآخرة، لمفاداتهم[1] من أيدي الروم[2]، وكان قد أمر بقتل أربعة من المرابطين في الثغور رفضوا الاستجابة لطلبه عام (٢٣١هـ/ ٨٤٥م)[3].

ويرى المستشرق جولد تسيهر أن المعتزلة بالغوا في تعصبهم لمذهبهم، حين فرضوه بالقوة، وكانوا أكثر فظاعة وقساوة من أصحاب الحديث[4]. كما انحرفوا عن الجادة في استغلال نفوذهم في الدولة لتعذيب وقتل معارضيهم[5].

في حين يعتقد الشيخ محمد أبو زهرة أن الصدام بين المعتزلة وأهل الحديث يعود إلى الاختلاف في منهج البحث، فالفقهاء والمحدِّثون يتعرَّفون على الدين من الكتاب والسُّنَّة، وعملهم العقلي في فهمها واستنباط الأحكام، أما المعتزلة، فيهدفون إلى إثبات العقائد بالأدلة العقلية مستخدمين في ذلك المنطق والفلسفة[6].

وهذا من أسباب تنافر الطائفتين، فالإمام أحمد بن حنبل ـ مثلاً ـ كان شديد النفور من أصحاب الرأي والمتكلمين، واصفاً إياهم بالضلال والابتداع وتعطيل الشريعة[7].

---

(١) هذا تصرُّف أملاه التعصب المذهبي البغيض من رجل يدَّعي أنه أمير المؤمنين.

(٢) ابن كثير: البداية ١٠/ ٣٠٧.

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٣٠٧.

(٤) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص١٠٥.

(٥) من هؤلاء: نوح بن ميمون الجندي سابوري وقد مات في طريقه إلى المأمون، ونعيم بن حماد الخزاعي توفي داخل السجن، وأبو يعقوب البويطي مات في سجن الواثق مثقلاً بالحديد، وأحمد بن نصر الخزاعي قتله الواثق شرَّ قِتلة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٥).

(٦) أبو زهرة: ابن حنبل ص١٠٨.

(٧) سيأتي ذكر موقف أحمد بن حنبل من فرق عصره.

ثم تغير حال المعتزلة في عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م) حين وضع حدّاً لفتنة خلق القرآن، ومنعهم من الكلام، ونقم على رئيسهم أحمد بن أبي دُؤَاد، وعزله من منصب القضاء[١]. فانقضى بذلك عصر نفوذهم السياسي، وكان إعلاناً بأكبر انتصار حققه عليهم أصحاب الحديث[٢]، لكن نشاطهم العلمي لم يتوقف[٣]، فقد ظهر أثرهم بوضوح على بعض طلبة العلم الشباب الذين أعجبوا بمنهجهم ومذهبهم[٤]، وممن يحبون البروز والتفوق على الأقران والتظاهر بالاعتزال تطرُّفاً[٥]، مما استدعى تدخل السلطة لمنع بيع كتب الكلام والفلسفة[٦].

ويتَّضح من تتبُّع مواقف الطائفتين، أن كل طرف تشبَّث برأيه انطلاقاً من عقيدة آمن بها، وانتصر لها، وطلب بها مرضاة الله تعالى[٧]. وقد كان أصحاب الحديث أكثر اعتماداً على نصوص القرآن والسُّنَّة من المعتزلة[٨]، فجاءت حججهم أقوى من حجج خصومهم.

---

(١) عندما عزله، استولى على أمواله، وسجن ابنه، وأهان أسرته، ونفاها من سامراء إلى بغداد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) George Makdisi: quatre opuscules - p: 55.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٦٤، ٦٥.

(٤) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ط٤، الكويت، دار القلم، (١٩٧٤م)، ص١٤٦.

(٥) المصدر نفسه ص١٤٦.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٦٥.

(٧) عندما همَّ الواثق في قتل أحمد بن نصر الخزاعي، كان يعتقد أنه يحتسب خطاه في سبيل الله. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٥).

(٨) في المناظرات التي جرت بين أهل السُّنَّة والمعتزلة، استخدم كلٌّ منهما نصوصَ القرآن والسُّنَّة، غير أن أصحاب الحديث كانوا أكثر اعتماداً عليها عكس المعتزلة الذين كثيراً ما استعانوا بالأدلة النظرية أكثر من استخدام أهل السُّنَّة لها (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٠٤، ٣٣٣، ٣٣٤). لكن أدلة =

وقد كان لأهل السُّنَّة، دور كبير فيما أصاب المعتزلة على يد الخليفة المتوكل، فهم الذين استشارهم وأخذ بنصائحهم في تعيين رجال دولته، وحل قضاياها[1].

ويُستنتج من دراسة أحوال بغداد المذهبية فيما بين سنتي: (١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م)، أن البلد شهد وضعاً متأزماً في أيام الخلفاء: المأمون، والمعتصم بالله، والواثق بالله، عندما فرض هؤلاء على رعيتهم القول بخلق القرآن، وفي ذلك الظرف تحسَّن حال الشيعة والمعتزلة وساءت علاقة أهل السُّنَّة بالسلطة. وعندما تولى المتوكل الخلافة، وضع حدّاً لفتنة خلق القرآن وقرَّب إليه أصحاب الحديث، واتخذهم سنداً له في حماية ملكه من جهة، وقمع خصومه من الشيعة والمعتزلة من جهة أخرى.

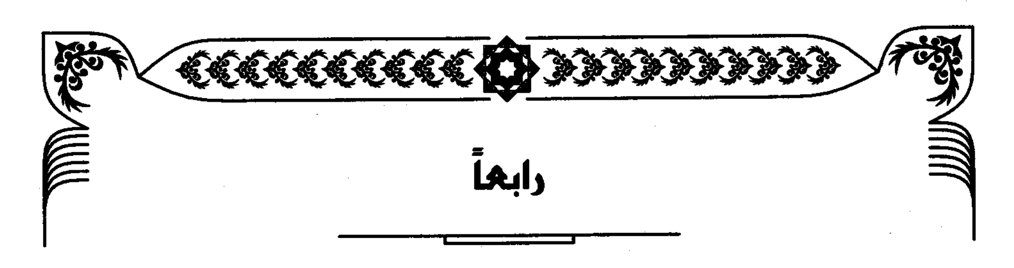
كما يتحمَّل خلفاء بغداد، مسؤولية تصعيد النزاع المذهبي بين أبناء المجتمع الواحد، حين تعصَّبوا لطائفة ونصروها على حساب الطوائف الأخرى، ليزيدوا في تعميق الخلافات المذهبية التي ستترك آثاراً جلية في حياة الناس العلمية والاقتصادية[2].



= السنِّيين النظرية كانت قوية جدّاً أقاموها على معطيات الوحي الصحيح، والعقل الصريح والعلم الصحيح. ولعل أبرز مثال على قولنا هذا كتاب الرد على الزنادقة لأحمد بن حنبل، وكتاب الحيدة لعبد العزيز الكِناني. وهما منشوران ومُتداولان بين أهل العلم.

(١) كان المتوكل يستشير أحمد بن حنبل في كل قضاياه، من ذلك أنه أخذ برأيه في تعيين يحيى بن أكثم في منصب القضاء، خلَفاً لأحمد بن أبي دؤاد المعتزلي. (ابن كثير: البداية ١٠/ ٣١٦).

(٢) أدَّت سياسة خلفاء بغداد إلى حدوث فتن كثيرة بين طوائف المجتمع، وذلك أحدث دماراً كبيراً في البنية الاقتصادية لبغداد.



رابعاً

أوضاع بغداد الاقتصادية في عصر أحمد بن حنبل

(١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

يتضمَّن هذا المبحث ثلاثة مطالب تتعلق بأوضاع بغداد الاقتصادية، **أولها**: يتعلق بالخراج والأراضي الزراعية[1]. فقد كانت مدينة بغداد مُحاطةً بمساحات زراعية خصبة[2]، بها زراعة كثيفة ومتنوعة[3]. ويجري

---

(١) يقصد بالخراج عموماً الضرائب التي يدفعها الفلاحون على أراضيهم، سواء من أهل الذمة، أو من الذين أسلموا وبقيت لهم أراضيهم، (أبو يوسف الخراج ص٦٨، ٦٩).

(٢) تُعرف بأراضي السواد، وسُمِّيت سواداً، لسوادها بالزروع، (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٢٧٢)، وعرف المسلمون أربعة أنماط لاستغلال الأراضي:

أولها: أراضي خراجية، وهي التي بيد أهل الذمة، أو التي جعلها عمر بن الخطاب خراجية.

وثانيها: أراضي عشرية، وهي التي أسلم عليها أهلها. (أبو يوسف: المصدر السابق ص٦٨).

وثالثها: القطائع، وهي للخليفة يقتطعها لمن يريد، ويجعلها خراجية أو عشرية. (المصدر نفسه ص٦٩).

ورابعها: أراضي الحِمى، وهي مخصَّصة لخيول المسلمين وماشيتهم. (الماوردي: الأحكام السلطانية، ط٢، مصر، شركة البابي الحلبي، (١٩٦٦م)، ص١٤٧).

(٣) الإصطخري (ت٣٠٠هـ): المسالك والممالك، حقَّقه: محمد جابر العال، سلسلة تراثنا، الجمهورية العربية المتحدة، (١٩٦١م)، ص٥٩.

فيها نهرا دجلة والفرات[١]، فأَوْلَتها الدولة العباسية اهتماماً كبيراً[٢]، لضمان إيرادات مالية كافية وثابتة، وأسندت مهمة تنظيمها وجبايتها لديوان الخراج[٣].

واعتمدت الخلافة ـ في عصر أحمد بن حنبل ـ أسلوب مقاسمة[٤] المزارعين في منتجاتهم وفق نسب معلومة، لتحديد قيمة الخراج[٥]، وكانت تقاسمهم على النصف في الأراضي التي تصلها المياه من الأنهار بدون مشقة[٦].

ثم خفض المأمون النسبة إلى الخُمسَيْن[٧] بدلاً من النصف عام

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، بدون تاريخ، ص٢١٧.

(٢) قدامة بن جعفر الكاتب (ت٣٢٦هـ): نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، طبعة بريل، (١٨٨٩م)، ص٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه ص٣٤٠.

(٤) قبل الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) كانت تتبع طريقة المساحة في تحديد الخراج، وكان عمر بن الخطاب هو الذي اعتمد المساحة في تحديد المقدار (الماوردي: المصدر السابق ص١٧٦). ولكلٍّ من طريقة المساحة والمقاسمة على النِّسب، فوائدها ومضارها. (وعن ذلك انظر: ضياء الدين الرايس: الخراج والنظم المالية ط٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦١، ص٤٣٠).

(٥) النسب هي $\frac{1}{2}$ على الأراضي التي يصلها الماء من الأنهار بدون مشقة، و$\frac{1}{3}$ على المساحات المسقية بالدوالي وفيها نوع من المشقة، و$\frac{1}{4}$ على الأراضي الخاصة بغلال الصيف المسقية بالدوالي وهي أكثر مشقة، أما الأشجار المثمرة فخراجها على المساحة. (الماوردي: المصدر السابق ص١٧٦).

(٦) المصدر نفسه ص١٧٦.

(٧) كان أبو يوسف قد اقترح على هارون الرشيد تغيير نسبة الخراج من النصف إلى الخُمسين (أبو يوسف: الخراج ص٥٤)، لكن يبدو أنه لم يغيره حتى جاء المأمون.

(٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، للتخفيف على الفلاحين، وتشجيعهم على العمل، وكسب ودِّهم[(١)]، وكان ـ أيام حربه مع أخيه ـ قد جعل النسبة الربع عوضاً عن النصف على أهل خراسان فقط، مكافأة على وقوفهم معه[(٢)].

وعن عائدات الخراج، أورد الكاتب قُدامة بن جعفر (ت٣٢٦هـ/ ٩٣٧م) قائمة[(٣)] مفصَّلة بمردودية أراضي السواد المحيطة ببغداد[(٤)] عام (٢٠٤هـ/ ٨١٩م) من الحنطة، والشعير والنقود[(٥)]، وبلغ مجموع الدراهم التي ذكرت في الوثيقة: «مائة ألف ألف، وأربعة عشر ألف ألف وأربعمائة ألف، وسبعة وخمسين ألفاً، وستمائة وخمسين درهماً»[(٦)]؛ أي: ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهماً[(٧)]، وقدرت جباية الدولة العباسية

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٣٥٨.

(٢) الرايس: المرجع السابق ص٤٦٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) لم تظهر قوائم الخراج إلا في عام: ٢٠٤هـ؛ لأن دواوين الخراج كانت قد أُحرقت في فتنة الأمين والمأمون، وأورد قدامة بن جعفر قائمتين: **الأولى**: لخراج السواد. (قدامة بن جعفر: المصدر السابق ص٢٣٦، ٢٣٧)، **والثانية**: لخراج أكثر من ٤٠ إقليماً من أقاليم الدولة العباسية. (نفس المصدر ص٢٤٩)، كما أورد الجهشياري (ت٣٣٩هـ) قائمة خراج سنة واحدة لم يحددها في أيام البرامكة (الجهشياري: كتاب الوزراء والكتَّاب، بيروت، دار الفكر الحديث، (١٩٨٨م)، ص١٨٢ وما بعدها).

وقد درس ضياء الدين الرايس قوائم ابن قدامة، والجهشياري، وابن خلدون، ومتفرقات ابن خرداذبة دراسة تحليلية مقارنة. (انظر: الرايس: المرجع السابق ص٥١٨ وما بعدها).

(٥) قدامة بن جعفر: المصدر السابق ص٢٤٠.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) الدرهم عملة أقل من الدينار، والدينار الواحد قيمته غير ثابتة، فقد ساوى عام (٣٣٤هـ)، ٢٥ درهماً. محمد حسين الزبيدي: الأسعار في العراق في العهد البويهي. (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٨م)، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، =

من مجموع خراج عام (٢٠٤هجرية/ ٨١٩م)، بناء على قائمتي قدامة بن جعفر - بنحو: أربعمائة مليون درهم - ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ - وهو مبلغ شمل عائدات إقليم السواد والمناطق الأخرى من الدراهم والدنانير، والأمتعة والعروض[١].

ويتبين من دراسة قوائم الخراج التي احتفظت بها المصادر[٢]، أن الخلافة العباسية اعتمدت أساساً على الزراعة في مداخيلها، لكنها لم تهمل باقي القطاعات الأخرى.

ومنها: المطلب الثاني المتعلق بالتجارة، وقد كانت بغداد في زمن أحمد بن حنبل، أكبر مدينة تجارية بالعراق تُجلب إليها البضائع من مختلف أنحاء الأرض[٣]، وقِسمها الغربي أكثر ازدهاراً من جانبها الشرقي[٤] لوجود حي الكرخ به، وهو أهم مركز اقتصادي اتخذه التجار ورجال المال مقرّاً لهم[٥].

واتسع التبادل التجاري بين بغداد - وغيرها من المناطق - اتساعاً كبيراً[٦]، لا سيما في المنتجات الكمالية[٧]، وكانت تُصدر سلعاً عديدة منها: الأقمشة القطنية، والمنسوجات الحريرية، والمناديل، والخزف،

= العدد ١١، (١٩٧٩م)، هامش ص٨٨.

(١) الرايس: المصدر السابق ص٥٣١.

(٢) قوائم قدامة بن جعفر، والجهشياري، ومتفرقات ابن خرداذبة، وابن خلدون السابقة الذكر. (انظر: الرايس: المرجع السابق ص٥١٨).

(٣) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن (٤هـ). ط٢، بيروت، دار المشرق، (١٩٧٤م)، ص١٣٤.

(٤) المصدر نفسه ص١٣٤.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص٢١٧.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة بريل، (١٨٨٩م)، ص٧٠.

(٧) محمد شعبان: المرجع السابق ص١١٥.

والأدوية، والأدوات الزجاجية[1]. أما وارداتها فمنها الملابس، والعطور، والدواب[2]، والمعادن، والسروج، والقرنفل، والكافور، والفيلة، والحرير، تأتيها من مختلف أقاليم العالم الإسلامي، ومن الهند والصين[3].

واعتمدت مدينة السلام، في تجارتها الإقليمية والدولية، على طرق برية حيوية ربطتها بالمدن القريبة منها[4]، وبالبلاد البعيدة عنها[5]. إلى جانب الملاحة النهرية النشطة[6]، بفضل دجلة الذي يقسم العاصمة إلى قسمين[7] ونهرَي عيسى والصراة اللذين يربطان الفرات بدجلة[8].

ومما ساهم في ازدهار بغداد تجاريّاً، موقعها الجغرافي الممتاز[9]، واتصالها الدائم بالأسواق العالمية[10]، ومكانتها السياسية والحضارية في البلاد الإسلامية[11]، وحثّ الإسلام على ممارسة التجارة[12]، إلى جانب دور الخلفاء في تشجيع التجار والتخفيف عليهم[13].

---

(١) الدوري: المرجع السابق ص١٣٨.

(٢) ابن خرداذبة: المصدر السابق ص٧١.

(٣) نفس المصدر ص٧٠ وما بعدها.

(٤) مثل سامراء، وواسط الكوفة. (الإصطخري: المصدر السابق ص٥٦).

(٥) الدوري: المرجع السابق ص١٤٣.

(٦) كان الواثق قد ألغى ضريبة أعشار السفن تيسيراً لأمر التجار والتموين. (الطبري: المصدر السابق ٧/ ٣٣٨).

(٧) ابن حوقل: المصدر السابق ص٢١٧.

(٨) المصدر نفسه ص٢١٧.

(٩) ابن حوقل: المصدر السابق ص٢١٧، وأحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢.

(١٠) الدوري: المرجع السابق ص٢٣٩.

(١١) كانت تمثل رمز وحدة المسلمين بحكم أنها عاصمة الخلافة.

(١٢) الدوري: المرجع السابق ص١٩.

(١٣) الطبري: المصدر السابق ٧/ ٣٥٨، والدوري: المرجع السابق ص١٩.

وساعدت التجارة في توسيع حياة الترف لما جلبته من أسباب المتعة[1]، وزادت في عدد الرقيق بالبلد من مختلف الأجناس[2]، ووثقت من روابط الاتصال بين عاصمة الخلافة والحواضر الإسلامية الأخرى[3]، وأثرت الفقه بما أحدثته من مسائل هي في حاجة إلى حكم شرعي[4]، وجلبت مواد أولية لا تتوفر ببغداد، لتلبية احتياجات قطاعات أخرى.

ومنها: الصناعة ـ وهي المطلب الثالث ـ، فقد وُجدت في مدينة السلام، صناعة يدوية، اعتمدت على المادة الخام المحلية والمستوردة[5]، وتوزعت على شكل تجمعات ومحلات مخصصة[6] في مختلف المصنوعات لتوفر ما يحتاجه البلد من سلع استهلاكية، وأسلحة، ووسائل إنتاج.

وأقيمت في بغداد ورشات ومحلات لصناعة الأدوات الحديدية ومختلف أنواع الزجاج[7]، وتحويل المعادن الثمينة المستوردة إلى جواهر للزينة[8]. وإنتاج المنسوجات القطنية والحريرية، والمناديل والخزف والأدوية[9].

وكان حي الكرخ ـ بالجانب الغربي من المدينة ـ أكبر مركز صناعي

---

(١) روم لاندو: الإسلام والعرب ص٨٠.
(٢) أحمد أمين: المرجع السابق ٢/ ٢٤١.
(٣) نفس المرجع ٢/ ٢٤٢.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٤٢.
(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٧٠، والدوري: المرجع السابق ص١٣٨.
(٦) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٤٦، والدوري: المرجع السابق ص٢١٧.
(٧) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، ط٤، مصر، مكتبة نهضة، مصر، (١٩٥٨م)، ٢/ ٣٠٣.
(٨) ابن خرداذبة: المصدر السابق ص٧٠.
(٩) الدوري: المرجع السابق ص١٣٨.

وتجاري[1]، معظم سكانه من الحرفيين ورجال المال، وروعي فيه التخصُّص المهني، الأمر الذي أدى إلى تركُّز أرباب الحرفة الواحدة في سوق خاص من جهة[2]، ومهَّد في نشوء تجمُّعات حِرَفية عُرفت بالأصناف من جهة أخرى[3].

وبمقارنة قطاع الصناعة بالفلاحة، يتضح أن مساهمته المباشرة[4] في مداخيل الدولة العباسية ضعيفة[5]، لبدائية الوسائل، وقلة الإنتاج من حيث النوعية والكمية[6].

ويُستنتج من دراسة أوضاع بغداد الاقتصادية في عصر أحمد بن حنبل (١٤٦ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م) أن الزراعة هي أساس اقتصاد البلد لوفرة مقوماتها الطبيعية والبشرية، ولأنها مصدر غذاء الناس، إلى جانب التجارة التي حولت بغداد إلى مركز تجاري عالمي تصديراً واستيراداً.

وأشير هنا إلى أن الإمام أحمد بن حنبل، لم يكن له دور يُذكر في أوضاع بغداد الاقتصادية؛ لأنه لم يكن رجل مال ولا أعمال، وإنما هو رجل علم وإصلاح، ساهم في بعث الحياة العلمية لعصره.



---

(١) الإصطخري: المصدر السابق ص٥٩.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ـ ٢١٧.

(٣) جمال البنا: الإسلام والحركة النقابية، بدون ناشر، (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ص٤٥، ٤٦.

(٤) لكنه هو الذي يوفر وسائل الإنتاج للقطاع الزراعي.

(٥) ثبت ذلك من خلال قوائم الخراج التي ذكرتها المصادر.

(٦) إذ لم يكن الإنسان قد عرف الثورة الصناعية الحديثة في ذلك الزمان. (انظر: أحمد حسين، تاريخ الإنسانية، القاهرة، دار القلم، (١٩٦٥م)، ص٢١٥ وما بعدها).



خامساً

أوضاع بغداد العلمية في عصر أحمد بن حنبل

(١٦٤ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م)

كان للقرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية ـ في حثِّهما على العلم والترغيب فيه ـ الأثر الحميد في إقبال الناس على طلبه[١]، فشهدت بغداد في عهد أحمد بن حنبل نشاطاً علمياً، مكثفاً في مختلف ميادين المعرفة، بفضل علمائها الذين ملؤوها نشاطاً وحيوية، وأغنوا مكتباتها بمؤلَّفات قيمة، **منها**:

ما ألَّفه أبو عبد الله الشافعي (ت٢٠٤هجرية/ ٨١٩م) كـ«الرسالة»، و«الأم»[٢] اللذين اشتملا على فقه الشافعي وأصوله، وقد نُشر الثاني حديثاً في سبعة أجزاء[٣].

وصنَّف أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) في الحديث وعلوم

---

(١) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١٤٤]. وقول الرسول عليه الصلاة والسلام: **«ما من خارج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع»**. الألباني: «صحيح ابن ماجه» ١/ ١٤٤، رقم الحديث: (٢٢٢). وهناك أحاديث كثيرة في الحث على طلب العلم، وكل علم نافع، ومنها: **«اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**. رواه مسلم. (انظر النووي: رياض الصالحين، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ، كتاب العلم ص٣٩٥).

(٢) ابن كثير البداية ١٠/ ٢٥٢.

(٣) محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة، ط٥، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٩٨٦م)، ص١٤٤.

الشريعة، والكلام؛ كـ«المسند» و«الرد على الجهمية والزنادقة»، و«الصلاة»[١].

واشتهر الفيلسوف يعقوب الكندي (ت٢٤١هـ/ ٨٦٧م) باشتغاله بالفلسفة، والطبيعيات[٢]، وعُرف بفيلسوف العرب[٣]، وكتب نحو مائتين وخمسة وستين مؤلَّفاً في الطب والفلك[٤]، والحساب والمنطق، وفي غير ذلك من المعارف[٥].

وذاع صيت عائلة بني موسى بتبحُّرها في علم الحِيَل (الميكانيك)، والهندسة والنجوم، ومن أعمالها، كتاب «حِيَل بني موسى»[٦]، احتوى

---

(١) سنفصل في مؤلفات أحمد بن حنبل في المبحث الثاني بحول الله تعالى.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، حقَّقه: نزار رضا، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، (١٩٦٥م)، ص٢٧٩.

(٣) عبد الله الدفاع: العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٩٨٣م)، ص٢٤.

(٤) من علماء الفلك المشهورين في القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، أبو معشر الفلكي (ت٢٧٢هـ)، اشتُهر بالفلك والتنجيم، وكانت له إصابات كثيرة في ذلك. ويرى ابن كثير أن الذي نُسب لجعفر الصادق من علم الرجز والطرف واختلاج الأعضاء، إنما هو لجعفر بن أبي معشر الفلكي. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٥١).

(٥) توزعت مؤلفات الكندي كالآتي: ٢٢ في الفلسفة، و١٦ في الفلك، و١٤ في الحساب، و٣٢ في الهندسة، و٢٢ في الطب، و١٢ في الطبيعيات، و٧ في الموسيقى، و٥ في النفس، و٩ في المنطق. (الدفاع: المرجع السابق ص٣١ ـ ٧٠).

(٦) ربُّ العائلة هو موسى بن شاكر، له ثلاثة أبناء: محمد، وأحمد، والحسن، وكان المأمون قد أرسل موسى بن شاكر في بعثة علمية ناحية الموصل لقياس محيط الأرض، فتوصلت البعثة إلى نتيجة قدِّرت بـ: ٤٧,٣٥٦ كم لمدار الأرض، وهذا الرقم قريب من مدار الأرض الفعلي الذي يعادل: ٤٠,٠٠٠ كم تقريباً. (الدفاع: المرجع السابق ص٣٠٦).

على مائة تركيب ميكانيكي[1].

كما قاربت مؤلَّفات الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ/ ٨٥٧م) مائتي كتاب[2] في التصوف والكلام، منها: «ماهية العقل»، و«فهم القرآن»، و«الرعاية لحقوق الله»[3].

ويُعدُّ علي بن محمد المدائني (ت٢٢٥هـ/ ٨٤٠م)، عمدة الإخباريين في زمانه[4]، أحاط بموضوعات التاريخ الإسلامي، وكتب فيه: «أخبار قريش»، و«مقتل عثمان»، و«الجمل والردة»، و«أخبار النساء»، و«أخبار النبي ﷺ»[5] وقد ضاعت كل مصنفاته، ولم يبقَ منها إلا نُتف رواها الطبري، والمسعودي، والبلاذري[6].

ووُجد لإخوان الصفا، فرع في بغداد[7] تابعٌ لقيادة الجماعة

---

(١) الدفاع: المرجع السابق ص٣٠٧.

(٢) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ص٦٠.

(٣) نفس المصدر ص٧٤.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٩٩.

(٥) محمد عبد الغني حسن: التاريخ عند المسلمين، دار المعارف، بدون تاريخ، ص٢٥.

(٦) عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، (١٩٨٦م)، ص٧٠.

(٧) نشأت الجماعة بالبصرة. (إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، بيروت، دار صادر، دار بيروت، (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ص٥)، ويرى أنور الجندي أن هذه الجماعة هي على خط الحركة الخرَّامية، في التآمر على القيادة السياسية والإسلامية، بواسطة نشر فكر الفرس.
(أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ ص١٤٨).
ويعتقد ابن تيمية أن إخوان الصفا هم الذين نسبوا رسائلهم لجعفر الصادق بعد ٢٠٠ عام. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ١٨١)، ويرى كذلك أن أقوالهم مركبة من أقوال فلاسفة اليونان ومجوس الفرس (المصدر نفسه ١١/ ١٨١). =

بالبصرة، ومن آثارهم: «رسائل إخوان الصفا وخلّان الوفا»[1].

وأكثرَ طلاب العلم من الأسفار لتحصيل العلوم[2]، وتحمَّلوا في سبيلها مشاق السفر، وفراق الأهل والأوطان. فأمضى الإمام أحمد، أربعين سنة في تلقي علوم الشريعة[3]، زار خلالها مكة، واليمن، والمدينة المنورة، والشام، والبصرة[4]. ونذر الإمام البخاري (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) حياته لجمع السُّنَّة وتحقيقها، فانتقل إلى مكة، وبغداد، وخراسان، وسمرقند، وإلى كلِّ مكان استطاع الوصول إليه[5]. فساهمت الرِّحلات العلمية في احتكاك الآراء، واكتساب الفضائل وحصول الملَكات ورسوخها[6].

وتكثَّفت حركة الترجمة في بغداد في عصر أحمد بن حنبل، من اللغات السريانية، واليونانية، والفارسية، إلى اللغة العربية[7] على يد أهل الذمة في أغلب الأحيان[8]، فترجموا المؤلفات القديمة، ومنها كتب

= وذهب روم لاندو إلى القول بأن إخوان الصفا هم الذين ألفوا كتباً في الكيمياء، ونسبوها لجابر بن حيان (روم لاندو: المرجع السابق ص٢٨٦).

(١) إخوان الصفا: المصدر السابق ص٥.

(٢) ذكر عمر فروخ أن العلماء في ذلك الزمان اعتقدوا أن الرحلة في طلب العلم ضرورة من ضروات تحصيل المعارف، واحتكاك الآراء، واكتساب الفضائل. (عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط٤، بيروت، المكتبة العصرية، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص٩٢ ـ ٩٣م.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٦٣.

(٤) ابن الجوزي: مناقب الامام أحمد ص١٣.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٥.

(٦) عمر فروخ: المرجع السابق ص٩٣.

(٧) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء ص٢٧٩.

(٨) من هؤلاء: حُنين بن إسحاق النصراني، أتقن العربية، والسريانية، واليونانية، والفارسية. (ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص٢٧٩). وابنه إسحاق بن حنين، =

الفلسفة والطب[1]. واحتوى: «بيت الحكمة»[2] داراً للترجمة أشرف عليها يوحنا بن ماسويه النصراني[3].

وبذلك وصلت علوم المتقدمين[4] إلى المسلمين، فتلقاها[5] الفلاسفة المسلمون بسلبياتها وإيجابياتها[6].

وساهم خلفاء بغداد في تنشيط الحياة العلمية، بتشجيعاتهم ومشاركاتهم فيها[7]. فكان المأمون ملمّاً بأكثر مِن عِلم؛ كالفقه والطب،

= برع في اللغات، وترجم كتباً في الفلسفة والطب. (نفس المصدر ص٢٧٤).

(١) المصدر نفسه ص٢٧٤.

(٢) بناه المأمون، ويعد أهمَّ معهدٍ تربوي منذ تأسيس مكتبة الإسكندرية في النصف الأول من القرن (الثالث الميلادي). (الدفاع: المرجع السابق ص٢٤).

(٣) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق ص٢٤٦.

(٤) يرى كلود كاهن أن الترجمة لم تشمل كل أنواع الانتاج القديم، فلم تتصدَّ للأدب الإغريقي، ولم يتمثل التاريخ اليوناني فيها إلا بقصة الإسكندر. (كلود كاهن: المرجع السابق ١/ ١٥٥).

(٥) يرى بارتولد، أن علماء العرب لم يقدروا على تمييز الكتب المعزوة للفلاسفة المتقدمين من أصولها، فأخلطوا أحياناً بين الأسماء المتشابهة من أسماء الفلاسفة؛ كأفلاطون، وأفلوطين، مع وجود الفارق الزمني بينهما، وسبب ذلك عدم اطلاعهم على فقه اللغة اليوناني، والتاريخ، فأثر ذلك في أعمالهم العلمية والفلسفية. (بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، ط٤، مصر، دار المعارف، (١٩٦٦م)، ص٨١). لكن بارتولد لم يتنبه إلى أن كثيراً من الأخطاء قد تعود إلى المترجمين؛ لأن المسلمين تلقوا التراث اليوناني وغيره مترجماً على يد أهل الذمة في الغالب.

(٦) ذكر عمر فروخ، أن علماء المسلمين، قد وجدوا أخطاء علمية كثيرة في مؤلفات القدماء، فدفعهم ذلك إلى التأكد من صحَّتها، عن طريق التجربة، ولم ينكرها اعتباطاً. (انظر: عمر فروخ المرجع السابق ص٣٨).

(٧) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٧٥، والمسعودي: مروج الذهب مج٢، ص٤٦٢ وما بعدها.

والكلام[1]، وفي إحدى جلساته مع العلماء، أظهر براعة في حساب الفرائض على البديهة[2]. وأنشأ «بيت الحكمة» الذي عُدَّ أهمَّ معهد علمي تربوي في القرن (الثالث الهجري/ ٩م)[3]. فساهم بذلك في انتشار الفكر اليوناني في بغداد، ومنها انتقل إلى أقطار أخرى من العالم[4]. وكان الواثق يجالس علماء الكلام والطبيعيات والفلسفة[5]، ويشاركهم في مناقشاتهم[6]؛ على العكس من المتوكل الذي جمع حوله أهل الحديث، وشجعهم على نشر فكرهم، وضيَّق على خصومهم، ومنع الاشتغال بعلم الكلام[7].

لكن الحقيقة هي أن ترجمة تلك العلوم إلى اللغة العربية لم تكن بطريقة سليمة علمية صحيحة ناقدة ممحِّصة لتلك العلوم على أساس من الشرع الصحيح، والعقل الصريح، والعلم الصحيح، وإنما شابتها كثير من النقائص والسلبيات، وتُرجمت كثير من الأفكار الخاطئة دون أن يُنتبه لها من جهة، كما أنها أضرَّت كثيراً من المسلمين لما كانت تحمله من أفكار مناقضة لدين الإسلام[8].

وفي ظل ذلك الازدهار العلمي الذي شهدته بغداد في عصر

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٧٦.

(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٢٧٦.

(٣) الدفاع: المرجع السابق ص٢٤.

(٤) روم لاندو: المرجع السابق ص٨١.

(٥) المسعودي: المصدر السابق ٢/ ٤٢٦.

(٦) نفس المصدر ٢/ ٤٦٥.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٦.

(٨) للتوسع في ذلك انظر كتابنا: مقاومة أهل السُّنَّة للفلسفة اليونانية، ط١، دار كنوز الحكمة، الجزائر، (٢٠٠٩م). وانظر أيضاً كتابنا: مخالفة الفلاسفة المسلمين لطبيعيات القرآن الكريم، والكتاب منشور إلكترونياً.

أحمد بن حنبل امتزجت فيه الثقافات، واحتكت فيه الأفكار، وكثرت المناظرات بين الفرق الإسلامية فيما بينها من جهة، وبين المسلمين وأهل الذمة من جهة أخرى[1].

وكانت حلقات العلم تُعقد في البيوت[2] والمساجد، ويعتقد أهل الحديث أن من شرف طلاب الفقه تلقيهم العلوم بالمساجد، وعدم قَبولهم جراية الخلفاء[3]. ولم تعرف بغداد المدارس بالمعنى الحديث إلا في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[4].

ويُستنتج من خلال دراساتنا لأوضاع بغداد العامة في زمن أحمد بن حنبل (١٤٦ ـ ٢٤١هـ/ ٧٨٠ ـ ٨٥٥م). أن البلد نَعِم بفترات هدوء سياسي تخلَّلتها حروب دامية، تمكنت فيها الدولة العباسية من وضع حدٍّ لها، ومن الحفاظ على كيانها.

كما عانى المجتمع معاناةً شديدةً إبان الحرب الأهلية المدمرة بين الأمين والمأمون، ثم استردَّ استقراره حين استتب الوضع للمأمون عام (٢٠٤هـ/ ٨١٩م). وبعد ثمانية أعوام عصفت به فتنة خلق القرآن قُرابة عشرين سنة، وعندما جاء المتوكل أنهى هذه المأساة.

وقام اقتصاد مدينة السلام في أساسه على الزراعة والتجارة، وعليهما اعتمدت الخلافة في مداخيلها. وأصبحت عاصمتها مركزاً تجاريّاً عالميّاً.

وشهدت بغداد حركة علمية مزدهرة، توسَّعت فيها الترجمة

---

(١) أبو زهرة: ابن حنبل ص١١٣.

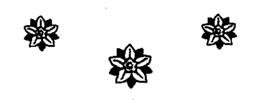
(٢) المسعودي: المصدر السابق مج٢، ص٤٦٢ ـ ٤٦٥.

(٣) جورج مقدسي: رعاة العلم، مجلة الأبحاث، مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ١٥٠.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣١٢. وجورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٠ وما بعدها.

وامتزجت فيها المعارف، وعرفت علماء كباراً أثروا المكتبات بمؤلفات متنوعة وقيِّمة.

وقد كان للإمام أحمد آثار بارزة في حياة الناس عموماً، غير أن دوره في الاقتصاد لا يكاد يذكر. ولم يسعَ إلى تكوين جماعة مُنظمة تأتمر بأوامره، رغم كثرة أصحابه وتلاميذه، الذين سيكون لهم الفضل في ظهور الحركة الحنبلية بعد وفاته، والتي ستصبح طرفاً مؤثراً في أوضاع البلد السياسية والاجتماعية.



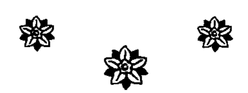


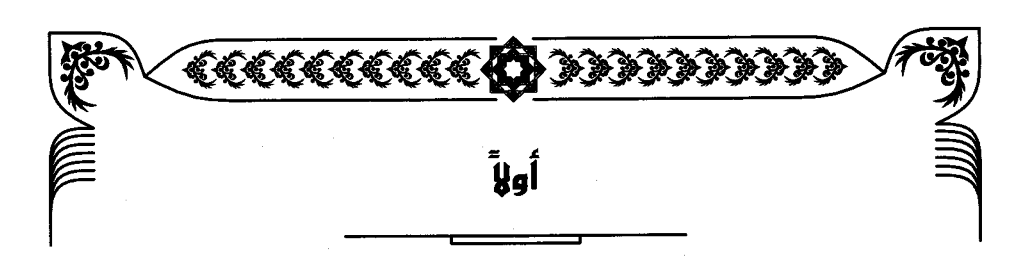
المبحث الثاني

حياة أحمد بن حنبل وأعماله ومذهبه

(١٤٦ ـ ٢٤١هـ/٧٨٠ ـ ٨٥٥هـ)

لا يهدف هذا المبحث إلى دراسة حياة الإمام أحمد بن حنبل دراسة تفصيلية، وإنَّما المقصود منه هو ذكر أخبار عنه، وإبراز معالم مذهبه، بمقدار ما يخدم نشاط الحركة الحنبلية من بعده في المشرق الإسلامي.





أولاً

نبذة عن حياة أحمد بن حنبل ومحنته ومؤلفاته

ولد الإمام أحمد بن محمد بن هلال بن أسد ببغداد عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)[١]، من أبوين خراسانيين[٢]. ولما بلغ ثلاث سنوات توفي والده وكفلته أمه[٣]، فنشأ تحت رعايتها في فترة تميزت بالاستقرار السياسي والأمن في عهود المهدي بن المنصور (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م)، وموسى الهادي بن المهدي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م)، وهارون الرشيد بن المهدي[٤] (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م).

وأمضى أحمد بن حنبل نحو أربعين عاماً من عمره في تحصيل العلم[٥] دون أن يشغل نفسه بالزواج[٦]. وطلب الفقه عند القاضي

---

(١) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ط٣، بيروت، دار الآفاق الحديثة، (١٩٨٢م)، ص١٣.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مصر، مطبعة السُّنَّة المحمدية، (١٩٦٢م)، ١/ ٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ط٦، بيروت، منشورات مكتبة المعارف (١٩٨٥م)، ١٠/ ٢٢٣.

(٤) سبقت الإشارة إلى أوضاع بغداد العامة.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٦.

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ص٥٨.

أبي يوسف (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م) فلم تعجبه مبالغة الأحناف في الرأي، فتركه وأقبل على أهل الحديث[١] لتحصيل علوم الشريعة والأثر، فرحل إلى مكة والمدينة والشام والبصرة والجزيرة[٢]. والتقى بكبار العلماء؛ كالإمام الشافعي[٣] (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، وأبي القاسم بن سلام البغدادي[٤] (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م)، ومحمد بن إسماعيل البخاري[٥] (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، وأخذ عنهم ما كان يحبه من العلوم، ولم يطلب علم الكلام لشدة بغضه له[٦]. وقد رزقه الله ﷻ ذاكرة قوية[٧] مكّنته من حفظ كثير من الحديث، والتبحُّر في السُّنَّة[٨]، وتفوّق على كثير من أقرانه فيها، وكان أعلم بها من الشافعي، لكنه لم يبلغ درجة الشافعي في تمكُّنه من الفقه[٩].

وعندما أتم دراسته اتجه إلى الاشتغال بالعلم وجمع الحديث والتأليف فيه[١٠].

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٢٦.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ص٢٢.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه ١٠/ ٣٢٦.

(٥) نفس المصدر ١١/ ٢٥.

(٦) ابن مفلح المقدسي الحنبلي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، بيروت، دار العلم للجميع، (١٩٧٢م)، ١/ ٢٢٩.

(٧) كان يجالس ابنه عبد الله لرواية السُّنَّة. فيذكر له الإسناد ويتمم المتن، وقد يورد ابنه متون أحاديث أخرى ويكمل هو أسانيدها حفظاً على ظهر قلب.
أبو الحسين بن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٦.

(٨) المصدر نفسه ١/ ٦.

(٩) نفس المصدر ١/ ٢٨٢.

(١٠) نفس المصدر ١/ ٢٨٤.

وعُرف أحمد بن حنبل بين الناس بالزهد في الدنيا وعدم مخالطة الخلفاء[١]، فلم يقبل عطاياهم[٢]، وقاطع من كان يأخذ هداياهم من أهل بيته كابنيه: عبد الله وصالح، وعمِّه حنبل[٣]، ورفض تولي قضاء اليمن أيام هارون الرشيد[٤].

وكان الإمام أحمد ينفق على نفسه وعياله من مِلك له غلته سبعة عشر درهماً في الشهر[٥]. وعندما مرَّت به ضائقة مالية ولم يجد فيها ما يسدُّ به رمقه، التجأ إلى الاقتراض من أحد أصحابه[٦]، وفي أحد الأيام رهن بعض متاعه ليخفف من فاقته[٧]. وكان عند الحاجة يكتب

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/٣٢٩.

(٢) كان في وسع أحمد بن حنبل أخذ عطايا الدولة كما فعل غيره من العلماء وشيوخ الحديث ورجاله. وعن مذاهب العلماء في هذا الموضوع انظر: محمد أبو زهرة، ابن حنبل، دار الفكر العربي. بدون تاريخ ص٧٦. لكنه أبى ووصد على نفسه ذلك الباب، وكان في مقدوره أخذ هبات الأصدقاء إلا أنه رفض ذلك ولم يقبل إلا هدايا، أو قروض يستطيع ردَّها، أو يكافأ عليها من أقرب الأصدقاء. (عبد العزيز الأهل: شيخ الأمة أحمد بن حنبل، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، (٩٧٢م)، ص٤٥).

(٣) أخذ هؤلاء عطايا الدولة لحاجتهم إليها لكثرة العيال (أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ١٠)، وربما جاء إنكار أحمد بن حنبل على أهله رغبة منه في الابتعاد بهم وبنفسه عن الخلفاء وعدم فتح ذلك الباب على أسرته.

(٤) حين احتاج هارون الرشيد إلى قاضي يتولى قضاء اليمن عرض الإمام الشافعي المنصب على أحمد بن حنبل الذي كان يتردد عليه ليأخذ عنه العلم، فامتنع ابن حنبل امتناعاً شديداً وقال له: إني أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا فتأمرني أن ألي القضاء. و لولا العلم لما كلمتك بعد اليوم فاستحى منه الشافعي. (ابن كثير: البداية ١٠/٣٣٨).

(٥) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٧.

(٦) نفس المصدر ١٠/ ٣٢٨.

(٧) المصدر نفسه ١٠/ ٣٢٨.

للناس رسائل بالأجرة[1].

وعندما بلغ الإمام أحمد سنَّ الأربعة والأربعين من عمره تعرَّض لمحنة[2] خلق القرآن، امتحنه فيها الخليفة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٣هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م)، مثله في ذلك مثل بقية فقهاء بغداد وأصحاب الحديث عام[3] (٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، فكانت إجابته أن قال[4]: «القرآن كلام الله، لا أزيد عليها»[5]، ولما سئل عن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أجاب: «أردت منها ما أراد الله منها، وهو كما وصف نفسه، ولا أزيد على ذلك»[6].

وعندما تولى محمد المعتصم الخلافة (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م) سار على نهج أخيه الخليفة المأمون في امتحان الناس بخلق القرآن، وأدخل الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) السجن لمدة ثلاثين شهراً حين واصل رفضه القول بخلق القرآن[7]. وبعد انتهاء تلك المدة استدعاه المعتصم لمناظرته سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٥م) في حضرة

---

(١) ابن كثير: نفس المصدر ١٠/ ٣٢٩.

(٢) **المحنة**: جمع محن وهي ما يُمتحن به الإنسان من بليَّة (محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح، ضبط وتخريج مصطفى ديب البغا، ط٤، عين ميلة الجزائر، دار الهدى (١٩٩٠م)، ص٣٩٢).

(٣) كان الجعد بن درهم (ت١٢٤هـ/ ٧٤١م) هو أول من أذاع فكرة خلق القرآن بين المسلمين، وكان قد أخذها عن اليهود فتلقاها عنه المعتزلة، وعنهم تلقاها المأمون الذي أظهرها لأول مرة عام (٢١٢هـ/ ٨٢٧م)، وامتحن بها الفقهاء عام (٢١٨هـ/ ٨٣٣م). (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٧).

(٤) سيأتي ذكر تفاصيل أخرى عن موقف أحمد من تلك القضية عندما نتطرق إلى مذهب أحمد.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، مطبعة الاستقامة (١٩٣٩م)، ٦/ ٤٤٤.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٧٣.

(٧) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٣

حاشيته[١]. فرفض الإمام أحمد مسايرته في القول بخلق القرآن، وأصرَّ على أن «القرآن علم الله، وعلم الله غير مخلوق»[٢].

وبعد ذلك تدخَّل كبير المعتزلة أحمد بن أبي دُؤَاد (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، وأوغر صدر الخليفة المعتصم بقوله عن ابن حنبل: «هو والله يا أمير المؤمنين ضال، مضل، مبتدع»[٣]، فغضب الخليفة وأمر بتعذيب الإمام أحمد بن حنبل حتى أُغمي عليه، ثم أُخذ إلى بيته[٤]، فلزمه طيلة حكم المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤١م)، والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م)، فلم يخرج منه[٥] إلى الجمعة ولا إلى الصلوات الخمس بالمسجد[٦]. ولم تعاود الدولة إيذاءه خشية ثورة العامة عليها[٧].

وقد تمكَّن الإمام أحمد خلال فترة السجن من دراسة مسألة خلق القرآن وتمحيصها وعرضها على نصوص القرآن والسُّنَّة، لذلك ناقش المعتصم واحتجَّ عليه بأدلة نصر بها مذهبه في حين لم يفعل ذلك عندما امتحنه المأمون سنة[٨] (٢١٨هـ/ ٨٣٣م).

وعندما تولى المتوكل الخلافة (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)،

---

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ١٠/ ٣٣٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) يبدو أن الدولة هي التي ألزمته بيته؛ لأنه لولاها ما ترك أحمد حضور صلاة الجمعة والجماعات في المسجد طول تلك الفترة. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٧).
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ولتر باتون: أحمد بن حنبل والمحنة، ترجمة: عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، دار الهلال، (١٩٥٨م)، ص١٦١.
(٨) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٣.

أنهى محنة خلق القرآن سنة (٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، ونهى عن الكلام فيها، وحثَّ على الاشتغال بالسُّنَّة[١]، واستدعى أحمد بن حنبل فأكرمه وقرَّبه منه، وجعله موضع رعايته ومشورته[٢]؛ فبدأت بذلك مرحلة جديدة من حياته، ذاع فيها صيته في قريب الأرض وبعيدها[٣]. وأصبح إماماً للسلفية، ورمزاً لانتصارها على خصومها في بغداد[٤]. وتحوَّل اسمه إلى شعار للتمسُّك بالعقيدة الإسلامية[٥].

---

(١) وأنزل أحمد بن حنبل جثة الخزاعي الذي كان قد صلبه الواثق حين أنكر عليه دعوته لخلق القرآن وحمل السلاح لمقاومته. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٦). ويُذكر أن المحنة قد استمرت أكثر من عقد من الزمن من عام (٢١٨ إلى ٢٣٧هـ). ويرى ولتر باتون أنه كان من المحتمل أن لا تستمر المحنة تلك المدة كلها لو وجد المأمون صلابة وحزماً من العلماء الممتحَنين الذين أظهروا ضعفاً وخوراً. (ولتر باتون: المرجع السابق ص١١٠)، وذكر عبد الفتاح أبو غدة أن من آثار فتنة خلق القرآن أنها أصبحت سبباً في الجرح والتعديل، ومن جملة الأسباب التي تُضعف بها الأسانيد والأحاديث، إذ جُرح بها أقوام من العلماء حين توقفوا فيها ولم يقولوا شيئاً، أو قالوا فيها قولاً عدلاً، وأصبحت وسيلة انتقام، فمن حقد على عالم اتهمه بها، فيُذهب ثقة الناس فيه (عبد الفتاح أبو عدة: مسألة خلق القرآن وأثرها في الرواة، بيروت، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بدون تاريخ، ص١٠).

(٢) من ذلك أن المتوكل كان لا يعيِّن أحداً في منصب ما إلا بعد مشاورة أحمد، فقد استشاره في تعيين يحيى بن أكثم على القضاء خلفاً لابن أبي داود (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣١٦)، وعرض المتوكل على ابن حنبل بيتاً فرفض قَبوله وهدد ابنه بالمقاطعة إن قبله (ابن الجوزي: صفة الصفوة، ط١، دمشق، دار الرفاعي، (١٩٧٠م)، ٢/ ٣٥٥) وأغدق عليه الأموال فكان لا يأخذها، وإن قبلها وزَّعها على المحتاجين في حينها. نفس المصدر ١٠/ ٣٤٥.

(٣) عبد العزيز الأهل: شيخ الأمة ص٣١١.

(٤) George makdisi; l'islam; hanbalisant -R-E-I cahier 2 - 1974; p: 242.

(٥) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، =

وبعد فتنة خلق القرآن، أمضى أحمد بن حنبل، أربع سنوات في الإحسان إلى الناس، والاجتهاد في العبادة[1]، وتقديم النصائح للخليفة المتوكل الذي كان على اتصال دائم به، يسأله عن أشياء تقع له، ويبعث إليه بالأموال[2]؛ فلم يكن يقبلها منه في غالب الأحيان، وإن أخذها وزَّعها على الفقراء في حينها ولا يدَّخرها[3].

ورُوي أنه ظل يتحرَّج من وضعه الذي آل إليه، ويتألم منه[4]، تشوُّقاً إلى العزلة، ونفوراً من الشهرة[5]، حتى وافته المنية في ربيع الأول من عام ٢٤١هـ[6] (آب/أغسطس ٨٥٥م)، وله من العمر سبعة وسبعين عاماً، فتأثر الناس أشد الأثر لوفاته، وخرجوا لتشييعه في جنازة عُدَّت أكبر جنازة[7]

= وعبد العزيز عبد الحق، وحسن عبد القادر، بيروت، دار الرائد العربي، بدون تاريخ، ص١٠٣.

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٩.

(٥) المصدر نفسه. وابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص٣٧٩.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٢.

(٧) روي أنه لما توفي أحمد بن حنبل، أسلم عشرون ألف من أهل الذمة، وفي رواية أخرى عشرة آلاف (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٢). وقد شك الذهبي في هذا الخبر واستبعده باعتراض وجيه مفاده: أن الخبر تفرد به أحد جيران أحمد بن حنبل، دون غيره من الأصحاب، فالعقل يحيل حدوث تلك الواقعة، ولا يرويها نفر ذكروا عن أحمد بن حنبل كل صغيرة وكبيرة؛ كعبد الله، وصالح. (أبو الحسين بن أبي يعلى: المصدر السابق ج١، هامش ص١٦). و يرى أنه لو أسلم عشرة أنفس من أهل الذمة، لكان عظيماً، وحرياً أن يروي هذا الخبر عشرة أشخاص (المصدر نفسه ١/ ١٦). و يبدو أن خبر إسلام بعض هؤلاء، أمر محتمل، لكن العدد مبالغ فيه، كما بولغ في تحديد عدد المشيعين لجنازة أحمد بن حنبل، فقدر بنحو ١,٣٠٠,٠٠٠ شخص، وفي رواية =

شهدها المسلمون في ذلك الزمان[1]، تاركاً وراءه أنصاراً، وثروة علمية حفظت مذهبه.

فهو قد صنَّف كُتباً في مختلف علوم الشريعة، منها:

«المسند»[2]، صنَّفه ليكون مرجعاً جامعاً لسنة الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد تضمَّن أحاديث ضعيفة، وأخرى موضوعة[3]، وقد أعاقت ضخامته، وطريقة ترتيبه على المسانيد[4] من الاستفادة الكاملة منه[5]، وإلى جانب كونه كتاب حديث بالدرجة الأولى، فقد احتوى على أصول فقه المذهب الحنبلي[6]. وهو من أهم آثار أحمد بن حنبل التي وصلتنا[7].

= أخرى أكثر من ١,٧٠٠,٠٠٠ مشيِّع. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٢).

(١) كان الإمام أحمد بن حنبل قبل وفاته، يقول لخصومه المبتدعة: «بيننا وبينكم الجنائز حين تمر». (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٢).

(٢) أملاه أحمد على ولديه في أخريات حياته، ثم تولى ابنه عبد الله ـ بعد وفاة والده ـ تنقيحه وزاد عليه من مسموعاته. (أبو زهرة: ابن حنبل ص١٩٥ وما بعدها).

(٣) عن ذلك انظر تحقيق أبي زهرة القيم في كتابه: ابن حنبل ص١٦٤ وما بعدها. وقد ذكر ابن تيمية أن ابن الجوزي، أثبت في مؤلفه: «الموضوعات»، وجود أحاديث موضوعة في مسند أحمد، ثم أشار ابن تيمية إلى أن أحمد لم يتعمَّد إيراد الأحاديث التي رواها الكذابون. (ابن تيمية: مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف، بدون تاريخ ١/ ٢٤٨).

(٤) رتَّبه على المسانيد عبد الله بن أحمد، ولم يجعله على الموضوعات مخالفاً بذلك المنهج السائد آنذاك. (أبو زهرة: المرجع السابق ص١٦٢).

(٥) ولتر باتون: المرجع السابق، تذييل المترجم ٢٨٨.

(٦) محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة، ط٥، بيروت، مؤسسة الرسالة، (١٩٨٦م)، ص١٣١.

(٧) طبع حديثاً في عدة طبعات، أشهرها الطبعة المتقنة التي حققها أحمد محمد =

ومنها: رسالة في «مسألة خلق القرآن»[١] كتبها للخليفة المتوكل بطلب منه، طلبها استرشاداً لا امتحاناً[٢]، وذكر فيها أحاديث، وأخباراً عن السلف[٣].

و«مذكرة في الصلاة»، دوَّنها لرجل أخطأ في صلاته، وقد احتفظ بها أبو الحسين ابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة[٤].

و«رسالة الرد على الجهمية والزنادقة»[٥]. تضمَّنت منهج الإمام

= شاكر عام (١٩٤٨م). في ١٦ جزءاً، غير أنه توفي ولم يكمل تحقيقه. (محمد ماهر حمادة: المصدر السابق ص١٣١).

(١) أوردها صالح بن أحمد في كتابه المحنة كما رواها غيره من الحفاظ (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٠). واحتفظ بها كذلك، أبو بكر الخلال في كتابه الجامع، وقد عثر على قسم منه في المتحف البريطاني.

Henri laoust. les premieres profissions de foi hanbalite. Damas - institut français - 1957 - p: 15.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ٣٤٠.

(٤) ١/ ٣٨ وما بعدها.

(٥) ارتاب البعض في نسبة الكتاب لأحمد، بحجة أن في سند روايته مجهولاً. (ابن القيم: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الجهمية والمعطلة، مصر، مطبعة الإمام، بدون تاريخ، ص١٠٠). وقد ذكر ابن القيم أن الكتاب أورده أبو بكر الخلال (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) في كتابه السُّنَّة، من خط عبد الله بن أحمد الذي رواه هو بدوره من نسخة والده. أما الشخص المجهول فهو الخضر بن المثنى، وهو معروف لدى الخلال، أخذ عنه أخبار كثيرة، وإن كان البعض لا يعرفه. (نفس المصدر ص١٠٠) وذكر السفاريني الحنبلي أن كتاب الرد على الجهمية قد ذكره جمع من أعلام الحنابلة منهم: القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، وابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م)، ولم ينكره أحد منهم، وقد حقق صحَّة نسبة الكتاب لأحمد، الإمامان: ابن تيمية، وابن القيم. (السفاريني الحنبلي: كتاب لوامع الأنوار البهية، حققه: محمد رشيد رضا، مصر، مطبعة المنار الإسلامية (١٣٢٣هـ)، ١/ ٥٨). =

أحمد وفكره وعقيدته[1] في قضايا أصول الدين وعلم الكلام[2]. وهي كُتيِّب صغير، في اثنين وثلاثين صفحة، نُشر حديثاً، وتوجد نسخة مخطوطة منه، بمكتبة الأزهر تحت (رقم: ١٤٠٤)[3].

ومنها أيضاً: «كتاب الزهد»، جمع فيه مؤلفه آثاراً جمَّة عن الزهد ورجاله. وهو من أعمال أحمد بن حنبل التي لم تندثر[4].

ولم يؤلف الإمام أحمد في موضوعات علم الكلام، إلا استجابة لفتنة خلق القرآن التي جرّت أهل السُّنَّة إلى صراع مرير مع المعتزلة[5]. علماً بأن مؤلفات أحمد قليلة[6] بالمقارنة إلى وزنه العلمي وإلى عمره

= ويستنتج مما سبق أن إسناد الكتاب مرفوع إلى أحمد، وبالتالي فلا غبار عليه؛ لأن الخضر بن المثنى وسيط ثانوي لا قادح فيه، انتقل إليه الكتاب عن طريق عبد الله بخط مؤلفه، ثم أوصله إلى الخلال الذي كان يعرف الخضر معرفة جيدة.

(١) من الذين أنكروا نسبة الكتاب لأحمد بن حنبل الحافظ الذهبي. (سير أعلام النبلاء، حققه شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٩٨٢م)، ٢٨٦/١١، ٢٨٧). ووافقه من المعاصرين: محمد زاهد الكوثري. (ابن قتيبة: الإختلاف في اللفظ، حققه: محمد زاهد الكوثري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٨٥م)، هامش ص٤٦).

(٢) ابن قيم الجوزية: المصدر السابق ص٢٧٤.

(٣) ولتر باتون: المرجع السابق تذييل المترجم ص٢٧٤.

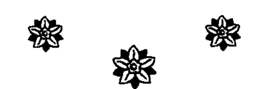
(٤) نشره محمد جلال شرف في طبعة أنيقة، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.

(٥) سبق ذكر جوانب من ذلك.

(٦) معظم مؤلفات أحمد صغيرة ما عدا المسند، و نُسبت إليه كتب أخرى منها: «رسالة في أصول الدين». (أبو الحسين بن أبي يعلى: المصدر السابق ٢٨٦/١، ٢٨٧)، وقد أنكر الذهبي نسبتها لأحمد؛ لأن فيها كلاماً مستهجناً مثل: «وناوله التوراة من يده إلى يده». (الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٦/١١، ٢٨٧)، وشكَّك كذلك في التفسير المنسوب لأحمد، فلو وجد لاعتنى به تلاميذ أحمد وأهل العلم كما اعتنوا بمصنفاته. (نفس المصدر ٥٢٢/١٣).

المديد؛ لأنه كان يحبذ حفظ العلوم عن تدوينها، وينكر على أصحابه[١] كتابة فكره، وفتاويه[٢].

ويتبين مما سبق ذكره أن مساهمة الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، في أوضاع مدينة بغداد العامة، لم تكن ذات أثر كبير في كل جوانب الحياة، لابتعاده عن مخالطة الخلفاء، وعدم توليه مناصب في الدولة، ولميله إلى الزهد، وتفضيله العزلة عن الشهرة. لكنه احتلَّ مكانة مرموقة بين علماء السلف الصالح، بفضل شجاعته، وصلابته[٣]، ونصرته لأهل السُّنَّة في فتنة خلق القرآن، فأحبَّه الناس، وحزنوا لوفاته. وبقي لشخصيته من القوة، ونفاذ التأثير في أتباعه، ما يعادل قوة آرائه التي مكَّنته[٤] من إرساء أُسس مذهب سُنِّيٍّ نُسب إليه وعُرف به.



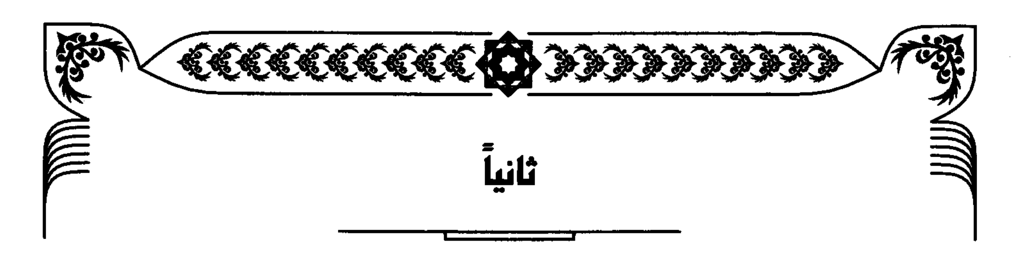
---

(١) لكنه تراجع عن موقفه، وسمح لبعض أصحابه بتدوين مسائله.
انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٤٤). ويذكر أن الحفظ رغم أهميته، يبقى التدوين هو الوسيلة الوحيدة لحفظ العلوم من الاندثار بمرور الزمن.

(٢) نفس المصدر ١/ ٣٩.

(٣) ولتر باتون: المرجع السابق ص٢٦٤.

(٤) George makdisi: quatre opuscules d'ibn aquil sur le coran bulletin des etudes oriental - tome xxiv - 1971 p: 55.



ثانياً

مذهب أحمد بن حنبل ومنهجه في الإصلاح

اتخذ الإمام أحمد بن حنبل، مواقف واضحة من قضايا عصره، فتميز بها عن غيره من الفقهاء، ووضع قواعد مذهب عُرف به، ارتكز على مسائل ومواضيع ومواقف عديدة، **منها:**

قضية الخلافة:

فهو يعتقد أنها محصورة في قريش[1]، ولا تخرج عنها ما التزمت بإقامة

---

(١) قُرنت خلافة قريش في أحاديث كثيرة بالاستقامة، وإقامة الدين وليس بالصلاة فقط، من ذلك ما رواه البخاري: أن النبي ﷺ قال: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين»، وروى الشيخان، وأحمد، وابن ماجه: أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر المسلمين بالسمع والطاعة، لمن يقودهم بشرع الله وإن كان حبشياً. [أحمد بن حنبل: «المسند»، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ٤/ ٩٤، رقم الحديث: (١٦٨٩٨)، والبخاري: «الصحيح»، دار الفكر، لبنان، ١/ ١٧١، رقم الحديث: (١٧٠)، والألباني: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، مكتبة المعارف، الرياض، ٧/ ٥٧، رقم الحديث: (٢٨٥٦)].
ويتبين من هذا الحديث أنه أثبت طاعة عامة، ولم يُخصِّصها بأية طاعة والفهم العام للنصوص، هو الذي يجمعها ويُقيدها، وفي موقف الأنصار في مطالبتهم بالخلافة يوم السقيفة دليل دامغ على عدم اشتهار أحاديث حصر الخلافة في قريش فيما بينهم أو عدم فهمهم لها بانحصارها في قريش؛ وإنما هي ـ أي: الأحاديث ـ من باب الإخبار عما سيقع مستقبلاً. مما يعني: أن الأصل هو أن الخلافة شورى بين المسلمين عامة، وليست الخلافة =

الصلاة[1]، ولم يقرَّها لغير القرشيين ما بقي منهم اثنان إلى يوم القيامة[2].

وأمر بالجهاد مع الخلفاء مهما كانت أخلاقهم[3]، والصبر على أذاهم حتى يأتي الله بالفرج، ولا طاعة لهم فيما يأمرون من المنكرات إلا في المعروف[4]. وأثبت إمامة أحدهم إذا اجتمع عليه الناس بالرضا أو بالقهر[5]. وحين استشاره بعض علماء بغداد في الثورة على الخليفة الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هجرية/ ٨٤٢ ـ ٨٧٤م)، أجابهم: «عليكم بالنُّكرة في قلوبكم، ولا تخلعوا يداً من طاعة، ولا تشقُّوا عصا المسلمين ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين»[6].

وقال للشرطة التي حاصرت بيته وفتَّشته ـ لما شاع عنه أنه يأوي علويّاً في منزله[7] ـ: «. . . وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين ـ المتوكل ـ في السِّر والعلانية، وفي عُسري ويُسري، ومَنشطي ومَكرهي، وآثره عليّ، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار»[8].

= محصورة في قريش؛ فمن اختاره المسلمون بالشورى فهو الخليفة. وعن تفاصيل هذا الموضوع انظر: عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا السياسية. وضياء الدين الرايس: النظريات السياسية الإسلامية. ومحمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية.

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلي: المصدر السابق ٢/ ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر ١/ ٢٦.

(٣) نفس المصدر ١/ ١٤٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، حقَّقه: محمد حامد الفقي، مصر، شركة مطبوعات البابي الحلبي (١٩٣٨م)، ص٧.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى ١/ ١٤٥.

(٧) حاصرت الشرطة بيت أحمد ليلاً، فلم تجد بداخله شيئاً، فتبين للمتوكل أن هناك من يكذب على الإمام أحمد (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٨) نفس المصدر ١٠/ ٣٣٧.

وقد أدَّى موقف الإمام أحمد من الخلفاء بمحمد زاهد الكوثري[1] إلى اتهامه بالتعمُّد في عدم رواية أحاديث الثورة[2] على الحكَّام الجائرين[3]، وذهب مصطفى الشكعة إلى القول بأن ابن حنبل كان

---

(١) هو من علماء الدولة العثمانية، كان على مذهب الأحناف، في الأصول والفروع، انتقل إلى مصر بعد سقوط الدولة العثمانية، فظلَّ بها حتى وافته المنية. (انظر: زاهد الكوثري: مقالات الكوثري، مقدمة الكتاب).

(٢) يعتقد ابن تيمية ـ وهو من كبار علماء الحنابلة أن الثورة المسلحة على الخلفاء، تُحدث من الفساد ما يزيد عن ظلمهم، و لذلك لا يُزال المنكر بمنكر أكبر منه، وهذا من أصول أهل السُّنَّة، والجماعة (ابن تيمية: الخلافة والملك ـ باتنة، شركة الشهاب، بدون تاريخ ص٤٧).
والحقيقة أنه ليس من الصواب تقرير مبدأ عدم الخروج المطلق على الخلفاء، كيفما كانوا، ومهما فعلوا وفي كل الظروف؛ لأن هذا الموقف يدفع الحاكم إلى التمادي في جوره، ويتولى السلطة من لا يستحقها، ويورث في الأمة الذل، والسلبية، ويُعطل مبدأ الشورى، وحق الأمة في اختيار من يحكمها بكل حرية.
وهنا نسأل: كيف يتسنَّى للحنابلة إحياء الخلافة الراشدة التي أوجب فقههم إقامتها (نفس المصدر ص٢٨) للتخلص من الحكم غير الراشدي؟ وربما كان للسكوت عن الخلفاء وعدم الثورة عليهم من الضرر ما يفوق الضرر الذي قد يترتب عن الثورة عليهم. لذلك يجب استخدام فقه الموازنات لترجيح الثورة من عدمها. وكذلك تحديد الوسائل والقدرات واختيار الظروف المناسبة، كما أنه ليس بالضرورة أن إرجاع الخلافة الشورية يتطلب الثورة وسفك الدماء، فهناك طرق سلمية يُمكن استخدامها لاسترجاع الخلافة الراشدة. ومن الحقائق المُرَّة في التاريخ الإسلامي أن الخلافة الإسلامية عبر تاريخها الطويلة لم تعرف إلا خمسة خلفاء راشدين، ولم تعرف الخلافة العباسية طيلة ٥ قرون، خليفة راشداً واحداً، حتى قال أحد خلفائها: «أما يستحي بنو عباس أن لا يكون فيهم مثل عمر بن عبد العزيز؟». (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، (١٩٦٥م)، ٦/ ٩٥). ولذلك السبب فمنذ أن فقد المسلمون الخلافة الراشدة، لم يقدروا على إرجاعها مُنذ نحو ١٤ قرناً.

(٣) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري ـ حقَّقه: محمد زاهد الكوثري، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٨٤م)، مقدمة المحقق ص١٧.

ذا نزعة عبَّاسية في مذهبه السياسي[1].

ومما يؤيد رأيَ هذا الأخير، أن أحمد بن حنبل مدح العباسيين بقوله: «وَلَد العباس أقوم بالصلاة وأشد تعاهداً للصلاة من غيرهم»[2]. لكن يبدو أن الرجل لم يمنعه من الخروج عليهم إلا قلة إمكاناته، وخوفه من العواقب الوخيمة التي قد تنجرّ عنه، وليس حبه لهم، وركونه إليهم. فقد عبَّر عن موقفه بصراحة حين قال عنهم: «من دعا منهم إلى بدعة فلا تجيبوه... وإن قدرتم على خلعه فاخلعوه»[3]. كما أنه لم ينكر على أحمد بن نصر الخزاعي (ت٢٣١هـ/ ٨٤٥م) عندما كفّر الخليفة الواثق، وثار عليه[4]، بل أثنى عليه حين جاد بنفسه في سبيل الله[5]، واعترف له بالصبر على ما لم يصبر هو عليه[6].

والموضوع الثاني يتعلق بالتقليد المذهبي:

وللتقليد عند أحمد بن حنبل معنيان:

المعنى الأول: عبَّر عنه بقوله: «لا تقلِّدني، ولا تقلِّد مالكاً، ولا الأوزاعي، ولا النخعي، ولا غيرهم، وخُذ الأحكام من حيث

---

(١) مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ط١، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، (١٩٧٩م)، ص١٩٢.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ١٤٤.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٣٠٥.

(٤) كان أحمد بن حنبل، قد كفَّر كل من قال بخلق القرآن صراحة وبدون استثناء (انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٧٦). فهل كفّر ابن حنبل الخلفاء المأمون والمعتصم، والواثق، الذين قالوا بخلق القرآن؟! لم يشتهر عنه أنه كفَّرهم، لكن حكمه العام بتكفير كل القائلين بخلق القرآن يستلزم تكفير هؤلاء الخلفاء وإن لم يجاهر بذلك.

(٥) ابن كثير: البداية ١٠/ ٣٠٦.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٩.

أخذوا من الكتاب والسُّنَّة»[1]. ويعني به الحث على العودة إلى القرآن والحديث، لمعرفة وأخذ الدليل الشرعي في مسائل الفقه. ولم ينسَ العاميَّ، فقد جعل له ضرباً من الاجتهاد، هو البحث عن العالم الأوثق، والأعلم عنده. وأما من كان من أهل العلم فلا يقلِّد أحداً[2].

وهذا التقليد ـ الذي نهى عنه أحمد بن حنبل ـ، من شأنه أن يصرف الناس عن النصِّ الشرعي، وينفِّرهم من الاجتهاد، ويعطل طاقاتهم الفكرية، ويبعث فيهم الجمود والتعصب، وينتهي بهم إلى تقديس الأشخاص وتقديمهم على الشرع الصحيح، والعقل الصريح، والعلم الصحيح.

أما المعنى الثاني للتقليد عند أحمد بن حنبل: فيقصد به الحث على التمسُّك بالمأثور، واتباع السلف الصالح، والابتعاد عن الاشتغال بالرأي، والقياس، والكلام، والبدعة[3]. ومن يعتقد خلاف ذلك فهو يعمل على تعطيل السُّنَّة، وإبطال الأثر حسب رأي أحمد[4].

وقد تطابقت آراء أئمة الفقه مع موقف ابن حنبل من التقليد في مفهومه الأول[5]. فيقول مالك بن أنس: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسُّنَّة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسُّنَّة فاتركوه»[6].

---

(١) ولي الله الدهلوي: الإنصاف في أسباب الاختلاف، حقَّقه: عبد الفتاح أبو غدة، ط٣، بيروت، دار النفائس، (١٩٨٣م)، ص١٠٥.
(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٣.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) انظر: ولي الله الدهلوي: المرجع السابق ص١٠٤ وما بعدها.
(٦) ناصر الدين الألباني صفة صلاة النبي، الطبعة الأولى الجديدة، الرياض، مكتبة المعارف، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص٤٨.

وقال أبو حنيفة: «لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي»[١].

وروي عن الشافعي قوله: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي». وفي رواية: «إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا كلامي عُرض الحائط»[٢].

ويرى ابن تيمية أن التقليد الذي ذمَّه ابن حنبل، ليس من مقتضيات الشرع[٣]. أما الذي دعا إليه فهو من لوازم الشريعة التي حثَّ عليها الشارع الحكيم[٤]. ويعني به الاتِّباع.

۞ والموضوع الثالث يتعلق بموقف أحمد بن حنبل من العقل وعلم الكلام:

فهو يعتقد أن العقل ضرب من العلوم الضرورية الغريزية، التي اختص بها الإنسان عن غيره من المخلوقات[٥]. وذكر أن الله قد أوجب النظر العقلي على العباد للوصول إلى المعرفة الاستدلالية، وللحكم بين الناس، وتبيين الخطأ من الصواب، واستنباط الأحكام التي تُعرف بالبحث والبرهان[٦]. وقد استدل على ما ذهب إليه بآيات قرآنية عديدة[٧]؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ

---

(١) ولي الله الدهلوي: المرجع السابق ص١٠٤.

(٢) المصدر نفسه ص١٠٤، ١٠٥.

(٣) ابن القيم الجوزية: إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، حقَّقه: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مصر، مطبعة السعادة، (١٩٦٥م)، ٢/ ٢٤٠.

(٤) نفس المصدر ٢/ ٢٤٨.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨١.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

﴿ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥][1].

وقسّم العلم إلى نوعين:

الأول: وهو معرفة فطرية يحسُّها الإنسان في ذاته؛ كالصحة، والمرض، واللذة والألم[2].

والثاني: هو علم استدلالي، لا يدرك إلا بالكشف، والاستنتاج كالنتائج المستنبطة[3]. ويرى أنه لا سبيل للتمييز بين الحق والباطل، إلا بالفكر، والجدال الحسن الذي ثبت عن الرسل[4].

واتهم الباحث حسين القوتلي ابن حنبل بالتناقض، عندما آمن بغريزة العقل من جهة، وأنكر بشدة الاشتغال بالكلام، والرأي من جهة أخرى[5]. والحقيقة أن أحمد بن حنبل، لم يكن متناقضاً مع نفسه، وإنما أخذ على المتكلمين اتخاذهم العقل ذريعة للانفلات من الشرع، وجعلهم إياه مصدراً للمعرفة بدلاً من الوحي[6]. أما أن يكون وسيلة للبحث والفهم، والاستنباط، فذلك الذي أوجبه الله على عباده[7]. وهل كان في مقدور ابن حنبل نقد الحديث ورجاله، دون عقل حاذق ذكي، وفكر ثاقب ناقد مُمحِّص، واطلاع واسع بالشريعة، والتاريخ واللغة...؟.

وقد اشتد أحمد بن حنبل، في انتقاده لأصحاب الرأي حين

---

(١) للمزيد انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ابن مفلح الحنبلي: الآداب الشرعية ١/ ٢٣٢.
(٥) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، حقَّقه حسين القوتلي، ط٣، بيروت، دار الكندي، (١٩٨٢م)، ص٦٠.
(٦) ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٥.
(٧) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨١.

بدّعهم وضلّلهم، واتّهم بعض أئمة الحنفية بالزيغ والانحراف[1]؛ لإفراطهم في الاعتماد على القياس في استنباط الأحكام، وتركهم لكثير من السُّنَّة[2].

وقد غيَّر موقفه المتشدد من علم الكلام، وأهله[3]، حين قال: «كنا نسكت[4]، حتى دفعنا إلى الكلام فتكلّمنا»[5]، فجاء تحوُّله هذا استجابة للظروف الفكرية الملحَّة التي عاشها أيام محنته بعد فترة من البحث، وإعمال النظر في القرآن الكريم والسُّنَّة، وقد توِّجَت تلك المرحلة بتأليف كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» وفق منهج سُنِّي حنبلي[6]، ردَّ فيه على المتكلمين وأنكر عليهم نهجهم غير الشرعي، في أسسه، ووسائله، وغاياته[7]، حين

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: نفس المصدر ١/ ٣٥.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٥، ٢/ ٢٨. ويرجع سبب مبالغة أبي حنيفة في الرأي والقياس، إلى عدم اطلاعه على أحاديث كثيرة صحيحة، لم تكن جمعت في عهده، لذلك وجدت له آراء مخالفة للأحاديث الصحيحة دون قصد منه. (ناصر الدين الألباني: المرجع السابق هامش ص٤٧).

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٥.

(٤) اختلف الحنابلة بعد إمامهم في مشروعية علم الكلام، بعضهم تمسَّك بموقف أحمد الأول المنسوخ لكن معظمهم جوَّز الاشتغال به؛ لأن الحاجة داعية إليه، وروَوا عن أحمد بن حنبل، أنه فضَّل الذي يتكلم في أهل البدع عن الملتزم بالعبادات الساكت عن الكلام في أهل البدع. وعن ذلك انظر: ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٥) نفس المصدر ١/ ١١.

(٦) ذكر سامي النشار أن كثيراً من مؤرِّخي الفرق الإسلامية، أنكروا أن يكون لأحمد بن حنبل مذهبه الكلامي. ويرى هو شخصياً أنه من العسف أن ننكر لشهيد محنة القرآن مذهبه الكلامي، وهو الذي ثبت في المحنة وناقش خصومه. (سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط٣، مصر، دار المعارف، (١٩٦٥م)، ١/ ٢٥٢).

(٧) ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٥.

ابتعدوا عن الكتاب، واتفقوا على معارضته[1].

وناقش ابن حنبل أهل الكلام - في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة»[2] - في قضايا كلامية عديدة، منها: مسألة علو الله واستوائه على العرش. فأكَّد أن الله مستوٍ على عرشه في السماء ردّاً على القائلين بأن الخالق في كل مكان غير مستوٍ على عرشه[3]. ثم أشار إلى أن الله لا يوجد في كل مكان بذاته، وإنما علمه هو الذي لا يخلو موضع منه في الكون[4]، ونزَّه الباريَ أن يكون في الأماكن القذرة، واستدل على علوِّ الله بآيات كثيرة، وضرب لذلك أمثلة عديدة لتأييد ما ذهب إليه[5].

---

(١) وأخذ عليهم استخدامهم المتشابه من القول، قصد التلبيس به على جهَّال الناس. (ابن مفلح: المرجع السابق ١/ ٢٣٥).

(٢) عدَّ سامي النشار كتاب الرد على الجهمية، أقدم أثر يكشف عن منهج أحمد الكلامي، ويعد كذلك أقدم ما وصلنا عن عقيدة السلف الأولين. (سامي النشار: المرجع السابق ١/ ٢٣٥).

(٣) ابن قيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الجهمية والمعطلة، القاهرة، مطبعة الإمام، بدون تاريخ، ص٩٥.

(٤) نفس المصدر ص٩٧.

(٥) ذكر من الآيات قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، و﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وضرب على ذلك عدة أمثلة، **منها**: تساءل هل عندما أوجد الله الكون من عَدَم، خَلَقه داخل ذاته أم خارجها؟ ولكي يجيب عن ذلك فرض ثلاث احتمالاتً؛ **أولها**: إن قال الجهمي: أوجده داخل ذاته فقد كفر؛ لأنه ادّعى أن الجن والإنس والشياطين ممتزجة فيه. **وثانيها**: إن قال: خلقه خارج نفسه ثم دخل فيه، فقد كفر؛ لأنه زعم أن الباريء داخل كل وحش ووسخ. **وثالثها**: إن قال: أوجده خارج ذاته ولم يمتزج به فقد رجع هذا الجهمي إلى قول أهل السُّنَّة. (ابن قيم الجوزية: المصدر السابق ص٩٧).
واستخدم أحمد بن حنبل المنطق القرآني في ردِّه على الجهمية فقال: الله تجلى للجبل - بناء على طلب موسى عليه السلام - فلو كان على الجبل - بناء على زعمكم أنه في كل مكان - لم يكن التجلِّي، ولم يوجد أي فارق في رؤية الجبل قبل =

وقد تضمن كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة» مناقشات كثيرة[1]، أظهر فيها ابن حنبل إلمامه بمقالات عصره، وتمكُّنه من الأسلوب الجدلي، مما ينفي تُهمة أنه رفض كل شكل من أشكال المحاكمات العقلية تقريباً[2].

ويرى الشيخ تقي الدين ابن تيمية أن أحمد بن حنبل ذمَّ الكلام، وأهله، لأدلته الفاسدة، ومقالاته الباطلة، ولم يرفضه لمجرد مصطلحاته[3]. في حين ظنَّ المتكلِّمون أن أهل الحديث مقلِّدون[4]، منكرون للاستدلال العقلي[5]، وليسوا أصحاب نظر وفكر[6].

= التجلِّي وبعده. (نفسه ص٩٧)، وهناك نماذج كثيرة ذكرها ابن حنبل في مناقشته لخصومه. انظر: ابن القيم: المصدر السابق ص٩٤ وما بعدها.

(١) انظر: ابن القيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية ص٩٥ وما بعدها.

(٢) صاحب هذه التهمة المستشرق روم لاندو، ذكرها في كتابه «الإسلام والعرب»، ترجمة: منير البعلبكي، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، (١٩٦٢م)، ص١٩٤.

(٣) بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ، ص٢٢٤.

(٤) اعترف ابن تيمية بوجود فئة من أهل الحديث ضيقة الفكر، متساهلة في قَبول الأحاديث الضعيفة والموضوعة. (نقض المنطق، صحَّحه محمد حامد الفقي، القاهرة، مكتبة السُّنَّة المحمدية، بدون تاريخ، ص٢٣).
وفي مقابل هؤلاء ذكر ابن تيمية المتكلمين وعدَّهم من بين الذين يتحدثون بغير علم، معتمدين على أقيسة تفيد جهلاً وضلالاً. (نفسه ص٢٣). ومن أسباب انحرافهم: تقديم الرأي على الشرع، واتباعهم الهوى دون الوحي. (ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، حققه: محمد رشاد سالم، ط١، السعودية، جامعة محمد بن سعود، (١٩٨١م)، ٥/ ٧).

(٥) ذكر ابن تيمية أن أصحاب الحديث لم ينكروا جنس النظر، وإنما أنكروا باطلهما، وهذا ما لم يدركه المتكلمون (نقض المنطق ص٤٧).

(٦) المصدر نفسه ص٤٧.

ويتبين مما سبق أن ابن حنبل لم يستحسن علم الكلام، ولم يَدْعُ إليه، لكنه مارسه وسمح به لمصلحة شرعية، ولم يحرِّمه مطلقاً، وفرَّق بين المعتزلة وبين من اشتغل بالكلام للرد عليهم.

❁ والموضوع الرابع يتعلق بموقف أحمد بن حنبل من التأويل:

وللتأويل عدة معانٍ أشهرها البيان والتفسير[1]، والمعنى الثاني هو: صرف المعنى الظاهر للّفظ عن معناه الظاهر المتعلق بالصفات، إما بنفيها وتعطيلها كما يعتقد المتكلمون[2]، أو بإثباتها مع الإيمان بعدم مماثلتها لصفات البشر كما هو الحال لدى أهل الحديث[3].

فالتأويل تأويلان: تأويل صحيح قال به السلف وأهل الحديث، وتأويل فاسد تحريفي قال به المتكلمون؛ كالمعتزلة ومن تأثر بهم.

ويتفق غالبية أصحاب أحمد بن حنبل على أن إمامهم لم يؤوِّل أية صفة من صفات الخالق بما فيها صفات الإتيان والمجيء[4] التي قيل أنه أوَّلها[5]. فقد روى الشيخ أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) أن الإمام أحمد بن حنبل لم يؤوِّل إلا ثلاثة نصوص مأثورة[6]. غير أن الشيخ

---

(١) كان المتقدمون يكثرون من استخدام لفظ التأويل ويقصدون به البيان والتفسير؛ كالطبري الذي أكثر من استخدامه بمعنى التفسير (محمد لبيب: محاضرات في السلفية، البليدة، دار ابن تيمية، بدون تاريخ، ص٣٣). وهذا الذي تقصده الآية الكريمة: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤].

(٢) ابن قيم الجوزية: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، اختصره محمد بن الموصلي، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ، ١/ ١٢.

(٣) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢/ ١٤.

(٤) روى الإمام أحمد أول قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. بـ«وجاء ثوابه». (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٢٧).

(٥) ابن تيمية: مجموع فتاوى ٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٧.

(٦) هي: (الحجر الأسود يمين الله في الأرض)، وحديث: «**قلوب العباد بين** =

ابن تيمية أنكر هذا الخبر، وعقَّب عليه بقوله: «فهذه الحكاية كذب على أحمد، لم ينقلها عليه أحد بإسناد، ولا يُعرف أحدٌ من أصحابه نقل عنه ذلك، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يُعرف: لا علمه بما قال، ولا صدقه فيما قال»(١).

وقد أخذ ابن حنبل بالتأويل الصحيح ـ الذي يعني: التفسير والبيان ـ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة] ولم يأخذ به كما يفهمه المتكلمون أصحاب التأويل الفاسد.

بمعنى أن أحمد لم يصرف تلك الآيات عن ألفاظها الظاهرة، وإنما فسَّرها، وبيّن أن الله مع جميع مخلوقاته بعلمه وليس بذاته. لذلك أنكر على من أخذ بآخر الآية السابقة، وتغافل عن أولها الذي أثبت ما ذهب إليه أحمد بن حنبل(٢) وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق].

والموضوع الخامس يتعلق بموقف أحمد بن حنبل من قضية خلق القرآن:

فقد أكَّد الإمام أحمد (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)(٣) أن: «القرآن علم الله،

= **أصبعين من أصابع الرحمٰن»**، وحديث: «**إنما أجد نَفَس الرحمٰن من قبل اليمن»**. ابن تيمية المصدر السابق ٥/ ٣٩٨.

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن قيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية ص٩٤.

(٣) كان في محنته قد توقف عن الخوض في المسألة، وكان يقول: «القرآن كلام الله =

وعلم الله غير مخلوق»[1]، ومن قال مخلوق فهو كافر[2]. وفرّق بين الأمر والخلق اتباعاً للآية الكريمة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وجعل القرآن من أمر الله وعلمه، وليس من خلقه، لقوله سبحانه: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]. و﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]. وكفّر من قال بأن علم الله مخلوق. ومن قال: إنه لا يدري علم الخالق أهو مخلوق أو ليس مخلوق، فهو كافر أشر ممن يقول: مخلوق[3].

ويعتقد ابن تيمية أن أحمد بن حنبل لم يقل: إن القرآن قديم، غير أن أناساً فهموا بما أنه ليس مخلوقاً، فهو قديم[4]. وذكر محمد أبو زهرة أن تلك الرواية كذب عن ابن حنبل انتشرت عنه في القرن (الرابع الهجري/ ١٠م)[5].

وقد تعرَّض ابن حنبل لانتقادات لاذعة، وُجهت إليه لموقفه من خلق القرآن، منها أن المقبلي اليماني اتَّهمه بالسلبية والجمود، عندما جعل تلك القضية في مرتبة التوحيد[6]. ثم قال فيه: «وغفر الله لأحمد، فقد بلغ في هذه المسألة[7] ما أمكنه من التعصب حتى صار يركل كل

= لا أزيد عليها». (الطبري: المصدر السابق ٧/ ٢٠١). وبعد دخوله السجن درس القضية من كل جوانبها، واتخذ موقفاً نهائياً منها.

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٣.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٧٦.

(٣) المصدر السابق ١/ ٤١٤.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٦/ ٣١٣.

(٥) أبو زهرة: المرجع السابق ص١٢٤.

(٦) محمد المقبلي اليماني، كتاب «العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ»، ط١، مصر، بدون ناشر، (١٣٢٨هـ)، ص٢٧١.

(٧) يرى المقبلي اليماني أن الله لم يصف القرآن بالخلق أو عدمه، وإنما وصفه بأنه =

من خالفه فيها ولا يقبل روايته»[1]. وانتقده ابن علي الشوكاني حين قال: «جعل البعض قضية خلق القرآن من أعظم مسائل الدين، وهي في الحقيقة من فضول العلم، صان الله منها الصحابة والتابعين»[2].

وبيَّنت مواقف ابن حنبل من مسألة خلق القرآن، أنه لم يبق جامداً طيلة محنته، وإنما تكيف مع أوضاع عصره، وناقش خصومه، وأفصح عن رأيه فيها بوضوح[3]. ولكنه كان قاسياً، في حكمه على معارضيه، حتى بلغ به الأمر إلى تكفير الواقفية[4]، وعدهم أشر من القائلين بخلق القرآن[5].

= غير ذي عوج. وهو كلام الله حقيقة، بلا كيف، والخوض في ذلك؛ يعني: إحداث بدعة ثانية مقابل الأولى. (المقبلي: المرجع السابق ص٣٠٤، ٣٠٥).

(١) نفس المرجع ص٣٠٣.

(٢) عبد الفتاح أبو غدة: المرجع السابق ص١٠.

(٣) توجد مسائل مرتبطة بقضية خلق القرآن، منها اللفظ بالقرآن، فقد تواتر عن أحمد أنه أنكر على من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، أو لفظي به غير مخلوق. أما ما روي عنه: لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو كذب عليه على رأي ابن تيمية. (ابن تيمية: كمجموع الفتاوى ٧/ ٦٥٩).
وربما قال ذلك سدّاً للذريعة من إطلاق مخلوق على لفظ القارئ؛ لأنه يحتمل الأمرين من جهتين. ويبدو أنه أحسَّ أن كلامه مجمل لم يوقف التيار الجارف، فاضطر إلى تفصيل المسألة حين قرر أن التلاوة ـ وهي صوت العبد ـ مخلوقة، وأن المتلو ـ وهو القرآن ـ غير مخلوق، والكتابة مخلوقة، والمكتوب غير مخلوق، وصوت القارئ المسموع مخلوق. (ابن قيم الجوزية: مختصر الصواعق المرسلة ص٣١٣، ٣١٤). وهناك قضايا أخرى مرتبطة بعلم الكلام منها: الحد، والجسم، والحرف، والصوت، لكن ليس هنا مجال تفصيلها.

(٤) هم الذين توقفوا عن الخوض في مسألة خلق القرآن، ربما لالتباس الأمر عليهم، أو لتنزُّههم عن الخوض في مسألة لم يعرفوها، ولم تُثَر في عهد السلف الصالح. وكان الإمام أحمد من بين هؤلاء في بداية محنته. (الطبري: المصدر السابق ٧/ ٢٠١).

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٤١٤.

❁ **والموضوع السادس يتعلق بموقف أحمد بن حنبل من مسائل الاعتقاد:**

فقد اعتمد في فهمه لمسائل العقيدة على حصر مصدر التلقي في الكتاب والسُّنَّة[1]، وإثبات كل ما أثبته الشرع[2]، والبعد عن التأويل التحريفي المؤدي إلى التعطيل[3]. وفي **ضوء ذلك اتخذ مواقف واضحة من قضايا زمانه، منها:**

مسألة صفات الله:

أكَّد أنها تُمرُّ كما جاءت، ولا تؤوَّل[4] على طريقة أهل الكلام، فالله حيٌّ لا كالأحياء، وشيء لا كالأشياء[5]. وهو فوق السماء السابعة

---

(١) ولي الله الدهلوي: المرجع السابق ص١٠٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: الروح، حققه: محمد إسكندر يلدا، ط١، بيروت، دارالكتب العلمية، (١٩٨٢م).

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٦٥.

(٤) إن عدم تأويل أحمد للصفات كما يعتقده هو ليس جموداً منه ولا من الحنابلة من بعده، وإنما هو حذر من الخوض في الغيوب التي أشير إليها بألفاظ لا يدرك العقل حقائق كُنهها، ما دامت لم توضع أمام العيون البشرية، وكذب على أحمد والحنابلة من رماهم بالتشبيه والدعوة إليه. (عبد العزيز الأهل: المرجع السابق ص٣٣٠). ويرى جولد تسيهر أن أهل السُّنَّة يفسِّرون الصفات حرفيّاً ويأخذونها على ظاهرها، وأن الحنبلية على الخصوص قاتلت لذلك الفهم. (جولد تسيهر: الشريعة والعقيدة ص٩٦).
وهذا تحامل من جولد تسيهر على أهل السُّنَّة الذين صرَّحوا مراراً ـ ومنهم الحنابلة ـ أنهم لا يعتقدون التشبيه. وقد ألف علماؤهم في القرن (الثالث الهجري) ثلاثة كتب هامة في مذهب السلف والرد على خصومهم، وهي: «الرد على الجهمية والزنادقة» لأحمد بن حنبل، و«الرد على الجهمية» لأبي سعد عثمان الدارمي، و«كتاب التوحيد» لابن خزيمة، وهذه الكتب مطبوعة ومتداولة بين الناس.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٦٥.

بائن عن خلقه لا يخلو مكان من علمه. وسميعٌ بصير مستوٍ على عرشه بلا كيف[1]. وينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء وكما أراد، وليس كمثله شيء[2].

ويرى الإمام أحمد أن التشبيه هو أن نشبِّه صفات الله بصفات البشر؛ كأن نقول: بصر الخالق كبصر الإنسان[3]. أما إثبات صفاته مع نفي مماثلتها لصفات البشر فلا يعد ذلك تجسيماً ولا تمثيلاً[4]. وقد عَدَّ ابن القيم منهج أحمد بن حنبل[5]، المسلك السليم، وما عداه فهو التعطيل المحض، والتناقض الذي لا يثبت لصاحبه قدم في النفي، ولا في الإثبات[6].

وأما موقفه من مسألة الإيمان:

فقد قرر أنه قول وعمل، ونية، وتمسُّكٌ بالسُّنَّة[7]، يزيد وينقص، ويُستثنى فيه[8]. ومن قال: إن الإيمان قول بلا عمل، أو أنه معرفة في القلب لا يُتكلم بها، أو يزيد ولا ينقص، أو لا يُستثنى فيه، أو أن إيمانه؛ كإيمان الملائكة فهو مرجئ[9]. ومن سُئل: أمؤمنٌ أنت؟ عليه أن يجيب: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، أو يقول: آمنت بالله

---

(١) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول ٢/ ٢٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن القيم: الروح ص٣٥٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) يرى ابن تيمية أن معتقد الإمام أحمد، هو نفسه اعتقاد السلف (درء تعارض العقل والنقل، ٥/ ٥).

(٦) ابن القيم: مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٢٧.

(٧) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٢٤.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) نفس المصدر ١/ ٢٥.

وملائكته وكتبه ورسوله[1].

والمسألة الثالثة تتعلق بالقدر:

فيعتقد الإمام أحمد أن القدر خيره وشره، قليله وكثيره، ظاهره وباطنه، حلوه ومره، محبوبه ومكروهه، حسنه وسيئه، أوله وآخره، كله من الله قضاءً وقدراً[2]، وهو سبحانه الخالق لما يُريد، والفعال لما يشاء، له الحجة البالغة على خلقه[3].

ويرى أبو زهرة أن أحمد بن حنبل ذمَّ القدرية، ولم يجادلهم، ولم يحاول إقامة الدليل العقلي لإبطال ما انتحلوه. واكتفى بإيراد البراهين الشرعية إيماناً منه بأن كل ما ثبت بالشرع لا يحتاج إلى دليل[4].

وأقول: إن الإمام أحمد أعطى الأولوية لحجج القرآن والسُّنَّة في مناقشة خصومه، لكنه لم يقتصر عليها، فقد جادل المعتزلة في مسألة خلق القرآن. واستخدم في جداله للقدرية شتى أنواع الأدلة والأمثلة لإقامة البينة عليهم، من ذلك قوله: «ومن زعم أن الزنا ليس بقدر، قيل له: أرأيت هذه المرأة حملت من الزنا وجاءت بولد، هل شاء الله ﷻ أن يخلق هذا الولد؟ وهل مضى في سابق علمه؟ فإن قال: لا، فقد زعم أن مع الله خالقاً، وهذا هو الشركُ صُراحاً»[5]. وقال: «من زعم أن قتل النفس ليس بقدر من الله ﷻ فقد زعم أن المقتول مات بغير أجله، وأيُّ كفر أوضح من هذا؟»[6].

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٢٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أبو زهرة: ابن حنبل ص١٣٠.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٢٥، ٢٦.

(٦) نفس المصدر ١/ ٢٦.

ولم يمنع إيمان الإمام أحمد بن حنبل بالقضاء والقدر من الأخذ بالأسباب، ولم يوقعه في الجبر والسلبية[١]. ولم يدفعه إلى مسايرة الجبرية والجهمية في نفي قدرة الإنسان على الفعل[٢].

والمسألة الأخيرة ـ الرابعة ـ تتعلق بالصحابة:

فدعا ابن حنبل إلى نشر فضائلهم، والتوقف عمَّا شجر بينهم[٣]. ويعتقد أنهم خيرُ الناس بعد النبي ﷺ، في مقدمتهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ﷺ[٤]. وهم كلهم عدول، ولا عِصمة لأحد بعد الرسول ﷺ[٥]. وكَفّر من تبرأ منهم، أو سَبَّ عائشةَ أم المؤمنين، أو اتَّهمها في عرضها[٦]، ولم يتعرض لمعاوية بن أبي سفيان بأذى، ورأى أنَّ له فضلاً في الإسلام[٧]، وأمسك عن ابنه يزيد[٨] وترك أمره لله[٩]. وتبرَّأ من الشيعة الذين يحتقرون الصحابة[١٠]، ويسبُّونهم، ويكفِّرون بعضهم[١١].

---

(١) ثبت ذلك من خلال مواقف أحمد العملية، خاصة في محنة خلق القرآن.
(٢) المقريزي: الخطط، بيروت، دار العرفان، بدون تاريخ، ٣/ ٢٩٧، ٢٩٨.
(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٠.
(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٠.
(٥) نفس المصدر ١/ ٣٠٤.
(٦) نفس المصدر ١/ ٢٧.
(٧) نفس المصدر ١/ ٢٧٢.
(٨) اختلف الحنابلة، من بعد إمامهم في أمر يزيد بن معاوية، فبعضهم أجاز ذمه، وبعضهم الآخر توقف فيه وترك أمره لله. وطائفة أخرى جعلته من المخطئين. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).
(٩) نفس المصدر ٢/ ٢٧٢.
(١٠) كفَّرت جماعة من الحنابلة الشيعة والخوارج، لاعتقادهم سبِّ الصحابة، وتكفيرهم. (ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول، حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٩٨٧م)، ص٢٧٢).
(١١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٣.

وقد اعتمد الإمام أحمد بن حنبل في فهمه لمسائل الاعتقاد على المنهج السلفي حين قدَّم الشرعَ على العقل، وابتعد عن التأويل كما يفهمه أهل الكلام، واستدل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وقد صاغت هذه المنطلقات نظرته لمجتمعه وموقفه منه، ويوضحه الموضوع التالي:

❁ الموضوع السابع المتعلق بموقف أحمد بن حنبل من طوائف مجتمعه:

فقد كان الإمام أحمد مطَّلِعاً على مقالات عصره، ومُلِمّاً بها[(١)]، ولم يتوانَ في إبداء رأيه فيها وإصدار حكمه عليها.

فالخوارج في اعتقاده فئةٌ مارقةٌ عن الدين، فارقوا الملَّة[(٢)]، وحملوا السيف على الأُمة، وانتهكوا حُرُماتها، وأعلنوا الثورة على الخلفاء[(٣)].

وعَدَّ طائفةَ الشيعة من الذين يسبُّون الصحابة، ويكفِّرون غالبيتهم[(٤)]، وهم في نظره يهود الأمة الإسلامية، وليس لهم من الإسلام شيء[(٥)].

وأما الجهمية فهم في رأيه كفار زنادقة أعداء الله، قالوا بخلق القرآن، وأنكروا كلام الله[(٦)]. وألحق فرقة القدرية بالمجوس، وأقوالهم

---

(١) ثبت ذلك من خلال مطالعة ما تركه الإمام أحمد من آثار علمية.
(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٣.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٣.
(٤) نفس المصدر ١/ ٣٦٧.
(٥) نفس المصدر ١/ ٣٣.
(٦) نفس المصدر ١/ ٣٢.

تضارع عقائد النصارى، وهم أصل الزندقة[1].

وأهل الاعتزال جعلهم والقدرية سواء، قالوا برأيهم، ودانوا بدينهم، وكذَّبوا بعذاب القبر والشفاعة والحوض[2].

والمرجئة انتقدهم في دعواهم أن الإيمان قولٌ بلا عمل، فمن آمن بلسانه، ولم يعمل فهو مؤمن حقّاً، لذاك عَدَّ قولهم أخبث الأقاويل وأضلَّه، وأبعدَه عن الهدى[3].

وأصحابُ الرأي هم في اعتقاد أحمد بن حنبل أهلُ بدعة، جَهَلَةً، ضالُّون طلاب دنيا، تركوا آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، واستمسكوا بالاستحسان والرأي[4].

وأما الصوفية فقد أنكر عليهم الإمام أحمد منهاجهم، وموضوعاتهم[5]. فمنع الخوض في الخَطَرات، والوساوس[6]،

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٢.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٣٢.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٣٢.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٦.

(٥) من الصعب على أحمد السلفي أن يقبل التصوف القائم على الوجدان والمنامات والأحوال الغريبة؛ فقد رُوي أن أبا حمزة الصوفي سمع ديكاً يصيح، فقال: لبيك، فاتُّهم بالزندقة، وسمع يوماً صوت شاة، فقال: لبيك لبيك يا سيدي، فغضب عليه صاحبه الحارث المحاسبي، ونهض إليه ممسكاً سكيناً ليقتله، ثم هدَّده إن لم يتب ليقتلنَّه. (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٦)، فإذا كان المحاسبي رفض ما صدر عن صاحبه الصوفي، فهل يقبل الإمام أحمد تلك الأحوال، وهو السلفي الملتزم؟.

(٦) ليس ذلك بدعة، فقد تكلم القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية عن الشيطان كثيراً، ووصفا وساوسه، ومداخله، وخطراته، وطرق التخلص منه، وو سائل مقاومته. وقد ألَّف في ذلك جماعة من السلفية كتباً قيمة انطلاقاً من الكتاب السُّنَّة، أشهرها: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي، و«إغاثة اللهفان من مصائد =

والإشارات، وكان يقول: الكتاب العزيز والسُّنَّة الشريفة هو المأثور[1]. ونهى عن حضور مجالس الحارث المحاسبي[2] (ت٢٤٣ هـ/ ٨٥٧م) التي كان يعقدها مع أصحابه المتصوفة[3]، وذمَّه وحذّر منه، وقال فيه[4]: «الآفة من حارث»[5].

= الشيطان» لابن قيم الجوزية، والكتابان مطبوعان ومتداولان. وألّف السلفي المعاصر: عمر سليمان الأشقر، كتاب: «عالم الجن والشياطين».
لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن المتصوفة توسَّعوا كثيراً في موضوعات الوساوس أكثر من غيرهم. من ذلك ما كتبه أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين. (طبعة دار الكتاب العربي، مج٣، ٨/ ١٣٩٠ وما بعدها).

(١) أبو الحسن ابن أبي يعلي: المصدر السابق ٢/ ٢٧٩.
(٢) يرى تاج الدين السبكي أن قصور أحمد وعدم قدرته على السير في طريق الصوفية هو الذي دفعه إلى النصح بعدم مصاحبة جماعة الحارث المحاسبي. (السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩).
(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٠.
(٤) أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي أمرين: **أولهما**: اشتغاله بالكلام، وموافقته لابن كُلاب في منهاجه للرد على المتكلمين واعتقادهما أن الله لا يتكلم بمشيئته (ابن تيمية: مجموع الرسائل الكبرى ٣/ ٧٤)، **والثاني**: اتباعه منهج الصوفية في الجانب الروحي. وقد حضر يوماً مجلساً للحارث مع الصوفية من حيث يراهم ولا يرونه فحذر من الاجتماع بهم. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٠).
ويرى ولتر باتون أنه لم يكن من الميسور التوفيق بين الحارث وأحمد رغم اقتناع ابن حنبل أنه جار عليه في حكمه الأول، لكن يبدو أنه لم يغير رأيه ليرد للحارث مكانته في بغداد. (ولتر باتون: المرجع السابق ص٨٥).
والحقيقة أن أحمد بن حنبل لم يظلم الحارث المحاسبي؛ لأنه نظر إلي ما صدر عن الحارث وأصحابه نظرة عميقة تبين له منها انحراف هؤلاء عن منهج الشرع، وخطورة ما هم فيه وما ينتج عنه من تقديم الأذواق والمواجيد، والأهواء والظنون على الشرع بدعوى الحب الإلٰهي والزهد في الدنيا.
(٥) الهجويري: كشف المحجوب، ترجمه عن الفارسية وعلّق عليه: إسعاد =

غير أن عدم رضا الإمام أحمد عن هذه الطائفة لم يمنعه من مجالسة بعض أفرادها وممازحتهم[١].

ويتبين من تتبُّع آراء الإمام أحمد في فرق عصره، أنه كان متشدِّداً في مواقفه منها، وفي نظرته لمجتمعه[٢]، الأمر الذي سيؤثر في أتباعه من بعده[٣]، وفي نشاطه الإصلاحي بين الناس، وبينه الموضوع التالي:

❁ الموضوع الثامن المتعلق بمنهج أحمد بن حنبل في الإصلاح الاجتماعي:

فقد أوجب على العلماء تعليمَ الجاهل، وتربية الناس لتخليصهم من أمراضهم النفسية والاجتماعية؛ كالغش، والنميمة[٤]؛ وحثِّهم على

= عبد الهادي قنديل، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨٢م)، ص٢٦٨ وما بعدها.

(١) منهم أبو حمزة الصوفي كان من جلساء أحمد (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٢٦٨). ويذكر أن المتصوفة مرة يُكْبرون أحمد ويعدُّونه منهم، ويبرئونه من المشبهة الذين رووا عنه أخباراً موضوعة. (الهجويري: المصدر السابق ص٣٢٩). ومرة أخرى يغمزونه ويذكرونه أنه من أهل الظاهر لا يفهم أصحاب الباطن، ويروون قصته مع شيبان الراعي الصوفي عندما سأله أحمد بن حنبل عمَّن نسي صلاة في اليوم ولم يتذكرها، فأجاب شيبان: إن الذي نسي صلاته غفل عن ربه، ومن غفل عن خالقه يجب تأديبه، فسقط أحمد مُغشى عليه. (الحارث المحاسبي: المصدر السابق ص٤٣)، وفي ذلك يقول المتصوفة: هذا جواب بسطائنا فما بالك بجواب أئمتنا؟. (نفسه ص٤٣). ويرى ابن تيمية أن هذه الرواية مكذوبة؛ لأن الإمام أحمد لم يلق شيباناً ولم يلحق به. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣١٧.

(٣) ورث الحنابلة عداوة إمامهم لطوائف بغداد التي ضلَّلها، لذلك اشتدوا في مقاومتها بعد أحمد بن حنبل. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٧٣.

التصدي للمذاهب الفاسدة، بإقامة الحجة المزيلة للشبهة الكاشفة عن غُمَّة الضلال[١].

وكان الإمام أحمد يعتقد أن الذي يلتزم بالشعائر التعبُّدية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أحسن من الذي يؤدِّيها ويكتفي بها[٢]. ولم يكن راضياً عن مجتمعه، فكان يراه مجتمعاً مفكَّكاً نقصَ تديُّنه، وتدنَّت أخلاقه، وضعُف التزامه بصلاته[٣].

وقد اتخذ ابن حنبل، من السلطة موقفاً واضحاً، فاعتزلها، ولم يَسِر في ركابها، ولم يُظهر حرصه على إصلاحها، ولم يقدِّم لها نصائحه إلا في حدود ضيِّقة وبطلب منها[٤].

وربما كان يعتقد أن استقامة الرعية كفيلٌ بإرجاع الخلفاء إلى الجادة، أو أنه فَقَدَ الأملَ في إمكانية إعادة بناء الدولة العباسية على منهاج السلف الأول، فانصرف إلى مجتمعه يُرشده إلى ما ينفعه[٥]، ويحذِّره من أهل الفساد[٦]، ويحثُّه على هجر المنكرات وتغييرها عند الاستطاعة[٧]،

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: نفس المصدر ٢/ ٢٨٠.
(٢) نفس المصدر ٢/٢١٦.
(٣) نفس المصدر ١/٣١٧.
(٤) من ذلك أن المتوكل كان يسأل عن الإمام أحمد، ويرسل إليه في أمور يستشيره فيها، منها: سأله مرة عن قضية خلق القرآن بعد رفع المحنة، سؤال استرشاد واستفادة، لا سؤال امتحان وعناد، فكتب له رسالة في ذلك الموضوع. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٠). واستشاره في تعيين يحيى بن أكثم قاضياً خلفاً لأحمد بن أبي دؤاد. (نفس المصدر ١٠/٣١٦).
(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٧٣.
(٦) نفس المصدر السابق ١/٦٣.
(٧) انظر: ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص٢٧٩، وابن قيم الجوزية: كتاب الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مطبعة المؤيد، (١٣١٧هـ)، ص١٤٥ - ٢٥٠.

ويدعوه إلى اتباع الصحابة، ونبذ التقليد[1].

فواضحٌ من ذلك أن الإمام أحمد بن حنبل، قد استبعد استخدام القوة لإصلاح مجتمعه، رغم سخطه عليه من جهة، وحرصه على نفعه من جهة أخرى، لخوفه من آثارها السيئة على الناس[2]، ولقلَّة إمكانياته المادية والمعنوية[3]. لذلك عارض صديقه أحمد بن نصر الخزاعي في ثورته على الخليفة الواثق، وإن مدحه وترحَّم عليه[4]، وشهد له بالشجاعة والصبر[5]. كما أنه لم يركِّز جهوده لإعادة بناء خلافة راشدة وفق منهاجه السلفي الذي صبغ سلوكه وفقهه.

❁ والموضوع الأخير - التاسع - يتعلق بأصول فقه[6] أحمد بن حنبل:

فهو يعتمد في استنباطه للأحكام الفقهية، على أصولٍ أساسية[7]،

---

(١) سبق توثيق ذلك.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ١٤٥.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٣٠٥.

(٤) ابن كثير: البداية ١٠/ ٣٠٥.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٩.

(٦) علم أصول الفقه، هو العلم بالأدلة الإجمالية من الكتاب والسُّنَّة، والإجماع، والقياس، وكيفية استنباط الأحكام الشرعية العملية منها، وذلك بمعرفة قواعد خاصة. أبو بكر جابر الجزائري، العلم والعلماء، باتنة، دار الشهاب، (١٩٨٥م)، ص٨٦.

(٧) يرى المستشرق ماسيه، أن ابن حنبل: «لم يصنع نظاماً لكنه أجاب على عدد من الأسئلة القضائية أثناء قيامه بالتدريس بواسطة تلاميذه» الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، بيروت، منشورات عويدات، (١٩٦٠م)، ص١٢٨. لكن المتتبع لمنهج أحمد يدرك أنه كان في استنباطه للأحكام وإجابته على أسئلة الناس ينطلق من أسس ثابتة معلومة لا لبس فيها جعلها أصولاً لمذهبه، وكان على علم بمناهج العلماء في الفقه وما ذهب إليه ماسيه ليس صحيحاً.

وأخرى ثانوية. وتتكوَّن الأولى من النص، فإذا وجده من القرآن والسُّنَّة الصحيحة أخذه ولا يلتفت إلى سواه من أصول الفقه[1]. وتأتي في الدرجة الثانية فتوى الصحابي، وذلك إذا لم يعثُر على ما يخالفها من النصوص الشرعية، وقد يقدِّمها على الحديث المرسل[2].

وإذا وصلته عن الصحابة فتاوى مختلفة، يختار أقربها إلى الكتاب والسُّنَّة، ولا يخرج عن أقوالهم، وإذا تعذر عليه الترجيح حكى الخلاف ولم يجزم[3].

ويلي الأصول السابقة: الحديث المرسل[4]، والضعيف[5]، فالأول أخذ به أحمد بن حنبل، والثاني قسمه إلى نوعين[6]: منكر متروك[7]، وحسن مقبول[8]. وإذا تعارض المرسل والضعيف مع ما سلف

---

(١) ابن بدران الدمشقي: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص٤١.

(٢) نفس المرجع، ص٤٢. الحديث المرسل: هو الحديث الذي سقط من سنده اسم الصحابي الذي يرفع الحديث إلى النبي ﷺ، فيقول التابعي مباشرة: قال الرسول. (محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، دار رحاب، الجزائر، د ت، ص٧٠. وجابر فياض العلواني: آداب الاختلاف في الإسلام ص٩٨). وعبد العزيز الهلاوي: النفيس، ط١، تونس، دار بو سلامة، (١٩٨٣م)، ص٢٨.

(٣) ابن بدران: المرجع السابق ص٢.

(٤) سبق تعريفه.

(٥) الحديث الضعيف هو ما فقد شرطاً أو أكثر من شروط الصحة. محمود الطحان: تيسير مصطلح الحديث، ص٦٢.

(٦) ابن بدران: المرجع السابق ص٤٢.

(٧) الحديث المنكر: هو ما طعن في راويه بفحش غلطه أو بكثرة غفلته، أو ظهور فسقه بغير الكذب. محمد الزفزاف: التعريف بالقرآن والحديث، ط٤، الكويت، مكتبة الفلاح، (١٩٨٤م)، ص٢٦٦.

(٨) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١/ ٣١.

لم يعتمدهما[1].

وآخرها القياس[2]، قال فيه أحمد بن حنبل: «لا يستغني أحد عن القياس»[3]، لكنه لم يتوسَّع في استخدامه، ولم يأخذ به إلا عند الضرورة للإفتاء[4]، حين لا يجد نصّاً يُسعفه، ولا فتوى صحابي تُعينه[5]، عكس أبي حنيفة الذي يُعد أكثر الأئمة الأربعة توسُّعاً في القياس[6].

أما الأصول الثانوية فمنها: المصالح المرسلة[7]، أخذ بها ابن حنبل في السياسة الشرعية لإصلاح الرعية، ومثال ذلك: نفي أهل الفساد إلى بلد يُؤمَن فيه من شرِّهم[8].

---

(١) قدم الحديث المرسل والضعيف عن القياس (انظر: ابن بدران الدمشقي: المرجع السابق ص٤٣). تحُرجاً من الرأي. لكن ذلك الموقف قد يظهر كثيراً؛ لأن الحديث الضعيف والمرسل مشكوك في صحتيهما. فكيف نقيم الدين على الشك والاحتمال والضعف؟!.

(٢) القياس عند الإمام أحمد هو رد الشيء إلى نظيره، بعلَّة تجمع بين الأصل والفرع، وبدون ذلك فلا قياس. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٦). وقد ادعى روم لاندو أن كل المذاهب الإسلامية أخذت بالقياس وعملت به ما عدا المذهب الحنبلي. (روم لاندو: المرجع السابق ص١٩٨). وهذا خطأ بيّن؛ لأن أحمد وإن ضيَّق مجال القياس، فإنه لم يستغنِ عنه. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٦).

(٣) أبو زهرة: ابن حنبل ص٢٧٢.

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٦.

(٥) أبو زهرة: المرجع السابق ص٢٧٣.

(٦) ناصر الدين الألباني: صفة صلاة النبي ﷺ، هامش ص٤٧.

(٧) المصلحة المرسلة: هي المصلحة الملائمة لمقاصد الشريعة، ولا يشهد لها أصل خاص بالاعتبار أو بالإلغاء، فإن كانت كذلك دخلت في عموم القياس. (أبو زهرة: أصول الفقه ص٢٧٩).

(٨) أبو زهرة: ابن حنبل ص٣٠٠.

ومنها أيضاً: سدُّ الذرائع[1]، نظر فيها الإمام أحمد إلى مآلات الأفعال، فمنع ما أدى إلى محرَّم، وأجاز ما أوصل إلى حلال[2].

ثم الإجماع، أقر بوقوعه؛ كإجماع الصحابة على أصول الفرائض والمسائل التي عرضت لهم[3]، ثم استبعد حدوثه بعد جيلهم، حين توسَّعت الفتوح، وتفرق العلماء وشاع الكذب[4].

ولم يأخذ أحمد بن حنبل بالاستحسان[5]، ولا بعمل أهل المدينة، ولا بشرع أهل الكتاب قبل الإسلام[6]، كما هو الحال في أصول الإمام مالك[7].

---

(١) **الذريعة**: هي الوسيلة التي يتوصَّل بها إلى الشيء من الأشياء، فالوسيلة الموصولة إلى الحرام حرام، والموصولة إلى الحلال حلال، ومأمور بها. (أبو زهرة: ابن حنبل ص٣١٤).

(٢) نفس المرجع ص٣٢٣.

(٣) نفس المرجع ص٢٦٧.

(٤) رُوي أنه قال: «ما يدَّعي فيه الرجل الإجماع، فهو كذب، ومن ادعى الإجماع فهو كاذب؛ ما يُدريه لعل الناس اختلفوا ولم ينته إليه. فليقل: لا نعلم الناس اختلفوا». ابن بدران الدمشقي: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٩. مصطفى الشكعة: المرجع السابق ص٩٥.

(٥) **الاستحسان**: هو العدول في مسألة ما، عن مثل ما حكم به في نظائرها إلى خلافه لوجه يقتضي التخفيف. وقد اشتهر عن الشافعي معارضته الشديدة للاستحسان، وكان يقول: «من استحسن فقد شرَّع». طه جابر العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام، باتنة، دار الشهاب، بدون تاريخ ص٩٨. وقد ضلَّل أحمد بن حنبل أهل الرأي لأخذهم بالاستحسان والرأي. أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/٣٦.

(٦) اختلف الفقهاء في الأخذ بشريعة أهل الكتاب قبل الإسلام واحتج كل طرف بأدلة دعم بها موقفه. وعن ذلك انظر: أبو زهرة: أصول الفقه ص٣٠٥.

(٧) جابر العلواني: المرجع السابق ص٩٦

وقد تميز فقهه بثلاث خصائص:

أولها: هو أنه فقه أثري، أجاب فيه ابن حنبل على آلاف المسائل بأخبرنا، وحدَّثنا[١]، وانتقد أصحاب الرأي انتقاداً لاذعاً[٢].

والميزة الثانية: الواقعية، فلم توجد في فقهه فتاوى المسائل المستقبلية[٣]، لذلك لم يترك الإمام أحمد ثروة تشريعية تقديرية، كما فعل أئمة المذاهب السُّنِّيَّة الأخرى[٤]. وبذلك أكسب فقهه حيوية، وفتح للحنابلة مجالاً واسعاً للبحث والإثراء.

وقد اتهم أحمد بن حنبل الشافعية والأحناف بالتحايل على السُّنَّة وتحليل الحرام[٥]. وذلك حين وجدوا حرجاً كبيراً في التعامل مع الثروة النظرية[٦] التي تركها فقهاؤهم الأوائل، والتي تحوَّلت بمرور الزمن إلى قيود مذهبية تخلَّصوا منها بوضع الحيل[٧].

والخاصية الأخيرة ـ الثالثة ـ لفقه ابن حنبل: **هي خصوبته**، فقد أمدَّته الروايات السلفية[٨] بمادة غزيرة من الفتاوى والأحكام، ومكَّنته

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٦.

(٢) نفس المصدر ١/ ٣١.

(٣) ابن بدران الدمشقي: المرجع السابق ص٤٥.

(٤) أبو زهرة: ابن حنبل ص٣٥٦.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥١.

(٦) يكسب الفقه التقديري مذهبه ثروة ضخمة للحلول الجاهزة، غير أنه يجعل أتباعه فيما بعد في حرج شديد في التعامل معها؛ لأن العقل البشري مهما أوتي من عبقرية يستحيل عليه أن يضع حلولاً جاهزة لأجيال قادمة، كما أنه يبعث على الكسل والخمول والتقليد، وتقديس آراء الرجال ويثبط الهمم. فلماذا البحث والاجتهاد والحلول جاهزة؟ أما الفقه العادي فهو يفرض على كل جيل الاجتهاد لحل مشاكله، وفق ظروفه ومتطلباته.

(٧) أبو زهرة: المرجع السابق ص٣٥٦.

(٨) ظن البعض أن اعتماد أحمد بن حنبل، على الأثر، أدى إلى جمود فقهه، لكن =

من الاطلاع الواسع على مناهج المتقدمين في الإفتاء والاستنباط[1]؛ فجاءت اجتهاداته أقوى حجة من الاجتهاد الذي يعتمد على قليل من النصوص والآثار[2].

ويتَّضح مما سبق ذكره أن أحمد بن حنبل اعترف بشرعية الخلافة العباسية، وسالمها، واعتزلها. وحثَّ على الاجتهاد ونهى عن التقليد، وأخذ بمنهج السلف في العقائد والفروع. واشتد في نقد فرق عصره؛ كالمعتزلة، والشيعة، وأهل الرأي والقياس؛ فتمكَّن بذلك من وضع أُسس مذهبٍ حنبليٍّ متكاملٍ تولى أصحابه من بعده مهمة جمعه، وتدوينه، ونشره[3][4].



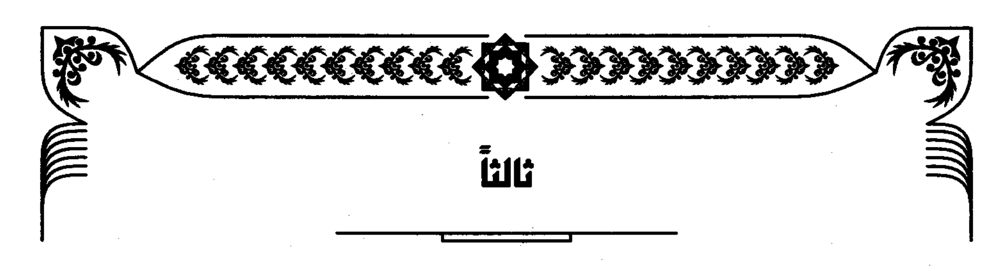
= النظرة المدققة، تبين عكس ذلك تماماً؛ لأن التراث السلفي، كان له بمثابة ثروة هائلة استفاد منها أحمد بن حنبل، استفادة كبيرة. (أبو زهرة: ابن حنبل ص٣٦١).

(١) نفس المرجع ص٣٦٤.

(٢) نفس المرجع ص٣.

(٣) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٣٩/١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٩٨/١٤.

(٤) شاع تداول مصطلح: مذهب أحمد بين الناس، بعد وفاة أحمد بن حنبل مباشرة، قبل اكتمال مذهبه.
انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٦٤.



ثالثاً

تدوين مذهب أحمد بن حنبل ونشره
(٢٤١ ـ ٣٥٠هـ/٨٥٥ ـ ٩٦١م)

لم يجمع أحمد بن حنبل إنتاجه العلمي في حياته. فبقي تراثه في أصول الدين وفروعه مبعثَراً، بعضه احتفظت به مؤلفاته القليلة كـ«المسند»، و«الرد على الجهمية والزنادقة»، والقسم الأكبر منه كان مشتَّتاً بين أفراد أسرته وأصحابه وتلامذته.

وعندما توفي تولَّى ولداه وأصحابه مهمة جمع مذهبه وتدوينه[١].

فألَّف صالح بن أحمد بن حنبل (ت٢٦٥هـ/ ٨٧٩م) كتاب «المسائل»، جمع فيه أُقضيات والده، وتوجد منه مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم: (٢٦٨١ب)[٢]. وصنَّف كتاب «المحنة»، دوّن فيه حوادث فتنة خلق القرآن، ومواقف أبيه منها، واحتفظ فيه برسالة أبيه إلى المتوكل عن «مسألة خلق القرآن»[٣].

وصنَّف أبو داود السجستاني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) كتاب «مسائل

---

(١) يعتبر مذهب ابن حنبل، هو الوحيد من بين المذاهب الإسلامية الكبرى، الذي كانت بغداد موطنه الأصلي، فكل من مذاهب الشيعة والمعتزلة والأشاعرة، كان موطنها الأصلي خارج بغداد. وعن تفاصيل هذا الموضوع انظر الدراسة المركزة التي كتبها جورج مقدسي في كتابه عن ابن عقيل.

(٢) ولتر باتون: أحمد بن حنبل والمحنة، تذييل المترجم ص٢٧٤.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٠.

أحمد»، ذكر فيه آراء ابن حنبل وفتاويه، وقد نشرها حديثاً الشيخ محمد رشيد رضا عام (١٣٥٣هجرية)[١].

وألف حنبل بن إسحاق بن حنبل (ت٢٧٣هـ/ ٨٨٦م) كتاب «محنة أحمد»، وهو مخطوط بالمكتبة التيمورية بمصر تحت (رقم: ٢٠٠٠)[٢].

ويأتي عبد الله بن أحمد (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) في مقدمة الذين جمعوا ثروة والده لكثرة أخباره وكتاباته، حتى أنه فُضّل على والده في غزارة الرواية والمعرفة[٣]. ومن مصنفاته: «مسائل عبد الله»، يُوجد مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة[٤]. وكتاب «السُّنَّة»، شرح فيه مذهب والده في العقائد، والفقه وأصوله[٥]. ويُعد أوسع مؤلفات الحنابلة التي شرحت مسائل أحمد في أصول الدين، وقد نُشر حديثاً في جزءين[٦].

وجمع الفقيه الحنبلي أبو بكر المروزي الكثير من تراث الإمام أحمد وغلبت عليه رواية الحديث، أكثر من الفقه، وهو الذي روى كتاب «الورع»[٧] الذي طُبع حديثاً تحت عنوان «الزهد»[٨].

كما دوّن صاحب أحمد المعروف بالكوسج (ت٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) مسائل عن أقضيات الإمام أحمد بموافقته هو شخصيّاً[٩].

---

(١) ولتر باتون: المرجع السابق تذييل المترجم ص٢٧٤.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٤.
(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، مج١، ٢/ ٥٧.
(٤) باتون: المرجع السابق ص٢٧٤.
(٥) نفس المرجع ص٢٧٥.
(٦) المصدر نفسه ص٢٧٥.
(٧) محمد أبو زهرة: ابن حنبل ص١٧٩.
(٨) نشره حديثاً محمد جلال شرف، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م).
(٩) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٦٤.

وقد دُوّنت المؤلفات السابقة[١]، في القرن (الثالث الهجري/ ٩م)[٢]، وهي تمثل المرحلة الأولى من التدوين التي احتفظت بقسم كبير من فكر الإمام أحمد، غير أنها لم تشمل كل ما تركه أحمد من فقه واختيارات ومواقف علمية[٣].

ثم تولى بعض تلاميذ أصحاب الإمام أحمد مهمة أساتذتهم لإتمام جمع تراث إمامهم، وقد امتازت أعمالهم بالشمولية، والتحقيق والتنظيم[٤]، **وبرز من هؤلاء:**

الفقيه أبو بكر الخلال البغدادي (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م). فقد بذل جهوداً مضنية في البحث على تراث أحمد بن حنبل العلمي[٥]. فصنَّف كتاب: «الجامع الكبير لفقه ابن حنبل» في نحو ثلاثين[٦] مجلداً[٧]، وقد عُثر على قسم منه مخطوطاً بالمتحف البريطاني[٨]. وألَّف «طبقات

---

(١) لم تنحصر مؤلفات متقدِّمي الحنابلة في دائرة مذهبهم، بل شملت ميادين أخرى، مثل علوم القرآن والحديث، والتاريخ. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/٩٦، ٩٧).

(٢) توفي كل أصحاب أحمد بن حنبل في القرن (الثالث الهجري/ ٩م). راجع سنوات وفاة أصحابه.

(٣) يتبين ذلك من خلال مقارنة ما كتبه المتقدمون وما ألّفه المتأخرون عن تراث إمامهم.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/٢٩٨.

(٥) ابن الجوزي: مناقب الامام أحمد ص٥١٢.

(٦) ذكر ابن الجوزي أن الجامع الكبير جاء في مائتي جزء. (المصدر السابق ص٥١٢)، وربما قصد بالجزء الكراس الصغير؛ لأن الفرق كبير بين ثلاثين مجلد وبين مائتي جزء.

(٧) بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص١٤.

(٨) كان يعتقد أن الجامع الكبير قد ضاع. Henri laoust: les premieres profissions de foi hanbalites - damas - institut francais - 1957 - p: 18.

أصحاب أحمد»، وترجم فيه لمتقدمي الحنبلية، وتعرَّض لإنتاجهم العلمي[١]، وقد وُجدت منه ورقات مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق[٢]. وصنَّف أيضاً كتاب «السُّنَّة» في ثلاث مجلدات ضخمة[٣]، أورد فيه رسائل لأحمد، منها: «الرد على الجهمية والزنادقة»[٤]، و«مذكرة في الإيمان»[٥].

والثاني: هو الفقيه عمر بن الحسين الخرقي (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، كتب عدة مؤلفات في مذهب الإمام أحمد، غير أنها احترقت كلها قبل انتشارها بين الناس[٦]، ولم يبق منها سوى «المختصر في الفقه»[٧]، وهو أشهر كتاب في مذهب الحنابلة، بلغت مسائله ألفين وثلاثمائة مسألة[٨]. وهو موجز لما جمعه أبو بكر الخلال، وقد أولاه علماء الحنبلية عناية كبيرة، فزادت شروحه عن ثلاثمائة شرح[٩].

---

(١) ذكر هنري لاوست أنه توجد ورقات من كتاب طبقات أصحاب أحمد بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

(٢) Henri laoust le hanbalisme sous le kalifa de bagdad - R - EL - Cahier - 1 - 1959 - P: 80 IDEM - P: 80.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب مج١، ٢/ ٢٥١.

(٤) ابن قيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٠٠.

(٥) ابن تيمية: كتاب الإيمان، حقَّقه: حسين يوسف الغزال، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، (١٩٨٤م)، ص٢٩١.

(٦) احترقت حين غادر عمر بن الحسين الخرقي بغداد إلى دمشق، وترك مؤلفاته في بيته ببغداد. ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢١٤.

(٧) المصدر نفسه ١١/ ٢١٤.

(٨) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٧٦.

(٩) أهمها كتاب «المغني» لابن قدامة المقدسي، وهو مؤلف ضخم في ١٣ مجلداً كبيراً، في الفقه المقارن بالدليل (أبو زهرة: ابن حنبل ص١٨٥، ١٨٦)، وأشهر الحنابلة الأوائل الذين شرحوا المختصر ابن حامد (ت٤٠٣هـ)، والقاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ). Henri laoust: OP.CIT - cahier - 1 - 1959. P: 80.

والثالث: هو الفقيه غلام الخلال (ت٣٦١هـ/ ٩٧٣م)، صنف عدة مؤلفات في فقه الإمام أحمد وعقيدته، منها المُقنع في مائة جزء[١]. وكتاب «القولين» عن تعدد الروايات عن ابن حنبل[٢]. وصنَّف كتاباً في الفقه وازن فيه بين أحمد بن حنبل والشافعي سمَّاه: «الخلاف مع الشافعي»[٣]، وألَّف كتاب «الأمر»، توجد مخطوطته بالمكتبة الظاهرية بدمشق[٤].

ويرى الحافظ الذهبي أن الجهود التي بُذلت لخدمة مذهب أحمد بن حنبل لم تمكنه من الاستقلالية عن المذاهب السُّنِّيَّة الأخرى ليأخذ مكانته بينها، طيلة القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، فلما جاء أبو بكر الخلال (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) تتبَّع نصوصه[٥] ودوَّنها وحقَّقها، فاكتمل المذهب على يديه بعد المائة الثالثة للهجرة، ولم يسبقه في ذلك أحد[٦].

وظهرت في القرن (الرابع الهجري/ ١٠م) مؤلَّفات حنبلية فَصَّلت اعتقاد أحمد ابن حنبل في مختلف قضايا أصول الدين، **منها**: «شرح كتاب السُّنَّة»، ألَّفه أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، وقد احتفظ به أبو الحسين ابن أبي يعلى في طبقاته[٧]. وصنَّف ابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) كتاب «الإبانة عن أصول الديانة» شرح فيه عقائد

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه ١١/ ٢٧٨.
(٣) المصدر نفسه ١١/ ٢٧٨.
(٤) Henri laoust: OP Cit Cahier 1: P: 90.
(٥) يرى ابن تيمية أن أبا بكر الخلال، فاته الكثير من فقه الإمام أحمد، الذي لم يوجد في كتبه. (بدر الدين الحنبلي: المصدر السابق ص٦١٤).
(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٩٨.
(٧) انظر: ٢/ ١٨، وما بعدها.

الحنابلة وأهل الحديث، نشره حديثاً المستشرق هنري لاوست[١].

ولم يقتصر عمل فقهاء الحنابلة الأوائل، على الجمع والتدوين فحسب، وإنما امتدَّ أيضاً إلى الاستنباط، والتخريج، والتمييز بين ما يُنسب لأحمد بن حنبل، وما لا ينسب إليه[٢].

وقد تزامنت تلك العملية، مع مهمة الدعوة لمذهبه، وترسيخه بين الناس في بغداد وما حولها. فقد عرف مذهب ابن حنبل انتشاراً في بغداد وخارجها، في حياة مؤسِّسه[٣]، ثم ازداد اتساعاً بعد وفاته، على أيدي أتباعه الأوائل، فحملوه من مدينة السلام وأوصلوه إلى أقاليم عديدة

---

(١) وترجمه إلى الفرنسية، بجانب النص العربي تحت عنوان: La profission de foi de ibn batta.
ويرى لاوست أن كثيراً من مؤلفات الحنابلة، في العقيدة، لم يُهتم بها، ولم تقدر حق قدرها، وهي من مؤلفات القرنين: (الثالث والرابع الهجريين).
Henri laoust: les premieres profission de foi P: 7.
ويذكر أن الدراسات الحديثة التي اهتمت بمؤلفات الحنابلة الأوائل قليلة، منها:
أ ـ عبد العزيز السعد: ابن قدامة وآثاره الأصولية ـ القسم الأول، ط٢، السعودية، (١٩٧٤م).
ب ـ Henri laust: op-cit.
جـ ـ Henri laoust: le hanbalisme sous le califa de bagdad R.E.I Cahier 1 - 1959.

(٢) ميزوا ما يلي: روايات عن أحمد بن حنبل، تنسب إليه. وتنبيهات، وهي عبارة عن إشارات مفهومة من أقوال ابن حنبل. وأوجه، وهي استنباطات وقياسات وتخريجات على يد رجال المذهب بناء على أصول الإمام أحمد، لكنها لا تنسب إليه، وتعد من المذهب الحنبلي. أبو زهرة: ابن حنبل ص٣٧٧، ٣٧٨.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٤٤

من العالم الإسلامي[1].

ولم تزوِّدنا المصادر التاريخية[2]، بتفاصيل نشاط دعاة الحنبلية المتقدمين، واكتفت بذكر أخبار مقتضبة عن دورهم في نشر مذهب أحمد بن حنبل. من ذلك أنها ذكرت أن أبا إسحاق الكوسج (ت٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) نقله إلى خراسان[3]، وأدخله أبو زرعة (ت٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) إلى مدينة الري ببلاد فارس[4]. وأوصله صالح بن أحمد (ت٢٦٦هـ/ ٨٧٩م) إلى أصفهان[5]، وطرسوس[6]، حين تولى بهما القضاء، وكان يفتي بفقه والده[7]. ونشره أبو داود السجستاني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) في البصرة[8]. وحمله عمر بن الحسين الخرقي (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) إلى دمشق وكوّن بها نواة للحنبلية[9].

وثبَّته أحمد بن محمد النوري بمدينة تكريت[10]، حين تولى قضاءها، وكان يقول: «لئن أخِرَّ من السماء إلى الأرض أحب إليّ من أن

---

(١) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: نفس المصدر ١/ ١٧٣، وابن كثير: المصدر السابق ٢/ ٢١٤، والسبكي: المصدر السابق ٢/ ٢٩٦.

(٢) التي أمكن الاطلاع عليها.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٤٤.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٧.

(٥) نفس المصدر ١١/ ٤٠.

(٦) هي: مدينة تقع بثغور الشام، بين أنطاكية، وحلب، وبلاد الروم، تأسَّست في عهد الخليفة هارون الرشيد. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، (١٩٦٨م)، ٤/ ٢٨).

(٧) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ١٧٣.

(٨) السبكي: المصدر السابق ٢/ ١٩٦.

(٩) ابن كثير: البداية ١١/ ٢١٤.

(١٠) بلدة مشهورة تقع بين بغداد والموصل شمال بغداد، وهي إلى العاصمة أقرب. (ياقوت الحموي: المصدر السابق ٢/ ٣٨).

أزول عن مذهب أحمد بن حنبل»[1]، وأوصله بقي بن مخلد[2] (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٩م) إلى الأندلس، وتحمَّس في الدعوة إليه بين أهلها[3]، وقال عن عمله هذا: «لقد غرست للمسلمين غرساً بالأندلس لا يقلع[4] إلا بخروج الدجال»[5].

ولم يكن بوسع مذهب الإمام أحمد تحقيق ذلك الانتشار الواسع، قبل نهاية القرن (الثالث الهجري/ ٩م)[6]، **لولا توفر جملة عوامل كانت في صالحه، منها**: مكانة أحمد بن حنبل الأدبية، وقد أكسبته إعجاب

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٦٤.

(٢) انتقل من الأندلس إلى المشرق فالتقى بأحمد وغيره من أهل الحديث، فأخذ عنه عقيدته وفكره، ثم عاد إلى الأندلس وشرع في الدعوة لمذهب السلف، فتعصَّب عليه أهلها وشكوه إلى السلطة، فتدخَّلت وأنصفته وشجَّعته على المضي في دعوته حتى توفي. (الذهبي: تذكرة الحفاظ، مج١، ٢/ ٦٣٠، ٦٣١). والذين أنكروا عليه مذهبه هم المالكية الذين أغروا به العوام، ومنعوه من التدريس. وكان أهل الأندلس إلى ذلك الوقت، لم يعرفوا إلا القرآن الكريم، وموطأ مالك، فإن وجدوا أحداً على غير مذهبهم طردوه. وهذا الموقف، هو تحكيم للرجال على الحق، وغلو في محبة مذهب مالك.

(محمود بن محمد عرموس: كتاب تاريخ القضاء في الإسلام، القاهرة، المطبعة الأهلية الحديثة، بدون تاريخ ص٦٠).

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ، مج١، ٢/ ٦٣٠.

(٤) لم تصدق نبوءة بقي بن مخلد، فالكل يعرف أن المالكية والأشعرية اكتسحتا الأندلس والمغرب الإسلامي، وأن الإسبان قد استردوا الأندلس ولم تبق بيد المسلمين.

(٥) الذهبي: المصدر السابق مج١، ٢/ ٦٣١.

(٦) ليس صحيحاً ما ذهب إليه السيوطي، من أن مذهب أحمد لم يخرج من العراق إلا في القرن (الرابع الهجري/ ١٠م). (محمود محمد عرموس: المرجع السابق ص٦٠).

ومحبة كثير من علماء بغداد[1]، فكان هذا دافعاً لهؤلاء باتباعه أو عدم مقاومة فكره على الأقل.

ومنها أيضاً: تأييد الخليفة المتوكل للإمام أحمد، في تشجيعه على نشر مذهبه مقابل تضييقه على خصومه من الشيعة والمعتزلة[2]، فأوجد بذلك مُناخاً ملائماً للحنبلية بالتغلغل بين الناس وإقبالهم عليها.

ومنها: أنه كان للحنابلة الذين تولوا القضاء[3] الدور الفعال في نشر فقه إمامهم، والدعوة إليه، باحتكامهم إليه في أُقضياتهم بين الناس، فأعطوه بذلك حياة وواقعية[4].

ومنها أيضاً: مساهمة حلقات العلم التي كان يعقدها مدرِّسو الحنبلية في جوامع بغداد ومساجدها[5]، للتعريف بمذهبهم، وإيصاله إلى قطاع عريض من مختلف فئات المجتمع[6].

ومنها: هجرة بعض أصحاب أحمد بن حنبل إلى أقاليم عديدة من العالم الإسلامي؛ كدمشق، وخُراسان، والأندلس، فأدخلوا بذلك تراث إمامهم إلى تلك الأقاليم، وكوّنوا بها جماعات حنبلية.

ومنها: أنه كان لاشتهار فقهاء الحنابلة المتقدِّمين بالزهد والعلم بين

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) عن ذلك انظر ما سبق: ص٦ لاحقاً.

(٣) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٦٤، ١٧٣.

(٤) نفس المصدر ١/ ١٧٣.

(٥) كان لعلماء الحنابلة حلقات علم دائمة بجامع المهدي (انظر: نفس المصدر ٢/ ١٥). وكانت العامة تحضر حلقات هؤلاء، حتى يضيق المجلس من كثرة الحاضرين. (نفس المصدر ٢/ ٧).

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ٢/ ٧.

الناس[1] السبب الرئيسي في إقبال العامة عليهم[2]، حتى أصبحت مجالس بعضهم تكتظ بالحاضرين[3]، وهذا مكّنهم من نشر فقههم بين الناس وتعميق حبِّهم له.

ورغم الانتشار الذي حقَّقه مذهب الإمام أحمد في بغداد ـ موطنه الأصلي ومعقله الحصين ـ فإنه لم يتمكن من السيطرة عليها، وبقي في صراع مرير مع الشيعة، والمعتزلة، والأشاعرة[4]؛ لأنه ظهر متأخراً، فكانت بغداد قد تمذهبت[5]، فلم يجد قَبولاً عامّاً لدى أهلها، كما أن خصومه قاوموه بشدة، حين رأوا فيه خطراً يهدِّدهم[6].

وختاماً لما ذكرناه يُستنتج من دراستنا لحياة أحمد بن حنبل ومذهبه، أنه اختار عيش الزهد عن مخالطة الخلفاء، فلم يقترب منهم إلا مضطرّاً، ولم يعمل على التآمر عليهم للإطاحة بهم. ونال مكانة مرموقة في العالم الإسلامي، لصموده في فتنة خلق القرآن، وخروجه منها ظافراً.

واتضح أنه كان متشدِّداً في أحكامه على كثير من طوائف مجتمعه، فحملت في طياتها دعوةً إلى التشدد والعنف، سيجد فيها أتباعه من بعده، سنداً شرعيّاً لهم في نزاعهم مع خصومهم.

---

(١) الذهبي: تذكرة الحفاظ مج١، ٢/ ٦٣٠، ٦٣١.
(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٥٤، وأبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٧.
(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥.
(٤) سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.
(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٣٢، ٣٣.
(٦) من ذلك تعاون المعتزلة مع المأمون، والمعتصم، والواثق، في قمع الحنبلية وأهل الحديث عموماً. (سبقت الإشارة إلى ذلك). ومقاومة أهل الأندلس لبقي بن مخلد عندما حاول نشر مذهب السلف هناك (الذهبي: تذكرة الحفاظ، مج١، ٢/ ٦٣٠، ٦٣١).

وتبيَّن أيضاً أنه ترك ثروة علمية غزيرة، في الفقه والعقائد، جمعها أصحابه بعد وفاته، ثم دوَّنوها ونشروها بين الناس، يحدوهم في ذلك حبٌّ عميق له[1].

---

(١) لقد أثنى أئمة أهل السُّنَّة، على الإمام أحمد كثيراً. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ومن حق الحنابلة حب إمامهم وتبجيله، لكن الغلو في تقدير الرجال وحبهم، هو الآفة التي شوَّهت الكثير من التاريخ الإسلامي، حيث ترتب على ذلك انحراف في الاعتقاد والسلوك، ويظهر ذلك جليّاً في الشيعة الإمامية الأثني عشرية أكثر مما يظهر في غيرهم من الطوائف. فأفرطوا في حب أهل البيتُ حتى اعتقدوا فيهم العصمة والقداسة، وجعلوا أقوالهم ديناً وتشريعاً (انظر: يعقوب الكليني: الأصول من الكافي، ط٣، طهران، دار الكتب الإسلامية، (١٣٢٨هـ)، ١/ ٢٥٨ وما بعدها). وفي مقابل ذلك غالوا في كره معظم الصحابة وتكفيرهم (ابن تيمية: الصارم المسلول ص٥٦٩) ووُجد في الحنابلة من غالى في تقدير أحمد، فبعضهم قال: لم يكن له مثيل. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ١٨). وقال بعضهم: إن الله أعز الإسلام باثنين لا ثالث لهما، هما:

أبو بكر يوم الردة، وأحمد بن حنبل في المحنة، ثم عاد وقال: إنه لا أحد قام بأمر الإسلام، بعد الرسول ﷺ إلا أحمد الذي لم يجد الأعوان في فتنة خلق القرآن أما الصديق فوجد من ساعده في حرب الردة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٥). لكن الواقع ليس كذلك، فقد وُجد لأحمد نظراء، في الفقه والحديث، منهم البخاري ومسلم، ومن قبلهم الشافعي (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٥١ و١١/ ٢٤، ٢٥، ٣٣).

وعندما أبلغ الطلاب أستاذهم إبراهيم الحربي أنهم يفضِّلونه على أحمد، امتنع عن تدريسهم. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٣٦٤). وقد فضل البعض عبد الله بن أحمد على والده في كثرة الرواية والمعرفة. (الذهبي: تذكرة الحفاظ، مج١، ٢/ ٧٥). وقد حظي صحيح البخاري ومسلم بمكانة مرموقة عند أهل السُّنَّة، لم يبلغهما مسند أحمد. (عن ذلك انظر: محمد الزفزاف: المرجع السابق ص٢١٦ وما بعدها)، ولم تقتصر المحنة على الإمام أحمد، فقد أصابت غيره من العلماء في بغداد مات بسببها بعض أصحابه على رأسهم أحمد بن نصر الخزاعي (ت٢٣١هـ/ ٨٨٥م). (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٥). وقد قال عنه أحمد بن حنبل: «رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لقد جاد =

وأنه وضع أُسس حركة[1] مذهبية اجتماعية تنامت، وتنظَّمت، وتقوَّت من بعده، بفضل مجهودات أتباعه، فلم تمر على وفاته أربعة وخمسون سنة حتى تحوَّلت إلى تيار جماهيري[2] نشط، له زعاماته

= بنفسه له». (نفس المصدر ١٠/٣٠٦)، ولما قيل له: صبرت في المحنة قال: ـ تواضعاً وشهادة منه ـ: «أنا ما صبرت لكن الذي صبر أخي أحمد بن نصر، وذاك أنهم أغلظوا له القول فأغلظ لهم، فضربوا عنقه وما خافهم». (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٨٩). ويُذكر أن ما ادعاه ذلك الحنبلي، هو إغفال لدور الصحابة والتابعين في الدفاع عن الإسلام وإغماط لحقهم في نصرته.

(١) الحركة بالمعنى الاجتماعي والسياسي، هي تيار، أو اتجاه تقوده فئة أو طبقة من المجتمع ذات أهداف محددة، وتمتاز بالشمول، وقلة الانضباط والتماسك بالمقارنة إلى الحزب السياسي، وعن هذا التعريف للحركة، وعن مختلف تعاريفها انظر:

أ ـ الموسوعة السياسية، ط١، ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، (١٩٨١م)، ١/ ٢٢٢، ٢٢٣.

ب ـ الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ١/ ٧٠٦.

ج ـ La grand encyclopidie - paris - vol: 24 -p: 512.

ويُذكر أن الإمام أحمد لم يترك تنظيماً حركيّاً منضبطاً، وإنما ترك، تياراً اجتماعيّاً شبه منظم، له مبادئه وأهدافه، اتخذ من العامة ميداناً لنشاطه، ومصدراً لشعبيته وقوته. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١/ ١٦). وبمعنى آخر فإنه ترك بذرة الحركة، بمقوماتها المذهبية والبشرية، ثم تولى أصحابه وأتباعه من بعده، سقايتها بنشاطهم وأموالهم، حتى اكتملت في القرن (الرابع الهجري/ ١٠م).

(٢) يعتقد جورج مقدسي أننا لا نعرف إلا القليل عن الحركة الحنبلية، وعناصرها المكونة لها وعلاقاتها الموجودة بين أعضائها. ودراسة حركة مذهبية كهذه، أمر صعب، خاصة وهي في فترة وسيطية، ويرى أنه ليس المهم التعرف على الأحداث، وإنما المهم إيجاد الوثائق القادرة على إفادتنا، ولا سيما الوثائق =

وأنصاره[1]. فازداد بذلك نفوذها، وتعاظم خطرها في القرنين: (الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م)[2]، حين تدهورت أوضاع بغداد.



= الحنبلية، التي لم يصلنا منها إلا القليل. (جورج مقدسي: ابن عقيل، ص٣١٨).

ويرى هنري لاوست وسامي الدهان اللذان حقَّقا الذيل على طبقات الحنابلة، أن كثيراً من المؤرخين قد ظلموا الحركة الحنبلية، بإخفاء أعمال رجالها، منعاً لشهرتها منذ القرن (الثالث الهجري/ ٩م ـ إلى القرن الرابع عشر الهجري/ ٢٠م)، والذين ذكروهم من المؤرخين تعرَّضوا لهم باقتضاب، فأخفى هؤلاء مكانة الحنبلية، وكان دافعهم في ذلك التعصب. (انظر: ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، تحقيق: سامي الدهان، وهنري لاوست: مقدمة المحققين ١/ ١٠)، وكان أبو الحسين ابن أبي يعلى قد أشار إلى أن المؤرخين أخفوا مناقب والده أبي يعلى الفراء، تعصُّباً واتباعاً للهوى. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٣٠).

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ١٦.

(٢) يشار هنا إلى أن الإمام أحمد لم يعمل على تنفيذ آرائه بالقوة، لكن أتباعه مالوا إلى تطبيقها بالقوة، ـ إلى جانب الرد العلمي ـ في القرنين: (الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م). بسبب الظروف التي عاشها الحنابلة، ولفتاوى أحمد في الدعوة لتغيير المنكر باليد عند الاستطاعة. وهذا الذي سيتضح فيما يأتي من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

أثر الحنابلة السياسي والاجتماعي في بغداد (من وفاة أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن الخامس الهجري) (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

أولاً: موقف الحنابلة من الخلافة العباسية.

ثانياً: الحنابلة في خدمة الخلافة العباسية (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

ثالثاً: نصح رجال الدولة والإنكار عليهم (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

رابعاً: علاقة الحنابلة بخلافة ابن المعتز (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م).

خامساً: تصدي الدولة العباسية للحنابلة.

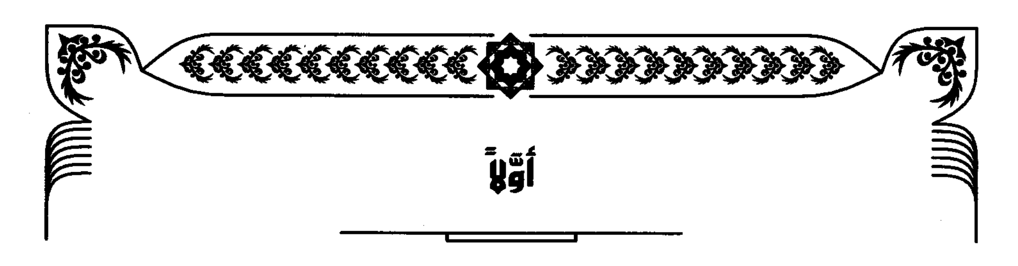
سادساً: أعمال الحنابلة الخيرية (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

سابعاً: قيام الحنابلة بالحسبة (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).



أثر الحنابلة السياسي والاجتماعي في بغداد
(من وفاة أحمد بن حنبل
إلى نهاية القرن الخامس الهجري)
(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

كان للحنابلة أثرٌ كبير في أوضاع بغداد السياسية والاجتماعية بعد وفاة إمامهم أحمد بن حنبل؛ انطلاقاً من خلفيتهم المذهبية من جهة، وظروفهم ومصالحهم المادية والمعنوية من جهة أخرى، فتجلَّت مظاهره في جوانب كثيرة من حياة بغداد السياسية والاجتماعية **نركزها في المباحث الآتية:**



أولاً

موقف الحنابلة من الخلافة العباسية

اعترف الإمام أحمد بشرعية الخلافة العباسية[١]، فجاء أتباعه من بعده وتبنَّوا موقفه فبايعوا العباسيين، وأعطوهم ولاءَهم[٢]، واقتربوا منهم[٣]، مخالفين أحمد بن حنبل الذي اعتزلهم[٤].

وقرَّر الحنابلة في فقههم السياسي أن الخلافة الراشدة واجبة لقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «**عليكم بسُنَّتي، وبسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ**»[٥]، لكنهم أجازوا الابتعاد عنها لمصلحة[٦]، ليوفِّقوا بين موقفهم من العباسيين، وبين ما نصَّ عليه مذهبهم في الخلافة الراشدة.

ومنع القاضي أبو يعلى[٧] (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) الثورة على الإمام،

---

(١) عن مذهب أحمد السياسي: انظر: الفصل الأول.

(٢) ابن كثير: البداية ١٢/ ١٤٧.

(٣) شبَّه ابن البقال الحنبلي (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الخلافة العباسية بالبيضة، والحنابلة **حضنتها**، **وبالخيمة** وهم أعمدتها، فإن سقطت الأعمدة، هوت الخلافة. (ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة الجزء الثاني، ص١٩٠).

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٩.

(٥) الألباني: صحيح ابن ماجه ٩/ ١٠.

(٦) ابن تيمية: الخلافة والملك، باتنة، دار الشهاب، بدون تاريخ ص٢٨.

(٧) تطرق القاضي أبو يعلى الفراء، إلى: «واجبات الإمام تجاه الأمة» وجعلها عشرة. انظر: أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص١١، ١٢.

إلا إذا كفر بعد إيمانه، أما إذا فسق، وارتكب الكبائر ولم يكفُر، فلا خروج عليه، ويجب وعظه، وتخويفه مع عدم طاعته لما يأمر من المعاصي، خلافاً للمعتزلة، والأشاعرة والشيعة، الذين يرون الخروج في هذه الحالة[١].

وحين تأكَّد خلفاء بغداد من صدق ولاء الحنابلة لهم، تغاضَوا[٢] عنهم في الاعتراف بخلافة الأمويين[٣] والذود عنها، إذ أثبت أبو يعلى الفراء إمامة معاوية بن أبي سفيان ودافع عنه[٤]، وألَّف كتاباً سمَّاه: «تبرئة معاوية»[٥]. وكان غلام ثعلب (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) لا يخفي حبَّه لبني أمية، ويقرأ على طلابه فصلاً من فضائل معاوية[٦] قبل شروعه في

---

(١) أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ص٢٤٣.

(٢) يرى محمد زاهد الكوثري أن الخلفاء تغاضوا عن الحنابلة؛ لأن إمامهم أحمد بن حنبل، منع رواية أحاديث الخروج عليهم. (ابن عساكر: المصدر السابق ص١٧)، لكن السلطة العباسية كثيراً ما تعرَّضت للحنابلة بالقمع والمطاردة، لما أحدثوه من فتن في صراعهم مع الشيعة والأشاعرة والمعتزلة، لكن أعمال الحنابلة هذه لم تكن موجهة لإسقاط الخلافة العباسية، عكس حركات الانفصال التي كانت ترمي إلى الإطاحة بالعباسيين. لهذا الأمر لم يكن الحنابلة خطراً على العباسيين.

(٣) لم تتوقف عداوة العباسيين للأمويين عام ١٣٢هـ، بل استمرت واشتدت عندما قامت دولة الأمويين بالأندلس. انظر: عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م)، ص١٧٣، وما بعدها.

(٤) أبو يعلى الفراء: المصدر السابق ص٢٣٤ وما بعدها.

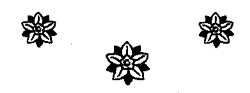
(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلي: المصدر السابق ٢/ ٢٠٦.

(٦) ذكر الحنابلة بعض فضائل معاوية بن أبي سفيان في كتبهم، من قول الرسول ﷺ، عن معاوية: «**اللَّهُمَّ علِّمه الكتاب والحساب، وقه العذاب**». وبذلك، فإن معاوية في الجنة؛ لأن النبي ﷺ مجاب الدعوة. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٦٩).

الدروس[1].

وعندما فقد الخلفاء هيبَتهم، ونفوذَهم في دولة بني بويه[2]، (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٤ ـ ١٠٥٥م) أفتى أبو يعلى الفراء أن ذلك الوضع لا يقدح في ولايتهم، تبريراً لحالهم السيء، وأعطى لفتواه صبغة شرعية[3].

ويؤخذ على الحنابلة تخلِّيهم عن الأصل الذي قرَّره مذهبهم في وجوب إقامة الخلافة الراشدة، وتمسُّكهم بالاستثناء[4] الذي اعترفوا فيه بدولة قامت على القهر والغلبة، ودافعوا عنها بحجة مصلحة المسلمين ودفع الضرر. أليس من الممكن أن يكون في الثورة على الإمام الظالم، الخير الكثير للدين، وللأمة، إذا اختيرت الظروف المناسبة[5]؟ لكنهم اتبعوا الإمام أحمد في الاعتراف بالسلطة القائمة، وعدم حمل السلاح في وجهها، حتى وإن اغتصبت الحكم[6]، واقتربوا من العباسيين وأصبحوا من رجالهم.



(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١٨/ ٢٣١.

(٢) انظر: ابن خلدون: العبر ـ القسم ٣، ٤/ ٨٤٤ وما بعدها، وابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٥٢، ٤٥٣.

(٣) عبد القادر أبو فارس: القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية ص٣٦١.

(٤) هو أنه يجوز الابتعاد عن الخلافة الراشدة لمصلحة. (ابن تيمية: المصدر السابق ص٢٨).

(٥) لم يحل عدم خروج أهل السُّنَّة، على العباسيين، دون حدوث، فتن وحروب، دمرت بغداد وغيرها. وألحقت بالناس الظلم الكثير، ساهم فيها الخلفاء ورجال دولتهم، فلو اجتهد السنِّيون لإصلاح النظام السياسي لكان في ذلك الخير الكثير.

(٦) أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص٧.



ثانياً

الحنابلة في خدمة الخلافة العباسية

قدم أحمد بن حنبل للخلافة العباسية دعماً معنوياً[١] باعتزالها، وبإعلانه ولاءه لها، في السر والعلن، وفي السرَّاء والضرَّاء[٢]. وكان في إمكانه تأليب المجتمع عليها، لما أصابه منها، ولمكانته في بغداد[٣]. غير أن أتباعه من بعده تجاوزوه، فجالسوا الخلفاء، وتشاوروا معهم في شؤون دولتهم[٤]، فتولَّى ابن أبي الدنيا (ت٢٨١هـ/ ٨٩٤م) تربية الخليفتين المعتضد والمكتفي[٥]، وكان أبو بكر ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)

---

(١) كان الخليفة المتوكل، يتخوَّف من أحمد بن حنبل، لذلك كان يرسل من يتجسَّس عليه، وذات يوم وصله خبر وجود علوي في بيت أحمد بن حنبل، فبعث من فتَّش داره، فلم يجد أحداً فاطمأن المتوكل، وتأكد أن البعض يكذب عليه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٣٣٧، ٣٣٨.

(٣) كان في مقدروه، تأليب العامة على السلطة، وكانت ستلبي طلبه في أغلب الظن، وهي التي ثارت من قبل مع أحمد بن سلامة على إبراهيم بن المهدي. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٤٨).

وبايعت أحمد بن نصر الخزاعي على الثورة على الواثق. (نفس المصدر ١٠/ ٣٠٣ وما بعدها).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٣٥، وأبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٧٠٧١.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٠٠، والموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨.

يحضر مأدبة طعام الراضي بالله (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م)، ويؤدب له أولاده[١].

واشتهرت جماعة من الحنابلة، بكثرة مخالطتها للسلطة، وبقربها منها؛ كالتميميِّين[٢]، وأبي منصور بن يوسف (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، وأبي الوفاء ابن عقيل[٣] (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م)، والشريف أبي جعفر[٤] (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، الذي غسَّل الخليفة القائم بأمر الله[٥] (ت٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، وهو أول من بايع المقتدر بالخلافة بعد والده القائم، ثم تبعه أبو محمد التميمي الحنبلي[٦] (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وباقي أعيان بغداد[٧].

وكان أبو منصور بن يوسف من المقربين إلى الخليفة القائم بأمر الله، فاستشاره فيمن يولِّيه القضاء خلفاً لابن ماكولا[٨] (ت٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) فاقترح عليه أبا عبد الله الدامغاني الحنفي[٩] (ت٤٧٨هـ/

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٧١.

(٢) سيأتي ذكرهم قريباً.

(٣) كان ابن عقيل، كثير الجلوس مع نظام الملك بحضرة الخليفة والوزراء، لما له من جاه وعلم. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٥٩).

(٤) هو من العائلة العباسية، ومن تلاميذ القاضي أبي يعلى الفراء: وكان رئيساً للحنابلة في زمانه، وتزعَّمهم في بعض الفتن التي خاضوها. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩).

(٥) كان الخليفة قد أوصى قبل وفاته: أن يغسله ابن عمه أبي جعفر. (نفس المصدر ١٢/ ١١٠).

(٦) هو: رزق الله عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي، من فقهاء الحنابلة، ومحدِّثيهم، كان محبباً لدى العامة وله جاه عند الخليفة. (نفس المصدر ١٢/ ١٥٠).

(٧) نفس المصدر ١٢/ ١١٣.

(٨) هو: أبو نصر علي بن الوزير بن القاسم، اشتهر بكتابه الإكمال في المشتبه من الرجال. (نفس المصدر ١٢/ ١٢٣).

(٩) هو: أبو عبد الله الدامغاني، محمد بن علي بن الحسين، برع في الفقه، =

١٠٨٥م) ليتقرَّب إلى الوزير عميد الملك الكندري[(١)] (ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) الشديد التعصب للأحناف[(٢)]، وكان في استطاعته عرضَ حنبليٍّ، أو شافعيٍّ، لكنه آثر حنفيّاً دفعاً للضرر المحتمل، من معارضة عميد الملك المسيطر على الدولة، ومن ورائه الأحناف الذين احتكروا منصب قاضي القضاة منذ أيام هارون الرشيد[(٣)].

وحين أبدى القائم بأمر الله مرة أخرى رغبته في تعيين قاضٍ ديِّنٍ ورعٍ، على قضاء دار الخلافة والحريم، استشاره، فنصحه بأبي يعلى الحنبلي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) الذي رفضَ قَبول العرض، ثم تراجع عن موقفه، بعد إلحاح شديد من الخليفة وأبي منصور[(٤)]، وتولى المنصب بشروط رضي بها القائم[(٥)].

وعندما امتنع القائم من تزويج ابنته للسلطان السلجوقي طغرلبك (٤٤٧ ـ ٤٥٥هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٠٦٣م) كان أبو منصور بن يوسف من أبرز

= وترأس الفقهاء والقضاة، وبقي في منصب القضاء ثلاثين سنة. (نفس المصدر ١٢/ ١٢٩).

(١) كان شديد التعصب على الشافعية، وكثير الوقوع في الشافعي، وهو الذي طلب من السلطان ألب أرسلان بلعن الشيعة، ثم أضاف إليهم الأشاعرة. (ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ١٣٨).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٣.

(٣) ذكر عبد المتعال الصعيدي، أن منصب قاضي القضاة، أُسند للأحناف منذ أيام الرشيد، الذي عيَّن أبا يوسف، ومنذ ذلك الحين احتكر هؤلاء المنصب في معظم الأحيان. وفي عهد القادر، عيَّن شافعياً قاضياً للقضاة بتأثير من الشوافع، فاحتج الأحناف وحدثت فتنة بين الطائفتين. فتدخل الخليفة، وأعاد المنصب للأحناف. (عبد المتعال الصعيدي: القضايا الكبرى في الإسلام ط٢ مصر مكتبة الأداب، (١٩٦٠م)، ص٣٠٥، ٣٠٦).

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٩.

(٥) سيأتي ذكرها قريباً.

الشخصيات التي سعت في التوسط بين الطرفين لتضييق شقة الخلاف، وكان من بين الشهود الذين حضروا عقد القران عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)[١].

وفي أيام احتلال القائد التركي البساسيري (ت٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) لبغداد عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) خبَّأ التاجر الحنبلي ابن جردة[٢] (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) خاتون[٣] زوجة القائم بأمر الله في داره، ودفع لأمير من أصحاب البساسيري عشرة آلاف دينار ليحمي له بيته[٤]. ولما استرجع السلطان طغرلبك بغداد، شكر لابن جردة صنيعه[٥].

وحين سمح الخليفة القائم لجلال الدولة البويهي (ت٤١٦ ـ ٤٣٥هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٤٣م) باتخاذ لقب شاهنشاه سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، وأمر بالخطبة له على المنابر، نفرت العامة، ورمت الخطباء بالآجُر، فتدخل الفقهاء وأجاز معظمهم[٦] ذلك اللقب، ومنهم أبو محمد التميمي الحنبلي[٧]

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٢٠، وما بعدها.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن الحسين بن جردة، من تجار الحنابلة وأثريائهم، وأصله من عكبرا، واستوطن بغداد، وقدم للعباسيين خدمات كثيرة، وأنشأ عدة مساجد، منها مسجد يعرف باسمه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٥، ١٢٦).

(٣) هي: ابنة السلطان السلجوقي طغرلبك. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/٩، ١٠).

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٠.

(٥) المصدر نفسه ٩/ ١٠.

(٦) كان القاضي الماوردي، من بين المانعين للتسمّي بذلك اللقب، رغم أنه كان صاحباً لجلال الدولة البويهي، وسبب معارضته ما روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن النهي بالتلقب بذلك: **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه، رجل تسمَّى: ملك الأملاك، لا مالك إلا الله ﷻ»**. متفق عليه. ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٤٣.

(٧) المصدر نفسه ١٢/ ٤٣.

(ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، بناء على أن النية هي الأصل، فملك الملوك، تعني ملوك الأرض[١]، لكن أبا يعلى الفراء لم يجز ذلك[٢].

ومن اللافت للانتباه أنه لم يوجد من بين الحنابلة من تولى مناصبَ عليا في الدولة العباسية[٣]؛ كالوزارة، والحجابة طيلة ثلاثة قرون[٤]؛ اتباعاً للإمام أحمد الذي اعتزل السلطة ولم يتول وظائفها[٥]. غير أن بعضهم مارس القضاء في بغداد خلال القرن (الخامس الهجري/ ١١م). فعمل الموقر الحنبلي (ت٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م) قاضياً على نحو أربعة آلاف غلام، وكان يقضي بينهم بمذهب أحمد بن حنبل، واكتسب مكانة عظيمة بينهم[٦].

ويُعد أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) أشهر من تولى القضاء[٧]

---

(١) ابن كثير: المصدر نفسه ١٢/ ٤٣.

(٢) منع ذلك في كتاب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهو مخطوط، بالمكتبة الظاهرية بدمشق. عبد القادر أبو فارس: المرجع السابق ص١٨٨.

(٣) وجد من رجال الدولة العباسية، من كان يميل إلى الحنابلة، غير أن هؤلاء ليسوا حنابلة. انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ٥٩.

(٤) في القرن (السادس الهجري/ ١٢م)، تولى ابن هبيرة الحنبلي (ت٥٦٠هـ)، الوزارة عدة سنوات، وهو أشهر وزراء الدولة العباسية في ذلك القرن. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٥) نفس المصدر ١٠/ ٣٢٨، ٣٣٩.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٨٩.

(٧) حدَّد أبو يعلى، واجبات القاضي في عشر نقاط هي: الفصل بين المنازعات والخصومات بالتراضي والإجبار، وأخذ الحقوق من الممتنعين وإرجاعها لأصحابها، والحجر على من يستحق ذلك كالسفيه، وإثبات الولاية على من منع من التصرف لجنون أو صغر، والاهتمام بالأوقاف والنظر فيها، وتنفيذ وصايا الموصين، وتزويج الأيامى الأكفاء إذا عدم الولي، وإقامة الحدود الشرعية، وتفقد عمله وكف الأذى عن الناس والتعدي عليهم، وتفقد شهوده وعماله، =

من بين الحنابلة بعد موافقة الخليفة القائم على شروطه؛ كعدم الحضور في أوقات المواكب والاستقبالات[1]. والإعفاء من المجيء إلى دار السلطان[2]. والانتقال إلى باب الأزج[3] ونهر المعلى[4] يوماً واحداً في كل شهر مع تعيين نائب له في دار الحريم[5]. وبذلك ابتعد عن مجالس السلطة واحتفالاتها التي قد تصاحبها أفعال ينكرها الشرع، ووفر لنفسه أوقاتاً يتفرغ فيها لعلمه وعمله وعبادته.

وعيَّن أبو يعلى تلميذه يعقوب البرزيني (ت٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م) قاضياً[6] على باب الأزج[7]. وجعل أبا الحسن السيبي الحنبلي نائبه على دار الخلافة، ونهر المعلى[8]. واختار عبد الله بن جلبة الحنبلي

= واختيار نوابه، والعدل بين الناس وعدم اتباع الهوى. (أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص٤٩، ٥٠).

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٩.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٩٩.

(٣) **باب الأزج**: محلة كبيرة، ذات أسواق واسعة، وتقع بالقسم الشرقي من بغداد، وبها عدة محال، كل واحدة تكاد تكون مدينة. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١٦٨).

(٤) يقع وسط الجانب الشرقي من بغداد. (أحمد سوسة ومصطفى جواد: خارطة بغداد ص٧٣).

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٩.

(٦) عزل البرزيني نفسه عام (٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م) عن القضاء، بعد وفاة أبي يعلى بفترة طويلة، ثم عاد إليه عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، ويُجهل سبب انقطاعه ثم عودته إلى منصبه. (انظر: ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة، حققه: سامي الدهان، هنري لاوست، دمشق، المعهد الفرنسي، (١٩٥١م)، ١/ ٩٢، ٩٣).

(٧) المصدر نفسه ١/ ٩٢، ٩٣.

(٨) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٩.

(ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) قاضياً على بلدة حران[١]. فساهم بذلك في نشر فقه أحمد بن حنبل بين الناس في بغداد وخارجها.

ولم يُكثر الحنابلة من تولي القضاء، بالمقارنة بالطوائف السُّنِّيَّة الأخرى، لذلك كان أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) يعتقد أن أصحابه هم الذين ظلموا مذهبهم، بابتعادهم عن القضاء وميلهم إلى الزهد، عكس الأحناف والشوافع، الذين طلبوا القضاء والولايات لينشروا فقههم[٢]. وربما كان أبو يعلى الفراء هو الحنبلي الوحيد الذي تولى منصب قاضي القضاة[٣] في القرن (الخامس الهجري وما قبله). إذ لم أعثر على غيره من الحنابلة تقلده طيلة ثلاثة قرون.

وفي القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، اعتمدت الخلافة العباسية، في بعثاتها الرسمية ومراسلاتها خارج بغداد على أسرة التميميِّين الحنبلية[٤].

ومن أفرادها: عبد الواحد بن عبد العزيز (ت٤١٠هـ/ ١٠١٩م)، أرسله الخليفة القادر بالله إلى خراسان في مهام مختلفة[٥]. وأبو محمد

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مج٢، ٣/ ٣٠.

(٢) ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص٥٠٥.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٩.

(٤) نسبة لعبد العزيز بن الحارث التميمي (ت٣٧١هـ)، وكان له ولدان: عبد الوهاب (ت٤١٥هـ)، وعبد الواحد (ت٤٧٠هـ)، وفي القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، اشتهر من الأسرة: أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب (ت٤٨٨هـ) الذي كان له ولدان هما: عبد الوهاب بن رزق الله (ت٤٩١هـ) وسمَّاه على أبيه، وعبد الواحد بن رزق الله (ت٤٩٣هـ) وسمَّاه على عمه. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٨٨). ويُذكر أن البيت التميمي هو الذي حمى أبا الحسن الأشعري، عندما تألب عليه الحنابلة وأصحاب الحديث. (انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٦/ ٣٣٢).

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٧٩.

رزق الله (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، كان له جاه لدى العامة والخاصة، وخرج في بعثة إلى أصبهان وحدَّث بها[١]. وأرسله المقتدي بأمر الله (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م) إلى سمرقند حاملاً رسالة إلى السلطان السلجوقي ملكشاه[٢]، وأسمع أهلها كتاب «الناسخ والمنسوخ»[٣]. وفي عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦١م) بعثه القائم بأمر الله مع وفد للوساطة بينه وبين السلطان طغرلبك في قضية زواج ابنته[٤]، وكان معه أبو منصور بن يوسف الحنبلي، وأبو عبد الله الدامغاني الحنفي[٥]. وبعثه المقتدي بأمر الله عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) إلى السلطان ملكشاه لتعزيته في موت ابنته الخاتون، مع زميل له، غير أنه لما وصل أصبهان انقلب عائداً إلى بغداد، فلم يرضَ الخليفة بعودته بدون إذنه[٦]، ولا يُعرف سبب رجوعه[٧]. أما رفيقه فواصل السير في مهمته[٨].

وكان لدى محمد رزق الله ولدان: عبد الواحد، وعبد الوهاب، اشتُهرا بالوعظ، ومارسا مهنة أبيهما: **فالأول** أخذ الرسائل من الديوان إلى الأقاليم في عهد الخليفة المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨م). وتوفي عام[٩] (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م). **والثاني** خرج رسولاً إلى

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٥٠.
(٢) ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ١٠٠.
(٣) اشترط عليهم أموالاً لكي يسمعهم الكتاب، فجمعوها له. (المصدر نفسه ١/ ١٠٠).
(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢١٨.
(٥) نفس المصدر ٨/ ٢٢٠.
(٦) نفس المصدر ٨/ ٤٧.
(٧) لم تتطرق المصادر المتوفرة إلى سبب رجوعه.
(٨) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٤٧.
(٩) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ١٥/ ٢٣٣.

بعض ملوك السلاجقة بأصبهان، وتوفي سنة[١] (٤٩١هـ/ ١٠٩٧م).

وسافر محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي[٢] إلى بلاد المغرب، ونزل بالقيروان داعية لبني العباس، فاستجيب له، ووقعت بسببه فتنة[٣]، فانتقل إلى الأندلس[٤] واستوطن طليطلة حتى توفي بها عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)[٥]. وربما يكون حلَّ بالمغرب لتحريض أهله على خصوم العباسيين. كما أنه قد يكون دخل الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية بها عام[٦] (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م). إذ يستبعد أن يحسن إليه حكام البلد الأمويين[٧]، وهو مبعوث خصومهم العباسيين[٨]، كما يُجهل ما إذا واصل نشر دعايته للخلافة العباسية، أم تخلَّى عنها.

---

(١) ابن النجار البغدادي: نفس المصدر ١٥/ ٣٣٤.

(٢) لم أعثر في المصادر الحنبلية - التي اطلعت عليها - على أن عبد الواحد بن عبد العزيز ترك ولداً، لكن صلاح الدين الصفدي ذكر ابناً هو ابن عم أبي محمد رزق الله بن عبد العزيز التميمي. (صلاح الدين الصفدي: كتاب الوافي بالوفيات - حققه: س. د. رينغ، دمشق، المطبعة الهاشمية، (١٩٥٩م)، ٤/ ٧٠.

(٣) لم يفصِّل الصفدي، في أسباب الفتنة، وحوادثها، ولم يذكر السنة التي خرج فيها من بغداد، ولا الخليفة الذي أرسل محمد بن عبد الواحد. (انظر: المصدر السابق ٤/ ٧٠، ٧١).

(٤) نفس المصدر ٤/ ٧٠.

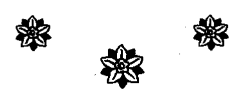
(٥) نفس المصدر ٤/ ٧١.

(٦) عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨١م) ص٣٦٣.

(٧) الصفدي: المصدر السابق ٤/ ٧١.

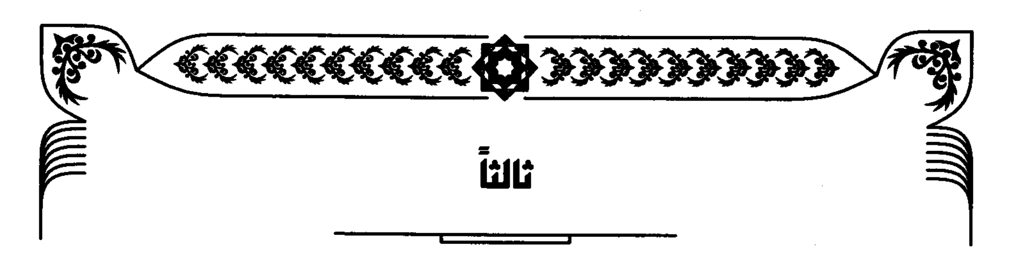
(٨) إلا إذا كان قد أخفى حقيقة أمره عنهم، ويُذكر أن الصفدي أشار إلى ملوك الأندلس، وهذا يدل على سقوط دولة الخلافة الأموية بالأندلس، وظهور ملوك الطوائف، وأشير إلى أن أبا الحسين ابن أبي يعلى، لم يترجم في طبقات الحنابلة، لمحمد بن عبد الواحد. ربما لأنه لم يكن حنبلياً، منذ كان في =

وبناءً على ما تقدَّم ذِكره، يتضح أن الحنابلة في علاقتهم بخلفاء بغداد، لم يسيروا على نهج أحمد بن حنبل في اعتزال السلطة، وإنما اقتربوا منها، وانتدبوا أنفسهم لخدمتها، وبالأخص في عهد الخليفتين القادر بالله، وابنه القائم بأمر الله[1]. لكنهم التزموا بدعوتها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.



= بغداد، أو أنه تخلَّى عن حنبليته عندما استقر بالأندلس وتحول إلى المالكية، الأمر الذي سهَّل له استيطان الأندلس عكس ما حدث لبقي بن مخلد، أو أنه كان مغموراً.

(١) سبب ذلك أنهما كانا على مذهب الحنابلة في الاعتقاد، وقدَّما لهم دعماً كبيراً في صراعهم مع خصومهم.



ثالثاً

نُصح رجال الدولة والإنكار عليهم

حين منع عضد الدولة البويهي (٣٦٧ ـ ٣٧٣هـ/ ٩٧٨ ـ ٩٨٢م) القُصَّاص من التحدث إلى العامة لِما أحدثوه من فتن بين السُّنَّة والشيعة[١]، لم يستجب له ابن سمعون الحنبلي[٢] (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م)؛ وتابع وعظه للناس في جامع المنصور. فأخذته الشرطة إليه، ودخل وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس] ثم ابتدره بالنُّصح، والتذكير حتى أبكاه، فعفا عنه وأكرمه[٣].

وعندما تقدَّم الخليفة المطيع لله[٤] (٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ/ ٩٤٦ ـ ٩٧٤م) بمال خصَّصه لإقامة بناء كبير على قبر الإمام أحمد، اعترض عليه عبد العزيز بن الحارث التميمي (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م) وبيَّن له أن هذا الفعل

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥٨، وما بعدها.

(٢) هو من متصوفة الحنابلة، برع في الخواطر والوعظ. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥٧، وما بعدها).

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ١٥٧.

(٤) أراد المطيع ذات يوم التقرب إلى الحنابلة، فخاطب جمعاً غفيراً منهم، فذكر لهم أنه سمع شيخه يقول: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا مات أصدقاء الرجل ذل». (ابن الجوزي: المنتظم ٦/ ٣٤٤). وأراد بذلك تحريك عواطفهم تجاه إمامهم لكسب ودِّهم.

يتنافى مع مذهب أحمد بن حنبل، ثم حثَّه على التصدق بذلك المال[١]. وهذا يدل على مدى تمسُّك الحنابلة بالأثر، وعدم مجاراتهم لطوائف بغداد في إقامة الأضرحة والمشاهد لأئمتهم[٢].

ووعظ أبو سعد البقال الحنبلي (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) الوزير السلجوقي نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) بجامع المهدي، وذكَّره بمسؤولياته الجسام أمام خالقه، وبنعمه التي أنعم بها عليه. ثم أطال في توجيهه، وإرشاده حتى دمعت عيناه[٣].

وكان أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) كثير الانتقاد لرجال الدولة والنُّصح لهم[٤]. فمن ذلك أن الوزير أبا شجاع[٥] (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) أصيب بالوسوسة، فكتب له رسالة وضح له فيها، أن الحيطة مطلوبة شرعاً، لكن لها حدوداً، واستدل له بأفعال الرسول عليه الصلاة والسلام في فرك المني، واستخدام الماء في تطهير بول الأعرابي في المسجد[٦].

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٥١.

(٢) يعتبر الشيعة، أكثر طوائف بغداد، إقامة للمشاهد، والأضرحة، وتزخر بغداد بأضرحة أئمتهم. وسيأتي ذكر بعضها لاحقاً.

(٣) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٣٣، ١٣٤.

(٤) تعرَّض أبو الوفاء ابن عقيل، في عهد نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) لكثرة المضايقات، وتطاول عليه الأشاعرة، وتسخطوا عليه؛ لأنه على مذهب الحنابلة، وكان ذلك بمساعدة الوزير السلجوقي نظام الملك. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٩٣). ورغم ذلك فإن ابن عقيل أثنى على نظام الملك، ومدحه ووصفه بالكرم، وعدَّد أفعاله الخيرية؛ كإحياء العلوم، وبناء المدارس. (نفس المصدر ٩/ ٦٨).

(٥) هو من خيار وزراء بني العباس، كان كثير الصدقة، والإحسان، ووزر للمقتدي، وله كتاب في التاريخ: ذيل تجارب الأمم. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٥٠).

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٩٢، ٩٣.

وعندما سمع أن دعاة الباطنية أفسدوا عقيدة السلطان السلجوقي ملكشاه[1] (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م)، خطَّ له كتاباً وبعثه إليه[2] جواباً عن الشكوك التي أثيرت في عقله وقلبه. ولما اطَّلع عليه كان له بلسماً شافياً بدَّد الشبهات المثارة حول الإيمان بالله، ثم انقلب على الباطنية فطاردهم ولعنهم[3].

وحين عزم الوزير شرف الملك على إعادة بناء القبة على قبر أبي حنيفة عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م)، وهدم الأبنية والمسجد والقبور القريبة من الضريح، وأخرج رفاة المدفونين في ذلك المكان، أنكر عليه أبو الوفاء بن عقيل فعلته[4]، فلم يتقبَّل الوزير نصيحته، وشكاه إلى أبي منصور بن يوسف[5]، الذي اتصل بدوره بابن عقيل وقال له: «يا سيدي ما نعلم كيف حالنا مع هؤلاء الأعاجم والدولة لهم؟». فرد عليه: «إني رأيت منكراً، فاشياً، فنهيت عنه»[6].

وعندما أنشأ الوزير ابن جهير[7] (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) سوراً للحريم سنة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وسمح للعوام بالعمل والتفرج عليهن، وأظهروا

---

(١) اشتهر باسم جلال الدولة، أصله تركي سلجوقي، عُرف بالعدل، والإحسان، وإنشاء المرافق العامة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٤٣).

(٢) أرسله إليه مع الواعظ، المختص بالسلطان. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٧٣).

(٣) نفس المصدر ٩/ ٧٤.

(٤) نفس المصدر ٩/ ٢٤٥.

(٥) كان لأبي منصور بن يوسف نفوذ معنوي، على ابن عقيل؛ لأنه كان يحسن إليه. (نفس المصدر ٩/ ٢١٢، ٢١٣).

(٦) نفس المصدر ٨/ ٢٤٥.

(٧) اشتهر بعميد الدولة وخدم ثلاثة خلفاء، وعزل عن الوزارة عدة مرات، ثم عاد إليها، وتوفي عام (٤٩٣هـ)، ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٥٩.

المنكرات والسخافات[1]، كتب إليه ابن عقيل رسالة تحذير واستنكار، وأخبره فيها بالمخالفات الشرعية التي انتشرت كالزنا، وكشف عورات الرجال بحضور النساء[2]، ولفت انتباهه إلى تناقضه في تطبيق الحدود. إذ هو يقيم الحد على قدح نبيذ مختلف فيه[3] صباحاً ومساءً من جهة، والعامة تمرح في ممارسة المحرمات المجمع على تحريمها كالزنا، ولبس الحرير من جهة أخرى[4]. ثم أغلظ له الكلام، وحذَّره إذا تعارض دين محمد ﷺ بدينه، فلا وزن لدين ابن جهير[5]، ثم خاطبه: «يا شرف الدين اتق الله، فإن سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض. ثم تلومنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام؛ لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح، والإنكار لها، والنياحة على الشريعة»[6]. ثم نبَّهه إلى خطر الاغترار بمدح المادحين[7].

وذكر ابن البناء الحنبلي (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)[8] أنه كان ذات يوم بجامع الخليفة، فسمع دويّاً واستغاثة بسبب الظلم، فأُخذت الأموال،

---

(١) ابن كثير: نفس المصدر ١٢/ ١٤٩.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٨٦.

(٣) اتفق الفقهاء على جواز الانتباذ في الأسقية، غير المسكرة، واختلفوا فيما سواها، ولم يتفقوا في حكم: انتباذ الخليطين، كخلط التمر والزبيب. ولمزيد من التفاصيل، انظر: ابن رشد الحفيد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، بيروت، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ١/ ٣٤٦، ٣٤٧.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٨٦.

(٥) المصدر نفسه ٩/ ٨٦.

(٦) المصدر نفسه ٩/ ٨٦.

(٧) المصدر نفسه ٩/ ٨٦.

(٨) هو: أبو علي ابن البناء الحنبلي، مؤرِّخ وفقيه، من تلاميذ القاضي أبي يعلى، ألف عدة كتب منها: كتاب جمع فيه ما يوافق بين الشافعي وأحمد، لجمع القلوب. توفي عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨). (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٤٣).

وانتُهكت الأعراض عام (٤٦١هـ/١٠٦٨م)، فكتب إلى القائم بأمر الله مذكرة[١]، أبلغه فيها استنكاره لما حدث، وذكَّره بمسؤولياته أمام الله، ووصف خطابه إليه بأنه مناصحة، ثم دعا له فيه بدوام دولته، وتخليد مُلكه[٢]. وأورد نصوصاً من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وأخباراً عن الصحابة، تحذر من عاقبة الظلم.

ثم ختم خطابه بقوله: «... ونرغب إلى الله الكريم في إطالة بقاء سيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين أدام الله أيامه، وخلَّد ملكه، وأعانه على مصالح الدين، ومعونة المستورين، وقمع الظالمين، وأجاب فيه، وفي مولانا الأمير السيد الأجل المؤيد المقتدى عدة الدين، وعمدة الإسلام والمسلمين، صالح دعوات الداعين، وابتهالات المبتهلين، بجوده وكرمه إن شاء الله»[٣].

فواضح من ذلك أن ابن البناء في رسالته إلى الخليفة تحدث إليه برفق وأناة، أشبعه فيها مدحاً، وتبجيلاً ليدفعه إلى التصدي للبغاة، وإنصاف المظلومين. ويحثه على تحمُّل مسؤولياته على أكمل وجه. وانتقده فيها انتقاداً خفيّاً، بيّن فيه عجز الخليفة على توفير الأمن لرعيته، وأراد أن يقول له: أين دورك في حماية المجتمع؟ وأين هيبة الخلافة وعيونها؟.

---

(١) كان قد كتب قبل تلك المذكرة رسالة للخليفة، عام (٤٦١هـ)، ذكر له فيها حوادث الفتنة التي وقعت بين العامة والجند، داخل جامع المنصور. ولمعرفة تفاصيل ما جرى انظر: يوميات ابن البناء في:

GEORGE Makdisi: AOUTO Graph Diary Of Aneleventh Century historian Of Bagdad - Bulletin Of The school of oriental African studies - university of london -....... Partie - Voi: xviiii 1956 - p: 22 - 23.

(٢) IBID-2eme partie - voiKxix - 1957 - p: 285.

(٣) IBID - 2eme partie - voiKxix - 1957 - p: 288.

وكان بعض الحنابلة الذين نصحوا رجال الدولة، وأنكروا عليهم انحرافاتهم، يرفضون استلام العطاء الذي مُنح لهم[1]. فابن سمعون (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) حين وعظ عضد الدولة البويهي (٣٦٧ ـ ٣٧٣هـ/ ٩٧٨ ـ ٩٨٢م) امتنع من أخذ المكافأة، ولم يقبل توزيعها على رفاقه، وقال للخادم: «أصحابه ـ يعني: عضد الدولة ـ أفقر إلى هذا من أصحابي»[2]. وعندما نصح أبو سعد البقال الحنبلي (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) الوزير السلجوقي نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) لم يأخذ الأموال التي قدَّمها له، ورفض التصدُّق بها على المحتاجين وقال: «هم على بابك أكثر مما على بابي»[3]. وحين توفي الخليفة القائم بأمر الله (ت٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، تولى الشريف أبو جعفر الحنبلي غسله والصلاة عليه، فأُعطي أثاثاً كثيراً، ومالاً جزيلاً، فلم يأخذ من ذلك شيئاً[4].

ولم يقتصر دور الحنابلة على الإرشاد، والتوجيه، والإنكار على رجال الدولة، وإنما امتد إلى حثِّهم على الغزو وحمل السلاح لصدِّ الأعداء. من ذلك ما أقدم عليه رئيس الحنابلة أبو محمد البربهاري (ت٣٢٧هـ/ ٩٤٠م)، عندما قتل القرامطة[5] حجاج بغداد وأخذوا أموالهم عام (٣١٢هـ/ ٩٢٤م)[6]، إذ أعلن جهاراً خمس مرات أنه على استعداد

(١) قد يكون دافع رفض العطاء هو الرغبة في طلب الأجر، وتدريب النفس على الإخلاص، أو طلب الجاه عندما يشيع الخبر بين الناس.
(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ١٥٨، ١٥٩.
(٣) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٣٤، ١٣٥.
(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩.
(٥) عُرفوا بذلك الاسم نسبة لقرمط بن الأشعث البقار، وهم شيعة باطنية، يظهرون التشيع، ويبطنون عقائد الفرس. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٦١، ٢٦٢).
(٦) تعرض لهم القرامطة، أثناء عودتهم من بيت الحرام، وقد حزنت بغداد على حجَّاجها أشد الحزن. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٩، ١٥٠).

لجمع مائة ألف دينار من الناس لمساعدة الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ - ٩٣٢م) في حرب القرامطة[١]، ليشعره باستنكار العامة لما حدث، ويحرِّضه على مقاومة هؤلاء، ويذكره كذلك بأن أهل بغداد بجانبه، ويُمكنهم مساندته بالمال إذا كان في حاجة إليه.

وعندما اشتدت الفتن الطائفية بين السُّنَّة والشيعة، واستغل الروم ذلك الظرف[٢]، ودخلوا أرض الخلافة، وعاثوا فيها فساداً في عامي: (٣٦١ و٣٦٢هـ/ ٩٧١م - ٩٧٢م)[٣]، تقدم ابن الدقاق الحنبلي ومعه أعيان البلد إلى عز الدولة بختيار بن بويه (٣٣٦ - ٣٦٧هـ/ ٩٦٧ - ٩٧٨م)، وحرَّضوه على غزو الروم، فبعث جيشاً لقتالهم عام (٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)، وكان النصر حليفه[٤].

وحين استولى الفرنجة على القدس عام (٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م)، استنجد المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ - ١١١٨م) بابن عقيل الحنبلي، (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م)، وبكبار الفقهاء، وانتدبهم إلى الاتصال بحكام الولايات ليحرِّضوهم على الجهاد[٥]، فخرج أبو الوفاء بن عقيل إلى الأقاليم داعياً إلى حمل السلاح لتحرير بيت المقدس[٦].

فالحنابلة في علاقتهم بالخلافة العباسية، لم يعتزلوها كما فعل أحمد بن حنبل[٧]، وإنما تباينت مواقفهم منها، فأبو بكر الأنباري،

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩١.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٧ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ١١/ ٢٧٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) لم تسفر مجهودات ابن عقيل، وباقي الفقهاء على نتائج ملموسة في التصدي للفرنجة.

(٦) نفس المصدر ١٢/ ١٥٦.

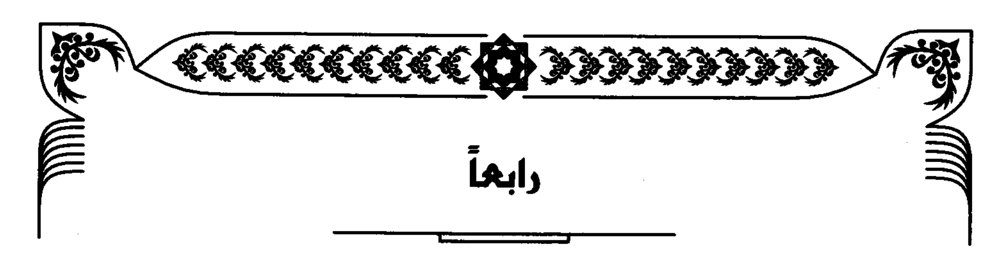
(٧) عن موقف أحمد من السلطة، انظر: الفصل الأول.

وابن أبي الدنيا، عاشا في قصر الخلافة، وأبو محمد البربهاري كان بعيداً عن السلطة ومعارضاً لها[1]. وفي القرن (الخامس الهجري/ ١١م). اشتُهرت جماعة منهم بقربها من الخلفاء، وتفانيها في خدمتهم؛ كالتميميِّين، وابن عقيل، وأبي منصور بن يوسف، والقاضي أبي يعلى، والشريف أبي جعفر، لكن معظمهم لم ينسَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما يتفق مع نهج الإمام أحمد بن حنبل، الأمر الذي مكَّنهم من بث نفوذهم في الدولة، والتأثير في شؤونها.



---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٨٢.



رابعاً

علاقة الحنابلة بخلافة ابن المعتز
(٢٩٥هـ/٩٠٧م)

في عام (٢٩٥هـ/٩٠٧م) خلع الأمراء، والقضاة، والأعيان، الخليفة المقتدر، وبايعوا ابن المعتز مكانه[١]؛ بعدما اشترط عليهم عدم سفك الدماء من أجله[٢]. لكن أنصار المقتدر تمكَّنوا من التغلب على مؤيدي ابن المعتز، وأعادوا المقتدر إلى السلطة وقتلوا ابن المعتز ومعظم أصحابه[٣]. وانفرد ابن الأثير[٤] برواية أشار فيها إلى أن الغلام المرافق لابن المعتز أثناء هروبهما كان ينادي: «يا معشر العامة، ادعوا لخليفتكم السني البربهاري»[٥]. ونُسب الخليفة إلى البربهاري رئيس الحنابلة ليستميل أهل السُّنَّة والعوام الذين يعظمون البربهاري[٦]، الأمر الذي دفع المستشرق لويس ماسينيون إلى تصور وجود مؤامرة دبَّرها أهل السُّنَّة

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/١٦، ١٧.
(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١١/١٠٧.
(٣) نفس المصدر ١١/١٠٧.
(٤) عن غيره من المؤرخين؛ كالطبري، وابن الجوزي، ومسكويه وأبي الفداء، وابن كثير، وابن العماد الحنبلي، وربما أغفل هؤلاء تلك الحادثة، لعدم أهميتها في نظرهم. ويتبين من تلك الواقعة أن البربهاري، قد ذاع صيته ونما نفوذه وجاهه قبل نهاية القرن (الثالث الهجري/ ٩م).
(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/١٦.
(٦) نفس المصدر ٨/١٦.

لإقامة «خلافة حنبلية بربهارية[1]، استمرت يوماً واحداً، هي خلافة ابن المعتز، لكنها أخفقت؛ لأنها لم تستطع الحصول على الأموال من الممولين اليهود في القصر، وقد كانوا متواطئين مع عمال الخراج الشيعة من خصوم الحكم الوراثي، فأعيدت الخلافة إلى المقتدر»[2].

والذي يُفسر سبب مبايعة أعيان بغداد وعلمائها لابن المعتز هو اشتهاره بالعلم، والصلاح، وبُعده عن مخالطة رجال الدولة[3]. في حين كان المقتدر ضعيفاً، وعمره لا يتجاوز ثلاثة عشر عاماً[4]. ومن ثَمَّ فلا غرابة أن يؤيد الحنابلة، وأصحاب الحديث، اختيار ابن المعتز. ومما يرجح أن دعم هؤلاء له كان دعما تلقائيّاً، وليس مُبَيَّتاً لإقامة خلافة حنبلية، أن الغلام عندما فرَّ مع الخليفة طلب من العوام الدعاء له، ولم يطلب منهم النجدة[5]. لذلك لم يهبُّوا للدفاع عنهما.

وأما ما ذكره ماسينيون من أن أهل السُّنَّة فشلوا في محاولاتهم، لعدم تلقيهم الأموال من اليهود والشيعة، فلا يوجد ما يثبت ذلك، فهو

---

(١) نسبة لأبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، رئيس الحنابلة عظمه العوام، والخواص، خاض عدة مواجهات مع خصومه في بغداد، توفي عام (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م). (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٠١). ويجب التفريق بين هذا، وبين أبي بحر محمد بن الحسن بن كوثر البربهاري، وهو محدث مشهور ولد عام (٢٦٦هـ)، وتوفي سنة (٣٦٢هـ)، وقد حدث له خلط في الحديث بين الصحيح والرديء. (أبو سعد السمعاني: الأنساب حققه عبد الرحمٰن المعلمي اليماني حيدر آباد، الدكن ـ الهند ـ دائرة المعارف العثمانية، (١٩٦٣م)، ٢/ ١٣٣).

(٢) عبد الرحمٰن بدوي: شخصيات قلقة في الإسلام، ط٣، الكويت، وكالة المطبوعات، (١٩٧٨م)، ص٧١.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ١٥، ١٦.

(٥) انظر: المصدر نفسه ٨/ ١٦.

لم يشر إلى مصادره فيما ذهب إليه[١]. كما أن الحنابلة وأصحاب الحديث في إمكانهم الحصول على أموال من العامة من دون اللجوء إلى اليهود والشيعة[٢]. إلى جانب أن السياق التاريخي للحوادث، يشهد على أن انهزام ابن المعتز لم يكن بسبب الضائقة المالية، وإنما كان نتيجة تآمر دبَّره أنصار المقتدر[٣]. ومما يشكك في التعاون الخفي المزعوم بين اليهود والشيعة، أن الحسين بن حمدان أحد غلاة المتشيِّعين لعلي بن أبي طالب[٤] حاول قتل المقتدر لينفرد ابن المعتز بالحكم[٥].

والتفسير الذي ذهب إليه ابن الأثير في علاقة ابن المعتز بالبربهارية هو أقرب إلى الصواب، وأرجح من التعليل الذي قدمه لويس ماسينيون[٦]، الذي جعله يعتقد بوجود مؤامرة سلفية لإقامة خلافة حنبلية بربهارية.

والحنابلة لم يسعوا طيلة ثلاثة قرون إلى إحداث انقلاب سياسي شامل لتغيير نظام الحكم وجعله سلفيّاً. وقد كان في مقدورهم تهديد الخلافة العباسية، وتوجيه لها ضربات موجعة، نظراً لتماسك جماعتهم ذات النشاط الدؤوب، ولنفوذهم القوي على العوام، ولتجربتهم في تحريض جماهير بغداد في نزاعهم مع خصومهم[٧]. الأمر الذي جعل

---

(١) عبد الرحمٰن بدوي هو الذي ترجم مقالات ماسينيون إلى العربية، ولم ترد فيها المصادر. (انظر: شخصيات قلقة ص٧١).

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩١.

(٣) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٠٧، وابن الأثير: الكامل ٨/ ١٥ وما بعدها.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ١٨.

(٥) نفس المصدر ١١/ ١٠٧.

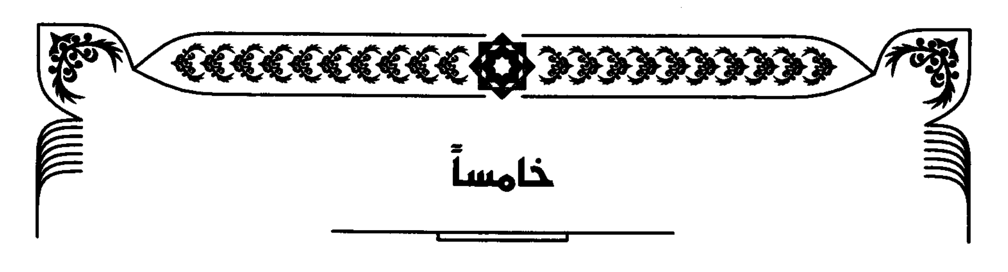
(٦) لا شك أنه طالع ما كتبه ابن الأثير في الكامل، عن الحادثة، لكن يبدو أنه لم يقتنع بتفسيره لها.

(٧) سنفصِّل ذلك لاحقاً.

الدولة تتخوف منهم[1]. فلما اطمأنت لولائهم لها، غضت عنهم الطرف في فترات كثيرة، لكنها استخدمت أحياناً القوة لردعهم حين هدَّدوا أمن المجتمع.



(١) انظر: ابن الجوزي: مناقب الإمام أحمد ص٥٠٣، وابن كثير: المصدر السابق ٢٠١/١١.



خامساً

تصدّي الدولة العباسية للحنابلة

لم تمر على وفاة الإمام أحمد (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) أربعة وخمسون عاماً، حتى أصبح أتباعه يمثلون حركة اجتماعية منظمة، لها زعاماتها، وأنصارها[١]. ودخلت في نزاع مع طوائف البلد، وجهرت بمعتقداتها أمام مخالفيها منذ مطلع القرن (الرابع الهجري/ ١٠م)[٢].

من ذلك أنه حدثت فتنة عام (٣٠٦هـ/ ٩١٨م) بين الحنابلة والعوام، فتدخلت على إثرها الشرطة، وقبضت على جماعة من الحنابلة، وأرسلتهم إلى البصرة، فحُبسوا هناك[٣]. ولا يُعرف سبب هذه الحادثة[٤].

وحين ألَّب الحنابلة وأصحاب الحديث العامة على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري[٥] (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) لأمور نقموها عليه[٦]،

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ١٦.

(٢) نفس المصدر ٦/ ١٦١، ١٦٢.

(٣) نفس المصدر ٦/ ١٦١، ١٦٢.

(٤) انفرد ابن الأثير عن غيره من المؤرخين، بذكر هذه الفتنة، ولم يشر لسببها. انظر: المصدر نفسه ٦/ ١٦١، ١٦٢.

(٥) سنذكر تفاصيل الخلاف بين الحنابلة والطبري لاحقاً بحول الله تعالى.

(٦) منها: اتهامه بالتشيع، والإرجاء، وعدم ذكر الإمام أحمد من بين الفقهاء. سيأتي توثيق ذلك لاحقاً.

وأجبروه على ملازمة بيته، تدخلت الشرطة للدفاع عنه، وفك الحصار المضروب على داره[1].

وفي عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) اختلف أصحاب أبي بكر المروزي الحنبلي[2] مع غيرهم من العوام؛ كالشافعية، والأحناف، في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فقال الحنابلة: إن الله يُجلس رسوله معه بجانبه على العرش في الآخرة. وقال الآخرون: إن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى يوم القيامة[3]، فنشب قتال بين الطرفين لم يتوقف إلا بتدخل الجند، بعدما قتل من الجانبين عدد كبير[4].

وعندما أمر الخليفة القاهر بالله (٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ ـ ٩٣٤م)، بلعن معاوية بن أبي سفيان عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)[5]، أعلن أبو محمد البربهاري وأصحابه معارضتهم له، وألَّبوا عليه الناس، فتدخلت الشرطة وقبضت على بعض الحنابلة، لتفريق جمعهم[6]. وأما البربهاري فهرب، واختفى حين طلبه الحاجب علي بن يلبق[7].

وفي أيام الوزير علي بن عيسى (ت٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، بنى الحنابلة

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٥٧، ٥٨.

(٢) هذه الجماعة تنسب لمؤسسها أبي بكر المروزي الذي توفي عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م). (أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر مج١، ٣/ ٩٤، وابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٦٢). وقد خلفه في قيادة الجماعة أبو محمد البربهاري. (مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٢٦٠).

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٦٢.

(٤) أبو الفداء: المصدر السابق مج١، ٣/ ٩٤.

(٥) مسكويه: المصدر السابق ١/ ٢٦٠.

(٦) نفس المصدر ١/ ٢٦١.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٧٢.

مسجداً لهم ببغداد، واتخذوه منطلقاً لنشاطهم، فانزعج خصومهم منه، وتظلَّموا إلى الوزير، فأمر بهدمه بحجة أنه أُسس على غير تقوى من الله[1]. ولم يذكر هلال الصابئ - راوي الخبر - سنة هدم المسجد ولا موقعه، ولا ردَّ فِعل الحنابلة. والهدم قد يكون حدث في الربع الأول من القرن (الرابع الهجري/ ١٠م)؛ لأن عليَّ بن عيسى وَزَرَ للخليفتين: المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ - ٩٣٢م)، والقاهر[2] (٣٢٠ - ٣٢٢هـ/ ٩٣٢ - ٩٣٤م).

وتعاظم خطر الحنابلة عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) حين اقتحموا بيوت العوام والخواص، واعترضوا على كل ما يرونه مخالفاً للشرع[3]. فأمرت الشرطة بأن لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري، ولا يسمح بمناظرتهم في مذهبهم، ولا يصلي حنبلي بالناس إلا إذا جهر بالبسملة[4] في صلاتي الصبح والعشاء. فلم يرتدع الحنابلة، واستمروا في أعمال العنف، واستعانوا بالعميان الماكثين بالمساجد على خصومهم[5]. فأقدمت الشرطة على سجن بعض أصحاب البربهاري واختفى هو خوفاً منها[6].

---

(١) هلال الصابئ: كتاب الوزراء وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، حققه: عبد الفتاح سراج، مصر، دار إحياء الكتب العربية، (١٩٥٢م)، ص١٦٢.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢١٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٨٨٠.

(٤) ذكر ابن تيمية: أن أهل العلم اتفقوا على أنه لم يصح في الجهر بالبسملة حديث صحيح، ولم يرو أهل السُّنَّة من ذلك شيئاً، وإنما وجد الجهر في أحاديث ضعيفة. (بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص٤٦). وقد وضعها الشيعة. (نفس المصدر ص٤٨). ويذكر أن ابن منده الحنبلي (ت٤٧٠هـ) كان يرى الجهر بالبسملة. (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٣٩).

(٥) ابن الأثير: الكامل ٦/ ٢٨٨.

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٨٢.

فألقى حنبلي النار في الكرخ انتقاماً لما حل برفاقه، واحترق خلق كثير من الرجال والنساء، والعديد من المحلات التجارية[١].

وعندما لم يوقف الحنابلة عنفهم أصدر الخليفة الراضي بالله (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) منشوره الشهير ضدَّهم عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)[٢]، اتهمهم فيه بالنفاق، والخوض في ذات الله وأسمائه، والطعن في خيار الأئمة، ونسب آل البيت إلى الكفر والضلال. وأخذ عليهم إنكار زيارة قبور الأئمة، وتشنيعهم على زوَّارها بالابتداع من جهة، واجتماعهم على قبر رجل لا نسب له بالنبي ﷺ ويدعون لزيارته ـ يعني أحمد بن حنبل ـ من جهة أخرى، وذمَّهم باعتقاد التشبيه والتجسيم[٣]. ثم ختم خطابه بتحذير جاء فيه: «... وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به، لئن لم تنصرفوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم، ليوسعنكم ضرباً، وتشريداً، وقتلاً، وتبديداً، وليستعملنَّ السيف في رقابكم، والنار في محالكم ومنازلكم، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب، فقد أعذر من أنذر، وما توفيق أمير

---

(١) عبد الملك الهمداني: تكملة تاريخ الطبري، ط٢، بيروت، المطبعة الكاثولكية، (١٩٦١م)، ١/ ٩٢.

(٢) احتفظ بهذا المنشور، كل من ابن الأثير، في الكامل، ٨/ ٣٠٨، ٣٠٩، ومسكويه في تجارب الأمم ١/ ٣٢٢، ٣٢٣. ولم تحتفظ به المصادر الحنبلية المتوفرة، والمنشور الذي رواه مسكويه أكمل من الذي رواه ابن الأثير. (انظرهما في ملاحق الكتاب وتوجد بينهما اختلافات، وفي ذلك ما يبعث على الشك، فهل تعرض النص الأصلي للتحريف على يد خصوم الحنابلة؟ ومن جهة أخرى: لماذا لم تورد المصادر الحنبلية المنشور، في حين احتفظ ابن الجوزي، في المنتظم، بالعديد من النصوص والرسائل كالاعتقاد القادري؟ ربما سبب السكوت هو تعرض المنشور للحنابلة بالذم والتوبيخ.

(٣) هذا الاتهام انفرد به ابن الأثير. (انظر: الكامل ٨/ ٣٠٩). ولم يذكره مسكويه في تجارب الأمم (انظر: ١/ ٢٢٣).

المؤمنين إلا بالله، عليه توكل، وإليه ينيب»[١].

ولا شك، أن الراضي كان محقّاً، في بعض انتقاداته للحنابلة؛ كمبالغتهم في الخوض في ذات الله[٢]. لكنه افترى عليهم عندما ادَّعى أنهم ينسبون آل البيت إلى الكفر والضلال[٣].

ويرى هنري لاوست أن فتنة عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، والإجراءات الحكومية التي اتخذت لإخمادها، هي التي أضفت على الحنابلة صفة التعصُّب والعصيان[٤]. واعتُبر رئيسهم البربهاري نموذجاً للعلماء المتشددين المتجرِّدين من روح الاعتدال، سمة الإمام أحمد البارزة[٥].

وذهب أحمد أمين إلى القول بأن الحنابلة أتعبوا الدولة العباسية أكثر من غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى، لشدة تزمُّتهم وميلهم إلي تنفيذ آرائهم بالقوة، وتعدِّيهم على خصومهم، وقد صبروا على ما لحقهم من أذى تأسِّياً بأحمد بن حنبل[٦].

لكن الحنابلة لم يحملوا السلاح أبداً في وجه الخلافة، وإن سببوا لها مشاكل، لما أحدثوه من فتن هددت أمن المجتمع، فتصدت لهم

---

(١) مسكويه: المصدر السابق ١/ ٢٢٣.
(٢) كان أبو محمد البربهاري، رئيس الحنابلة، لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه أن الله يجلس رسوله ﷺ بجانبه على العرش. سنوثق هذا لاحقاً.
(٣) لأن الحنابلة كغيرهم من أهل السُّنَّة، يحترمون أهل البيت، ويجلُّونهم، ويفرقون بينهم وبين الشيعة.
انظر: النووي: رياض الصالحين باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ ص١٤١.
(٤) IBN TAIMIYA: Traite du droit public - p: 10.
(٥) idem - p: 10.
(٦) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط٣، مصر مكتبة النهضة المصرية، (١٩٦٢م)، ٢/ ٢٢٦.

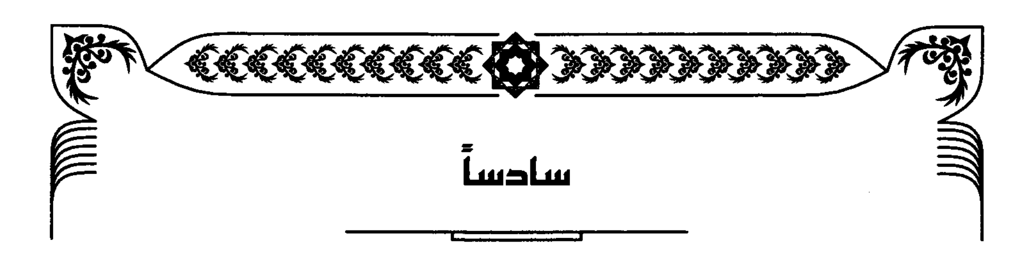
السلطة بالقوة واستخدمت في حقهم السجن والنفي والقتل[1]. إلا أن خطرهم كان محدوداً، بالمقارنة إلى خطر الخوارج، والشيعة، والزنج والقرامطة الذين ثاروا على العباسيين للإطاحة بهم، والقضاء عليهم قضاءً تامّاً[2].

كما أن عنفهم لم يكن موافقاً لسلوك أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م) الذي سالم السلطة ورفض استخدام القوة كوسيلة للتغيير، لكنهم وجدوا في مواقفه المتشددة من طوائف عصره وفي دعوته لتغيير المنكر، سنداً لهم في معاملة خصومهم بالعنف من جهة، ولم ينسوا اقتفاء نهجه في الأمر بالمعروف، والإحسان إلى الناس من جهة أخرى.



(١) مؤلف مجهول: كتاب العيون والحدائق في معرفة الحقائق، القسم الأول، ٤/ ٣٣٢.

(٢) عن ذلك انظر: ابن كثير: البداية ١١/ ٨٣، وابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ٣٢٤.



سادساً

أعمال الحنابلة الخيرية

كان الإمام أحمد كثير الرفق بالناس، والتصدُّق عليهم، فإذا وقع في يديه مال أسرع في توزيعه على الفقراء، ولا يدَّخره[1]؛ فجاء أتباعه من بعده، واقتفوا أثره في فعل الخيرات.

وقد اشتُهر منهم أبو منصور بن يوسف (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، وابن رضوان (ت٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، وابن جردة (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣)، بالكرم، والسخاء، وتفقُّد المحتاجين. فالأول ذاع صيته بالإحسان إلى الناس على تباين فئاتهم بالبر ودوام الصدقة[2]، فوصلت عطاياه إلى الزهَّاد، والقصَّاص، والوعَّاظ[3]، والأشراف، والأعراب، والتركمان، وروَّاد الأسواق[4]، وكان يجتهد في تتبع المستورين لإعانتهم، مع إخفاء

(١) عندما أرسل له المتوكل، مائة ألف درهم، ورفض قَبولها، ثم بعد إلحاح شديد استدعى أهله ليلاً لمساعدته في كتابة أسماء المحتاجين من أصحاب الحديث وغيرهم من الناس، وفي الصباح فرَّقها على هؤلاء ما بين الخمسين، والمائة، والمائتين، حتى لم يبقَ من المبلغ درهم. وتصدَّق بالكيس الذي كان فيه المبلغ، ولم يعط أهله شيئاً، وهم في غاية الفقر والحاجة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨).

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٥٠.

(٣) نفس المصدر ٨/ ٢٥١.

(٤) المصدر نفسه.

ما يقدمه لهم[1]، وتعظيم من يقصده في حاجة بلا كبر ولا مِنَّة[2].

ومن أعماله الخيرية ذات النفع العام تولِّيه الإشراف على مستشفى المدينة، فأعاد تنظيمه، وجهَّزه بالوسائل اللازمة، ورتَّب فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة خازنين، وابتاع له أملاكاً نفيسة[3].

وذات يوم حلَّ أبو منصور ببلدة واسط[4]، ونزل عند رجل طحَّان، فأعطاه شيئاً من المال[5]، وبعد فترة أصاب الرجل دَيْن؛ فجاء إلى بغداد يطلب ابن يوسف، فعلم به، وعرف سبب مجيئه عن طريق أصحابه[6]. فأرسل إلى بيت الرجل أمتعة، وكسوة وتُحفاً، ومائتي دينار، وقضى دَينه بحضور الشهود، ثم استدعى الطحَّان، وأخبره بالأمر، وزاده مائة دينار[7].

وهو الذي كان ينفق على أبي الوفاء بن عقيل[8] (ت٥١٣هـ/١١١٩م) في مؤونته، وتجمُّله، وشجَّعه على التقدم للفتوى[9].

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٧.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥١.

(٣) المصدر نفسه ٨/ ٢٥١.

(٤) تقع مدينة واسط إلى الجنوب من بغداد على نهر دجلة. عبد المنعم ماجد وعلي البنا: الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، ط٢، دار الفكر الإسلامي، (١٩٦٧م)، خريطة رقم (٣).

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٠.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) حسب جورج مقدسي فإن أبا يوسف هو الذي كان وراء تعيين الخليفة لابن عقيل في حلقة البرامكة وبجامع المنصور. (جورج مقدسي: مؤسسات العالم الإسلامية، بغداد، مجلة الأبحاث، مج١٤، ج٣، سنة (١٩٦١م)، ص٢٨٩).

(٩) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٢١٢، ٢١٣.

وبفضل الأعمال الخيرية كسب أبو منصور بن يوسف قلوب الناس، وأصبح معظَّماً لديهم. وعندما توفي[1] عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) وقفوا

---

(١) أشار ابن الجوزي، إلى أن وفاة أبي منصور كانت في بيته، بباب المراتب. (المنتظم ٨/ ٢٥١). ولم يشر إلى أن نظام المُلك كان سبباً في موته، على ما ذهب إليه جورج مقدسي، حين تساءل عن سبب موت ابن يوسف، ويعتقد أن ذلك ليس محض تفكه، وإنما هو سؤال يفرض نفسه؛ لأن ابن البناء ذكر في يومياته: «ورحم الله دم ابن يوسف» (رعاة العلم، مج١٤، ٤/ ٤٤٩).
ويرى المقدسي أن ما ذكره ابن البناء يوحي بإراقة الدم الذي يتطلب ثأراً، وأشار إلى أن ابن البناء رأى ابن بوسف في منامه يمشي مشي المتظلِّمين. (المصدر نفسه مج١٤، ٤/ ٤٤٩). وذكر المترجم إحسان عباس أنه رجع إلى يوميات ابن البناء ووجد «نضَّر الله وجهه»، ولم يجد ما ذكره جورج مقدسي «ورحم الله دم ابن يوسف». (نفس المرجع مج١٤، ج٤، هامش ص٤٤٩).
ويرى إحسان عباس، أن الظلم عمَّ جميع الناس، وإنما جورج مقدسي أسرف في توجيه النصوص، لتوريط نظام الملك في دم ابن يوسف (نفس المرجع مج١٤، ج٤، هامش ص٤٤٩). وأشار جورج مقدسي إلى أن ابن البناء ذكر أن خسارة كبيرة حلت بالحنابلة لموت ابن يوسف (نفس المرجع مج١٤، ج٤، هامش ص٤٤٩).
ولقد رجعتُ إلى يوميات ابن البناء نفسها فوجدته ذكر أبياتاً شعرية منها هذا البيت:

ويرحم الله دم الأجلِّ ابن يوسف لقد   فاز في الدارين، نال العلى سبقاً

(George Makdisi: op - cit - 1er partie - voi: xix - 1957 - p: 28).
وهذا المعنى قريب مما ذكره جورج مقدسي قي مقاله المترجم إلى العربية بمجلة الأبحاث، إذ أضاف اسم الله ـ أما ما ذكره إحسان عباس مترجم المقال، فلم أجد «نضَّر الله وجهه». كما أنه أشار إلى أنه عاد إلى النص الأصلي في القسم الثالث من اليوميات فلم أجده في ذلك القسم ولا في باقي الأقسام ـ.
وأما ما ذهب إليه جورج مقدسي في مسألة موت ابن يوسف فإن المصادر الحنبلية، ومنها يوميات ابن البناء، لم تصرح بأنه قتل، فلو قتله خصومه، ما سكتت عنه المصادر الحنبلية، لأهمية الحادث، ولمكانة ابن يوسف، ولذكر ذلك ابن الجوزي في منتظمه حين أشار إلى موت ابن يوسف في بيته، كما =

نشاطهم اليومي لتشييع جنازته[1].

ومنهم أيضاً أبو القاسم بن رضوان (ت٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، اشتُهر بكثرة الإحسان إلى الناس والتودُّد إليهم، فكان يعطي أحد المحتاجين عشرة دنانير كل يوم[2]. وفرّق يوم مرضه عام (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) على الفقراء اثنين وعشرين بقرة، ومائتي ألف وثلاثمائة درهم، وعشرة آلاف رطل من الخبز، وكثير من الثياب، والجِباب الصوفية، والعمائم[3].

ومنهم ابن جردة[4] (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، كان أحد رؤساء بغداد وأغنيائها، وصاحب تجارة ومروءة[5]، فبنى عدة مساجد، منها اثنان ملتصقان بداره الواسعة[6]، وواحد عُرف به بنهر المعلّى بالجانب الشرقي من بغداد[7]. وتصدَّق في شهر رمضان عام (٤٥٦هـ/ آب (أوغسطس) ١٠٦٤م) على مائتي مسكين، فسلَّم لكل واحد منهم قميصين ودرهمين،

= حدث للشريف أبي جعفر، فقال عنه حين توفي عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) ومرض: «مرضاً أثر في رجليه فانتفخا، فيقال: إن بعض المتفقهة من الأعداء نزل له في مداسه سُمّاً والله أعلم». (المنتظم ٨/ ٩١١)، وقالت العامة في جنازته: «ترحموا على الشريف الشهيد القتيل المسموم» المصدر نفسه ٨/ ٣١١.

(١) ابن كثير: البداية ١٢/ ٩٧، وابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥١.

(٢) ابن كثير: نفس المصدر ١٢/ ٩٧.

(٣) George Makdisi: op - cit - 1er partie - voi: xix - 1975 - p: 17.

(٤) ابن جردة متزوج بابنة أبي منصور ابن يوسف. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٩).

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٦.

(٦) كان لابن جردة دار واسعة يضرب بها المثل، تتكون من ٣٠ بيتاً، وبستان، وحمام، ولها بابان على كل باب مسجد، إذا أُذن في أحدهما لا يسمع الآخر بسبب اتساع الدار. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٦).

(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٠.

فلما كثروا حوله خاف على نفسه فرمى ما بيده وهرب[1]. وعندما حدثت فتنة القائد التركي البساسيري[2] عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)، فرَّت الخاتون زوجة الخليفة القائم من القتل، ونزلت عنده، فدفع عشرة آلاف دينار لأحد أصحاب البساسيري ليحمي له داره من النهب[3].

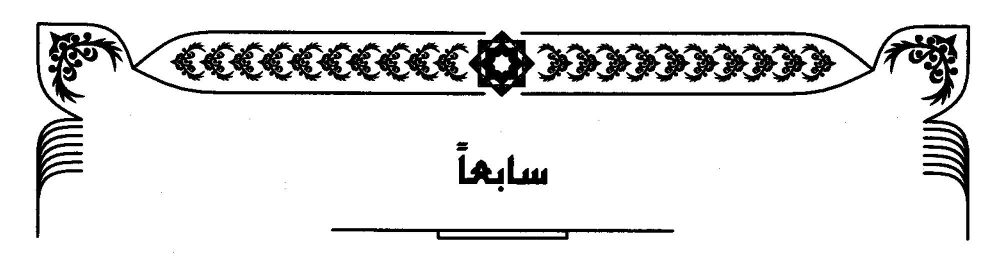
وعُرف عبد الله البرادني الحنبلي (ت٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) بالزهد، والانقطاع إلى العبادة، والحرص على الإحسان إلى الرقيق، فقيل أنه حرر منهم أزيد من ألف عبد لوجه الله[4].

واشتُهر أبو منصور الخياط الحنبلي (ت٤٩٨هـ/ ١١٠٤م) بالاهتمام بالعميان، فكان يربِّيهم، ويلقِّنهم القرآن الكريم، وينفق عليهم من ماله في سبيل الله[5].

والحنابلة في نشاطهم الخيري انطلقوا من تصوُّرات مذهبية، سيراً على نهج إمامهم أحمد بن حنبل، في العمل على تربية الناس والإحسان إليهم[6]. الأمر الذي مكَّنهم من اكتساب ودِّهم، والتغلغل بينهم، وأصبح لزعمائهم مكانة عظيمة بينهم[7]، فزادهم ذلك قوة ونفوذاً، أهَّلهم للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٣٦.
(٢) يأتي ذكرها لاحقاً.
(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٥، ١٢٦.
(٤) George Makdisi: op -cit - 1er partie - voi: xix - 1975 - p: 17.
(٥) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ١١٩.
(٦) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ٣٧٣، وابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٣٨.
(٧) عن مكانة البربهاري: انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦. وعن ابن حامد انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٩. وعن ابن يوسف انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٥١.



سابعاً

قيام الحنابلة بالحسبة[1]

فضَّل أحمد بن حنبل، المسلم الملتزم المنكِر على أهل البدع، على المسلم القائم بالعبادات الساكت عن المخالفات الشرعية[2]. وجعل القاضي أبو يعلى الحسبة من أصول الدين[3]، واعتبرها واجبة على كل مكلَّف عالم قادر لا يلحقه ضرر، مع مراعاة الستر[4].

واختلفت مواقف علماء الحنابلة تجاه الآفات الاجتماعية، فكان أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، شديداً قاسياً على المفسدين[5]. وأخد ابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) على نفسه تغيير أي منكر يراه[6]. وهجر أبو بكر الخلال (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) بيته حين ظهر ببغداد

---

(١) عرّف أبو يعلى الحسبة بأنها: الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. (أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص٢٦٨)، وهي واجب على العدل، والفاسق، وإن كان الأول أقرب إلى أن يستجاب له. (أبو يعلى: المعتمد في أصول الدين ص١٨٦)، وقد تطرق أبو يعلى للحسبة بتوسع في كتابة الأحكام السلطانية، (ص٢٦٨، وما بعدها). وكذلك في المعتمد ص١٩٤، وما بعدها.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢١٦.

(٣) أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ص١٩٦.

(٤) المصدر نفسه ١٩٦.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٢٣٣.

(٦) نفس المصدر ٧/ ١٩٤.

سبُّ السلف[1]. وانتقل عمر بن الحسين الخرقي (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) إلى دمشق، واستقر بها، عندما كثر الشر بمدينة السلام وشاع فيها شتم الصحابة[2].

وكان الشريف أبو جعفر الهاشمي (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) حريصاً على التصدِّي لأهل الفساد ولا تأخذه في الله لومة لائم[3]. ومرَّ فقيه حنبلي ذات يوم بسوق الكرخ ـ مقر الشيعة ـ فسمع ذم الصحابة، والتعريض بهم، فآلى على نفسه عدم الاقتراب منه مرة أخرى ما دام حيّاً[4].

ودخل بعض الحنابلة ـ الذين مارسوا الحسبة ـ بيوت العامة والخاصة، لتفتيشها[5]. واعترضوا على البيع والشراء إذا وجدوا ما ينكره الشرع[6]. وإذا رأوا الرجال مع النساء أو الصبيان أوقفوهم للتثبت منهم، ومن لم يخبرهم، أشبعوه سياطاً، وأوصلوه إلى الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة[7]. وإن عثروا على نبيذ أراقوه، وإن التقوا بمغنية أوجعوها ضرباً، وكسروا عودها[8].

وعندما أظهر المقرئ ابن شنبوذ (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م) قراءة تخالف المصحف العثماني، الذي اتفق عليه الصحابة، أنكر عليه الفقهاء والقضاة فعلته، وناظروه بحضور رجال الدولة، فأعلن

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢١٦.
(٢) ابن كثير: البداية ١١/ ٢١٤.
(٣) نفس المصدر، ١٢/ ١١٩.
(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٦٩.
(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٤٨.
(٦) المصدر نفسه ٦/ ٢٤٨.
(٧) ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٤٨.
(٨) المصدر نفسه ٦/ ٢٤٨.

توبته، وكتب في ذلك محضراً[١]. لكنه عاد إلى ما تاب عنه سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، فتصدَّى له الحنابلة، وأحدثوا ضجَّة انتهت بالقبض عليه، والزَّج به في السجن[٢].

ومرَّ ابن سكرة الهاشمي الحنبلي ذات يوم من عام (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) بقوم وهم في حالة سكر، ومعهم آلات الطرب، فأراق خمرهم وكسر آلاتهم[٣]. فاشتكوا إلى الخليفة القائم بأمر الله، وأخبروه أن ابن سكرة هجم على بيوتهم، وانتهك حرمتها، وأنكروا وجود الخمر معهم[٤]. فطلب الخليفة ابن سكرة، ليستفسره فحدَّثه بما جرى، واعترف بإتلاف ما كان بحوزة هؤلاء[٥]. ثم وقع خلافٌ بين الفقهاء في تعويض ابن سكرة لما كسره[٦]، فوقف ابن الصباغ الشافعي[٧] بجانب المشتكين، وأوجب التعويض مع التأديب[٨]، وأفتى الحنبليان: أبو محمد التميمي (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، وابن البناء (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، بإسقاط التعويض ووافقهما أبو إسحاق الشيرازي

---

(١) أبو بكر الصولي (ت٣٣٧هـ): أخبار الراضي والمتقي لله، مصر، مطبعة الصاوي، (١٩٣٥م)، ص٦٩.

(٢) نفس المصدر ص٨٥.

(٣) George Makdisi: op - cit - 2eme partie - voi: xix - 1975 - p: 281.

(٤) IBID - 2eme partie - voi: xix - 1975 - p: 282.

(٥) IBID - 2eme partie - voi: xix - 1975 - p: 282.

(٦) أفتى أبو يعلى الفراء: في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بجواز كسر آلات اللهو، وإتلافها بدون ضمان كما أجاز للمحتسب أن ينكر في البيوت، كوجود الخمر في منزل المسلم.
(أبو فارس: المرجع السابق ص١٨٧، ١٨٨).

(٧) هو: أبو نصر الصباغ من كبار الشافعية، سكن بغداد، ومن أشهر مؤلفاته: «الشامل» في الفقه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٦).

(٨) George Makdisi: op - cit - 2eme partie - voi: xix - 1975 - p: 282.

الشافعي[1] (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م). وهذا الذي فعله ابن سكرة تؤيده نصوص القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية؛ لأنه غيَّر منكراً بيده قَدِرَ عليه[2].

وذات يوم توجَّه ابن سكرة، مع جماعة من أعيان بغداد، وتبعهم خلقٌ كثير من العامة، إلى سفينة بها ستمائة جرة خمر لمالكها القائد التركي البساسيري، فأراقوا ما بداخلها، ثم أتلفوها[3].

والتقى أبو سعد البقال الحنبلي (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) بجارية مغنية تحمل عوداً عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م)؛ فأخذه منها، وقطع أوتاره[4]. فعادت إلى سيدها الأمير التركي وأخبرته بما جرى لها، فأمر بحصار بيت أبي سعد البقال، وتفتيشه، فهرب صاحبه والتجأ إلى الشريف أبي جعفر الحنبلي (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، وحدَّثه بما وقع له[5]. فاجتمع الحنابلة في جامع القصر للتشاور في أمر صاحبهم، ثم التحق بهم كبار فقهاء الشافعية كأبي إسحاق الفيروزآبادي الشيرازي[6] (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، وكتبوا مذكَّرة احتجاج إلى الخليفة القائم بأمر الله، وطالبوه فيها بإزالة المواخير، وتتبع المفسدات، فوافق على مطالبهم ووعدهم بوضع حدٍّ للمواخير مستقبلاً، فهربت المومسات، وأريقت الخمور[7]، لكن الشيرازي لم يقتنع

---

(١) IBID: op - cit - 2eme partie - voi: xix - 1975 - p: 283.

(٢) أوجبت كثير من نصوص القرآن والسُّنَّة، تغيير المنكر عند الاستطاعة. وعن ذلك انظر: البحث المطول الذي كتبه أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين، ط بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، مج٣، ٧/ ٥، وما بعدها.

(٣) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٦٠٨.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٧٢.

(٥) المصدر نفسه ٨/ ٢٧٢.

(٦) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٤.

(٧) المصدر نفسه ١/ ٢٤.

بالوعد، وتظاهر بمغادرة بغداد، فبعث له القائم رسالة سكَّنته[١].

وحمَّل الباحث بدري فهد الحنابلة مسؤولية عدم ظهور مؤرِّخين موسيقيين لامعين، في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)؛ كأبي الفرج الأصفهاني مؤلف كتاب «الأغاني»[٢]؛ لأنهم كانوا يطاردون أهل الطرب، ويتعرَّضون لهم في بيوتهم[٣]، فحال ذلك دون وجود من يؤرِّخ للمغنين[٤]. لكن مجالس الغناء ظلَّت عامرة[٥]، وقد لعب بنو بويه دوراً كبيراً في ازدهارها، ولم يكترثوا بالمعارضة الحنبلية[٦].

وقد اشتد الجدال بين فقهاء بغداد في حكم الغناء، بين مؤيِّد، ورافض، ومتحرِّج منه[٧]، فأفتى الإمام أحمد بتحريمه، وشدد فيه، وأمر بكسر آلاته[٨]، وجوَّز حِداء[٩] الأعراب وقال: «لا بأس به؛ لأن بعض

---

(١) ابن رجب الحنبلي: المصدر نفسه ١/ ٢٤.

(٢) يعتبر أشهر كتب التراث الموسيقي العربي، وطبع عدة مرات، ويحتوي على أخبار الموسيقيين والمغنين من قصص وأشعار حتى منتصف القرن (الرابع الهجري/ ١٠م). (محمد ماهر: المرجع السابق ص٢٢٩).

(٣) بدري فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد، مطبعة الإرشاد، (١٩٥٧م)، ص٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه ص٢٢٠.

(٥) يقال: إن عدد المغنين ببغداد، في العصر العباسي بلغ ستمائة وخمسة وسبعين مغنيّاً من المحترفين والمحترفات، معظمهم من النساء. ظافر القاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، ط٢، بيروت، دار النفائس، (١٩٨١م)، ص٧٦.

(٦) هنري جورج فامر: تاريخ الموسيقى العربية حتى القرن (١٣) الميلادي، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، بدون تاريخ ص٢٦٢.

(٧) ظافر القاسمي: المرجع السابق ص٧٧.

(٨) حتى وإن كانت لها قيمة، ولا تصلح إلا للهو. (الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٧٦).

(٩) هو نوع من الغناء يتغنَّى به الأعراب في أسفارهم وحتى في منازلهم. =

الصحابة حدا»[١]. فجاء أتباعه من بعده وأخذوا برأيه في التصدِّي لأهل الطرب. وألَّف القاضي أبو يعلى كتاب «ذم الغناء»[٢]، فكان سنداً شرعيّاً لهم. ويُعد أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) من بين المدافعين عن الموسيقى[٣]، وفق شروط ذكرها في مؤلَّفه إحياء علوم الدين[٤].

وعندما سمع الشريف أبو جعفر الحنبلي (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) بنهب دار أحد جيرانه غضب وتدخَّل بقوة، فأحضر قاضي القضاة، وبعض الهاشميين للتحقيق فيما حدث، فتبين أن نقيب الهاشميين[٥] هو الذي أمر بالسطو على بيت الرجل[٦]. فَرُدَّت الممتلكات لصاحبها، وعوِّض له ما تلف منها، وتم الصلح بين الحاضرين، وشكروا لأبي جعفر صنيعه[٧].

ويتضح من دور الحنابلة في مجال الحسبة أن نشاطهم كان مسايراً لمبادئ مذهبهم، في الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

= (ظافر القاسمي: المرجع السابق ص١٠٢).

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٧٩.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٠٥.

(٣) هنري جورج فامر: المرجع السابق ٢٨٢.

(٤) أفرد أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين، كتاباً خاصاً بالسماع وآدابه، فلم يحرم الغناء مطلقاً، ولم يُبحه كلية، وإنما درس المسألة من كل جوانبها بتوسُّع، وعرض معظم وجهات نظر المؤيدين للغناء والمعارضين له، وانتهى إلى وضع شروط لإباحة السماع الجائز. وعن ذلك انظر: مج٢، ٦/ ٥٨ وما بعدها.

(٥) لم أجده.

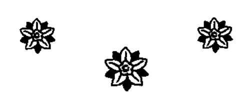
(٦) انفرد ابن البناء عن غيره من المؤرخين، بهذا الخبر في يومياته، ولم يذكر سبب إقدام الهاشميين على نهب دار الرجل، وعن ذلك انظر: George Makdisi: op - cit - 1er partie - voi: xvIII - 1975 - pp: 241 - 242.

(٧) IDEM-1ER partie - voi: XVIII - 1975 - pp: 241 - 242.

لكنهم في مواقف بالغوا في استخدام العنف الذي ميَّز سلوكهم بالتطرف في محاربة الآفات الاجتماعية[1]. وهو ما لا يتفق مع سلوك أحمد بن حنبل، غير أنهم وجدوا في أقواله ما يبرر أفعالهم، عندما أمر بكسر آلات الموسيقى.

وفي الميدان السياسي، قدَّم الحنابلة للدولة العباسية خدمات كبرى، كانت من عوامل استمرار الخلافة، في وقت ضعف فيه جانب الخلفاء وسيطر عليهم الجند.

وبفضل نشاطهم الخيري، وانتقاداتهم لرجال السلطة، مكَّنوا لحركتهم من الظهور أمام جماهير بغداد كمدافع عن الشريعة، وعن المظلومين؛ ومن التحوُّل إلى قوة شعبية لا يستهان بها، استغلوها في نزاعهم مع طوائف البلد طيلة (القرنين: الرابع، والخامس الهجريين/ ١٠ و١١م).



(١) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن (الرابع الهجري)، ترجمة عبد الهادي أبي ريدة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (١٩٨٥م)، ٢/ ٦٠٣.



الفصل الثالث

النزاع المذهبي بين الحنابلة وطوائف بغداد (من وفاة أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن الخامس الهجري) (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

أولاً: النزاع بين الحنابلة والمعتزلة في بغداد (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

ثانياً: النزاع بين الحنابلة والشيعة في بغداد (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

ثالثاً: النزاع بين الحنابلة والصوفية في بغداد (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

رابعاً: النزاع بين الحنابلة والشافعية في بغداد (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

خامساً: الخلاف بين الحنابلة وابن جرير الطبري.

سادساً: موقف الحنابلة من أبي الحسن الأشعري.

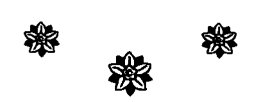
سابعاً: الخلاف بين الحنابلة والخطيب البغدادي.

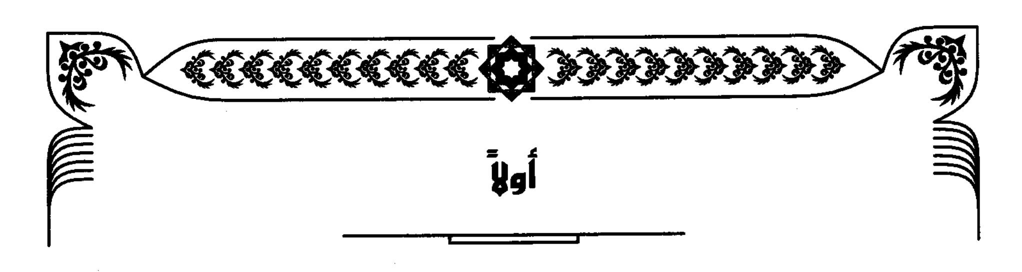
ثامناً: النزاع داخل الطائفة الحنبلية (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).



النزاع المذهبي بين الحنابلة وطوائف بغداد
(من وفاة أحمد بن حنبل
إلى نهاية القرن الخامس الهجري)
(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

دخل الحنابلةُ في نزاعٍ مذهبيٍّ شديد مع مخالفيهم من طوائف بغداد على مستوى الفروع والأصول من جهة، ودخلوا في نزاع داخليٍّ مع بعض أعيان علمائهم الذين رأوا فيهم ما يدل على انحرافهم عن مذهبهم من جهة أخرى؛ فما تفاصيل ذلك؟ وما هي أسبابه؟ وما هي الآثار التي ترتبت عنه؟





أولاً

النزاع بين الحنابلة والمعتزلة في بغداد
(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

اتخذ الحنابلة موقفاً متشدداً من المعتزلة منذ القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، إذ بدَّعهم الإمام أحمد، وكفَّرهم[١]. وعدَّهم أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، من أهل الأهواء، ومن دعاة التعطيل والزندقة[٢]. لذلك نبذوهم، وطاردوهم، وآذوهم[٣]، وحالوا بينهم وبين تكوين جماعة قوية، ومنظمة، ذات تأييد شعبي واسع، ونشاط مذهبي علني، فيما بين: (٢٤١ و٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م)[٤]. وقد ضعُف تأثير المعتزلة على المجتمع، طيلة (القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م). وفي هذه المدة، تسرَّبوا إلى الشيعة ونشروا فكرهم بينهم[٥]، وتستَّروا بمذهب الأحناف[٦]. ولم يظهر نشاطهم إلا في فترات متفرقة، تصدَّى لهم فيها الحنابلة وأصحاب الحديث بحزم.

---

(١) عن ذلك انظر: الفصل الأول.

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٣٧.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٣٦.

(٤) لم أعثر من خلال مراجعة المصادر المتوفرة على نشاط جماعي للمعتزلة طيلة الفترة بين: (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م).

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٣٣، ١٠٤.

(٦) السبكي: طبقات الشافعية ٣/ ٦٤، ٦٥.

من ذلك أن المعتزلة جهروا بمذهبهم في دولة بني بويه، فجمعهم الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م)، عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م)، واستتابهم من الاعتزال والتشيع ومن كل ما يعارض الإسلام، فأعلنوا توبتهم، ووقَّعوا على ذلك بخطوطهم[١]. ثم حذَّرهم إن عادوا لما نهوا عنه فسيحل بهم من العقوبة ما يتَّعظ به أمثالهم[٢]، وأصدر أمراً بقتل المعتزلة، والشيعة، والمشبهة في كل دولته[٣].

وهذا الذي أصاب هؤلاء، قد يكون الحنابلة من ورائه؛ لأنهم كانوا قريبين من الخليفة القادر، وهو على معتقدهم، وانتصر لهم في نزاعهم مع خصومهم[٤].

وعندما خرق مدرِّس المعتزلة، ابن الوليد (ت٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) الحصار الذي ضربه عليه أهل السُّنَّة، عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)[٥]، ودرّس مذهبه للناس وامتنع من الصلاة في الجامع[٦]؛ هجم عليه قوم من أصحاب عبد الصمد[٧]، فسبُّوه، وضربوه حتى أدموه، فصاح صياحاً

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ٢٨٧.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦.

(٣) المصدر نفسه ١٢/ ٦.

(٤) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩، وابن تيمية: نقض المنطق ص١٣.

(٥) يُروى أنهم أجبروه على لزوم بيته خمسين عاماً، فكان لا يتجاسر على مغادرته. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٢٩).

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٣٦.

(٧) تُنسب هذه الجماعة لأبي القاسم عبد الصمد الدينوري (ت٣٩٧هـ)، زاهد وفقيه شافعي كوَّن جماعة للقيام بالحسبة. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٣٦). وضمت أهل الحديث من الحنابلة والشافعية، وعملت على محاربة الآفات الاجتماعية، والتصدي للطوائف التي تعارض مذهب السلف.
George Makdisi: Ibn Aquil - p: 337.

شديداً، ولعن لاعنيه، ثم فرَّ مهاجموه خوفاً من سكان الحي[١]، ودخل هو إلى بيته، وغلق بابه. وخرج أهل السُّنَّة على أثر ذلك إلى جامع المنصور، ولعنوا المعتزلة[٢].

وقد شارك الحنابلة، فيما جرى لابن الوليد، بحكم أنهم أعضاء في جماعة عبد الصمد السلفية[٣]، وأن أبا سعد البقال الواعظ الحنبلي (ت٥٠٦هـ/ ١١١٢م) كان من أشهر الذين لعنوا المعتزلة مراراً في حياة ابن الوليد[٤].

وأما أبو منصور بن يوسف الحنبلي (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، صاحب النفوذ القوي على العامة والخاصة، والحريص على التصدي لكل ما يعارض الحنبلية[٥]، فقد منع داعية الاعتزال أبا جعفر البخاري[٦] (ت٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) من دخول بغداد[٧]، وأجبروه على العودة من حيث أتى[٨]. وحين

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٣٦.
(٢) ابن كثير: المصدر السابق ٢/ ٩١٠.
(٣) من الحنابلة الذين كانوا في جماعة عبد الصمد، ابن المذهب، والزهيري. (ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٥٧٦). والنجاد الحنبلي (ت٤٦٠هـ) وابن الطيوري، واتخذت هذه الجماعة الاعتقاد القادري أصلاً لها. (George Makdisi: op cit - p: 337).
(٤) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٣٢.
(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٧.
(٦) يُعرف بقاضي حلب، كان على مذهب الأحناف في الفروع. (نفس المصدر ١٢/ ١٣٦).
(٧) وهذا يذكرنا بعبد الله الأنصاري الهروي الحنبلي، الذي حاول دخول بلدة بلخ، فمنعه أهلها المتعصبون للمعتزلة، وحاولوا رجمه. فمنعهم حاكمهم خوفاً من العواقب، وكان الأنصاري شديد التمسُّك بالحنبلية والسلفية. (ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٧٢).
(٨) ابن الجوزي: نفس المصدر ٩/ ٨٢.

توفي ابن يوسف عام (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، عزم المعتزلة على الظهور، واتصلوا بمعلِّمهم ابن الوليد وشجَّعوه على الخروج لتدريس مذهبهم[١]. فلما شاع أمرهم، انتقل رئيس الحنابلة الشريف أبو جعفر إلى جامع المنصور، فتلقاه أهل السُّنَّة، وفرحوا بقدومه[٢]، ثم اجتمع برفاقه، وأصحاب الحديث في الديوان، وقرأوا كتاب «التوحيد» لابن خزيمة، ورسالة القادر بالله في الاعتقاد[٣]، وأعلنوا أن كل الشيعة كفَّار، ومن لم يلعنهم فهو كافر مثلهم[٤]؛ ثم طلب الشريف أبو جعفر من الوزير ابن جهير نسخاً ووزَّعها على جوامع بغداد ومساجدها[٥].

فواضحٌ من ذلك أن المعتزلة قصدوا بهذا التصرف جسّ نبض الحنابلة، لمعرفة رد فعلهم بعد وفاة أبي منصور، بتحريض من الشيعة الذين دفعوهم إلى الظهور، لفك الحصار المفروض عليهم، لذلك كفّرهم أهل السُّنَّة، ولعنوا كل من لم يلعنهم، لكن الحنبلية، فوّتت عليهم الفرصة، وخيَّبت ظنهم، وتصدَّت لهم بحزم، واستعانت عليهم بالسلطة.

وعندما ضعف نفوذ الحنابلة في الدولة، بمجيء نظام الملك إلى الوزارة وتأييده للأشعرية[٦]؛ تحسَّنت أحوال المعتزلة، فتمكَّن المعتزلي أبو جعفر البخاري من دخول بغداد ـ بعد ما مُنع منها سابقاً ـ والاستقرار بها إلى أن توفي عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)[٧]، ولا يعرف رد فعل الحنابلة

---

(١) ابن الجوزي: نفس المصدر ٨/ ٢٤٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) تُعرف بالاعتقاد القادري. وسنعود إليها لاحقاً بحول الله تعالى.
(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٤٩.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) عن تفاصيل موقف الوزير نظام الملك من الحنابلة والأشاعرة. انظر: المبحث الرابع من هذا الفصل.
(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٥٢.

تجاه حلوله بمدينة السلام[1].

ويرى المستشرق جورج مقدسي، أن نظام الملك استقبل أبا جعفر وأكرمه معارضة لابن يوسف[2]. في حين أن الباحث إحسان عباس يعتقد أن موقف الوزير دليل على تسامحه وسعة صدره للناس، لا على أنه كان مناوئاً لسياسة أبي منصور بن يوسف[3]. ورغم أن نظام الملك كان مفعالاً للخير، ومحبّاً للعلماء مُكرماً لهم، فلا يُستبعد أن يقصد من سماحه لأبي جعفر الاستقرار ببغداد، الإساءة للحنابلة، لوقوعه تحت تأثير الأشاعرة خصوم هؤلاء[4].

وساهم المعتزلة في فتنة أبي الوفاء بن عقيل ـ التي كادت أن تعصف بالحركة الحنبلية، بين عامي (٤٦١ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٢م) ـ ذلك أنهم لقَّنوه مذهبهم سرّاً[5]، وحرَّضوه في الخروج على جماعته، وعملوا على تهريبه، والتنقل به[6]، لكنهم لم يفلحوا في تحقيق مبتغاهم في نهاية الأمر، إذ عاد الشاب المتمرِّد إلى أصحابه، وأعلن توبته عن الاعتزال[7].

ويتبيَّن من تتبُّع حوادث النزاع بين الحنابلة والمعتزلة ما يأتي:

أوّلاً: عدم حدوث مصادمات مسلَّحة بين الفريقين، كما هو الحال

(١) انفرد ابن الجوزي عن غيره من المؤرخين، بذكر قضية أبي جعفر المعتزلي، ولم يشر لرد فعل الحنابلة تجاه عودة أبي جعفر إلى بغداد.

(٢) جورج مقدسي: رعاة العلم مجلة الأبحاث، مج١٤، ٤/ ٤٩٠ (١٩٦١م).

(٣) المصدر نفسه مج١٤، ٤/ ٤٩٠ (١٩٦١م).

(٤) تمكن الأشاعرة من التأثير على نظام الملك، فأصبح يؤيدهم على حساب الحنابلة، وهذا سنبيِّنه لاحقاً بحول الله تعالى.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٤.

(٦) George Makdisi: Autograph diary - vol19 1er partie - 1961- p: 490.

(٧) عن تفاصيل فتنة ابن عقيل، سنعود إليها لاحقاً.

بين الحنبلية والأشعرية مثلاً، مع احتمال تعاون المعتزلة مع الشيعة في صراعهم مع أهل السُّنَّة، بحكم تحالف الطائفتين.

وثانياً: لم يكن أهل الاعتزال في نزاعهم مع الحنابلة وأصحاب الحديث في موقف قوة معظم الأحيان[١]، نظراً لضعفهم، وقلَّتهم، وذوبانهم في الأحناف والشيعة[٢]، في حين كان الحنابلة يمثلون غالبية سكان بغداد[٣].

وثالثاً: اكتسب الحنابلة في خصومتهم الشديدة للمعتزلة، ثقة أهل السُّنَّة[٤]، فأحبوهم[٥] ورضوا بزعامتهم لهم في التصدي لما يخالف مذهبهم[٦].

ورابعاً: إن الخلاف بين الطائفتين تعود جذوره إلى أيام فتنة خلق القرآن، حين كفَّر أحمد بن حنبل المعتزلة وكفَّروه، فجاء الأتباع، وورثوا ذلك العداء، الذي زادته حوادث النزاع شدة.

ويتقاسم الطرفان مسؤولية ما جرى بينهما، إذ كان كل منهما يتعمَّد الإساءة إلى الآخر والقدح فيه[٧]، فزاد ذلك السلوك وأمثاله من تطرف الفئتين[٨]، وأذهب كل أمل للتوفيق بينهما[٩].

---

(١) ما عدا الفترة التي سبقت المتوكل في مطلع القرن (الثالث الهجري/٩م)، أيام المأمون، والمعتصم، والواثق.
(٢) السبكي: طبقات الشافعية: ٣/ ٣٣١، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٥٣، ١٠٤.
(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢.
(٤) نفس المصدر ٨/ ٢٤٩.
(٥) George Makdisi: idn Aquil - p: 317.
(٦) IBID - P: 325.
(٧) كان مدرس المعتزلة ابن برهان كثير القدح في الحنابلة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٢).
(٨) زهدي جار الله ص٢٥٢.
(٩) نفس المرجع ص٢٠٤.

ولم يمنع العداء المستحِكم بين السُّنَّة والمعتزلة، رجال الفكر من الجماعتين من الاجتماع للمناقشة، وتبادل وجهات النظر، إذ ذكر أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) أنه حضر مجلساً بأحد دروب الكرخ، جمع ابن التبَّان المعتزلي[١]، وآخرين من الحنابلة وأصحاب الحديث، دار فيه النقاش حول آيات الإضلال المطلقة[٢]، فاستحسن ابن عقيل ما ذهب إليه ابن التبان[٣].

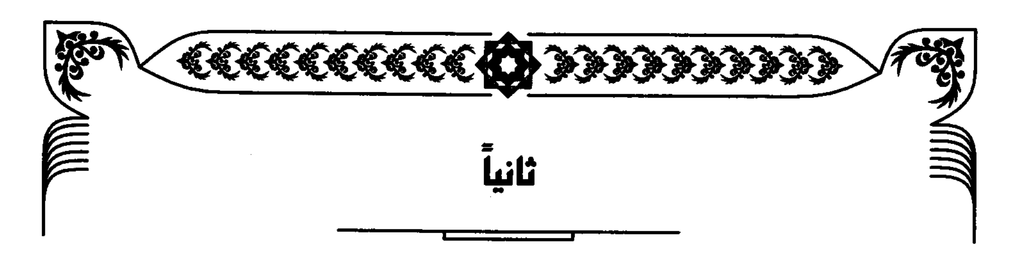
وأخيراً ـ **خامساً** ـ: لم يكثِّف المعتزلة من نشاطهم المذهبي، أثناء انشغال الحنابلة وأصحاب الحديث بمواجهة كل من الأشاعرة والشيعة.



(١) هو أحد شيوخ ابن عقيل الذين درَّسوه الاعتزال سرّاً. (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ١٧٤). لكن اللافت للنظر أن ابن عقيل ذكر ابن التبان، مع الذين شاركوا في الحوار بطريقة لا توحي أنه يعرفه وكان شيخه في يوم من الأيام. (انظر: ابن عقيل: كتاب الفنون ١/ ٢٤٠).

(٢) أورد ابن عقيل نص الحوار بكامله في كتاب الفنون ١/ ٢٣٩ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ١/ ٢٤٠.



ثانياً

النزاع بين الحنابلة والشيعة

أعلن الإمام أحمد أن الشيعة، ليسوا من الإسلام في شيء[١]، ومنع التسليم عليهم[٢]. وقرَّر أبو محمد البربهاري أن الشيعة الإمامية أكفر[٣] أهل الأهواء، يدعون إلى التعطيل والزندقة[٤]. وهم بدورهم يكفِّرون الحنابلة وكل من لم يؤمن بأئمتهم[٥]، لذلك اشتدّ العداء بين الطائفتين وكثرت بينهما الفتن (في القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م)[٦].

وقد تزعَّم الحنابلة الجماعة السُّنِّيَّة[٧] في نزاعها المستمر مع

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٣٣.

(٢) نفس المصدر ٢/ ١٤.

(٣) كفرت جماعة من الحنابلة الشيعة؛ لأنهم يسبون الصحابة، ويكفرونهم. (ابن تيمية: الصارم المسلول ص٥٦٩).

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٣٧.

(٥) انظر: الكليني (ت٣٢٩هـ): الأصول من الكافي، ط٣، طهران، دار الكتب الإسلامية، (١٣٨٨هـ)، ١/ ١٨٧.

(٦) لم تذكر المصادر التي أمكن الاطلاع عليها، حدوث فتن بين عامي: (٢٤١ و٣٠٠هـ)، بين الحنابلة وأهل الحديث من جهة، وبين الشيعة من جهة أخرى. كما هو الحال في القرنين: (الرابع والخامس الهجريين).

(٧) لم تذكر بعض المصادر جماعة الحنابلة صراحة، في صراعهم مع الشيعة وإنما تكتفي بذكر محلاتهم السكنية، أهمها ثلاث مقرات رئيسية، وهي: باب =

الشيعة، لِما يمتلكونه من خبرة، وقدرات تعادل ما لدى خصومهم من تجربة وقوة[١].

كما حرصوا على التصدِّي للعلويين[٢]، ومحاربة كل ما يمتُّ إليهم

= البصرة، وكل سكانها حنابلة، ونهر القلائين، وهذان الحيَّان يقعان بالجانب الغربي من بغداد. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٤٤٨)، ومحلة باب الأزج، سكانها حنابلة، تقع بالقسم الشرقي، من بغداد. (ابن كثير: المصدر السابق ٢/ ١٦٠). أما أحياء سكن الشيعة فهي: الكرخ، أهله كلهم شيعة، لا يوجد فيهم سني. (ياقوت الحموي: المصدر السابق ٤/ ٤٤٨)، ونهر الدجاج، وسوق الدقاقين، ونهر طابق، وباب الدير، وتقع كلها بالقسم الغربي. أما محلات القسم الشرقي، فمنها سوق السلاح وباب الطاق، أما محلات أهل السُّنَّة فمنها دار الرقيق، وباب الشعير، وقطيعة الربيع، والحربية، والناصرية، بالقسم الغربي، أما محلات القسم الشرقي فمنها: سوق الثلاثاء، وسوق يحيى، ودرب سليمان.

(George Makdisi: Ibn Aquil - p: 325). ولم يبق من بغداد القديمة إلا باب البصرة في العصر الحديث (دائرة المعارف الإسلامية، مادة بغداد، ٤/ ١٨).

ومما زاد من الصراع بين السُّنَّة والشيعة تقارب المحلات الرئيسية من بعضها، فباب البصرة ونهر القلائين، قريبان من الكرخ ونهر الدجاج الشيعيين، وهي كلها بالقسم الغربي. (أحمد سوسة: خارطة بغداد ٤/ ٧٣). وكثير من المؤرخين لم يصرِّحوا بدور الحنابلة صراحة في صراعهم مع الشيعة، فقد يذكرونهم مع السُّنَّة، أو يشيرون إلى محلاتهم. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٣٨ و١٢/ ٦، وص١٣٤)، وابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ٣٨٧ و٨/ ٧٨).

(١) George Makdisi: op cit - p: 325.

(٢) قابل احترام الحنابلة لعلي وأهل بيته، عداء شديد للشيعة السياسية. (Henri laoust: le hanbalisme - cahiel - 1 - 1959 op: 91)، والحنابلة يفرِّقون بين أهل البيت، وبين الشيعة الذين كذبوا على آل البيت ما لم يكذب على غيرهم. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢/ ٢١٧).

بصلة[1]، تنفيساً عمَّا في صدورهم من حقد تجاههم[2]. من ذلك أن الشيعة اتخذوا مسجد براثا[3]، مقرّاً لاجتماعاتهم، ومنطلقاً لنشاطهم، وحين علم الخليفة المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ ـ ٩٣٢م) أنهم يتبرأون منه، ويكاتبون القرامطة[4]، أمر بهدم المسجد، بعدما استفتى الفقهاء الذين حرَّضوه على تخريبه[5] عام (٣١٣هـ/ ٩٢٥م). ثم حُوِّلت أرضه إلى مقبرة، اجتهد أبو محمد البربهاري وأصحابه على حث الناس للدفن فيها[6] حرصاً منهم على إزالة آثار مسجد الشيعة[7].

---

(١) عندما أمرت الدولة العباسية بلعن معاوية تحرك الحنابلة وألَّبوا العامة عليها. (ابن الجوزي المنتظم ٦/ ٢٤١). فتدخلت السلطة لإلقاء القبض على رئيس الحنابلة أبي محمد البربهاري، فاختفى وقبضت على بعض أصحابه. انظر: مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) من المواقف الفردية التي تحمل العداء، والحقد بين الطائفتين، أن أبا حفص العكبري الحنبلي كان لا يكلم أحداً من الشيعة، وإذا مات أحدهم، هجر من باعه الكفن، ومن غسَّله، ومن حمله. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٥٦، ٥٧). وحين توفي حبيب بن الحسين القزاز الحنبلي، عام (٣٥٩هـ)، جاء قوم من الشيعة ونبشوا قبره، وأخرجوا كفنه، فأعاد ابنه تكفينه ودفنه. (نفس المصدر ٢/ ٤٧). ورغم ذلك العداء، فإنه لم يمنع رجال الفكر من الطائفتين، من المجالسة للمناظرة، والبحث في مختلف قضايا الفكر، في أماكن تواجد الشيعة. (انظر: ابن عقيل: كتاب الفنون ١/ ٢٤٠، و٢/ ٧١٣).

(٣) براثا أصلها قرية قبل الإسلام، ثم اندمجت مع بغداد، ويوجد بها المسجد الذي نُسب إليها، ويقدسه الشيعة بدعوى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلَّى بذلك المكان في طريقه لمحاربة الخوارج عام (٣٧هـ/ ٦٥٨م) واغتسل هناك. وقيل: أن اغتساله وصلاته كانا في قرية أخرى. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص١٢). ويقع مسجد براثا جنوب القسم الغربي. (نفس المرجع: ص٧٢).

(٤) ابن كثير: البداية ١١/ ١٥٢.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٦/ ١٩٥.

(٦) أبو بكر الصولي: المصدر السابق ص١٣٦.

(٧) يذكرنا هدم هذا المسجد، بمسجد الحنابلة، الذي هدمه الوزير علي بن عيسى.

وعندما تولى الأمير التركي بجكم[1] (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) إمرة الأمراء، أعاد بناء المسجد[2] بعد ما أفتاه بعض الفقهاء بنبش القبور وتحويل رفاتها إلى أماكن أخرى[3]، فلما توفي بجكم فرح الحنابلة لموته، وقالوا: ظهرت السُّنَّة، ثم حاولوا تخريب مسجد براثا[4] وأذوا الشيعة، فأصدر الخليفة المتقي لله[5] (ت٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) توقيعاً[6] هدَّدهم فيه بالسجن والعقاب، ووكل بالمسجد من يحميه، وأمر بقتل كل من يحاول هدمه[7].

وظل مسجد براثا يشهد الحوادث الدامية بين السُّنَّة والشيعة[8]، حتى أُغلق عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، فسُدَّت أبوابه، وبقي مهجوراً إلى غاية سنة (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)، حين اكتشف الحنابلة وأصحاب الحديث[9] جماعة من العلويين، يجتمعون فيه سرّاً، فأنكروا عليهم فعلتهم، واتهموهم بموالاة الفاطميين[10]، ثم صدرت فتاوى الفقهاء، بوجوب

---

(١) تولى إمرة الأمراء نحو ثلاث سنوات، ثم قتله بعض الأكراد، عام (٣٢٩هـ). (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٩٩).

(٢) الصولي: المصدر السابق ص١٣٦.

(٣) المصدر نفسه ص١٣٦.

(٤) نفس المصدر ص١٩٨.

(٥) هو الذي أمر بإقامة أول صلاة جمعة في براثا، بعد ما أعاد بجكم بناء المسجد. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٠٠).

(٦) لم تحفظ المصادر المتوفرة، بالمنشور كما احتفظت بمنشور الراضي.

(٧) الصولي: المصدر السابق ص١٩٨.

(٨) كما حدث عام (٣٥٤هـ). (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٥٤)، وعام (٤٢٠هـ). (نفس المصدر ١٢/ ٢٦).

(٩) هؤلاء الحنابلة وأصحاب الحديث، هم من جماعة عبد الصمد. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣٢٧).

(١٠) المصدر نفسه ٨/ ٣٢٧.

كفِّهم عن المسجد، فهربوا ونُهبت دورهم[1].

فواضحٌ من ذلك أن الحنابلة وأصحاب الحديث لم يقدروا على هدم المسجد أو غلقه بعدما أُعيد بناؤه ثانية طيلة عهد بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ - ١٠٥٥م)، رغم الفتن الدامية التي شهدها؛ لكنهم تمكنوا من غلقه نهائيّاً بعد ثلاث سنوات من قيام دولة السلاجقة السُّنية ببغداد عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م). الأمر الذي ساعدهم على مضاعفة ضغوطهم على العلويين.

أ ـ اعتراض الحنابلة على زيارة مشاهد الشيعة

اشتهر الحنابلة عن غيرهم من أهل السُّنَّة، باعتراضهم على الشيعة في زيارتهم لمشاهدهم المقدسة[2] في بغداد وما جاورها[3]. فمنعوهم من النَّوح على الحسين بن علي بالقوة[4]، ومن زيارة أضرحة أئمتهم، إلا

(١) المصدر نفسه ٨/ ٣٢٧.

(٢) ذكر ابن تيمية أن جمهور العلماء وأئمة المسلمين يرون أن زيارة المشاهد غير مشروعة، بل هي من أشنع المعاصي. (بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص٥١٥). وأشار ابن تيمية إلى أنه اطلع على كتاب ألّفه عالم الشيعة المفيد بن النعمان، سمَّاه الحج إلى المشاهد، أورد فيه آثاراً مكذوبة عن النبي ﷺ وأهل البيت: «ما لم يُذكر مثله في الحج إلى بيت الله الحرام»، وعامة ما رواه، هو من أفضح الكذب، ورأيت «من البهتان أكثر مما رأيته من الكذب في كثير من كتب اليهود، والنصارى». وكل ذلك ابتدعه قوم من المنافقين والزنادقة، للصد عن سبيل الله. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٥١٧).

(٣) يعتقد الشيعة أن قبر علي بن أبي طالب يوجد بالنجف، جنوب بغداد ـ. (بدر الدين الحنبلي: المصدر السابق ص٢٠٧). وضريح الحسين بن علي يوجد بكربلاء ـ إلى الجنوب الغربي من بغداد ـ ويعرف بالحائر نسبة للمكان الذي به القبر. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٢٠٨). وفي بغداد يوجد مشهد الكاظم ومحمد الجواد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٢).

(٤) مؤلف مجهول: المصدر السابق ج٤، القسم الأول، ص٣٣٢.

من أتاها خفية، وبحماية من السلطة خوفاً منهم[1]. ففي سنة (٣٢٧هـ/ ٨٣٨م) قصد قوم من العلويين قبر الحسين بن علي[2]، فتبعهم الحنابلة، ووقعت بينهم فتنة، تدخَّلت على إثرها الشرطة، فأعانت على الحنابلة، وقتلت منهم اثنين وجرحت بعضهم، وأحرقت منازل آخرين[3]، وقبضت على جماعة من أصحابهم، وحاصرت بيت رئيسهم أبي محمد البربهاري، الذي تمكَّن من الفرار والاختفاء[4]، وصُلب الدلاء[5] صاحب البربهاري، على أحد جسور بغداد[6].

---

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، بيروت، دار صادر، (١٩٧١م)، ٢/ ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) يرى ابن تيمية، أن من الكذب الادعاء أن قبر الحسين بمصر - (بدر الدين الحنبلي: المصدر السابق ص١٦٩) - لأن الحسين قتل بكربلاء قرب الفرات، ودفن جسده في المكان الذي قتل فيه، وأخذ رأسه إلى الكوفة، حيث عبيد الله بن زياد، ولم يحمل إلى الشام كما روى البعض، وإنما حمل رأسه إلى المدينة المنورة ودفن بها، وذلك هو الأرجح والأقرب. (نفس المصدر ص٢٠١).
وأنكر ابن تيمية دعوى الشيعة بأن قبر علي بن أبي طالب بالنجف، ويرى أن علياً دفن بقصر الإمارة بالكوفة وعُمِّي قبره لكي لا تنبشه الخوارج، وبعد أكثر من ٣٠٠ سنة، قيل: إن قبره بالنجف. (نفس المصدر ص٢٠٧، ٢٠٨).
وأشار ابن كثير إلى أن غالبية المؤرخين ذكروا أن قبر علي بدار الإمارة بالكوفة خوفاً من أن تنبشه الخوارج، ومن هؤلاء المؤرخين: الطبري، والواقدي، والخطيب البغدادي، أما ما يعتقده الشيعة من أن القبر بالنجف، فلا دليل على ذلك، ولا أصل له. (البداية والنهاية، ط٢، (١٩٧٤م)، ٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٣) مؤلف مجهول: المصدر السابق ج٤، القسم الأول، ص٣٣٢.

(٤) المصدر نفسه ج٤، القسم الأول، ص٣٣٢.

(٥) كان قد سجن عام (٣٢٦هـ)، ثم تمكن من الفرار، من دار بجكم، ثم أُلقي عليه القبض ثانية عام (٣٢٧هـ). الصولي: المصدر السابق ص١٣٦.

(٦) مؤلف مجهول: المصدر السابق ج٤، القسم الأول ص٣٣٢.

ولا يستبعد أن يكون الأمير بجكم (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) المناصر للشيعة من وراء ما أصاب الحنابلة في هذه الحادثة، من قتل وقمع وتشريد، بحكم عدائه الشديد لهم[١]، وبصفته أميراً للأمراء في تلك الفترة[٢].

وفي عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م) قدم نفر من شيعة مدينة قم[٣] لزيارة مشهدَي علي والحسين ﵄، فتعرَّض لهم حنابلة باب البصرة[٤]، ومنعوهم من إتمام زيارتهم، وقتلوا منهم ثلاثة[٥]. ولا ندري ما إذا كان عدم تدخل الشرطة، يرجع إلى نفوذ الحنابلة في السلطة آنذاك[٦]، أو إلى ضعف بني بويه في أواخر دولتهم، أو أنها تدخَّلت لكن المصادر أغفلت ذكرها.

واضحٌ من ذلك أن الحنابلة في اعتراضهم للشيعة، لم يتمكنوا من إيقافهم عن زيارة قبور أئمتهم، والنياحة عليهم[٧]، لكنهم وفِّقوا في

---

(١) الصولي: المصدر السابق ص١٩٨.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٠٠، ٢٠١.

(٣) تقع في وسط إيران، ويقدسها الشيعة، ويحجُّون إليها. (الموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٣٩٣).

(٤) لم يذكر ابن الأثير الحنابلة صراحة، وإنما اكتفى بذكر أهل باب البصرة. (الكامل، ط٢، بيروت مؤسسة عز الدين، (١٩٨٧م)، ٧/ ٣٥٦). لكن من الثابت أن سكان ذلك الحي كلهم حنابلة لا يوجد به غيرهم. (ياقوت الحموي: المصدر السابق ٤/ ٤٤٨).

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ط٢، ٧/ ٣٥٦.

(٦) في عهد الخليفتين القادر بالله (٣١٨ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م)، والقائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م).

(٧) معظم الفتن التي حدثت بين السُّنَّة والشيعة، كانت بسبب إصرار الشيعة على إحياء أعيادهم والاحتفال بها، وفي المقابل حرص السنيون على الإنكار عليهم، وقد كانت تحدث بين الطائفتين فتن عديدة في السنة الواحدة، وعادة ما تحدث في يومي عاشوراء ١٠ محرم، وغدير خم ١٨ ذي الحجة. (ابن كثير: المصدر السابق ٢/ ٢٣٣).

إجبارهم على ترديد المراثي في الحسين وأهل بيته دون سبِّ السلف[1].

وقد كثرت الفتن الطائفية الدامية[2]، واشتدت حدَّتها بين السُّنَّة والشيعة في دولة بني بويه[3]، كان فيها الحنابلة دائماً في مقدمة أهل السُّنَّة[4]، وإن أغفلت بعض المصادر ذكرهم باسمهم صراحة، واكتفت بالإشارة إلى أحيائهم[5].

ب ـ الفتن الطائفية بين الحنابلة والشيعة

(العهد البويهي: ٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/٩٤٦ ـ ١٠٥٥م)

وفَّر بنو بويه للشيعة الحماية السياسية، ومكَّنوهم من إحياء أعيادهم

---

(١) التنوخي: المصدر السابق ٢/ ٢٣٣.

(٢) بسبب كثرة الفتن بين السُّنَّة والشيعة ازداد التعصب المذهبي بين الطائفتين، فيُروى أن أبا محمد البربهاري، سمع امرأة شيعية تنوح فأمر بقتلها. (التنوخي: المصدر السابق ٢/ ٢٣٣).

(٣) يرى جورج مقدسي أن إحياء الشيعة لأعيادهم في بداية عهد بني بويه ما بين عامي: (٣٤٨ ـ ٣٥٣هـ) أفهم أهل السُّنَّة أنه ليس بالمظاهرات يحلون مشاكلهم، ويبدو أنهم أدركوا الأهمية الاجتماعية والسيكولوجية لتلك الاحتفالات، لذلك لم تحدث مواجهات بين الطائفتين في تلك الفترة. (IBN Aquil - p: 315).

لكن الواقع التاريخي لا يؤيد ذلك؛ لأن الذي منع السنِّيِّين من الاعتراض على الشيعة في بداية دولة بني بويه هو ضعفهم، ووقوف السلطة بجانب خصومهم. (ابن كثير: المصدر السابق، ط٦، ص٢٤٣).

ورغم ذلك فإن صمتهم لم يدم طويلاً، فقد تصدوا للشيعة في احتفالاتهم عامي: (٣٥٣هـ و٣٥٤هـ). (انظر: نفس المصدر ١١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) George Makdisi: op Cit - p: 325.

(٥) فقد تذكر أهل باب البصرة، أو نهر القلائين، أو أهل باب الأزج. انظر: ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٤١٩، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٤٩، و٥٩، وابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ١٥٣، ٣٨٧.

وذكرياتهم كل سنة، رغم معارضة أهل السُّنَّة لهم[1]، الذين لم يدم عجزهم، وسكوتهم طويلاً، فأنكروا عليهم احتفالهم بيوم غدير خم[2]

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٤٣.

(٢) يحتفل به الشيعة في ١٨ ذي الحجة من كل سنة، وخُم نسبة لمكان يدعى خماء بين مكة والمدينة، وقف عنده النبي ﷺ يوماً خطيباً، فوعظ وذكر، ومن جملة ما قاله: «. . .أذكركم الله في أهل بيتي، وأذكركم الله في أهل بيتي، وأذكركم الله في أهل بيتي». (النووي: رياض الصالحين ص١٤١). وجعل الشيعة هذا الحديث عمدتهم في الإمامة وفي جدالهم مع السُّنَّة، ويدَّعون أن الرسول ﷺ قال: **«من كنت مولاه، فعليٌّ مولاه، واللَّهُمَّ وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره»**. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ٤١٧).
ويرى ابن تيمية أن المقطع الأول، لا وجود له في أمهات كتب الحديث، إلا عند الترمذي، وقد طعن فيه البخاري وغيره وحسنه البعض، وحتى وإن وجدت تلك الولاية التي ذكرها المقطع الأول، فهي ولاية مشتركة بين المؤمنين، أما المقطع الثاني: فإن الحق لا يدور إلا مع النبي ﷺ، وإلا لما تنازع الصحابة مع علي في مسائل عديدة. كما أن ذلك يخالف أصلاً من أصول الإسلام؛ لأن القرآن جعل المؤمنين إخوة رغم قتال بعضهم البعض، والمقطع الأخير: **«اللَّهُمَّ انصر من نصره»**، قال عنه أحمد: «زيادة كوفية»، والواقع التاريخي يكذب ذلك، فقد انهزم علي وأصحابه وانتصر بنو أمية وفتحوا البلاد.
أما ما رواه مسلم: **«أذكركم الله في أهل بيتي»**، فذلك يعم كل أهل البيت: المصدر السابق ٤/ ٤١٨، ٤١٩. وأهل بيته هم: أزواجه، وآل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. (النووي: المصدر السابق ص١٤١).
ويلاحظ أن الذي رواه مسلم هو من باب التذكير والحث على إعطاء أهل البيت مكانتهم اللائقة بهم، وعدم الكذب عليهم وإهانتهم، ولا دخل له بمسألة الإمامة والأئمة المعصومين البتة.
وفي مجمع الزوائد: أن جميع طرق حديث: **«من كنت مولاه»** أسانيده فيها مجاهيل وضعف. انظر: أبو بكر الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٨٢م)، ٩/ ١٠٧. وقد جمعتُ طُرقه وانتقدتها، وأثبتُ بالأدلة الساطعة أن هذا الحديث باطل كله. (انظر: خالد =

عام (٣٨١هـ/ ٩٩١م). ثم اندلعت الحرب بين الطرفين، وقُتل فيها خلقٌ كثير[١]. وألحقَ حنابلة باب البصرة[٢] خسائرَ كبيرةً بالشيعة، ثم أحرقوا أعلام الأمير البويهي بهاء الدولة[٣] (٣٧٩ ـ ٤٠٣هـ/ ٩٨٩ ـ ١٠١٢م)، فقبض على جماعة منهم، بتهمة إشعال النار في رايات السلطان، وصلبهم على القناطر ليرتدع أمثالهم[٤]، بعدما أدرك خطورة ما فعله الحنابلة، حين أتلفوا شعارات دولته، واتخذت الحادثة، صبغة سياسية، ولم تبق في مجالها المذهبي الضيق، فكان رد فعله تجاهم، سريعاً ورادعاً.

وفي تجمُّعٍ لأهل السُّنَّة والشيعة عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م)، صاح السُّنيون بأبي بكرٍ وعمر ﵄، فانزعج الشيعة من ذلك، ونشب قتال بين الطائفتين عَمَّ جانبي بغداد[٥]، وفيه تعاون حنابلة باب البصرة[٦] ونهر القلائين[٧]، في مهاجمة حي الشيعة الرئيسي الكرخ[٨]. ولم تتوقف الفتنة

= كبير علال: تناقض الروايات السنِّيَّة والشيعية حول تاريخ صدر الإسلام، والكتاب منشور إلكترونياً).

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٠٩.

(٢) ذكر ابن كثير أهل باب البصرة ولم يذكر الحنابلة صراحة. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٠٩).

(٣) المصدر نفسه ١١/ ٣٠٩.

(٤) المصدر نفسه ١١/ ٣٠٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٤١٩.

(٦) اكتفى ابن الأثير، بذكر تعاون أهل باب البصرة، مع سكان نهر القلائين فقط (نفسه ٩/ ٤١٩). وحدث تعاون آخر بين نفس الحيين عام (٤٢٥هـ). (ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٧٨).

(٧) يقع الحيَّان قبالة الكرخ، جنوب القسم الغربي من بغداد. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٨) ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٤١٩.

إلا بعد حدوث قتل كثير ودمار كبير[1]. ويرجع انفراد الحنابلة بشيعة الكرخ، إلى قرب محلتي باب البصرة، ونهر القلائين الحنبليتين من ذلك الحي[2]. وإلى كثرة عددهم في بغداد لأنهم يمثِّلون غالبية سكانها[3]، وإلى إمكانياتهم التي أهَّلتهم للتصدي للشيعة[4].

وعندما حاول أهل السُّنَّة منع الشيعة من النياحة[5] على الحسين بن علي يوم عاشوراء[6] عام (٤٤١هـ/١٠٤٩م)؛ اندلعت حرب بين حنابلة باب البصرة[7] والشيعة، فقُتل عدد من الجانبين، وخربت البيوت، ثم بنى العلويون سوراً حول الكرخ، فتبعهم الحنابلة وأصحاب الحديث، وأقاموا حائطاً حول سوق القلائين[8]. ثم هدم الفريقان السورَين وردُّوا الآجُرَّ إلى مواضعه السابقة، بالطبول، والمزامير، وهدأت الفتنة[9]،

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٣١.

(٢) يقع حي الكرخ وباب البصرة، ونهر القلائين، جنوب القسم الغربي من بغداد. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢.

(٤) George Makdisi: op cit - p: 325.

(٥) رغم إنكار أهل السُّنَّة على الشيعة إحياء أعيادهم، فقد تأثروا بهم وقلدوهم، فادعى جهلة من أهل السُّنَّة أن يوم غدير خم هو اليوم الذي دخل فيه الرسول ﷺ وأبو بكر الغار، وأن يوم ١٢ محرم هو يوم مقتل مصعب بن الزبير (ت٧١هـ)، فأقاموا مأتماً كما تفعل الشيعة. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٢٦). وفي عام (٣٩٣هـ) منعت السلطة الشيعة من إحياء يوم عاشوراء، وحنابلة باب البصرة من النوح على مصعب بن الزبير. (نفس المصدر ١١/ ٣٣٢).

(٦) نفس المصدر ١٢/ ٥٩.

(٧) اكتفى ابن كثير بذكر أهل باب البصرة. (نفسه ١٢/ ٥٩).

(٨) يقع بالجانب الغربي من بغداد ضمن نهر القلائين. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٩) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٥٩.

ولا ندري سبب توقفها[١].

وبعد ذلك بسنة تصالح الفريقان[٢] عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م)، وتزاوروا، وتراضوا على كل الصحابة[٣]. لكن هذا الوفاق لم يدم طويلاً، فتجدَّد القتال بين الجماعتين عام (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م)، وعاد على أشده[٤] حين أنكر السُّنيون على الشيعة كتابتهم على الأبراج[٥] التي نصبوها: «محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر»[٦]، فتلقى الحنابلة الدعم من رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، فشدَّ من أزرهم، وضيَّق على خصومهم[٧].

وعندما تأزم الوضع، وكثر الدمار، تدخَّل القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) لإخماد الفتنة، فأرسل جماعة من الهاشميين إلى شيعة الكرخ، للتفاوض معهم من أجل وقف الاقتتال لكنها فشلت في مهمتها[٨]، ثم بعث إليهم وفداً آخر من الحنابلة[٩]، فلم يوفق هو أيضاً

---

(١) لم تذكر المصادر سبب توقفها.

(٢) تم الصلح بين حيي حنابلة باب البصرة، ونهر القلائين من جهة، والشيعة من جهة أخرى، ولم يذكر ابن الجوزي الحنابلة صراحة، وإنما أشار إلى باب البصرة، ونهر القلائين. (المنتظم ٨/ ١٤٥).

(٣) وزاروا كذلك مشهد علي، والحسين، وفي ذلك قال ابن كثير: «وهذا عجيب جدّاً، إلا أن يكون من باب التقية». (البداية ١٢/ ٦٨).

(٤) نفس المصدر ١٢/ ٦٢.

(٥) قبل اندلاع الحرب قام الشيعة، بتصليح باب السماكين من الكرخ، فقابلهم حنابلة نهر القلائين، بترميم ما بقي من باب كان قد دُمر من قبل. (ابن كثير: المصدر السابق ٨/ ٥٩).

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٢.

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ٥٩.

(٨) عاد الوفد وأعطى الحق للشيعة. (المصدر نفسه ٨/ ٥٩).

(٩) من هؤلاء الحنابلة، الحسين بن علي التميمي، ويعرف بابن المذهب =

في مسعاه[1]. وازدادت المواجهات حدة، وانتقلت إلى الجانب الشرقي من بغداد[2]. ونهب أهل السُّنَّة مشاهد الشيعة المقدسة، وأحرقوا الكثير من قبورهم[3]. فكان رد فعل أولئك قويّاً، فهدموا قبور السُّنَّة، وهمُّوا بتدمير قبر الإمام أحمد، فمنعهم نقيبهم[4] خوفاً من العواقب الوخيمة التي قد تنجر عن ذلك[5]. ويبدو أن الطرفين هدآ بعد الحوداث الدامية التي جرت بينهما، إذ انقطعت أخبار هذه الفتنة بعدها[6].

واضحٌ من ذلك أن الحنابلة في هذه الصدمات كانوا فيها طرفاً رئيسيّاً، فحين حاول الخليفة إصلاح ذات البين بين المتنازعين، اتصل بهم وبالهاشميين، وعندما منع نقيب العلويين أتباعه من هدم قبر أحمد، أدرك أن انتقام الحنابلة، ومعهم أصحاب الحديث، سيكون مدمِّراً، في ظرف وقفت السلطة فيه بجانبهم[7]، وفقد الشيعة دعم بني بويه في أواخر أيامهم[8].

= (ت٤٤٤هـ)، وهو من بين جماعة عبد الصمد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٣).

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ٥٩.

(٢) المصدر نفسه ٨/ ٥٩.

(٣) أحرقوا أضرحة بعض أئمة الشيعة، موسى، ومحمد الجواد، وقبور لبني بويه، وبعض الوزراء، وقبر جعفر بن المنصور. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٢).

(٤) لم أجده.

(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٢.

(٦) انظر: ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ٥٩، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٣٢.

(٧) ابن الأثير: نفس المصدر ٨/ ٥٩.

(٨) لم تذكر المصادر أية مساعدة قدمها بنو بويه للشيعة، وذلك مظهر من مظاهر ضعفهم.

ج ـ الفتن الطائفية بين الحنابلة والشيعة في عهد السلاجقة
(٤٤٧ إلى ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

بعد عام واحدٍ من سقوط بني بويه[١] ومجيء السلاجقة إلى بغداد، أجبر أهلُ السُّنَّة الشيعةَ على ترك الكثير من مظاهر التشيع وأذلُّوهم[٢]. ونظَّم حنابلة باب البصرة[٣] مسيرة انطلقت من حيِّهم إلى الكرخ، وهم ينشدون قصائد في مدح الصحابة[٤].

وحين دخل القائد التركي البساسيري بغداد عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) داعية للفاطميين، فرح به الشيعة فرحاً شديداً[٥]، وأرسل مائتي فارس من جيشه ليعسكروا قرب باب البصرة[٦]، مقر الحنابلة الرئيسي. ثم استباح لأتباعه أعراض خصومه وأموالهم. فهبَّ شيعة الكرخ إلى حي باب البصرة، ونهبوا أكثره انتقاماً من الحنابلة[٧]، مما يوحي بأن الأمر

---

(١) حدثت قبل سقوطهم فتن بين السُّنَّة والشيعة بين عامي: (٤٤٤ و٤٤٧هـ)، لكن المصادر لم تفصلها ولم تشر إلى دور الحنابلة فيها من قريب ولا من بعيد.

(٢) أجبروهم على ترك الأذان بـ«حيَّ على خير العمل». (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ١٧٢). وترديد خير من النوم مرتين في أذان الصبح، وأمروهم بإزالة ما كتبوه على أبواب المساجد: محمد وعلي خير البشر. (نفسه ٨/ ١٧٢) وتسلط عليهم ابن المسلمة، وقتل شيخهم ابن الجلاب. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٦٨، ٦٩).

(٣) أشار ابن كثير، إلى حي باب البصرة فقط. (نفس المصدر ١٢/ ٦٨).

(٤) المصدر نفسه ١٢/ ٦٨.

(٥) سمح لهم بإعادة الأذان السابق في سائر بغداد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٧٧). ونهب أموال خصومهم. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ١٩٢).

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق ٩/ ٦٤١.

(٧) اكتفى ابن الجوزي بذكر باب البصرة فقط، وأشار إلى أن الشيعة كان دافعهم في هجومهم على الحنابلة، دافعاً مذهبيّاً. (ابن الجوزي، المصدر السابق ٨/ ١٩٢).

قد خُطِّط له مسبقاً لضرب هؤلاء، فقبل الهجوم عليهم طُرد الخليفة القائم المدافع عنهم من بغداد[1]، وقُتل رئيس الرؤساء ابن المسلمة المساند لهم[2]، وجيء بمائتي فارس قبالة حيِّهم لتخويفهم، ومساعدة الشيعة عند الحاجة، الأمر الذي مكَّنهم من الثأر لأنفسهم من الحنبلية. لكن انهزام البساسيري[3] سنة (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) جعل آمالهم تتبخر، وأعاد للحنابلة وباقي أهل السُّنَّة نفوذهم على بغداد[4].

وفي عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، نشب قتال ضارٍ بين شيعة الكرخ وحنابلة باب البصرة ونهر القلائين[5]، قُتل فيه خلقٌ كثير من الجانبين، واحترق قسم كبير من الكرخ، فتدخَّلت السلطة، وأخذت من الحنابلة أموالاً معتبرة جزاء ما فعلوه في الشيعة[6]. وهنا انقطعت أخبار هذه الفتنة، فلا يُعرف سببها، ولا ردَّ فعل الحنابلة تجاه الإجراءات التي اتُخذت ضدهم[7].

وتثبت هذه الحوادث أن الشيعة قد ضعُف جانبهم كثيراً، فلم يقدروا على صدِّ خصومهم، الذين ألحقوا بهم أضراراً بالغة، استدعت تدخل الدولة لإنقاذهم.

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٨٠.

(٢) المصدر نفسه ١٢/ ٨٠.

(٣) انهزم على يد قوات السلطان السلجوقي طغرلبك الذي أرسل قواته إلى بغداد. (انظر: نفس المصدر ١٢/ ٨٣).

(٤) المصدر نفسه ١٢/ ٨٣.

(٥) اكتفى ابن كثير بالإشارة إلى أهل باب البصرة، ونهر القلائين، بدون ذكر الحنابلة. (نفس المصدر ١٢/ ١٠٦).

(٦) المصدر نفسه ١٢/ ١٠٦.

(٧) روى هذه الفتنة ابن الجوزي، وابن كثير، فذكرا أخبارها، باقتضاب. (انظر: المنتظم ٨/ ١٧٧، والبداية ١٢/ ١٠٦).

وشهدت بغداد سنة (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)، حرباً مدمِّرة بين السُّنَّة والشيعة[١]، بسبب هجوم حنابلة باب البصرة على الكرخ، فقتلوا رجلاً، وجرحوا آخر[٢]، فرفع سكَّانه المصاحف، وأخذوا ثياب الرَّجلين ملطخة بالدماء إلى دار العميد كمال الملك أبي الفتح الدهستاني واستغاثوا به، فتدخل وأصلح بين الطرفين[٣]، وغادر العاصمة لاستقبال السلطان ملكشاه؛ فعاد القتال بين المتنازعين، وعجزت الشرطة عن إيقافه[٤]. وفيه جاء الحنابلة بأسد لمحاربة خصومهم[٥]، وحدث دمار رهيب، وقتل من الجانبين نحو مائتي شخص[٦]. وفي ذلك الظرف خرج أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) إلى المسجد وألقى خطبة تحدث فيها عن أوضاع البلد التي آل إليها، وعن أحوال أهل السُّنَّة التي وصلوا إليها[٧]. ثم أبدى تخوُّفه وحزنه من ارتفاع راية الشيعة الذين سبُّوا الصحابة[٨] ﵃ والنبي ﷺ وأزواجه على مرأى ومسمع من علمائهم[٩].

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه ١٠/ ١٧٠.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤٨.

(٥) المصدر نفسه ٩/ ٤٨.

(٦) المصدر نفسه ٩/ ٤٨.

(٧) المصدر نفسه ٩/ ٤٨.

(٨) كان الخليفة القائم قد أصدر بياناً، كفر فيه من سبَّ الصحابة عام (٤٥٨هـ)، عندما أحيا الشيعة يوم النياحة على الحسين، وصنعوا ما كانوا يصنعونه من نياحة، فأنكر عليهم أهل السُّنَّة أفعالهم، فجاء نقيبهم يعتذر عما صدر عن الشيعة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٣). ويُذكر أن جماعة من الحنابلة كانت قد كفّرت الشيعة المعتقدين لسب الصحابة ولعنهم، فما بالك بمن سبَّ الرسول ﷺ. (انظر: ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ ص٥٦٩).

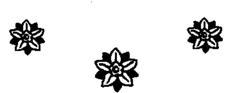
(٩) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤٩.

وأمام استمرار هذه الفتنة التي دامت عدة شهور[1]، وتدهور أحوال البلد، أرسل السُّنيون وفداً، فيه الحنبليان: ابن عقيل، وأبو الخطاب الكلوذاني (ت٥١٥هـ/ ١١٢١م) إلى الشيعة، فقرأ عليهم المبعوثون منشوراً من الديوان طالبوهم فيه بلزوم اتباع السُّنَّة[2]. فأذعنوا وكتبوا على مساجدهم: خير الناس بعد الرسول ﷺ الخلفاء الأربعة بالترتيب، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم[3]. فعلوا ذلك بعدما تأكد لديهم أن مواصلة الحرب ليست في صالحهم، وأنه من الضروري النزول عند رغبة أهل السُّنَّة[4].

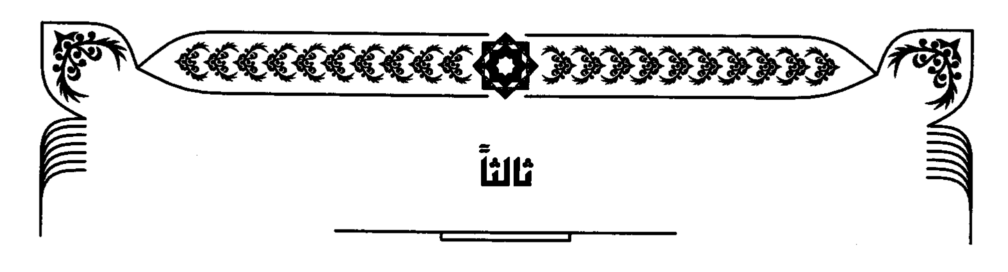
وتُعد هذه الفتنة من أخطر الحوادث الدامية وأطولها، التي شهدها الصراع بين الفريقين في بغداد، طيلة (القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م)[5]. والحنابلة في موقفهم من الشيعة يستندون إلى إمامهم وعلمائهم الذين ضلَّلوا هؤلاء، لذلك اشتدوا في معارضتهم، وكانوا لهم خصماً عنيداً، فأحبَّهم السُّنيون[6]، واتخذوهم ممثِّلين عنهم

(١) ابن الجوزي: المصدر نفسه ٩/ ٤٩.
(٢) المصدر نفسه ٩/ ٤٩.
(٣) المصدر نفسه ٩/ ٤٩.
(٤) لأنهم، كانوا قبل استسلامهم قد أظهروا سب الصحابة، والرسول ﷺ، وأزواجه، فلما ضاق عليهم الحال، وطالت الفتنة، تراجعوا عن موقفهم، ونزلوا عند رغبة أهل السُّنَّة.
(٥) قد تكون وقعت فتن أخرى، هي أخطر من فتنة عام (٤٨٢هـ)، لكن المصادر المتوفرة لم تذكر فتناً مذهبية دامت شهوراً، وحدث فيها من الدمار ما حدث في عام (٤٨٢هـ)، وإن كان ابن كثير قد أشار إلى وقوع فتن وصفها بالعظيمة، لكنه لم يفصِّل وقائعها. من ذلك قوله في حوادث سنة (٤٨١هـ): «فيها كانت فتن عظيمة بين الروافض والسُّنَّة ببغداد، وجرت خطوب كثيرة». (البداية ١٢/ ١٣٤).
(٦) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 317.

في نزاعهم مع الشيعة[1]. لكن الحنابلة وبسبب اندفاعهم لنصرة مذهبهم كانوا طرفاً فاعلاً في نقل الصراع إلى داخل الطائفة السُّنية ذاتها.



(1) IBID - p: 325.



ثالثاً

النزاع بين الحنابلة والصوفية

ذمَّ الإمام أحمد التصوُّف واستهجنه[1]، وأصبح أتباعه من بعدُ ألدَّ أعدائه[2]، ومن أكبر خصومه[3]، وكانوا أكثر منه مقتاً للصوفية، وأشد تنكيلاً بهم[4]. فهاجمهم ابن بطة العكبري (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) بقوة، ووصفهم بالابتداع، والانحراف، وبالغ في انتقاد تصرفاتهم[5]. وجعلهم ابن عقيل (٥١٣هـ/ ١١١٩م) من المفسدين للأعمال، ومن المهدِّمين لقوانين الأديان، ومن الموهمين للتشبيه، وأهل الكلام خير منهم[6].

لكن عداء الحنابلة للتصوف لم يمنعهم من الترجمة لبعض أقطابه والثناء عليهم في طبقات الحنابلة[7]. ولم يحل دون ظهور جماعة حنبلية

---

(١) انظر: السبكي: طبقات الشافعية ٢/ ٢٧٨، ٢٧٩، وابن كثير: البداية ١٠/ ٣٣٠.

(٢) ولتر باتون: المرجع السابق تذييل المترجم ص٢٨٧.

(٣) GEORGE Makdisi: Lislame Hanbalisant REL - CAHIER - N1 - 1975 - pI48.

(٤) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ص٤٨.

(٥) أنكر عليهم اجتماعهم على استماع القصائد والرقص، والتصفيق وتمزيق الثياب، وأخذ عليهم ترك الخوف والرجاء والدعوة إلى التسول. (Henri laoust: la profission de fou d lbn batta - p: 87 - 88).

(٦) ابن مفلح: الآداب الشرعية ١/ ٢٣٣.

(٧) من ذلك الترجمة للجنيد شيخ طائفة الصوفية. (انظر: الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ١/ ١٢٧). ولأبي حمزة الصوفي (ت٢٤٠هـ) كان من جلساء أحمد بن حنبل. (نفس المصدر ١/ ٢٦٨). وقيل: يوماً لأحمد بن حنبل أن =

تصوَّفت وذاع صيتُها بين الناس[١]، ولم تؤدِّ خصومتهم للصوفية[٢] إلى حدوث فتن مذهبية صِرفة وواضحة بين الطائفتين[٣]، إلا ما جرى في حادثتين شهيرتين هما: محنة غلام الخليل عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) وقضية الحلّاج، اللتان جعلتا بعض الباحثين يعتقد أن الحنابلة كانوا وراء ما أصاب الصوفية في الواقعة الأولى، ومن بين العناصر النشطة والمؤثرة في المسألة الثانية.

وذلك أن الواعظ غلام الخليل (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) كان شديد البغض للصوفية[٤]، وله نفوذ قوي على العامة والخليفة المعتمد[٥] (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م)، وعلى محتسِب بغداد الطائع لأوامره[٦].

= الصوفية يجلسون في المساجد فقال: «أجلسهم العلم». (نفس المصدر ٢/ ٢٧٩).

(١) من هؤلاء علي بن بشار الصوفي (نفس المصدر، ٢/ ٥٨، ٥٩)، وابن سمعون (ت٣٨٧هـ). (نفس المصدر ٢/ ١٥٦). وأبو الخطاب الصوفي المؤدب (ت٤٧٦هـ)، كان شافعياً ثم تحنبل، والأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ)، ويعد من أقطاب الصوفية وأشهر مؤلفاته منازل السائرين. (ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٧١ وما بعدها).

(٢) أشهر الحنابلة الذين انتقدوا التصوف ورجاله انتقاداً لاذعاً ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»، وابن تيمية في كثير من كتبه منها، «مجموعة الفتاوى»، وابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين»، وهذه الكتب مطبوعة ومتداولة بين أهل العلم.

(٣) بناء على المصادر التي اطلعتُ عليها، ثم تغير حال الصوفية عندما انحاز بعضهم إلى الأشاعرة في صراعهم مع الحنابلة. فكان هذا من أسباب ازدياد العداء بين الجماعتين. (محمود صبحي: المصدر السابق ٢/ ١٧).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٨٣ وما بعدها. والهجويري: كشف المحجوب ص٣٣٩.

(٥) تمكن في التأثير على الخليفة عن طريق والدته ـ أي: المعتمد ـ إذ كان له لديها مكانة كبيرة. (نفس المصدر ١٢/ ٢٨٣، ٢٨٤). وهي التي أمرت المحتسب بطاعة غلام الخليل. (نفس المصدر ١٣/ ٢٨٤).

(٦) نفس المصدر ١٣/ ٢٨٤.

فاستغل مكانته في المجتمع لمحاربة المتصوفة والتشنيع عليهم، فاتَّهمهم أفراداً وجماعات بالزنا والزندقة[1]. ورفع أمر جماعة منهم إلى المعتمد عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م) رماها بالمروق عن الدين[2]، ومنها أبو الحسن النوري (ت٢٩٥هـ/ ٩٠٧م)، والجنيد[3] (ت٢٩٨هـ/ ٩١٠م)، وقال للخليفة: إن هؤلاء رؤساء الزنادقة فإذا قتلتهم تلاشت الزندقة، ولك أجر كبير فأمر بقتلهم[4]. لكن السياف تحاور مع النوري فأُعجب به، وأخبر الخليفة بأمره فطلب منه نقل الصوفية إلى قاضي القضاة[5]، فتأثر بهم هو أيضاً وقال: «إذا كان هؤلاء ملاحدة، فلا يوجد على الأرض موحِّد»، ثم ردَّهم إلى المعتمد، فناقشهم ثم عفا عنهم[6]. لكن غلام الخليل لم يوقف مطاردته للصوفية والوشاية بهم[7]، فاتهم سبعين منهم بالزيغ

---

(١) الهجويري: كشف المحجوب ص٤٢١.

(٢) المصدر نفسه ص٤٢١.

(٣) اتهم عدة مرات بالزندقة والكفر، وأخذ إلى السلطان أكثر من مرة. (السراج الطوسي: اللمع في التصوف، حققه: عبد الحليم محمود، مصر، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ، ص٤٩٢).

(٤) الهجويري: المصدر السابق ص٤٢١.

(٥) لم أجده.

(٦) الهجويري: المصدر السابق ص٤٢١.

(٧) اتهم غلام الخليل أبا الحسن النوري بالزندقة، ورفع أمره إلى الخليفة عندما سمعه يقول: «أنا أعشق الله وهو يعشقني». (السراج الطوسي: المصدر السابق ص٤٩٢). وقال للخليفة: «إن دمه في عنقي إذا قتلته، فدافع النوري عن نفسه بقوله: إن الله يقول: يحبُّهم ويحبونه»، وليس العشق أكثر من المحبة، غير أن العاشق ممنوع والمحب يحبه، فبكى الخليفة من رقة كلامه. (محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، شخصيات ومذاهب، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨٤م)، ص٢٠٢).
ويعتقد القاضي أبو يعلى عدم جواز عشق الذات الإلٰهية خلافاً للحلولية في قولهم أنها تعشق؛ لأن العشق هو توقان النفس إلى المعشوق، وميله =

والضلال، وشكا أمرهم إلى السلطة[1]، فاختفى عامتهم وحُبس بعضهم، وخلَّصت العامة جماعة منهم[2]، وقُتل أفراد من المتهمين[3]، وهرب أبو الحسن النوري من بغداد، وغاب عنها سنوات ثم عاد إليها[4].

وقد عدَّ بعض الباحثين[5] غلامَ الخليل من الحنابلة[6]، وحمّل

= إلى الاستمتاع به، والله ليس بجسم ولا جوهر، ولا يجوز عليه الاستمتاع. (أبو يعلى الفراء: المعتمد ص٧٦).

وأُشير هنا إلى أن لفظ العشق تجاه الله تعالى لم يرد في النصوص الشرعية، وهو مستهجن في حق الله تعالى، والصوفية مولعون بالاعتماد على وجدانهم وظنونهم في تعابيرهم. وذكر الطوسي أن غلام الخليل غار من نمو جاه سمنون الصوفي، فأصبح يتربص به الدوائر، ففي إحدى المرات عرضت امرأة نفسها على سمنون، فرفض الزواج بها، فاتصلت المرأة بغلام الخليل، واتهمت سمنون بالزنا. فوجد في ذلك ضالته وسارع في إبلاغ الخليفة فأمر بقتل سمنون، وقيل: إن الخليفة رأى في المنام من يحذره من قتل سمنون، فإن فعل فسيزول ملكه، وفي الصباح أطلق سراح سمنون واعتذر له وأكرمه. (السراج الطوسي: المصدر السابق ص٣٣٩).

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه ١٣/ ٢٨٤.

(٣) لم تذكر المصادر المتوفرة، قتل جماعة من الصوفية، غير أن أحمد أمين أشار إلى ذلك. (أحمد أمين: ظهر الإسلام، ط٣، مصر، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٦٢م)، ١/ ٢٢٨.

(٤) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربي، (١٩٦٧م)، ١٠/ ٢٤٩).

(٥) عدَّ حسين القوتلي غلام الخليل من المحدثين الفقهاء الحنابلة. (الحارث المحاسبي المصدر السابق ص٤٨). وجعل هنري لاوست غلام الخليل من الحنابلة غير أنه أشار في هامش الكتاب إلى أن الحنابلة لم يذكروه في طبقاتهم. (Henri laoust: op cit p: LVIII.)، وعدَّ محمود صبحي غلام الخليل من الحنابلة، وحمَّله ما أصاب الصوفية. (محمود صبحي: المرجع السابق ٢/ ٣٥).

(٦) الحارث المحاسبي: المصدر السابق مقدمة المحقق ص٤٨، ومحمود صبحي: المرجع السابق ٢/ ٣٥ و(Henri laoust: op cit p: LVIII.).

أبو العلاء عفيفي، وأحمد أمين الحنابلة[١] مسؤولية محنة الصوفية نظراً للعداء المورَّث بين الإمام أحمد بن حنبل وأهل التصوف[٢].

ومما يلاحظ على هؤلاء الباحثين أنهم اعتمدوا في ما ذهبوا إليه على الاستنتاج والترجيح، ولم يعتمدوا على مصادر تاريخية صرَّحت بما انتهوا إليه[٣]. فالحنابلة لم يُترجموا لغلام الخليل في طبقاتهم[٤]. وتعرَّض له الخطيب البغدادي (ت٤٦٢هـ/ ١٠٥٩م)، وابن الجوزي (ت٥٩٨هـ/ ١٢٠٠م)، والذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، وابن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، في كتبهم وذكروا عنه أخباراً، ولم يشيروا إلى حنبليَّته[٥]. وتطرَّق أبو نعيم الأصفهاني، والسراج الطوسي، والهجويري[٦] لمحنة الصوفية، ولدور

---

(١) وجعلا غلام الخليل من الحنابلة الناقمين على الصوفية. (انظر: أحمد أمين: المرجع السابق ١/ ٢٢٨). وأبو العلاء عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، بيروت، دار الشعب، بدون تاريخ ص١٠٦).

(٢) أحمد أمين: المرجع السابق ١/ ٢٢٨، وأبو العلاء عفيفي: المرجع السابق ص١٠٦.

(٣) لم يذكروا المصادر التي رجعوا إليها، فيما قرَّروه في كتبهم. انظر: أحمد أمين: المرجع السابق ١/ ٢٢٨. ومحمود صبحي: المرجع السابق ٢/ ٣٥. وأبو العلاء عفيفي: المرجع السابق ص١٠٦. والحارث المحاسبي: المصدر السابق مقدمة المحقق ص٤٨. و(Henri laoust: op cit p: LVIII).

(٤) أشار هنري لاوست إلى ذلك في المدخل المطول الذي وضعه لكتابه «الإبانة في أصول الديانة» لابن بطة العكبري، ورغم ذلك فقد عد غلام الخليل من الحنابلة. (انظر: Henri laoust: op cit p: LVIII).

(٥) انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٥/ ٩٥، و«تلبيس إبليس»، حققه: محمد منير الدمشقي، مصر، مطبعة النهضة، (١٩٢٨م)، ص١٧٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٢٨٤، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، حققه: علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ، ٣/ ٣٣٦، وابن كثير: البداية ١١/ ٥٤، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٥/ ٧٨، ٧٩.

(٦) أظهر الهجويري أثناء تعرضه لغلام الخليل حقده عليه، واتهمه بالرياء، =

غلام الخليل فيها، ولم يرووا ما يوحي بدور الحنابلة في تلك القضية[1]. وقد أشار ابن تيمية إلى أن غلام الخليل كان من بين الذين ذكروا عن أحمد بن حنبل أخباراً[2].

ويتضح من ذلك أن غلام الخليل (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م) كان سلفيّاً[3] وليس حنبليّاً، عاش بين أصحاب الحديث والحنابلة[4]. وربما هذا هو الذي أدَّى إلى القول: إن الحنبلية كانت من وراء محنة الصوفية. لكنه ليس من الصواب الجزم بتحميلها مسؤولية ما أصاب المتصوِّفة على يد رجل غير صريح الانتماء إليها. لكن لا يستبعد أن يساهم بعض أتباعها في المحنة، بطريقة أو بأخرى، بحكم عدائهم للتصوف، وقرب غلام الخليل منهم.

وأما قضية الحلَّاج[5] فموجزُها: أن الفقهاء أنكروا على الحسين بن

= والتظاهر بالزهد، والتصوف وادعى أنه باع دينه بدنياه، وأنه آلى على نفسه التشهير بالمشايخ خوفاً من ذهاب جاهه. (كشف المحجوب ص٥٠٠ وما بعدها).

(١) أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق ٢٤٩/١٠، والهجويري: المصدر السابق ص٣٣٩، ٤٢١، والسراج الطوسي: المصدر السابق ص٥٠٠.

(٢) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٨١/٥.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٣.

(٤) عاش أبو عبد الله غلام الخليل في وسط أصحاب الحديث والحنابلة، واشتهر بينهم بالزهد والصلاح، لكنه اتهم بالكذب، ووضع الأحاديث، وقال فيه أبو داود السجستاني صاحب الإمام أحمد: «إذا كان صاحب الزنج كذاب البصرة، فأخشى أن يكون غلام الخليل كذاب بغداد». (الخطيب البغدادي: المصدر السابق ٧٨/٥، ٧٩). وعندما توفي غلام الخليل غلّقت الأسواق وخرج الناس في جنازته. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩٥/٥، ٩٦).

(٥) تعد من أشهر القضايا المثارة في التاريخ الإسلامي، وقد كتب عنها المتقدمون والمتأخرون كثيراً. لكن الذي يهمُّنا منها هو دور الحنابلة فيها فقط، ويعتبر =

منصور الحلاج، ادعاءه النبوة والألوهية، والحلول، في كتاب ألَّفه[1]. فأُدخل السجن عام (٣٠١هـ/ ٩١٣م)، وبقيت مشكلته مثارة حتى عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١م)، وفيه عُقد له مجلس بإذن من الخليفة المقتدر، حضره وزراء وقضاء وفقهاء، فانتهت محاكمته بإصدار حكم الإعدام في حقه، بموافقة جميع الحاضرين[2]. ويوم إعدامه تجمع الناس لمشاهدته، وكان الكثير منهم قد افتُتن به[3].

وفي شأن هذه الحادثة يرى لويس ماسينيون أن الحنابلة تظاهروا في شوراع بغداد، قبل مقتل الحلاج ضد الوزير حامد بن العباس[4] (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) لسوء سياسته المالية، ولإنقاذ الحلاج بتحريض من رفيقه أبي العباس بن عطاء[5] (ت٣٠٩هـ/ ٩٢١م) الذي أخفى نواياه عن المتظاهرين[6]، غير أن الوزير علي بن عيسى (ت٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، وصديقه الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) رفضا اللجوء إلى الشغب والفتنة لتخليص الحلاج، فانقلب الحنابلة على الطبري[7] وحاصروه في

= المستشرق الفرنسي ماسينيون من أشهر المتخصِّصين في الحلاج، وألف عنه كتاباً في أجزاء باللغة الفرنسية، عنوانه LA PASSION de HALLAJ Martye Mystique de lislam - paris - Bibliotheque des ides - 1975.

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٣٩.

(٢) نفس المصدر ١١/ ١٤١.

(٣) مسكويه: ١/ ٨١، والمصدر نفسه ١١/ ١٤١.

(٤) وزر للمقتدر منذ عام (٣٠٦هـ)، وكان من أكبر الساعين في قتل الحلاج. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٩).

(٥) هو من مشايخ الصوفية، وكان صديقاً للحلاج، وقد صرَّح أنه على اعتقاده. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٣٩). ويرى ابن كثير أن ابن عطاء ممن اشتبه عليهم أمر الحلاج، فوافقه على بعض اعتقاده. (نفس المصدر ١١/ ١٤٤).

(٦) عبد الرحمٰن بدوي: شخصيات قلقة في الإسلام ص٧٦.

(٧) يعود الخلاف بين الحنابلة والطبري إلى قبل مقتل الحلاج بسنوات، لاختلافهم =

بيته[١]، وتعصَّبوا للحلّاج ووقفوا بجانبه، ونظَّموا تجمُّعات شعبية يوم مقتله[٢]. واتفق الباحث سامي النشار مع ماسينيون في القول بأن الحنابلة وقفوا مع الحلّاج، ودافعوا عنه[٣].

ويرى الكاتب محمد شعبان أن حامد بن العباس حين حار في أمر الحلّاج سجنه ثماني سنوات، لكن الحنابلة لم يوافقوه على حبسه وطالبوا بقتله ليتناسب العقاب مع جرمه[٤]. وعندما تنامت قوتهم عمد الوزير إلى إرضائهم، فأعدم الحلّاج بعد محاكمة شكلية[٥]. ويعتقد المستشرق رينولد نيكلسون أن أهل السُّنَّة هم الذين قتلوا الحلّاج خوفاً من استفحال أمره وازدياد نفوذه[٦].

وعَدَّ الباحث عبد الباقي سرور ولويس ماسينيون ابنَ عطاء الأدمي المناصر للحلاج من الحنابلة[٧]، وجعله الأول من أبرز علمائهم[٨]، وأكبر رأس فيهم[٩].

= معه في مسائل اعتقادية وفرعية. وسيأتي الحديث عن ذلك قريباً.

(١) عبد الرحمٰن بدوي: المرجع السابق ص٦٧.

(٢) LOUIS Massignon: op Cit. Vol1 - P: 285..

(٣) سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١/ ٦١٣.

(٤) محمد شعبان: المرجع السابق ص١٧٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) رينولد ينكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة: أبي العلاء عفيفي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٥٦م)، ص١٣٠.

(٧) عبد الرحمٰن بدوي: المرجع السابق ص٧٦، وطه عبد الباقي سرور، والحلاج شهيد التصوف الإسلامي، ط١، القاهرة، المكتبة العلمية ومطبعتها، (١٩٦٧م)، ص١٤٢.

(٨) طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق ص١٤٢.

(٩) نفس المرجع ص١٥٥.

ويرجع سبب اختلاف آراء هؤلاء الباحثين في تحديد دور الحنابلة في قضية الحلاج إلى سكوت المصادر[1] عن التصريح بأي نشاط لهم في تلك المسألة[2]، فالتجأوا إلى التخمين، والاستنتاج والترجيح[3].

وأما عن ابن عطاء الصوفي فلم يكن من الحنابلة[4]، ومن الخطأ القول إنه من علمائهم، وأكبر رأس فيهم[5]. فهم لم يترجموا له في طبقاتهم[6]، ومن الثابت أن رئيسهم آنذاك هو أبو محمد البربهاري[7] (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م).

وربما احتشد الحنابلة يوم مقتل الحلاج، كغيرهم من العوام، الذين تجمَّعوا لمشاهدته[8]. أما القول أنهم نظموا التجمعات الشعبية لتأييد الحلاج[9]، فلا دليل يثبته بناءً على المصادر المتوفرة. لكن يبقى

---

(١) التي أمكن الاطلاع عليها.

(٢) انظر: مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٨١، وابن الجوزي: المنتظم: ٦/ ١٦٠، وابن كثير: البداية ١١/ ١٣٩ وما بعدها، وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: مج١، ٢/ ٢٥٦.

(٣) ولم يذكروا مصادر تثبت ما ذهبوا إليه. انظر: عبد الرحمٰن بدوي: المرجع السابق ص٧٦. وسامي النشار: المرجع السابق ١/ ٦١٣. وLouis massignon op cit - vol - 1 - p: 285.

(٤) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٤، وابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج١، ٢/ ٢٥٦، وابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ١٦٠. وراجع: طبقات الحنابلة، فلم يترجم له فيها الحسين ابن أبي يعلى.

(٥) لم يذكر عبد الباقي سرور المصادر التي اعتمد عليها، في وصفه لابن عطاء بتلك الأوصاف. انظر: الحلاج شهيد التصوف الإسلامي ص١٤٢ و١٥٥.

(٦) راجع: طبقات الحنابلة.

(٧) مسكويه: المصدر السابق ١/ ٢٦٠.

(٨) انظر: نفس المصدر ١/ ٨١، وابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤١.

(٩) انظر: سامي النشار: المرجع السابق ١/ ٦١٣، وعبد الرحمٰن بدوي: المرجع السابق ص٧٦، وLouis massignon op cit - vol - 1 - p: 185.

احتمال استغلال ابن عطاء لقوة الحنابلة، ومكانته بين العامة، ونقمة الشارع على السلطة[1] ممكناً، بحيث يستطيع تحريض هؤلاء على الدولة لينقذ رفيقه، فينضم إليه بعض الحنابلة ضمن الذين فُتنوا بالحلاج[2].

غير أن ذلك ـ في حال ثبوته ـ لا يدل على وجود تأييد حنبلي عام؛ لأن فقهاء الحنابلة لم يعارضوا علماء بغداد حين أجمعوا على تكفير الحلاج وقتله[3].

ومما يؤيد عدم قَبولهم له، أنهم لم يترجموا له في طبقات الحنابلة[4]، وهو الشخصية المشهورة آنذاك.

وكان علماء الحنابلة من أوائل الذين ثاروا على الحلولية الصوفية[5]، وهم الذين أنكروا على ابن عقيل الشاب الحنبلي (ت٣١٥هـ/ ١١٧٩م)، حين ألَّف كتاباً ترحَّم فيه على الحلاج ومدحه، وتأوّل أقواله وفسّر أسراره، واعتذر له عمَّا صدر عنه[6]، فطاردوه وأفتوا بقتله، وما زالوا به حتى رجع عن اعتقاده السابق، وتاب عما كان عليه[7]. وحتى كبار متصوفة الحنابلة لم يقرُّوا الحلاجَ على ما ادعاه، وجعلوه من العاثرين، لم يجد من يأخذ بيده[8].

---

(١) بسبب انتشار الظلم، وأعمال النهب، وفقدان الأمن والصراع بين العامة، والجند. (اليافعي: مرآة الجنان، ط٢، بيروت، منشورات الأعلمي، (١٩٧٠م)، ٢/ ٢٤٩).

(٢) انظر: مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٨١، وابن كثير: البداية ١١/ ١٣٩.

(٣) انظر: الجوزي: تلبيس إبليس ص١٧١، وابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤١.

(٤) راجع: طبقات الحنابلة.

(٥) IBN Taimiya: le traite du droit public - p: 11.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٥٤.

(٧) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٧٤، ١٧٥.

(٨) قال عبد القادر الجيلاني الصوفي الحنبلي عن الحلاج: «عثر ولم يجد من يأخذه =

وقد صدق الشيخ تقي الدين ابن تيمية عندما قال: إن الحلاج لم يُقتل مظلوماً؛ لأن ما أظهره جعل قتله واجباً على المسلمين[1]. ويمكن القول: إن الحنبلية كحركة اجتماعية لم تقف بجانب الحلاج، وكان نشاطها يصب في تيار أهل السُّنَّة الذين قتلوا الحلاج[2].

ويتبين من علاقة الحنابلة بالمتصوفة أن الخصام القديم الذي يرجع إلى أيام الإمام أحمد لم يؤد بالطائفتين إلى الصدام العنيف لضعف الصوفية، وانعزالهم عن مخالطة الناس، لكن حالهم تغير في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، فانحاز بعضهم إلى الأشعرية، وتعاون معها في صراعها مع الحنبلية[3].

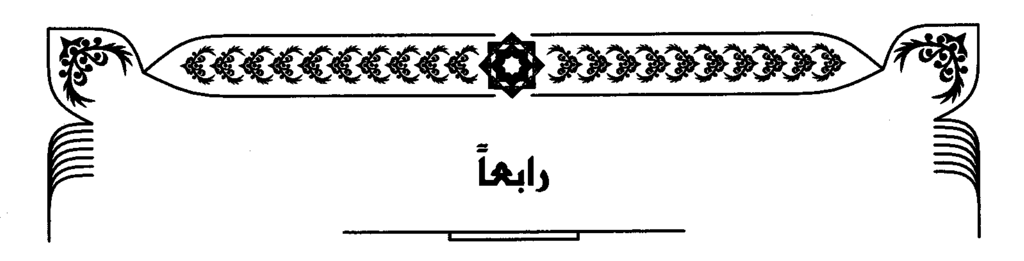


= بيده، ولو كنت في زمانه لأخذت بيده». (اليافعي: المصدر السابق ٢/ ٢٥٤). وتوقف عبد الله الأنصاري الهروي، في الإفصاح عن موقفه من الحلاج. (دائرة المعارف الإسلامية، ٨/ ١٩). وقد ترجم له في كتابه طبقات الصوفية الذي ألفه باللغة الفارسية. وعن هذا الكتاب وباقي مؤلفات الأنصاري، انظر: S.DE LAUGIER: KHAWADJA ABDULLAH. ANSARI - BEYREUTH - IMPRIMERIE CATHOLIQUE - P: 211.

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢/ ٤٨٣.

(٢) تعجب الباحث عبد القادر محمود من ادعاء لويس ماسينيون من أن الحلاج كان يريد جمع كلمة المسلمين، لكنه ذهب ضحية الصراع السياسي بين طوائف بغداد!! فهل الذي يريد جمع المسلمين، يأتيهم بمذهب حلولي يتناقض مع الشريعة، والمجتمع الإسلامي؟ فهل بهذا يجمع أم يهدم؟ (عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية في الإسلام. مصادرها، ونظرياتها، مصر، دار الفكر العربي، بدون تاريخ ص٣٤٧). وربما يقصد ماسينيون أن يجمع الحلاج المسلمين على عقيدة الحلولية؛ فيتخلون عن عقائدهم، ويلتفون حوله. فبئس هذه الوحدة التي يتخلى فيها المسلمون عن نهج السلف الصالح.

(٣) ثبت ذلك جليّاً في فتنة عام ٤٦٩هـ، وسيأتي ذكرها قريباً.



رابعاً

النزاع بين الحنابلة والشافعية الأشاعرة

لا يستند الحنابلة في خصومتهم للشافعية الأشاعرة، على أقوال الإمام أحمد التي تقدح في أبي الحسين الأشعري أو تضلِّله؛ لأنه متأخر عنه، لكنهم يستندون في نزاعهم مع هؤلاء إلى مواقف لعلمائهم، كأبي محمد البربهاري، الذي كان على رأس أصحابه في الفتن المذهبية التي حدثت بين فئات الطائفة السُّنِّيَّة ذاتها في الربع الأول من القرن (الرابع الهجري/ الثلث الأول من القرن العاشر الميلادي)[1].

وقد عارض الحنابلة أبا الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) وحاولوا قتله، فاستجار بأبي الحسن التميمي الحنبلي[2] (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م). وحين توفي الأشعري لم يعرف مذهبه انتشاراً واسعاً إلا في مطلع القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[3]. وقد تولى أصحابه من بعده

---

(١) في سنة (٣١٧هـ)، حدثت فتنة بين الحنابلة والشافعية، عندما اختلف الطرفان في مسألة الجهر بالبسملة، والاختلاف في تفسير آية المقام المحمود، وأمام تكرار المواجهات استدعى الأمر تدخل الدولة، وأرغمت الحنابلة على الأخذ بمذهب الشافعي، ومنعتهم من الإمامة في الصلاة، إلا إذا جهروا بالبسملة في صلاتي الصبح والعشاء عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٤م). انظر: ابن الأثير: المصدر السابق ٦/ ٢٤٨، وابن كثير: البداية ١١/ ١٦٢ و١٨٢.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.

(٣) ذكر أبو علي الحسن الأهوازي أن مذهب الأشعري، لم يُشتهر إلا بعد ثلاثين عاماً من تأليفه هو لكتاب مثالب الأشعري. (Michel ALLard: un pamphlet =

مهمَّة حفظه والدعوة إليه[١]، وواصلوا صحبتهم للتميميِّين اقتداءً بأستاذهم، فكانت بينهم المؤانسة والضيافة[٢].

وعندما أظهر متقدِّمو الأشعرية ما لا يتفق مع فكر الحنابلة وأهل الحديث[٣]، تعرَّضوا للمضايقات والمطاردات[٤]، ومُنعوا من إظهار مذهبهم[٥]، فانتسبوا إلى الحنبلية[٦]، وتستروا بها[٧]، ووطدوا علاقاتهم

= (contre Alasharie - B - E - O.Yome: XXXIII - 1974 p: 163)، وقد رجَّح ميشال ألارد سنة تأليف الأهوازي لكتابه عام (٤٦٠هـ/ ١٠٣٨م). (IBODI P: 133). وبذلك يكون مذهب الأشعري قد بدأ في التوسع منذ القرن (الخامس الهجري).

(١) (IBODI P: 133).

(٢) جمع عبد العزيز التميمي عام (٣٧٠هـ) جماعة من أعيان بغداد لدعوة أقامها لهم، كان من بينهم اثنان من أصحاب الأشعري الأوائل. (ابن عساكر: المصدر السابق ص٣٩٠).

(٣) استنكف بعض أئمة الشافعية في القرن (٤هـ/ ١٠م)، من الانتساب إلى الأشعري، ونهوا عن اتباعه. (ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢/ ٥٤). وكان شيخ الشافعية أبو حامد الإسفراييني (ت٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) لا يعد الأشعري من أصحاب الشافعي. (نفس المصدر ٢/ ٥٣). وهو الذي طارد الباقلاني، وأجبره على الاختفاء، فكان يخاف من الذهاب إلى الحمام، إلا في حالة تمويه خوفاً من أبي حامد. (نفس المصدر، ٢/ ٥٤). وكان أبو حامد الإسفراييني يصرِّح أنه ليس على مذهب الأشعري والباقلاني، في مسألة خلق القرآن. (نفس المصدر ٢/ ٥٣). وكان ابن فورك (ت٤١٠هـ)، من أوائل الأشاعرة الذين خالفوا السلف، وأوَّلوا الصفات الخبرية في كتابه التأويلات، ثم سار على نهجه متأخرو الأشعرية كالغزالي، والجويني. (خليل هراس: دعوة التوحيد، مصر، مطبعة الإمام، بدون تاريخ ص٢٨٩).

(٤) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٤، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢/ ٥٤.

(٥) الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٣٩، وMichel ALLard: p: 161.

(٦) كان أبو بكر الباقلاني يكتب في فتاويه: محمد بن الطيب الحنبلي. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٥٠).

(٧) رفع أمر الباقلاني إلى الخليفة القادر، فكاد ذلك أن يعرضه للخطر، فاختفى =

بالتميميين[1] حفاظاً على كيانهم.

واشتد الحال على الأشعرية في عهد الخليفة القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م) فلُعنت على الملأ وقُرنت بالشيعة والجهمية[2]. ولولا تسترها بالحنبلية لما حافظت على ذاتيتها، ولا راجت بين الناس[3].

وعندما جاء الوزير السلجوقي نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) إلى السلطة، رفع من شأن الأشعرية، وأيدها على خصومها من الحنابلة وأهل الحديث، فتغير حالها، وعظُم أمرها[4]، واعتنقها معظم الشافعية[5]، حتى أصبح اسمها مرادفاً للشافعية[6].

وقد تصدَّى الحنابلة للأشعرية الزاحفة التي سالمتهم أيام ضعفها وانقلبت عليهم في مرحلة العزِّ والسلطان[7]. وكانوا أكثر أهل بغداد بغضاً وعداءً لها[8]. ويعتقد ابن عساكر وابن تيمية أن الطائفتين بقيتا على

= وتستر بمذهب أحمد. (ابن تيمية: نقض المنطق ص١٤).

(١) ابن تيمية: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ٢/ ١١.

(٢) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٣.

(٣) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٢٨، ونقض المنطق ص٦ و١٤.

(٤) يرى المستشرق ماسيه أن الأشعرية احتاجت إلى مدة قرن كامل، لينظر إليها أكبر سلطة عقائدية في الإسلام، بمساعدة نظام الملك. (ماسيه: الإسلام، ترجمة: بهيج شعبان، بيروت، منشورات عويدات، (١٩٦٠م) ص٢١٧). لكن الواقع التاريخي يعارض ذلك، إذ احتاجت الأشعرية إلى أكثر من ١٥٠ عاماً لتثبت وجودها علانية، في عهد نظام الملك. وسيتضح هذا فيما يأتي من هذا المبحث.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٦/ ٣٥٩.

(٦) George Makdisi: Lislam - Hanbalisant - Cahier - 1 - 1975 - p: 75.

(٧) في أيام نظام الملك.

(٨) George Makdisi: op. Cit vol: 1 - p: 75.

وئام واتفاق حتى فرَّقتهما فتنة ابن القشيري عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)[١]. لكن الواقع التاريخي يثبت أن الأشعرية منذ وفاة مؤسِّسها لم تستسلم، وبقيت تقاوم وتتحيَّن الفرص للتعبير عن مذهبها، لكنها لم تقدر على إظهاره علانية، لِما كان يلحقها من قمع ومطاردة على يد الحنابلة[٢]. ورغم ما أصابها فقد تمكنت من اختراق الحصار المفروض عليها، ودخلت في صراع طائفي مع الحنابلة قبل فتنة أبي نصر ابن القشيري.

١ ـ الخلاف بين الأشاعرة والقاضي أبي يعلى في قضية التأويل

كان ابن فورك الأشعري[٣] (ت٤١٠هـ/ ١٠١٩م) قد ألَّف كتاباً في إثبات التأويل[٤]، وسار فيه على نهج أهل الكلام في إنكار صفات الخالق وتأويلها[٥]، فجاء القاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، ورد عليه في مؤلَّفه: «إبطال التأويل»[٦]، أثبت فيه الصفات التي أوّلها ابن فورك فاتهمه الأشاعرة بتشبيه وتجسيم صفات الله تعالى[٧]. ثم حدث خلاف بين الأشاعرة والحنابلة، وجرت بينهما

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٩، ونقض المنطق ص٦٦.

(٢) الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٩.

(٣) هو: أبو بكر فورك الحافظ الأصبهاني، كان يقول بالتأويل في مسألة العرش، موافقاً للجهمية، فطرده السلطان السلجوقي محمود بن سبكتكين (ت٤٢١هـ) من مملكته. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٣٠).

(٤) سبق تحديد معنى التأويل عند عرض موقف الإمام أحمد بن حنبل.

(٥) أي: صرفها عن معناها الظاهر وتعطيلها، وهذا ما يقصده أهل الكلام من التأويل.

(٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٤، وابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦ و١٠٤.

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/ ١٠٤.

مناقشات عما جاء في كتاب أبي يعلى، الذي شاع أمره، وكثر الكلام عنه، فتدخل الخليفة القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) وطلب الكتاب فاطلع عليه، ورده إلى القاضي أبي يعلى[١]، ثم أمر بعقد اجتماع للنظر فيما جرى من نزاع بين الطائفتين، فحضره جمع من الفقهاء والأعيان عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)، وانتهى اللقاء لصالح أبي يعلى[٢]، وحرَّر الحاضرون محضراً نصروه فيه، وكان أولهم الزاهد أبو الحسن القزويني (ت٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) كتب ما نصُّه: «هذا قول أهل السُّنَّة، وهو اعتقادي وعليه اعتمادي»[٣]. ثم أخرج القائم بأمر الله رسالة الاعتقاد القادري بما يوافق مذهب أبي يعلى الفراء[٤].

كانت هذه هي أول محاولة جماعية علنية قام بها الأشاعرة انتصاراً لمعتقدهم، ووقوفاً في وجه الحنابلة وأهل الحديث، الذين وجدوا الدعم المطلق من السلطة.

ثم تجدَّد الخلاف بين الطائفتين عام (٤٥٥هـ/ ١٠٥٣م) بسبب القضية السابقة، فتدخل القائم بأمر الله مرة أخرى، وعقد اجتماعاً بدار الخلافة حضره العلماء والقضاة والأعيان، فتمَّ الصلح بين الجماعتين وأُعلن أن القرآن كلام الله، وأخبار الصفات تُمر كما جاءت، وخرج القاضي أبو يعلى منتصراً[٥].

وهذه هي المرة الثانية التي سعى فيها الأشاعرة جماعيّاً لنصرة مذهبهم والإنكار على الحنبلية، التي دلَّت على أنهم لم يوافقوا على تسوية عام

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ١٩٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٩٧.
(٣) أي: ما ذكره القاضي أبو يعلى في كتابه «إبطال التأويل».
(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى المصدر السابق ٢/ ١٩٧.
(٥) نفس المصدر ٢/ ١٩٨.

(٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)، وإنما أُلزموا على القَبول بها فتظاهروا به، لذلك كرَّروا احتجاجهم على كتاب القاضي أبي يعلى سنة (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)، فأُجبروا مرة ثانية على السكوت والرضا بكتاب اتهموا كاتبه بالتشبيه والتجسيم[١].

وقد وقف أبو محمد رزق الله التميمي الحنبلي بجانب الأشاعرة، وشنَّع على القاضي أبي يعلى الفراء لِما أورده في كتابه «إبطال التأويل» وقال عنه: «لا رحمه الله، فقد بال في الحنابلة البولة الكبيرة التي لا تُغسل إلى يوم القيامة»[٢]. وروى أبو بكر ابن العربي أن القاضي رئيس الحنابلة كان يقول إذا ذُكر الله تعالى: «ما ورد من هذه الظواهر في صفاته، فالزموني ما شئتم فإنني ألتزمه، إلا اللحية والعورة»[٣]. ويرى ابن تيمية أن أبا يعلى ذكر في مصنفه أحاديث موضوعة، صريحةً في التشبيه والتجسيم[٤]، لكن ما رواه ابن العربي فهو كذب عليه، وخبر عن مجهول نسبه للقاضي، وكذلك رزق الله فقد رماه بأشياء هو بريء منها[٥].

---

(١) يعتقد جورج مقدسي أن بعض المعاصرين اعتمدوا في وصف الحنابلة بالتجسيم والتشبيه والتزمُّت على مصادر شافعية؛ كطبقات الشافعية للسبكي الشافعي الأشعري، في حين لم يستخدموا المصادر الحنبلية المخطوطة والمطبوعة إلا نادراً في الدراسات التي تطرقت للحنابلة، خلال النصف الأول من القرن (٢٠). وقد اعتمد كل من جولد تسيهر، وولتر باتون على طبقات السبكي، وهو أشعري معارض للحنابلة. (George Makdisi: op. Cit - Cahier: 2 - 1974 - p: 226)، ويُعد ابن عساكر (ت٥٥١هـ)، والسبكي (ت٧٧١هـ) من أكبر مؤرِّخي الأشعرية، ومن المتعصِّبين على الحنابلة، والشافعيين السلفيين. (IBID - Cahier: 2 - 1974 - p: 229).

(٢) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات ٣/ ٨٦٤.

(٣) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ج٥، هامش ص٢٣٨.

(٤) مثل حديث رؤية الله عياناً ليلة معراج الرسول ﷺ، وحديث إقعاده على العرش، وهو حديث المقام المحمود الموضوع. (ابن تيمية: المصدر السابق ٥/ ٢٣٨).

(٥) نفس المصدر ج٥، هامش ص٢٣٨.

والذي أوقع أبا يعلى فيما أُنكر عليه، ضعفه في علم الحديث، إذ كان قليل الخبرة به وبرجاله، فروى أخباراً مكذوبة واهية احتج بها في الأصول والفروع[1] فأوهمت التجسيم، ووجد فيها خصومه حجة قوية لمقارعته، أما هو فلم يكن يعتقد التشبيه وكتبه تشهد عليه[2].

وعلى الرغم من الصلح الذي تمَّ بين الحنبلية والأشعرية عام (٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)، فقد تجدَّد النزاع بين الطائفتين، وعاد على أشده.

٢ ـ فتنة بين الحنابلة والشافعية الأشاعرة عام (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)

اعترض الحنابلة على الشافعية الأشاعرة عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) في قراءتهم للقنوت[3] في الصبح، وترجيعهم في الأذان[4]، وجهرهم

---

(١) الصفدي: المصدر السابق ٣/ ٨٦٤.

(٢) أكد في كتابه «إبطال التأويل» أن الله ليس كمثله شيء، لا يوصف بصفات المخلوقين، وأنه ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض. (الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢١٠). وأنه تعالى فرد الذات، متعدد الصفات، لا شبيه له في ذاته، ولا في صفاته، ولا ثاني له، ولا نظير، وصفاته لا تُرد وكيفياتها مجهولة، لا تُرد كالجهمية، ولا تُحمل على التشبيه كالمشبهة الذين أثبتوا الكيفية، ولا تُؤول على اللغات والمجازات كما تأولتها الأشعرية، فلا تُعطل، ولا تُشبه، ولا تُؤول، وإنما تُثبت مع نفي التشبيه والأدوات. (نفس المصدر ٢/ ٢٠٩). وللمزيد انظر كتابه: المعتمد في أصول الدين ص٥١ وما بعدها.

(٣) القنوت: هو دعاء يقال في الركعة الثانية من صلاة الصبح. وهو عند الحنابلة والأحناف غير مشروع، إلا عند النوازل، وفي سائر الأوقات، لما رواه أحمد والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، في ذلك الأمر. أما الشافعية فعندهم القنوت في صلاة الصبح سُنّة. (السيد سابق: فقه السُّنَّة، ط٧، بيروت، دار الكتاب العربي ١/ ١٩٨).

(٤) الترجيع في الأذان هو أن يردد المؤذن الشهادتين؛ كقوله أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن لا إلٰه إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله =

بالبسملة في الصلاة[1]، فانقسمت العامة بين مؤيد للحنابلة ومخالف لهم، ثم انحازت كل فئة إلى الطرف الذي مالت إليه[2]. ولم تُفلح مساعي ديوان الخليفة القائم بأمر الله في التوفيق بين الفريقين. وظل الخلاف قائماً، فتوجه الحنابلة إلى أحد مساجد الشافعية، ونهوا إمامه عن الجهر بالبسملة[3]، فأخرج مصحفاً وقال لهم: «أزيلوها من المصحف[4] حتى لا أتلوها»[5].

ثم تطور النزاع بين الجماعتين إلى الاقتتال، وتقوّى صف الحنابلة، وتقهقر جانب الأشاعرة الذين أُلزموا البيوت، ولم يعودوا قادرين على حضور صلاة الجمعة ولا الجماعات خوفاً من الحنبلية[6].

ولا شك أنه قد كان في وسع علماء الفئتين، أن يعملوا على ائتلاف أبناء المجتمع الواحد؛ فيُجهر بالبسملة، أو تُترك لمصلحة راجحة، ويُتخلى عن الأفضل لجمع القلوب، كما ترك النبي ﷺ إعادة

= ـ بصوت منخفض ـ، ثم يكرر ذلك للمرة الثانية، وهذه صيغة من الصيغ المأثورة في ذلك الأمر. (نفس المرجع ١/١٩٨).

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر مج١، ٤/٧٧.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/٧٣.

(٣) في عام (٤٩٤هـ)، أمر الخليفة المستظهر بالله العباسي (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ) بالجهر بالبسملة، في صلاة التراويح، ولم تكن العادة الجهر بها في التراويح، ثم أمر بتركها؛ لأن الفاطميين بمصر يجهرون بها فخالفهم، وليس اتباعاً لمذهب الحنابلة في عدم الجهر بها، ثم أمر بقراءة القنوت على مذهب الشافعي. (ابن الأثير: المصدر السابق ٨/٢٠٤). لاحظ ضعف نفوذ الحنابلة وتأثيرهم على الخليفة، ونمو شوكة الشافعية.

(٤) لاحظ: إن الحنابلة طلبوا منه عدم الجهر بالبسملة، وليس عدم قراءتها، حتى يقول لهم: أزيلوها.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ٨/٧٣.

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/١٦٣، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/٦٦.

بناء البيت الحرام، على قواعد إبراهيم عليه السلام خشية تنفير قريش[1]. وقد نصَّ على ذلك أحمد بن حنبل وغيره من أئمة أهل السُّنَّة[2]. ولو التزم سكان بغداد بتلك القاعدة، لحقنوا دماءهم، ولجنَّبوا بلدهم مصائب كثيرة، لكن التعصب المذهبي غلب عليهم، وجرَّهم إلى فتن مدمِّرة.

وتُعد حوداث عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) من أخطر المواجهات التي وقعت بين الحنابلة والأشاعرة قبل فتنة أبي نصر ابن القشيري، بخمسة عشر عاماً. وقد تكون الأشعرية أحسَّت من نفسها قوة، حين دخلت حلبة الصراع العلني مع الحنبلية، بعد مرور أكثر من قرن عن وفاة مؤسِّسها أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، لإنهاء مرحلة الصمت والتخفي. لكنها أخطأت في تقدير حساباتها عندما قررت منازلة خصمها القوي الذي ما يزال يهيمن على الشارع البغدادي، وفي وسعه مطاردة معارضيه، ومنعهم من الالتحاق بالمساجد، وبجانبه الخليفة السلفي القائم بأمر الله، يحميه ويدافع عنه. ولعلها كانت على وعي بالظرف الذي تمر به، وعلى علم بقدرتها وبإمكانيات عدوِّها، لكنها أصرت على التصدِّي للحنبلية، والتعبير عن معتقدها جهاراً، ووضع حدٍّ لمرحلة الضعف التي مرت بها. لذلك لم يُثبطها ما أصابها عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) عن مواصلة إظهار مذهبها، والدعوة إليه.

٣ ـ خصام بين الأشاعرة والحنابلة داخل جامع المنصور (٤٦١هـ/١٠٦٨م)

انفرد المؤرخ ابن البناء الحنبلي بهذه الحادثة عن غيره من المؤرخين[3]، ومفادها أن أشعريّاً جلس ذات يوم بجامع المنصور

---

(١) بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص٥٢.

(٢) المصدر نفسه ص٥٢.

(٣) الذين أمكن الاطلاع على مؤلفاتهم.

عام (٤٦١هـ/١٠٦٨م) للتدريس والإرشاد. فشرع في التعريض بأهل السُّنَّة من الحنابلة وأهل الحديث[١]، وأشار إلى فضل الأشعري ومن وافقه، وأوهم الحاضرين أن أصحاب الأثر يُشبِّهون صفات الخالق بصفات البشر[٢]. فقام إليه بعضهم وأنزلوه من على الكرسي، لكنه عاد إليه، فتصدُّوا له ثانية، وكسروا كرسيه، وعوَّضوه برجُل من أهل السُّنَّة[٣].

ولم يذكر ابن البناء تفاصيل هذه الفتنة، واكتفى بالعرض الإجمالي لها[٤]. وهي محاولة تدخل في مساعي الأشاعرة الرامية إلى الجهر بمعتقداتهم، وإثبات ذاتهم، لتحدي الحنابلة وأهل الحديث، الذين فرضوا الاعتقاد القادري[٥] على طوائف بغداد بقوة السلطة، والذي قُرئ على الناس عام (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) من دون أن يجرؤ أحد من الأشاعرة على الاعتراض عليه[٦]. لكنهم ظلوا يتحيَّنون الفرص المناسبة لنصرة مذهبهم[٧]. فبعد وفاة القائم بأمر الله سنة (٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م)، ومجيء نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) إلى الوزارة تغير حالهم، وتمكَّنوا من التعبير عن معتقدهم علانية، في حوادث فتنة ابن القشيري.

(١) لم يذكر ابن البناء أن المدرس الأشعري هاجم الحنابلة، وأهل الحديث، وإنما ذكر أنه هاجم أهل السُّنَّة، ويقصد بذلك الحنابلة، وأصحاب الحديث، وهو الذي قصده الأشعري من الانتصار لمذهبه ومهاجمة أهل الأثر. (George Makdisi. Autograph Diary - VoL. XIX - 1975 - p: 15).

(٢) IDEM - VOL: XIX - 1975 - P: 15.

(٣) IDEM - VOL: XIX - 1975 - P: 15.

(٤) IDEM - VOL: XIX - 1975 - P: 15.

(٥) سبقت الإشارة إليه، وهو موجود في الملاحق.

(٦) تمت قراءة الاعتقاد، بأمر من السلطة، وقرئ كذلك كتاب التوحيد لابن خزيمة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٦).

(٧) George Makdisi. OP CIT - VOL. XIX - 1975 - p: 15.

٤ ـ فتنة ابن القشيري مع الحنابلة

(٤٦٩هـ/١٠٧٦م)

عندما وصل أبو نصر عبد الكريم القشيري[١] (ت٥١٤هـ/ ١١٢٠م) إلى بغداد قادماً إليها من الحج عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)، استقر بالمدرسة النظامية[٢]، ودرَّس فيها. فذمَّ الحنابلة، ونسبهم إلى التجسيم[٣]، وأعلى من شأن الأشعرية[٤]. فتألَّم الشريف أبو جعفر رئيس الحنابلة (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، من عمل ابن القشيري، وأنكر عليه فعلته[٥]، ثم جنَّد جماعة من أتباعه في مسجده تحسُّباً لأي خطر محتمل[٦].

والتف حول ابن القشيري أصحابه، والمتعاطفون[٧] معه، وساعده أبو سعد أحمد الصوفي، وانحاز إليه شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي[٨]. ثم هاجمت جماعة من رفاقه مسجد الشريف أبي جعفر، فرماها الحنابلة بالآجُر، واشتبك الفريقان في مصادمات دامية[٩]، قتل

---

(١) والده هو القشيري الصوفي صاحب الرسالة المشهورة في التصوف. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٨٧).

(٢) تقع بالجانب الشرقي من بغداد. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣٠٥.

(٤) لم تكن الأشعرية يجهر بها على الملأ، قبل هذه الفتنة. (ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٣٩).

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٩.

(٦) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٥.

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٤٢.

(٨) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠٤، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٥.

(٩) ذكر ابن الجوزي: أن ابن القشيري دفع أموالاً لليهود ليسلموا، ويتقوى بهم، فقالت العامة: هذا إسلام الرشا لا اسلام التقى. وأسلم يهودي فحمله الأشاعرة على دابة، وهجموا به على بيت أبي جعفر الحنبلي. انظر: المنتظم ٨/ ٣٠٥.

فيها نحو عشرين شخصاً من الجانبين[١]، وجُرح آخرون[٢]. ثم أغلق الأشاعرة سوق النظامية[٣]، ونادوا المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر: يا منصور[٤]، للتشنيع على الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م) لأنه مال إلى ابن عمه أبي جعفر الحنبلي[٥]. ثم توقفت الفتنة عندما مالت الكفة لصالح الحنابلة. وفي ذلك يقول أبو الحسين ابن أبي يعلى: «.. فاشتد أزر أهل السُّنَّة[٦]، وقويت كلمتهم، وأوقعوا بأهل هذه البدعة[٧] دفعات، وكانت الغلبة لطائفتنا طائفة الحق. فلما أدحض الله تعالى مقالتهم، وكسر شوكتهم، عَظُم ذلك على رؤسائهم، وأجمعوا للهرب والخروج من بلدنا إلى خراسان»[٨].

وقد اتفقت طائفة من المؤرِّخين السلفيين على أن ابن القشيري هو السبب فيما حدث، حين نصر مذهب الأشعري، وذم الحنبلية[٩].

وذهب السبكي وابن عساكر إلى القول بأن ابن القشيري دعا إلى

---

(١) السبكي: المصدر السابق ٤/ ٢٣٤.
(٢) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٥.
(٣) يقع السوق بالجانب الشرقي من بغداد، وأظنه سوق الثلاثاء، القريب من المدرسة النظامية. انظر: أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢.
(٤) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٥.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) يقصد بأهل السُّنَّة، طائفة الحنبلية. أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٩.
(٧) يقصد الأشعرية.
(٨) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٩.
(٩) ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٢٥. وأبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٣٩، وابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣٠٥. والذهبي: المصدر السابق ١٩/ ٤٢٥، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٥.

التوحيد، وتقديس الله، وتنزيهه عن الحوادث[١]، فاستجاب له أهل التحقيق، دون الحنابلة[٢].

وذكر ابن الأثير وابن خلدون: أن الواعظ الأشعري نصر مذهب أبي الحسن الأشعري[٣]. في حين أكد السيوطي على أن القشيري أظهر معتقده، وحطّ على الحنابلة[٤]. وأما ابن تيمية فيرى أن أكثر الحق كان مع جماعة الفرَّائية[٥]، مع قليل من الباطل، وأن كثيراً من الباطل مع أصحاب القشيري مع بعض الحق[٦].

ويتبين مما سبق ذكره أن القشيري[٧] هو البادئ في هذه الفتنة، وأن موقف ابن تيمية منها هو أقرب إلى الصواب.

وعندما توقفت الفتنة تأهَّب شيخ الأشاعرة أبو إسحاق الشيرازي لمغادرة بغداد[٨]، فأسرع الخليفة المقتدي في طلبه، وبعث إليه يسكِّنه

---

(١) لاحظ كيف اعتبر عمل القشيري، عملاً مقدساً، ونسي أن ذلك يعد في نظر الحنابلة، ابتداعاً وتعدٍّ عليهم.

(٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٣١١، والسبكي: المصدر السابق ٤/ ٢٣٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ١٠/ ١٠٤، وابن خلدون: العبر، مج٣، القسم٥، ص٩٨٠.

(٤) السيوطي: المصدر السابق ص٤٤٢.

(٥) نسبة لأبي يعلى الفراء، فالجماعة التي تزعمها الشريف أبو جعفر، نسبت لأبي يعلى؛ لأنه أستاذ الشريف أبي جعفر رئيس الحنابلة في زمانه. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩).

(٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ٥٤.

(٧) يُذكر أن عبد الكريم القشيري والد أبي نصر هذا حدثت بسببه فتنة عظيمة في نيسابور، فكتب هو رسالة سمَّاها: شكاية أهل السُّنَّة، وأرسلها إلى الأقاليم انتصاراً للأشعرية. (السبكي: المصدر السابق ٣/ ٣٢٩).

(٨) ابن رجب: الذيل ١/ ٢٦.

خوفاً من السلطان السلجوقي، ونظام الملك، وأملاً في الإصلاح بينه وبين الحنابلة[1].

❀ أ ـ محاولة التصالح بين الحنبلية والأشعرية:

بعدما تراجع أبو إسحاق الشيرازي عن قرار خروجه من مدينة السلام، كلَّف المقتدي بأمر الله وزيره عميد الدولة ابن جهير[2] (ت٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) بجمع الطرفين المتخاصمين لإصلاح ذات البين، فأحضر من الحنابلة أبا جعفر وبعض أصحابه، ومن الأشاعرة أبا إسحاق الشيرازي، وأبا سعد الصوفي، وابن القشيري[3]. وعندما افتتح الوزير المجلس تكلم الشيرازي وقال لأبي جعفر: «أنا ذلك الذي كنت تعرفه وأنا شاب، وهذه كتبي في أصول الفقه أقول فيها خلافاً[4] للأشعرية[5]. فردَّ عليه الشريف أبو جعفر: «صدقت، إلا أنك لما كنت فقيراً لم تُظهر لنا ما في نفسك، فلما جاء الأعوان والسلطان، وخواجة

(١) ابن رجب: نفس المصدر ١/ ٢٧.

(٢) وزر للقائم والمقتدي، ثم عزل عن الوزارة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٣٦). بسب ميله إلى الحنابلة على حساب الأشاعرة. (نفس المصدر ١٢/ ١١٩). ثم عاد إليها بعدما انقلب على الحنابلة. وسيتبيَّن هذا قريباً.

(٣) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٨.

(٤) عند ابن كثير أن الشيرازي قال: «أنا ذلك الذي كنت تعرفه وأنا شاب، وهذه كتبي في الأصول، ما أقول فيها خلافاً للأشعرية» (البداية ١٢/ ١١٥). لكن سياق الكلام عندما رد أبو جعفر كما رواه ابن كثير ينتهي إلى ما انتهى إليه ابن رجب في إنكار الشيرازي موافقته للأشعري. (انظر: ابن كثير المصدر السابق ١٢/ ١١٥، وابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧). وما يؤيد ذلك أنه بعد انتهاء محاولة الصلح أشاع الحنابلة بين الناس أن الشيرازي تخلى عن معتقد الأشعري. (السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٣٤).

(٥) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٥.

بزك[1] ـ يعني: نظام الملك ـ وشبعت، أبديت ما كان مخفيّاً في نفسك»[2].

وبعد ذلك خاطب أبو جعفر أبا سعد الصوفي[3]، وابن القشيري[4]، ثم توجَّه إلى الوزير متسائلاً: كيف تصلح بيننا؟ وكيف يكون التفاهم؟ وهم يزعمون[5] أنا كفار، ونحن نعتقد أن من يخالفنا في الأصول كافر[6]. ثم ذكَّره أن الاعتقاد القادري ـ القائمي قد أُخرج للناس علانية، وقُرئ في الدواوين كلها، ووافق عليه العراقيون، والخراسانيون[7]، وجاء على مذهب أهل السُّنَّة والسلف[8]. وأراد بذلك تنبيهه إلى أنه لا مكان للأشعرية بينهم.

وعندما أنهى أبو جعفر كلامه، كتب ابن جهير إلى المقتدي ليخبره بما حدث، فجاءه رد الخليفة الذي شكر فيه الجميع[9]، ثم ختم الوزير

---

(١) يُستنتج من قول أبي جعفر أن الأشاعرة كانوا يخافون من إظهار مذهبهم، نظراً لضعفهم، فلما تغير حالهم، أظهروه علانية.

(٢) ابن رجب المصدر السابق ١/ ٢٧.

(٣) قام للشريف أبي جعفر وقبَّل رأسه، وتلطف به، فالتفت إليه أبو جعفر وقال له: «ما لك وهذا الشأن وأنت صاحب هوى ولست من أهل العلم، فتدخلت بين المتكلمين والفقهاء ودعوت للتعصب». (ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧).

(٤) تعرّف عليه الشريف أبو جعفر، وكان قد نهض له احتراماً، وقال: «هذا شاب ذكر ما في قلبه، ولم ينافق. فلو جاز الشكر لكان هو أولى به؛ لأنه لم يداهن، كما داهن من سبقه». (المصدر نفسه ١/ ٢٧).

(٥) عند ابن كثير أن أبا جعفر قال: «.. وكيف يقع بيننا صلح؟ ونحن نوجب ما نعتقده. وهم يحرمون ويكفرون» ١٢/ ١١٥.

(٦) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٥.

(٨) المصدر نفسه ١٢/ ١١٥.

(٩) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٥.

المجلس وتفرق الحاضرون على غير تفاهم، واستدعى المقتدي ابن عمه أبا جعفر إليه[1]، أملاً في وضع حدٍّ للفتنة.

أما الحنابلة، فقد أشاعوا بين الناس أنّ أبا إسحاق الشيرازي، ترك مذهب الأشعري عندما اعترف لأبي جعفر أنه ليس على معتقد الأشعرية، فغضب الشيرازي[2] غضباً شديداً، وبعث برسالة إلى نظام الملك[3] وقَّعها أعيان الأشاعرة، أخبروه فيها بما حدث لهم مع الحنابلة[4].

ب ـ كتاب الأشاعرة إلى نظام الملك (٤٦٩هـ/١٠٧٦م):

استنجد الأشاعرة بالوزير السلجوقي في كتابهم[5]، وشكوا إليه ما حلَّ بهم على يد الحنبلية[6] التي سبَّت الشافعي وأصحابه[7]، وشهَّرت

(١) بقي عنده بدار الخلافة، معتقلاً مكرماً معظماً. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/١١٩). ثم احتجب عن الزائرين، بعد مرض رجليه، وقيل أن خصومه دسوا له في مداسه سماً. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢).

(٢) ربما كان الشيرازي يأمل أن يكتم ما صرح به لأبي جعفر ليحافظ على مكانته بين أصحابه.

(٣) السبكي: المصدر السابق ٤/ ٢٣٤.

(٤) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٣١٠ وما بعدها.

(٥) يُعد ذلك الكتاب وثيقة تاريخية نادرة ذات أهمية كبيرة، سجلت موقف الأشاعرة الحقيقي من الفتنة والحنابلة. وقد احتفظ به ابن عساكر دون غيره من المؤرخين الذين تطرقوا إلى هذه الفتنة، وأمكن الاطلاع على مؤلفاتهم.

(٦) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٠ وما بعدها.

(٧) هذا تحامل على الحنابلة، فهم قد ترجموا للشافعي في طبقاتهم وأثنوا عليه. (راجع: طبقات الحنابلة، الجزء الأول) وقد أثنى عليه الإمام أحمد. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٢٥٣). والحنابلة فرقوا بين الشافعي والأشاعرة الذين ابتعدوا عن مذهبه (ابن الجوزي: المنتظم ٦/ ٣٥٩)، وهم يتولون الشوافع السلفيين وتعاونوا معهم في جماعة عبد الصمد. (سبق توثيق ذلك). وحتى =

بهم، ولعنتهم في الأسواق والمساجد[1].

وأبلغوه أن ابن القشيري حين حلَّ ببغداد، دعا إلى التوحيد، وقدّس الله ونزّهه عن الحوادث، فقبله أهل التحقيق، ورفضه الحنابلة المجسِّمة[2] الذين أخذوا بظاهر الأخبار، ولم يؤوِّلوها، واعتقدوا أن الله يتكلم بصوت كالرعد[3]. وقالوا له: إن الأشاعرة ليس لهم إلا الله ونظام الملك، ثم أطالوا في مدحه وحرَّضوه على زجر الحنابلة أهل الغواية، وحثُّوه على المبالغة في تأديبهم[4].

وعندما أنهوا كتابة الخطاب، وقَّعوا بخطوطهم أسفله، وكان الشيرازي أوَّلهم، فجدَّد شهادته لابن القشيري[5] بدعوته إلى مذهب أهل السُّنَّة[6]،

= كبار الشافعية في القرن (٤هـ) استنكفوا عن الانتساب للأشعري، ونهوا عن اتباعه، ولم يعدوه من أصحاب الشافعي. (ابن تيمية: نقض المنطق ص٣٢، وما بعدها). والحنابلة يتبنون ما جاء في كتاب التوحيد لابن خزيمة الشافعي (ابن كثير: البداية ١٢/٩٦). ويلاحظ أن الأشاعرة يصرُّون على أنهم على اعتقاد الشافعي وهذا غير صحيح، فالشافعي كان سلفياً ولم يكن أشعريّاً في اعتقاده. (ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٢٥٤).

(١) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١١.

(٢) نفس المصدر ص٣١٢.

(٣) وذكروا له أن الحنابلة يقولون: إن للمعبود قدماً، وأضراساً ولهاة وأنامل. (المصدر نفسه ص٣١٢). وعن عقيدة الحنابلة كما دوَّنوها في كتبهم، انظر: الفصل الرابع.

(٤) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٢.

(٥) فيما يخص مصير ابن القشيري، فقد استدعاه نظام الملك إليه، فأكرمه، ثم أمره بالعودة إلى بلاده. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٢٢١).

(٦) يعتقد ابن عقيل أن الأشاعرة موَّهوا على الناس حين ادعوا أنهم من أهل السُّنَّة وأصحاب الحق وتسمَّوا بذلك، وما أبعدهم عن تلك التسمية. (George Makdisi: Quatre Opuscules B.E.O - Tome: XXXIV- 1977 - p: 91).

وقمعه المبتدعة والمشبهة والقدرية[١]، ثم صرَّح أبو إسحاق لنظام المُلك أنه على الاعتقاد الذي نصره ابن القشيري، وبه يدين الله ﷻ[٢]. وحثَّه على ضرب المجسِّمة الذين يعادون الشافعي وأصحابه، وأخبره أن الحنابلة ماتوا غيظاً من المدرسة النظامية التي بناها ببغداد، وأفتى له بعدم جواز الصبر عليهم[٣]. وعندما أنهى الشيرازي كلامه جاء بعده باقي كبار الأشعرية[٤]، فكانت توقيعاتهم متشابهة[٥].

أما الحنابلة فاعتقدوا أن فقهاء الأشاعرة كتبوا إلى نظام الملك ليبطل مذهبهم، وأنهم ذكروا له أشياء عن معتقداتهم زوراً وبهتاناً[٦].

وقد أظهرت «مذكرة الأشاعرة» إلى الوزير ما كان يُكِنّه كاتبوها من كراهية للحنابلة. وبيَّنت مدى حرص الأشاعرة على حثِّ نظام الملك لقطع شأفة الحنبلية التي تعاونوا معها ذات يوم في تغيير المنكر[٧]. ثم أوضحت أخيراً أن الشيرازي لم يكن صادقاً في شهادته لأبي جعفر، حين أنكر موافقته للأشعري، ثم عاد وأكد لنظام الملك أنه يدين بالأشعرية التي نصرها أبو نصر بن القشيري.

---

(١) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٣.
(٢) قارن بين كلامه هذا وبين ما صرح به لأبي جعفر من قبل.
(٣) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٣.
(٤) منهم: الحسن بن محمد الطبري (ت٤٩٥هـ)، (نفس المصدر ص٣١٤)، ومحمد بن أحمد الشاشي (ت٥٠٧هـ)، (نفس المصدر ص٣١٥)، والحسين بن أحمد البغدادي (ت٤٧٧هـ). وعزيزي بن عبد الملك (ت٤٩٤هـ)، (نفس المصدر ص٣١٧).
(٥) انظر ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٤ وما بعدها.
(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٣٩.
(٧) سبق توثيق ذلك.

ج ـ رد نظام الملك على أبي إسحاق الشيرازي:

وصل كتاب نظام الملك[1] إلى الشيرازي عام (٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، ردّاً على خطابه إثر فتنة ابن القشيري، فذكّره فيه بأن سياسة الملك تقتضي العدل بين الناس، وليس الميل إلى مذهب دون آخر[2].

ونبّهه إلى أن المدرسة النظامية لم تُبن إلا للمصلحة، ولصيانة أهل العلم[3]، ولم تشيَّد للاختلاف وتفريق الكلمة[4]. ثم اعترف له بعدم قدرته على مقاومة مذهب الحنابلة الغالب على بغداد[5]. ثم ختم مذكَّرته بملاطفته قائلاً: «... والشيخ الإمام أبو إسحاق وفَّقه الله، رجلٌ سليم الصدر، سلس الانقياد، ويصغي إلى كل ما ينقل إليه، والسلام»[6].

ويتبين من هذا الخطاب أن نظام الملك، كان موضوعيّاً إلى حدٍّ كبير، فلم يسارع إلى تلبية ما طلبه منه أبو إسحاق وجماعته، وإنما ذكَّره أن دوره كحاكم يحتِّم عليه البعد عن الفتن، والدعوة إلى السِّلم، ثم

---

(١) احتفظ به ابن الجوزي في منتظمه ٨/ ٣١٢. ولم تحتفظ به المصادر الأخرى المتوفرة، غير أن ابن كثير ذكر ملخص رد نظام الملك بمعناه نقلاً عن ابن الجوزي. (البداية ١٢/ ١١٧). وفي المقابل فإن المصادر الأشعرية هي التي احتفظت بكتاب الأشاعرة إلى نظام الملك.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢.

(٣) يرى جورج مقدسي أن نظام الملك خصَّص المدرسة النظامية لدراسة الفقه الشافعي، غير أنه لم يغفل عن نشر مذهب الأشعري، فكان «يبعث بالمذهب الأشعري بين الحين والحين، ليدخل المدرسة من الباب الخلفي». (جورج مقدسي رعاة العلم، مج١٤، سنة (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٤).

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣١٢.

(٥) المصدر نفسه ٨/ ٣١٢.

(٦) المصدر نفسه ٨/ ٣١٢.

طيِّب خاطره ونبَّهه إلى أن لديه قابلية للتأثر بالغير، وهذا انتقاد منه لشخصية الشيرازي.

وعندما شاع رد نظام الملك بين الحنابلة، فرحوا به فرحاً شديداً، وتقوَّوا به على الأشاعرة[1]، الذين أصيبوا بخيبة أمل، فاندفعوا إلى مهاجمة الحنبلية من جديد[2].

٥ ـ فتنة بين الحنابلة وفقهاء المدرسة النظامية (٤٧٠هـ/١٠٧٧م)

بعد أيام من ورود خطاب نظام الملك نشبت فتنة بين الحنابلة وفقهاء المدرسة النظامية[3]، على إثر تكفير فقيه أشعري[4] للحنبلية، فتصدَّى له أتباعها ورمَوه بآجُرَّة[5]، فهرب والتجأ إلى أحد أسواق بغداد، واستنجد بأهله فأغاثوه[6]، فنشب القتال بين الطائفتين، وعمَّ النهب وكثرت الجراح، ولم يتوقف الصدام إلا بتدخل الجند[7]. فكانت الحصيلة قتل نحو عشرين شخصاً من الطرفين وجرح آخرين[8]، ونُقل

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢.

(٢) المصدر نفسه ٨/ ٣١٢.

(٣) ابن كثير: البداية ١٢/ ١١٧.

(٤) لم تذكر المصادر المتوفرة التي تطرقت لهذه الفتنة اسم الفقيه الذي هاجم الحنابلة. (انظر: ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢). و(ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٧). ويُذكر أن المدرسة النظامية كانت مخصَّصة، ـ آنذاك ـ للأشاعرة دون غيرهم من طوائف بغداد. (جورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، سنة (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٤).

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٢.

(٦) المصدر نفسه ٨/ ٣١٢.

(٧) المصدر نفسه ٨/ ٣١٢.

(٨) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٧.

المقتولون إلى الديوان، فرآهم القضاة والشهود، وكتبوا محضراً أرسلوه إلى نظام الملك، فجاء رده مرضياً للحنابلة، ثم أردفه بمكاتبات أخرى[١] لم تكن في صالحهم[٢]، بعدما أثر فيه الأشاعرة فمال إليهم[٣]، وجاءت ردوده تدعيماً لهم على حساب الحنبلية. ومما يؤيد ذلك أيضاً أنه ـ أي: نظام الملك ـ لم يتخذ إجراءً ضد الوزير عميد الدولة ابن جهير، حين لم يُخْفِ تعاطفه مع الحنابلة في فتنة ابن القشيري[٤] عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)، لكنه أمر الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م)، بعزله سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) عندما

---

(١) لم تُفصح المصادر المتوفرة، عن محتوى المذكرات التي تبودلت بين نظام الملك وأهل بغداد، واكتفت بالإشارة إليها باقتضاب، في سياق تعرضها لحوادث الفتنة، انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣١٣، وابن كثير: البداية ١٢/ ١١٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣١٩.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٣١٣.

(٣) ترى الباحثة أمينة البيطار أن نظام الملك مال إلى الأشعرية، بعد ما تبين له أنها أقدر من الحنبلية رغم كثرة أتباعها في بغداد ـ التي لم تقدر على مقاومة أوضاع البلد المتدهورة، لسببين هما: تعصبها الشديد على خصومها، واستخدامها للقوة في تصدِّيها للمعارضين لها، الأمر الذي زاد من عداء مخالفيها لها. (أمينة البيطار: المرجع السابق ص٢٧١).

والحقيقة أن الحنابلة لم يكونوا وحيدين في التعصب والعنف. فقد كانت طوائف أخرى في بغداد، لا تقل عنهم تعصباً وعنفاً كالشيعة ـ مثلاً ـ أما ميل الوزير السلجوقي نظام الملك إلى الأشعرية، فيعود إلى تأثير الأشاعرة فيه، بعدما كان رفض التدخل في قضايا المذاهب؛ لأنه رجل سياسة، وهذا ما صرح به في رسالته لأبي إسحٰق الشيرازي. ولا ننسى أن الأشاعرة أظهروا تعصباً شديداً وغريباً في في ذمهم للحنبلية وتأليب نظام المُلك عليها في خطابهم الذي أرسلوه إليه. فهو خطاب يقطر حقداً وتعصباً على القوم، وتضمن افتراءات كثيرة نسبوها إلى الحنابلة.

(٤) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧.

تمالأ على الشافعية[1].

ويتبيَّن من تتبُّع حوادث عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م، و٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) الدامية بين الحنابلة والأشاعرة، أن ما وقع بينهما أظهر ما تُكِنُّه كل طائفة للأخرى من عداء وكراهية، حتى انتهى بهما الأمر إلى الاقتتال والتكفير، وأذهب أمل التقارب والوفاق بين الفريقين اللذين تعاونا يوماً ما على تغيير المنكر[2]، وأبقى الصراع قائماً.

٦ ـ فتنة البكري مع الحنابلة
(٤٧٥هـ/١٠٨٢م)

بعد فتنة عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) لم تشر المصادر[3] إلى حدوث مواجهات دامية بين الحنابلة والأشاعرة، إلا ما كان من أمر أبي بكر البكري[4]، حين قدم إلى بغداد عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م)، ومعه كتاب من نظام الملك للتدريس، والتكلُّم بمذهب الأشعري[5]، فأكرمه ديوان الخلافة، وأغدق عليه الأموال والهدايا ولقَّبه عَلَم السُّنَّة[6].

وأثناء وجوده بمدينة السلام درَّس بالنظامية وفي أماكن أخرى، فكان يشتم الحنابلة ويستخف بهم، فحدث بينه وبينهم سباب

---

(١) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩، والذهبي: المصدر السابق ١٨/ ٣١٩.

(٢) حدث ذلك عام (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م)، وطالب الحنابلة والأشاعرة القائم بأمر الله، بإزالة المواخير، ومعاقبة الفساق. (ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٤).

(٣) التي أمكن الإطلاع عليها.

(٤) هو من أهل المغرب، كان عارفاً بمذهب الأشعري، هاجر إلى نظام الملك فأحسن إليه وارتاح له، وأجرى عليه الأموال. (ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ١٨٥).

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٣.

(٦) ابن النجار: المصدر السابق ٢/ ١٨٥.

وخصام[1]. وعندما أراد الوعظ في جامع المنصور[2]، الذي يُشرف عليه الحنابلة، اتصل بنقيب النقباء[3] وأبلغه رغبته في ذلك[4]. غير أن النقيب خاف من الحنابلة القاطنين بباب البصرة قبالة الجامع[5]، فجاء بالجند لحماية المسجد من الداخل والخارج، ثم أغلق كل أبوابه إلا الباب المقابل لحي الحنابلة[6]، ثم قال لهم: «لا يخرج منكم أحد يا أهل باب البصرة، أعيرونا الجامع نكفر فيه ساعة، ومن خرج فعلت به وصنعت»[7]. ثم أمر الخطيب بالتعجيل بخطبة الجمعة، فلما انقضت الصلاة جلس البكري في جمع قليل، فوعظ ومدح الإمام أحمد[8]، ثم قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وما كفر أحمد بن حنبل وإنما أصحابه[9]، ثم أنهى درسه وتمَّ له

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٣.

(٢) يقع بالجانب الغربي من بغداد داخل مدينة المنصور المدورة. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٣) لم أجده.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤.

(٥) يقع حي باب البصرة بجنوب جامع المنصور. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢).

(٦) ربما لمراقبة رد فعل الحنابلة من جهة، وإثارتهم من جهة أخرى.

(٧) ابن النجار: المصدر السابق ٢/ ١٨٥.

(٨) أثناء كلام البكري وصلته ثلاث حصوات. وبعدما انتهى الدرس، أخذ نقيب النقباء القائم على المسجد وقال له: من أين وصلت تلك الحجارة الصغيرة؟ فأخبره أن جماعة من الهاشميين تبطنوا السقف ففعلوا ذلك، وذكر له عشرة أشخاص بعضهم يقرب إلى نقيب الهاشميين، فأخذهم وعاقبهم. (ابن النجار: المصدر السابق ٢/ ١٨٥).

(٩) ذكر ابن الجوزي أن البكري كانت فيه حدة وطيش ولا خلاق له، إذ قال: إن الحنابلة يقولون: إن لله ذكراً، فرماه الله في ذلك العضو بالخبث فمات. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤).

ما أراد[1] بعدما كفَّر الحنابلة في الجامع الذي يشرفون عليه، فلم يقدروا على منعه، أو الرد عليه.

واتفق ذات يوم أن عبَر البكري إلى قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني (ت٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) بنهر القلائين[2]. فاعترضت جماعة من الفرَّائيين[3] على أصحابه، وحدث بينهم سباب وخصام[4]. وأما البكري فقد رجع واستنجد بالعميد ابن جهير[5]، فأرسل الوزير من حاصر بيوت بني الفراء، فنُهبت وأُخذ منها كتاب «الصفات»[6] للقاضي أبي يعلى[7]. وجعله ابن جهير بين يديه يقرأه على كل من يدخل عليه، يقول: «أيجوز لمن يكتب هذا أن يُحمى أو يُؤوى في بلد؟»[8] وهكذا تغير حال ابن جهير، فبعد ما اتُّهم بتحامله على الشافعية، وكان جزاؤه العزل عن الوزارة[9]، فقد عاد إليها لينصر الأشعرية، وينقلب على الحنبلية!!.

---

(١) ابن النجار: المصدر السابق ٢/ ١٨٥.

(٢) يقع بالجانب الغربي من بغداد إلى الجنوب من باب البصرة. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢) وأهله حنابلة.

(٣) نسبة للقاضي أبي يعلى الفراء، ولم يذكر ابن الجوزي البادئ في هذه الفتنة. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤). غير أن ابن النجار أشار إلى أن الحنابلة هم الذين تعرضوا لأصحاب البكري. (ذيل تاريخ بغداد ٢/ ١٨٥). وذلك هو الراجح بسبب ما تعرض له الحنابلة على يد الأشاعرة.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤.

(٥) كان قد عُزل من الوزارة عام (٤٧١هـ). (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩). ثم أعيد إليها وعزل مرة أخرى عام (٤٧٦هـ) (نفس المصدر ١٢/ ١٢٤).

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤.

(٧) سبق الحديث عن هذا الكتاب.

(٨) نفس المصدر ٩/ ٤.

(٩) انظر ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١١٩، والذهبي: المصدر السابق ١٨/ ٣٩٩، وابن خلدون: المصدر السابق مج٣، ٥/ ٩٨٥، وابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٤٨.

ويُلاحظ أن السلطة في بغداد سارعت إلى إكرام البكري، وتلبية طلباته، ومساعدته بالجند؛ لأن نظام الملك هو الذي أرسله، فسارعت إلى ذلك طمعاً في المكانة والمال[1]. وقد يكون الوزير السلجوقي بعث بالبكري خصِّيصاً إلى بغداد، للانتقام من الحنابلة الذين قهروا الأشاعرة، لذلك سمح له بالتحدث بمذهب الأشعري، وهو يعلم مدى معارضة الحنابلة لذلك[2]. سمح له بذلك بعدما وقع تحت تأثير علماء الأشعرية الذين حرَّضوه على قطع دابر الحنبلية[3]، وقد حمَّله ابن الجوزي، وابن العماد الحنبلي مسؤولية ما وقع في فتنة البكري[4].

ويتبين مما حدث تراجع نفوذ الحنابلة في الدولة بالنسبة لما كان عليه منذ أيام الخليفتين القادر بالله، والقائم بأمر الله، إلى فتنة ابن القشيري عام (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م)، وفي المقابل تقوت شوكة الأشعرية بدعم من السلطة، وبفضلها نالت من الحنبلية لأول مرة في تاريخها.

ولم تشر المصادر إلى وقوع مصادمات خطيرة بين الحنابلة والأشاعرة بعد فتنة البكري[5]، ومن أبرز ما جرى بينهما بعد وفاة نظام

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٩٣.

(٢) تذكّر ما قاله نظام الملك في رده الأول على أبي إسحٰق الشيرازي، عندما ذكّره أنه يرفض أن يكون عامل فتنة بين طوائف بغداد، وها هو الآن يبعث بالأشاعرة إلى بغداد لنصرة مذهبهم وهو يعلم مدى معارضة الحنابلة لذلك.

(٣) راجع ما قاله علماء الأشاعرة لنظام الملك في خطابهم الأول. ويُذكر أن البكري كان من المقربين لنظام الملك، ومن المتضلِّعين في مذهب الأشعري. (ابن النجار: المصدر السابق ٢/ ١٨٥). وأغلب الظن أنه أثر فيه تأثيراً كبيراً، لذلك أرسله إلى بغداد ومعه كتاب للتدريس بها على مذهب الأشعري.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤٣، وابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج٢، ٣/ ٣٥٣.

(٥) بناء على مراجعة المصادر المتوفرة التي تناولت حوادث الفترة بين عامي: (٤٧٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٨٢ ـ ١١٠٦م).

الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩١م) ما حدث سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م).

٧ ـ فتنة الغزنوي مع الحنابلة

قَدِم عيسى بن عبد الله الغزنوي الشافعي إلى بغداد عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م)[١]، ومكث بها أكثر من سنة، ثم غادرها[٢]. وأثناء وجوده بها، وقعت بينه وبين الحنابلة مصادمات، فوعظ ذات يوم بجامع المنصور، وأظهر مذهب الأشعري، فمال إليه بعض الحاضرين، واعترض عليه الحنابلة، فنشب عراك بين الفريقين داخل المسجد[٣]. ويبدو أن الشجار لم يخلف قتلى ولم يتطور إلى مشادَّات واسعة النطاق[٤].

ومر الغزنوي في أحد الأيام برباط الشيخ أبي سعد الصوفي[٥] وكان ذاهباً إلى بيته، فرجمه الحنابلة من مسجد ابن جردة، فهبَّ إليه أصحابه، والتفوا حوله لنصرته[٦]. وبعد هذه الحادثة توقفت أخباره، فلا يُعرف ما جرى له مع الحنابلة مدة بقائه ببغداد[٧]، كما يُجهل سبب مجيئه إليها، وهل دخلها بمحض إرادته، أو أُرسل إليها؟

وتُعد حوادث عام (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) آخر مواجهات الفريقين، التي

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٦٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٣١.

(٣) المصدر نفسه ٩/ ١٣١.

(٤) لأن المصدرين اللذين ذكرا الحادثة لم يفصِّلا في حوادثها. انظر: ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٣١، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٦٢.

(٥) يقع رباطه بالجانب الشرقي من بغداد. (أحمد سوسة: خارطة بغداد ص٢٥٣). وقد يكون الغزنوي هو الذي بنى رباط الغزنوي بالجانب الشرقي من بغداد. (نفس المرجع ص٢٥٢).

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٣١.

(٧) لم يتوسع ابن الجوزي، وابن كثير في أخبار الغزنوي، مدة وجوده ببغداد. (المنتظم ٩/ ١٣١، والبداية ١٢/ ١٦٢).

صرَّحت بها المصادر[1] عند نهاية القرن (الخامس الهجري/ ١١م). كما أن الفتن التي جرت بين الطائفتين في سنوات (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م و٤٩٥هـ/ ١١٠١م)، أثارها أشاعرة غرباء عن بغداد[2]، دخلوها لنصرة مذهبهم، في بلد غالبية أهله حنابلة[3]، أملاً في التمكين لمذهبهم، في عاصمة الخلافة. ولم يقتصر الصراع بين الجماعتين على المواجهات الدامية فحسب، وإنما اتخذ كذلك طابعاً دعائياً.

٨ ـ الدعايات المضادة بين الحنابلة والأشاعرة

حرص الطرفان المتخاصمان على تبادل الاتهامات، والتشنيع والتنكيت على بعضهما البعض، كوسيلة من وسائل الدعاية والتشهير لتحقيق مكاسب مذهبية، ومن أجل الغلبة والنفوذ، وإذلال الخصم[4]. من ذلك أن أبا المعالي منصور الجيلي الأشعري (ت٤٩٤/ ١١٠٠م)، كان مسؤولاً على باب الأزج[5] الذي يسكنه الحنابلة، فكان يحتقرهم ويستهزئ بهم[6]. فسمع ذات مرة رجلاً يطلب حماراً له ضائعاً، فقال: «يدخل باب الأزج، ويأخذ بيد من شاء»[7]. وقال يوماً لزميل له: «لو حلف إنسان أنه لا يرى إنساناً فرأى أهل باب الأزج لم يحنث»، فرد

---

(١) التي أمكن الاطلاع عليها.

(٢) كان أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) من بين هؤلاء الذين زاروا بغداد عام (٥٠٥هـ)، ودرس بالنظامية، ولم تحدث بسببه فتن مذهبية، بين الحنابلة والشافعية. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٦٩).

(٣) نفس المصدر ٨/ ٣١٢.

(٤) يدخل كل ذلك في إطار الصراع القائم بين الطائفتين.

(٥) باب الأزج محلة كبيرة، ذات أسواق عديدة، تقع بالجانب الشرقي من بغداد. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ١٦٨).

(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٦٠.

(٧) المصدر نفسه.

عليه رفيقه: «من عاشر قوماً أربعين يوماً فهو منهم»[1]. وحين توفي أبو المعالي سنة (٤٩٤هـ/ ١١٠٠م) فرح الحنابلة لموته فرحاً شديداً[2].

وأثناء وجود البكري في بغداد عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م)، كثيراً ما سابَّ الحنابلة وسابُّوه، وكفَّرهم وكفَّروه[3]. وكانوا يكتبون إليه بالعجائب[4] يسألونه عنها، فيستخف هو بهم أيضاً في الإجابة عنها[5]. وبلغ به تعصُّبه عليهم أنه أشاع عنهم أنهم يقولون: إن لله ذكَراً[6] - تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً -، وهذا افتراء مكشوف على القوم، تشهد على بطلانه مؤلفاتهم[7].

وقد حرص الأشاعرة في نزاعهم مع الحنابلة، على نعتهم بصفات قبيحة، ومستهجنة، ومنفِّرة لصرف الناس عنهم، وتأليب السلطة عليهم[8]. فهم عند الأشاعرة: رعاع، وحشوية[9]، وأوباش[10]،

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٧، وابن العماد الحنبلي: المصدرالسابق مج٢، ٣/ ٥٥٣.

(٤) لم يذكر ابن الجوزي أمثلة عن تلك العجائب، ولم يورد نماذج من ردود البكري على الحنابلة: المنتظم ٩/ ٤.

(٥) المصدر نفسه ٩/ ٤.

(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٤.

(٧) تشهد كتبهم المعتمدة، في مجال العقيدة، على كذب مثل هذه الافتراءات. انظر: الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٠٩ وما بعدها. والقاضي أبو يعلى المعتمد في أصول الدين ص٥١ وما بعدها. وابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٣٨.

(٨) راجع: الخطاب الذي أرسله الأشاعرة إلى نظام الملك. (ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٠ وما بعدها).

(٩) سبق تعريف هذا المصطلح.

(١٠) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٠.

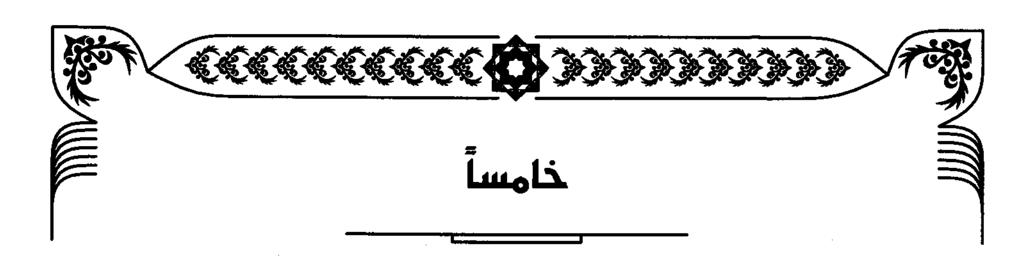
ومجسِّمة، وأهل غواية يستحقون الزجر والتأديب[١]، ادَّعوا أن المعبود ذو أضراس، ولهوات وأنامل[٢]، يتردد على حمار في صورة شاب أمرد، يتكلم بصوت كالرعد، وكصهيل الخيل[٣].

وفي المقابل وصف الحنابلة خصومهم الأشاعرة بالمبتدعة[٤]، والجهمية ليسوا من أهل السُّنَّة[٥]، تخلّوا عن اعتقاد الشافعي، ودانوا بمذهب أبي الحسن الأشعري[٦].

ويتبين من حوادث النزاع بين الطائفتين أن معظم الحنابلة خاصموا الأشاعرة ـ ما عدا أسرة التميميِّين ـ، بزعامة رؤسائهم كأبي محمد البربهاري، والقاضي أبي يعلى، والشريف أبي جعفر، فأدى ذلك إلى تصدع وحدة أهل السُّنَّة، وإضعاف قوتهم، وإلى تأخير انتشار الأشعرية[٧]. لكن الحنابلة تمكَّنوا من الحفاظ على تماسك جماعتهم في الوقت الذي خاصموا فيه طوائف أخرى، وفقهاء بارزين.



(١) ابن عساكر: نفس المصدر ص٣١٢.
(٢) نفس المصدر ص٣١١.
(٣) نفس المصدر ص٣١٢.
(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٩.
(٥) George Makdisi: Quatre Opuscules - B - E - O - Tome: XXXIV - 1977 - p: 91.
(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٥٩.
(٧) ولتر باتون: المرجع السابق تذييل المترجم ص٢٧٣.



خامساً

الخلاف بين الحنابلة وابن جرير الطبري

يرجع الخلاف بين الحنابلة، وابن جرير الطبري[1] (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، إلى النصف الثاني من القرن (الثالث الهجري/ ٩م)[2]، حين أنكروا عليه ثلاثة أمور هي: أنكروا عليه عدم ذكر الإمام أحمد من بين الفقهاء في كتابه «اختلاف الفقهاء»[3].

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد عام (٢٢٤هـ)، وعاش ببغداد، وتوفي بها، وألف كتباً عديدة، في مختلف العلوم الشرعية، وأشهرها: «جمع البيان عن تأويل آي القرآن»، و«تاريخ الأمم والملوك». (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٥). وعبد العزيز سالم التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، (١٩٨٦م)، ص١٢٦، ٣١٠، ٣١١).

(٢) لم تحدد المصادر المتوفرة سنة بداية الخلاف بين الطبري والحنابلة، ولم تذكر إلا حوادث متفرقة بين عامي: (٣٠٩ ـ ٣١٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٢٢م). لكن الخلاف يعود إلى قبل ذلك بكثير؛ لأن الحنابلة نقموا على الطبري عندما ألف كتابه: «اختلاف الفقهاء». (ابن الأثير: الكامل ٦/ ١٧٠، ١٧١). وهو أول كتاب ألّفه الطبري، وكان يفضله عن باقي كتبه. (ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٥٧)، وبما أن الطبري ولد عام (٢٢٤ هجرية/ ٨٣٨م)، فإنه يكون قد بدأ التأليف في الثلث الأخير من القرن (الثالث الهجري) على أبعد تقدير. وكان من بين الذين نقموا عليه أبو بكر محمد بن داود الظاهري (ت٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٦). وكان يؤلِّب عليه الحنابلة. (المصدر نفسه ١١/ ١٤٦). وذلك يعني: أن الخلاف يعود إلى قبل نهاية القرن (الثالث الهجري/ ٩م).

(٣) وُجد هذا الكتاب بعد وفاة الطبري، مدفوناً في التراب. (ياقوت: المصدر =

وسألوه عن حديث إجلاس الرسول ﷺ على العرش فأنكره[1]، فاتَّهموه بالإلحاد[2] وقذفوه بمحابرهم[3].

ورمَوه بالتشيع؛ لأنه أجاز المسح على القدمين في الوضوء، ولم يوجب غسلهما[4]، ولأنه ألَّف كتاباً في غدير خم[5].

وأما لويس ماسينيون فيرى أن الحنابلة انقلبوا على الطبري لوقوفه بجانب الوزير علي بن عيسى، حين أنكر على الحنابلة مشاغبتهم لتخليص الحلاج من القتل[6]. وهذا لا يصح؛ لأنه مُخالف للواقع التاريخي الثابت، إذ يعود الخصام بين الحنابلة والطبري إلى ما قبل مقتل الحلاج بسنوات[7]، كما أن المصادر تطرقت لأسباب النزاع ولم تذكر ما ذهب إليه ماسينيون[8].

ثم انتهى الأمر بالحنابلة إلى مهاجمة ابن جرير الطبري داخل المسجد، وإجباره على لزوم بيته[9]، فتدخلت الشرطة لحمايته وتفريق

= السابق ١٨/ ٥٧). وقد عثر عليه حديثاً ونشره المستشرق فريدريك كرن، طبعته دار الكتب العلمية بيروت.

(١) ثم أنشد يقول: سبحان من ليس له أنيس، ولا له في عرشه جليس. (ياقوت: المصدر السابق ١٨/ ٥٧).

(٢) مسكويه: المصدر السابق ١/ ٨٥، وابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٤٦.

(٣) ياقوت: المصدر السابق ١٨/ ٥٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ٦/ ١٧٢.

(٥) الطبري: اختلاف الفقهاء، حققه: فريدريك كرن، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ، مقدمة المحقق ص١٤.

(٦) عبد الرحمٰن بدوي: المرجع السابق ص٧٦.

(٧) انظر: الهامش ٢، ص٢٢٩.

(٨) بناء على المصادر المتوفرة.

(٩) يقال: إن الطبري كتب على بابه عندما أراد الدخول:

سبحان من ليس له أنيس ... ولا له على عرشه جليس =

المحاصرين لداره[١].

وقد حاول الطبري وضعَ حدٍّ للخلاف[٢]، فكتب رسالة اعتذر فيها للحنابلة، وصوَّب اعتقاد إمامهم[٣]. لكن محاولته هذه لم تحقق هدفها، إذ رفع أبو بكر ابن أبي داود السجستاني (ت٣١٦هـ/٩٢٨م) إلى نصر

= وعندما جاءت الشرطة وأزالت البيت، كتب أحد أصحاب الحديث في ذلك المكان الأبيات التالية:

لأحمد منزل لا شك عالي	إذا وافى إلى الرحمٰن وافد
فيدنيه ويقعده كريماً	على رغم لهم في أنف حاسد
على عرش يغلفه بطيب	على الأكباد من باغ وعاند
له هذا المقام الفرد حقاً	كذلك رواه ليث عن مجاهد

ويُذكر أن السبكي أنكر أن يكون في مقدور الحنابلة إلزام الطبري بيته، وإنما هو الذي ترفع عن هؤلاء الأراذل. (تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٥). ويلاحظ عليه أنه لم يعتمد فيما قرره على أخبار تاريخية، وإنما اعتمد على التخمين والاستنتاج، في حين صرَّحت المصادر بدور الحنابلة النشط في تأليب العامة، وبعددهم الكبير في بغداد. (ياقوت الحموي: المصدر السابق ١٨/ ٥٧). خاصة وأن السبكي لا يخفى عداءه ومعارضته للحنابلة. (IBN Taimiya: op cit - p: 13).

(١) ياقوت الحموي: المصدر السابق ١٨/ ٥٧، ٥٨.

(٢) اختلف المؤرخون في تحديد من المعتدي على الطبري، قال ابن الجوزي: إن العامة هي التي نقمت عليه. (المنتظم ٦/ ١٧٢). واتفق أبو الفداء وابن الأثير على أن العوام تعاونوا مع الحنابلة في التعرض للطبري. (المختصر مج١، ٣/ ٩٠، والكامل ٦/ ١٧١). وحمّل ياقوت الحموي الحنابلة وأهل الحديث مسؤولية ما حدث له. (معجم الأدباء ١٨/ ٥٧، ٥٨) وأكد ابن كثير على أن جماعة من رعاع الحنابلة تألبوا عليه. (البداية ١١/ ١٤٦). وأما السيوطي فقال: «فثارت عليه بغداد» (السيوطي: تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، حقّقه: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، (١٩٨٢م)، ص١٦١).

(٣) ياقوت الحموي: المصدر السابق ١٨/ ٥٩.

الحاجب[1] (ت٣١٦هـ/ ٩٢٨م) أشياء أنكرها على الطبري، منها: أنه يفسر قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] بالنعمتين مسايرة للجهمية[2]. وأنه روى أن روح النبي عليه الصلاة والسلام حين خرجت سالت على كفِّ علي بن أبي طالب، فحساها[3]. فكتب الطبري إلى نصر الحاجب ردّاً[4] أنكر فيه اتباعه للجهمية، ووضَّح أن عليّاً مسح بروح الرسول ﷺ وجهه، وليس حساها[5]، ثم هاجم فيه الحنابلة ووصفهم بالعصابة الخسيسة[6].

وفي عام (٣٠٩هـ/ ٩٢١م) تدخَّل الوزير علي بن عيسى وأحضر الطبري إلى داره، لمناظرة الحنابلة فيما نقموه عليه، فلم يحضروا اللقاء[7]. وقد سكتت المصادر عن سبب غيابهم[8]، وقد يكون الدافع هو أن الوزير صديق[9] للطبري وخصم عنيد لهم[10].

---

(١) كان حاجباً للمقتدر، ويعد من خيار الأمراء ديناً وعقلاً. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٥٩).

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ١٧٢.

(٣) المصدر نفسه ٦/ ١٧٢.

(٤) لم يحتفظ ابن الجوزي بالجواب كاملاً، كما فعل في الاعتقاد القادري، وجواب نظام الملك. أما المصادر الأخرى فلم تذكر حتى ما أورده ابن الجوزي، وليته احتفظ بالرد كاملاً، فهو وثيقة تاريخية هامة.

(٥) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ١٧٢.

(٦) فرد عليه ابن الجوزي بقوله: «.. وهذا قبيح منه؛ لأنه كان ينبغي أن يخاصم من خاصمه، وأما أن يذم طائفته وهو يدري إلى من تنتسب، فغاية في القبح». (ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ١٧٢).

(٧) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٣٢، ونفس المصدر ٦/ ١٥٩.

(٨) المصادر التي أمكن الاطلاع عليها.

(٩) عبد الرحمٰن بدوي: شخصيات قلقة ص٧٦.

(١٠) كان قد هدم لهم مسجداً أقاموه ببغداد، كما سبق أن بيناه.

وقد استمر الخلاف بين الطرفين إلى حين وفاة ابن جرير الطبري عام (٣١٠هـ/ ٩٢٢م). إذ منع الحنابلة دفنه نهاراً، فلم يوارَ التراب إلا ليلاً[١].

واستنتاجاً مما ذكرناه يتبين منه أن الطبري لم يُنصف الإمام أحمد بن حنبل عندما ادَّعى أنه محدِّث وليس بفقيه[٢]؛ لأن الثابت هو أن أحمد بن حنبل تلقى فقه الرأي والأثر[٣]، وكانت له اختيارات كثيرة[٤] مكَّنته من إرساء قواعد مذهب سُنِّي حنبلي[٥].

كما أن الحنابلة الذين تعرّضوا للطبري لم يعرفوا للرجل فضله، فشتموه، وآذوه، ولم يحترموا فيه شيبته وعلمه، وهو كبير مؤرِّخي بغداد ومفسِّريها[٦].

---

(١) مسكويه: المصدر السابق ١/ ٨٥.

(٢) يقول ابن عقيل عن تلك الشبهة: «ومن عجيب ما سمعته من هؤلاء الأحداث والجهال، أنهم يقولون: أحمد ليس بفقيه، لكنه محدِّث. وهذه غاية الجهل؛ لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها على الأحاديث، لا يعرفها أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما لا يراه لأحد منهم»، ثم ذكر أمثلة على ذلك وقال: «وما يقصد هذا المبتدع، وقد تمزق فؤاده من خمود كلمته وانتشار علم أحمد» (ابن رجب: المصدر السابق، ط. دمشق، ١/ ١٨٣). ويرى المستشرق يوسف شاخت أن أحمد أراد أن يكون فقيهاً؛ لأنه كان يعلم مذهباً فقهيّاً مفصَّلاً، لا يقتصر على شرح الأحاديث، وقد وضع أسس مذهبه الفقهي في كتابه المسند. (يوسف شاخت: في تاريخ الفقه الإسلامي، مجلة المشرق، العدد ٢، مج٣٣، (١٩٣٥م)، ص٣٦٧).

(٣) سبق توثيق ذلك.

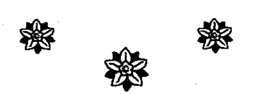
(٤) ابن رجب: المصدر السابق، ط. دمشق، ١/ ١٨٩.

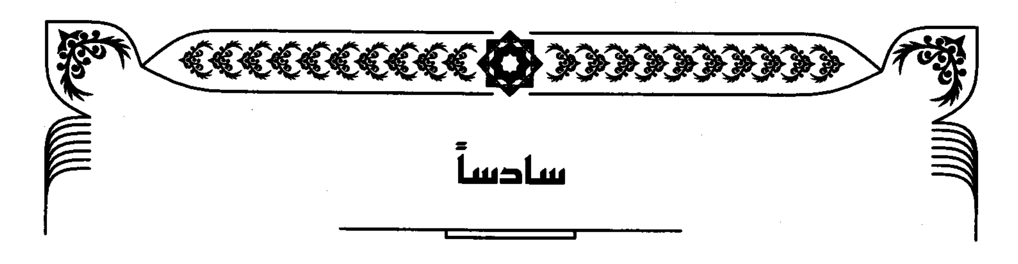
(٥) انظر أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٦، ٢/ ٢٨٦.

(٦) عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص١٧٦، محمد ماهر حمادة: المرجع السابق ص١٢٦، ٣١٠، ٣١١.

ويؤخذ على الطبري أيضاً عدم ترفُّعه عن العوام الناقمين عليه، إذ بادلهم الشتائم والتُّهم، فلو تنزَّه عن ذلك لكان أحسن له.

وقد بيَّنت حوداث النزاع بين الطرفين، مدى قدرة الحنابلة على استقطاب الناس حولهم، وتوجيههم لنصرة مذهبهم في مطلع القرن (الرابع الهجري/ ١٠م). مما يشهد على أن الحركة الحنبلية كانت ظاهرة فاعلة في الواقع عند نهاية القرن (الثالث الهجري ومطلع الذي بعده).





سادساً

موقف الحنابلة من أبي الحسن الأشعري

تخلَّى أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) عن الاعتزال[١]، واعتنق مذهب أهل السُّنَّة قبل دخوله بغداد[٢]، فلما أتاها واستقر بها، أعلن انتسابه إلى الإمام أحمد بن حنبل[٣]، واقترب من الحنابلة[٤]. غير أن جماعة منهم رفضته بحجة أنه ما يزال على عقيدة المعتزلة[٥]. ويُروى أنه عندما اتصل بأبي محمد البربهاري وأخبره أنه رد على المعتزلة واليهود والنصارى والمجوس[٦]، أعرض عنه، فانصرف وألَّف كتاب

---

(١) كان الأشعري مقيماً بالبصرة، وقد ظل على الاعتزال مدة أربعين عاماً، وكان يرسل بدعاته إلى الأقاليم لنشر مذهبه، منهم: ابن الضراب، أرسله إلى بغداد، فبقي بها إلى حين وفاته، غير أنه لم يتمكن من نشر مذهبه خوفاً من الحنابلة. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، حققه محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ١٢٩/٤ وما بعدها. وأبو علي الحسن الأهوازي: مثالب الأشعري، نشره ميشال آلارد: Michel ALLard: un pamphlet B.E.O.Tome: XXIII - 1970 p: 161.

(٢) IBID - BEO - Tome - XXIII - 1970 - p: 153.

(٣) ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ١٠/٢.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢٢٨/٣.

(٥) علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ط٢، مصر دار الجامعة المصرية، (١٩٧٤م)، ص٢٠٢.

(٦) Michel ALLard: OP cit - B.E.O.Tome: XXIII - 1970 p: 159.

«الإبانة عن أصول الديانة»، ثم عاد وعرضه على الحنابلة الناقمين عليه، فلم يقبلوه منه وهجروه[1] لأنهم أنكروا عليه تعاطيه لعلم الكلام[2]، واستحسانه الخوض فيه[3]، ومخالفته لمذهب أهل السُّنَّة[4].

ورُوي أن الطائفة الحنبلية ـ التي تبغض الأشعري ـ حاولت قتله، فاختفى عن الأنظار واستجار ببيت أبي الحسن التميمي[5]، وأقام صداقة مع التميميين استمرَّت بعده مع أصحابه[6]، الأمر الذي جعل ابن عساكر يشك فيما رواه أبو علي الحسن الأهوازي عن العلاقة السيئة بين الحنابلة والأشعري[7]. لكن حقيقة المسألة أن صحبة الأشعري لم تكن مع الحنابلة عامة، وإنما اقتصرت على التميميين فقط[8]، وقابلها عداء شديد من رئيس الحنابلة البربهاري وجماعته،

---

(١) ذكر الحسن الأهوازي أن الأشعري حين هجره الحنابلة، اعتزل الناس، فلم يظهر حتى غادر بغداد، فتوفي خارجها (IBID: B.E.O. Tome: XXIII - 1970 p: 159)، وهذا الذي ذكره الأهوازي يخالف ما هو معروف من أن الأشعري توفي ببغداد، ودفن بمقبرة الإمام أحمد. (ابن عساكر: المصدر السابق ص٣٩١). وقد أيد الباحث أبو ياسر الردادي ما ذهب إليه ابن عساكر، غير أنه أشار كذلك إلى أن كتاب ابن عساكر فيه كذلك أخبار غير صحيحة. (أبو ياسر الردادي: شرح السُّنَّة ص٢٢، ٢٣).

(٢) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٢.
و.Henri Laoust Le Hanbalisme - VoL: 1 - 1959 - p: 82

(٣) من مؤلفات الأشعري: استحسان الخوض في الكلام. (خير الدين الزركلي: المرجع السابق ٥/ ٦٩).

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.

(٥) المصدر نفسه ٦/ ٣٣٢.

(٦) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣٩٠.

(٧) المصدر نفسه ص٣٩٠.

(٨) سبب ميل التميميِّين إلى الأشعري، ومتقدِّمي أصحابه، موافقتهم له في أصول الاعتقاد. (ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ٢/ ٥٦).

انتهى إلى محاولة قتله[١].

ومن جهة أخرى اختلفت الآراء في تحديد موقف الحنابلة من أبي الحسن الأشعري، فذكر البعض أن معظمهم يكفِّرونه[٢]. وذهب آخرون إلى القول بأن طائفة منهم هي التي ضلَّلته[٣]، وشتمته[٤]، وذمَّته[٥]، وبدَّعته[٦]. غير أنه وُجد منهم[٧]، من جعله من الموافقين للسُّنَّة في العموم[٨]. ومن ثَمَّ فليس من الإنصاف القول بأن كل الحنابلة يكفِّرون الأشعري، كما أنه ليس صحيحاً ما ذكره ابن عساكر من أن أبا علي

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.

(٢) انظر: أبو الفداء: المصدر السابق مج١، ٣/ ١١٣، وعبد الشمالي: دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها، ط٤، بيروت، دار صادر، (١٩٦٥م) ص٢٠٦، وعبد الصاحب الدجيلي: أعلام العرب في العلوم والفنون، ط٢، النجف، مطبعة النعمان، (١٩٦٦م)، ١/ ١٦١.

(٣) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، ط١، بيروت، دار المعرفة، (١٩٧٠م)، ١/ ٤١٠.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٦.

(٥) قرنوه في الذم بابن كُلاب (ت٢٤٠هـ)، وبابن كرَّام (٢٥٥هـ). (ابن تيمية: نقض المنطق ص١٢).

(٦) انظر: ابن تيمية موافقة صريح المعقول ٢/ ١١، ومجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٨، ونقض المنطق ص١٢.

(٧) كان غلام الخلال الحنبلي يعد الأشعري من بين متكلمة أصحابه. (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ١٦٧). ويرى ابن تيمية أن الأشعري: «أقرب إلى أصول أحمد من ابن عقيل وأتبع لها، فإنه كلما كان عهد الإنسان بالسلف أقرب، كان أعلم بالمعقول والمنقول». (نفس المصدر ٣/ ٢٢٨). وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فقد يحدث العكس تماماً، وقد عرف التاريخ شخصيات عاشت في صدر الإسلام وبعده، يحكم الحنابلة بضلالها، فما موقفهم من ابن سبأ، والجهم بن صفوان، وأئمة المعتزلة؟ فلا شك أنهم يكفرونهم.

(٨) ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ٢/ ١٠.

الحسن الأهوازي انفرد: «برمي الأشعري بالكفر»[1].

وهناك مسألة أخرى، تباينت حولها الآراء وهي: هل كان الأشعري صادقاً في انتسابه إلى الإمام أحمد، أم تظاهر به ليستميل الحنابلة ويدفع عن نفسه أذاهم؟.

يبدو أن الحنابلة في معظمهم يُكذّبون أبا الحسن الأشعري[2] في دعواه متابعة إمامهم[3]، بحجَّة أنه خالف مذهب السلف[4]، وجاء بمقالة «خبطت عقائد الناس، وأججت الفتن المتصلة»[5] غير أنه وجد منهم من صدَّقه في تبنِّيه لمعتقد أحمد بن حنبل وجعله من متكلِّمة أهل السُّنَّة[6].

ويرى ابن تيمية أن الأشعري كان صادقاً فيما صرَّح به من انتسابه

---

(١) ابن عساكر: المصدر السابق ص٤٠٧.

(٢) من العلماء الذين اشتدوا في نقد الأشعري، المقبلي اليماني في كتابه: «العلم الشامخ»، وقد شنَّع على السبكي حين جعل معرفة الأشعري من قسم ما ينفع معرفته ويضر جهله، ولم يجعله من قسم مما ينفع علمه، ولا يضر جهله. (العلم الشامخ ص٢٢٣). وانتقد المقبلي أبا الحسن الأشعري في مسائل عديدة منها: أنه ينفي التحسين والتقبيح مطلقاً. (نفس المرجع ص٢٢٦). وإقراره بالتكليف بما لا يطاق. (نفس المرجع ص٢٢٤). واعترض السفاريني الحنبلي، على الأشعري في موقفه من مسألة الكسب فيرى أن موقفه ينتهي إلى إنكار الأسباب وقدرة الإنسان على الفعل، فيؤدي ذلك إلى الجبر، حتى قيل: «ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري» (السفاريني، لواقح الأنوار ٦/ ٦٢، ٦٣).

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنَّة النبوية ٢/ ١٦٥.

(٤) حين قال: إن القرآن ليس هو كلام الله على الحقيقة؛ لأن كلامه «صفة قائمة بذاته، ما تزال، ولا هو مما يسمع». (ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٤/ ١٦٧.

إلى أحمد وأصحاب الحديث في مؤلَّفاته: الإبانة، والموجز، والمقالات[١]. بيد أنه خالف كبار الأئمة في مسألة الصفات الاختيارية، حين نفى قيامها بمشيئة الله وقدرته[٢]، فوافق بذلك السلف في إثباتها مطلقاً، واتفق مع المعتزلة[٣] والجهمية في إنكار تعلُّقها بمشيئة الخالق وقدرته، تأثراً بهم[٤].

وتعتقد جماعة من الأشاعرة[٥] أن إمامهم الأشعري،ساير الحنابلة في قضايا الصفات، ليس إيماناً بها، وإنما ليداريهم بها[٦].

وأما الكتَّاب المعاصرون، فيرى بعضهم أن أبا الحسن انتسب إلى الإمام أحمد[٧]، ....

---

(١) ابن تيمية: نفس المصدر ٦/ ٣٥٩، و١١/ ٢٠٤، موافقة صريح المعقول ٢/ ١٠.

(٢) ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ٢/ ١٠.

(٣) يرى محمد جلال موسى أن تطرف الحنابلة هو الذي جعل متأخِّري الأشاعرة يتوسَّعون في استخدام العقل ويقتربون من المعتزلة. (نشأة الأشعرية ص٢٠٢). ويقول أحمد أمين عن مذهب الأشعري: «فنحن إذا أنصفنا قلنا: أن مذهبه، هو مذهب المعتزلة، معدَّلاً في بعض جوانبه»؛ لأنه لم يهضم معتقد السلف هضماً جيداً. (ظهر الإسلام ٤/ ٦٥).

(٤) ابن تيمية المصدر السابق ٢/ ١٠.

(٥) منهم أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)، الذي ذكر أن شيخه الأشعري، كان يوافق الحنابلة في مسائل لا يعتقدها ليتقيهم بها. (Michel ALLard: un panphlet: p: 159).

(٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٠٤، و IDEM - p: 159.

(٧) يرى ميشال آلارد أن الحنابلة لم يقبلوا الأشعري، ورفضوا انتسابه إلى الإمام أحمد؛ لأنهم رفضوا منهجه العقلي في الدفاع عن الإسلام ضد المعتزلة Michel ALLard: Enquoi Consiste L'opposition Faite A, AL-ASHARI. Par ses C'ONTEMPORAINS Hanbalites? R - E - 1VOL: XXV. Cahiern 1 - 1961 - p: 105. =

ليستميل الحنابلة ويتقي شرهم[1]. في حين ذهب هنري لاوست إلى القول بأن الأشعري أظهر ولاءه لأحمد بن حنبل، سعياً منه لإيجاد صيغة توفيقية بين المتمسِّكين بحرفية النص والمعتزلة[2].

والراجح أن الأشعري كان صادقاً في انتسابه إلى الإمام أحمد، واعتناقه لمذهبه، لكنه لم يقدر على التخلص من آثار الاعتزال في فكره، رغم تصريحاته المتكررة بتمسُّكه بعقيدة السلف[3].

ويعتمد المعتقدون بسُنيَّة الأشعري على كتابه «الإبانة في أصول الديانة» في تقرير مذهبه السلفي[4]، بدعوى أنه آخر مؤلفاته، فهل كان حقّاً آخر مصنفاته؟ أم هو من أوائل مؤلفات مرحلة التحول عن الاعتزال؟.

فالمتقدِّمون من الأشاعرة وبعض المؤرخين يرون أن الأشعري ختم

= ويرى أبو الحسن الندوي، أن الحنابلة المتشددين أخذوا على الأشعري خوضه في علم الكلام، واستخدامه المصطلحات الفلسفية والمقدمات العقلية في المسائل النقلية، فرأوا في ذلك ضرباً من الزيغ والضلال. (أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة ص١٥٤).

واستنكر محمد سيد بركات معارضة الحنابلة للأشعري لخوضه في الكلام، وتساءل: ألم يبحث الصحابة والتابعون في أشياء لم يرد فيها نص؟. وبما أنه ليس كل ما لم يبحثه الرسول ﷺ بدعة وضلالة، فلا حرج من استخدام الأشعري الكلام لنصرة الدين. (بركات محمد سيد: أبو الحسن الأشعري ومنهجه الوسطي، مجلة المسلم المعاصر، فصلية تصدر ببيروت، العدد ٤٤ السنة (الحادية عشر ـ شوال ذو القعدة ـ ذو الحجة ١٤٠٥هـ)، ص٨٥).

(١) انظر: علي أبو ريان: المرجع السابق ص٢٠٢، وأبو الحسن الأشعري، اللمع، مقدمة المحقق ص٧، وابن عساكر: المصدر السابق هامش ص١١٨.

(٢) IBN Taimiya: op CIT - p: 12.

(٣) ابن تيمية منهاج السُّنَّة النبوية ٢/ ١٦٥.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب مج١، ٢/ ٣٠٣.

كتبه بالإبانة[1]. ووافقتهم طائفة من السلفيين والمستشرقين، وجعلت كتاب «اللُّمع»[2] من إنتاج الأشعري في المرحلة ما قبل الأخيرة[3]. في حين ترجَّح لدى جماعة من الكتَّاب المُحدثين أن كتاب «اللُّمع» هو آخر ما ألَّفه أبو الحسن الأشعري[4].

والراجح عندي أن كتاب «الإبانة» هو آخر كتب الأشعري، لإشارة المصادر القريبة من عصره إلى ذلك[5]، ولأن أبا الحسن قبل اتصاله بالحنابلة صنَّف عدة مؤلفات للرد على المعتزلة، وأهل الذمة[6]، ولم يصنف «الإبانة» إلا بعدما عاد إليهم للمرة الثانية، فمن الممكن أن يكون كتاب «اللمع» من مصنفاته التي سبقت اتصاله بهم.

كما أن الصبغة العقلية التي تميز بها «اللمع»[7]، قد توحي أنه كُتب

---

(١) انظر: ابن تيمية، مجموعة الرسائل الكبرى ١/٤٤٨، ومجموع الفتاوى ٦/٥٣٥، ومحمد علي حيدر آبادي: الرسائل السبع ـ الرسالة السادسة، الضميمة الثانية للإبانة ص٥٤، وابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج١، ٢/٣٠٣.

(٢) يرى محمود صبحي أن اللمع فيه آراء لا تتفق مع أفكار الإمام أحمد، لذلك اتهمه الحنابلة بعدم التخلص من بقايا الاعتزال في فكره. (محمود صبحي: في علم الكلام، ٢/٥٦، ٥٧). في حين يرى محمود غرابة أن الأشعري لم يكن متناقضاً في «اللمع»، مع ما قرره في «الإبانة»، لكنه سكت عما ذكره في الإبانة. (الأشعري: المصدر السابق مقدمة المحقق ص٨).

(٣) نفس المصدر ص٦، ٧.

(٤) انظر: أبو الحسن الندوي: المرجع السابق ص١٥٣، وجلال محمد موسى: نشأة الأشعرية ص١٩٥، ومحمود صبحي: المرجع السابق ٢/٥٦، ٥٧، وابن عساكر: المصدر السابق هامش ص٣٩٢. والأشعري: المصدر السابق مقدمة المحقق ص٨.

(٥) انظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٦/٣٥٩. ومحمد عاتب حيدر آبادي: المرجع السابق ص٥٤، وابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج١، ٢/٣٠٣.

(٦) Michel ALLard: un pamphlet B.E.O - TOME: XXIII - 1970 - p: 159.

(٧) الأشعري: المصدر السابق ص٥٤.

في فترة انهماكه للرد على المعتزلة، قبل عرض أعماله على أبي محمد البربهاري، ومما يؤيد ذلك أنه لم ينتسب فيه إلى الإمام أحمد[١]، عكس ما أعلنه في الإبانة. وليس من مصلحته أن يتخلَّى عن اتباعه لأحمد بن حنبل وقد أمضى خاتمة حياته في كنف أسرة حنبلية محتمياً بها، خوفاً من القتل[٢].

واستمرت الطائفة الحنبلية التي تبغضه في عدائها له حتى بعد وفاته[٣]. فحاولت نبش قبره وطمسه نهائيّاً أكثر من مرة، لكن تدخل الشرطة حال دون تمكُّنها من هدمه[٤]. وذات يوم مرَّت جماعة من الحنابلة بضريح أبي الحسن الأشعري، فتخلَّف أحد أفرادها، وبال على قبره، فعاتبه فقيه سمع بفعلته، فردَّ عليه: «لو قدرت على عظامه لنبشتها وأحرقتها»[٥]. وهكذا «حاول فريق من خصومه الحنابلة الذين لم يستطيعوا أن ينالوا منه في حياته أن ينتقموا من تربته وعظامه بعد أن أعياهم الانتقام منه حيّاً»[٦].

ورغم العداء الذي أظهره عامة الحنابلة للأشعري، فإنه أثَّر بفكره في طائفة منهم، وافقته على أصوله[٧]، وعدَّته من الموافقين للسُّنَّة في العموم[٨]؛

---

(١) أبو الحسن الأشعري: المصدر السابق مقدمة المحقق ص٦، وما بعدها، ومحمود صبحي: المرجع السابق ٢/ ٥٦ وما بعدها.
(٢) انظر: ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.
(٣) دفن أبو الحسن الأشعري، بمقبرة الإمام أحمد. ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٤١١.
(٤) أبو الفداء: المختصر مج١، ٣/ ١١٣.
(٥) ابن عساكر: المصدر السابق ص٦٨.
(٦) عبد الشمالي: المرجع السابق ص٢٠٦.
(٧) ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ٢/ ٥٦.
(٨) نفس المصدر ٢/ ١٠.

كالتميميين الذين حموه[1]، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، الذين سايروه في نفي الأفعال الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله وقدرته[2]، وأبي الخطاب الكلوذاني (ت٥١٠هـ/ ١١١٦م) أثنى عليه، وتأثر به حتى نُسب إلى الأشاعرة[3].

ولكي يعبِّر الحنابلة عن رفضهم للأشعري، أقصَوه من جماعتهم، فلم يترجموا له في طبقاتهم، رغم انتسابه إلى إمامهم[4]. وفي ذلك يقول محمد زاهد الكوثري إن: «فقهاء المذاهب يتجاذبون الأشعري إلى مذاهبهم»، والحنابلة أحق به من غيرهم لأنه صرَّح باتباعه لأحمد، لكنهم لا يذكرونه في تراجمهم، و«لا يعدُّونه منهم بل يمقته الحشوية[5] منهم فوق مقت المعتزلة»[6].

واستنتاجاً مما ذكرناه يتبيَّن من قضية الخلاف بين الحنابلة وأبي الحسن الأشعري، أن معظم الحنابلة يبغضونه ويضَلّلونه، استناداً على مواقف كبار فقهائهم منه. وأنه كان صادقاً في اعتناقه لعقيدة الإمام أحمد، إلا أنه لم يتمكن من هضمها، ولم يتخلَّص كلية من بقايا الاعتزال في فكره. ولم يكن في مقدوره التصدِّي للحنابلة، لنفوذهم القوي ببغداد، ولحاجته إلى الحماية لدى فريق منهم.

---

(١) ابن تيمية: المصدر السابق ٢/ ٥٥، وابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.

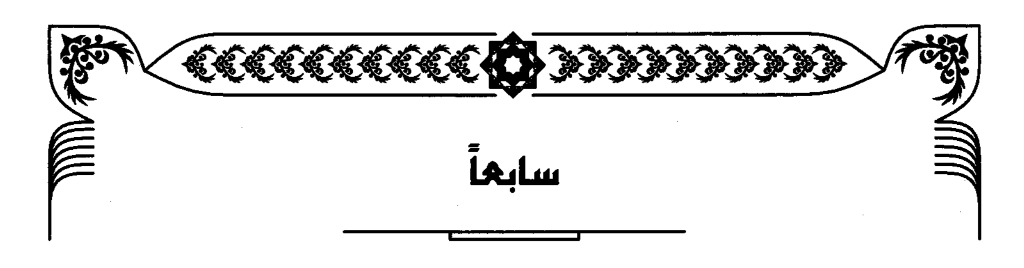
(٢) ابن تيمية المصدر السابق ٢/ ١٠.

(٣) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣٩٠.

(٤) وجدت شخصيات عديدة كانت على مذهب السلف، وخالطت الحنابلة ببغداد، لكن الحنابلة لم يترجموا لها في طبقاتهم، منها: غلام الخليل، وابن عطاء الله الآدمي. راجع: طبقات الحنابلة.

(٥) سيأتي الكلام لاحقاً حول مصطلح الحشوية.

(٦) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٦.



سابعاً

الخلاف بين الحنابلة والخطيب البغدادي

روى عبد الرحمٰن ابن الجوزي أن الحافظ الخطيب الغدادي[1] (ت٤٦٢هـ/ ١٠٥٩م) كان حنبليّاً، ثم اعتنق الأشعرية؛ لأن الحنابلة ضيَّقوا عليه وآذوه[2] حين رأوه يميل إلى المعتزلة والأشاعرة، ويتعصَّب لهم[3].

لكن الباحث يوسف العش استبعد أن يكون الخطيب البغدادي نشأ على الحنبلية وتساءل: «أو ليس عجيباً، أن لا يكون بين أساتذته في الفقه شيخ حنبلي واحد، مع أنه كان على مذهب أحمد؟ والذي يغلب على الظن أن ابن الجوزي واهمٌ فيما أورد من ذلك، وإلا كان في أقوال المؤرِّخين، أو نصوص المحدِّثين، ما يقرِّب سبيل تصديق قوله»[4].

ويرى المعلِّمي اليماني أن البغدادي ورث مذهب أحمد عن عائلته غير أن أصحابه حالوا دونه في التبحر في العلوم التي يرغب فيها،

---

(١) يُعد من مشاهير الحفاظ، ألَّف نحو ٦٠ كتاباً، منها: تاريخ بغداد، وكتاب الكفاية، وشرف أصحاب الحديث، والسابق واللاحق، واقتضاء العلم للعمل. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٠١، ١٠٢)

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٦٧.

(٣) نفس المصدر، ٨/ ١٦٩.

(٤) الخطيب البغدادي: مؤرخ بغداد ومحدثها، دمشق، المكتبة العربية، (١٩٤٥م)، ص٢٢٠.

فتضجَّر منهم وتحوَّل إلى الشافعية ليحموه، ويمكِّنوه من تلقي المعارف التي يريدها[1].

ويعتقد أكرم ضياء العمري أن الخطيب كان حنبليّاً، ثم تشفَّع لاعتبارين: **الأول**: شدة خصومة الحنابلة له، **والثاني**: أنه أمَّ الناس في جنازة الفقيه الحنبلي أبي علي الهاشمي عام (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)، ثم صلَّى بهم ثانية حين توفي الفقيه الشافعي عمر بن إبراهيم سنة (٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م)، فيكون قد اعتنق مذهب الشافعية، فيما بين وفاة الرَّجلين (٤٢٨ ـ ٤٣٤هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٤٢م). بعد ما جاوز الثلاثين من عمره، وأصبح في مقدوره اختيار المعتقد الذي يريده[2].

وربما يكون الخطيب قد نشأ في أسرة حنبلية أهملت تلقينه مذهبها، فتمكَّن الشافعية من اجتذابه، والتأثير فيه، فلما عَلِم به الحنابلة نقموا عليه وطاردوه، ففارقهم والتجأ إلى الأشاعرة.

وعندما انضم الخطيب إلى الشوافع، اشتد في ذم أصحابه[3] السابقين؛ وفي المقابل بالغ الحنابلة في إيذائه حيّاً وميتاً. فرُوي أنهم ضربوه[4] داخل جامع المنصور[5]، وطيّنوا عليه بابه ليلاً، لتفوته صلاة

---

(١) أكرم ضياء العمري: موارد الخطيب البغدادي ص٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص٤٨.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٠٩، وابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ١١٠، و٨/ ٢٦٨.

(٤) ذكر يوسف العش أن الحنابلة كانوا يعطون السقَّاء قِربة يوم الجمعة، عند ما يكون الخطيب بداخل المسجد، فكان السقَّاء يقف بعيداً بإزاء الخطيب، ويميل رأس القربة، فتبتل الأجزاء التي بين يدي الخطيب وتتلف. (يوسف العش: المرجع السابق ص٢٢٠).

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٤/ ١٥، وآدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن (الرابع الهجري)، ترجمة: عبد الهادي أبو ريدة، مصر، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، (١٣٥١هـ/ ١٩٤٠م)، ١/ ١٣٩.

الفجر[١]. وحين توفي كان الزاهد الحنبلي ابن الفقير يأخذ فأساً ويذهب إلى قبر الخطيب ليخربه، ويقول: «كان كثير التحامل على أصحابنا»[٢]، فعندما رآه ذات يوم أحد شيوخ البلد أخذ منه الفأس وقال له: «هذا كان رجلاً فاضلاً إماماً كبير الشأن مؤثر فقيه»، فتاب الرجل ولم يعد إلى فعلته[٣].

والحنابلة يتَّهمون الخطيب بالكذب، والتعصُّب عليهم[٤]، فيذكرون أنه روى أن أبا الحسن التميمي (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م) سئل عن فتح مكة، أكان عنوة، أم صلحاً؟ فأجاب: عنوة، فقيل له: ما الدليل؟ فذكر حديثاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام دعم به ردّه[٥]. فلمَّا غادر المجلس اعترف لصديقه أن الحديث ليس صحيحاً، وإنما وضعه ليدفع خصمه[٦]. لكن ابن الجوزي شكَّك في هذا الخبر بحجة أن الخطيب رواه عن معتزلي[٧] لا يعوَّل عليه؛ لأنه ليس من أهل الحديث[٨].

واتَّهموه أيضاً بالقدح في الحنابلة[٩]، والحطّ من مكانة إمامهم،

---

(١) يوسف العش: المرجع السابق ص٢٢٠.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ١٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر: ابن تيمية: مجموع الرسائل الكبرى ١/ ٤١٠، وابن الجوزي: المنتظم ٧/ ١١٠ و٨/ ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٤٦١، ٤٦٢، وابن الجوزي: المصدر السابق ٧/ ١١٠.

(٦) المصدر نفسه ١٠/ ٤٦٢، ٤٦٩، والمصدر نفسه ٧/ ١١٠.

(٧) هو: أبو القاسم عبد الواحد بن أسد العكبري. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٩٨).

(٨) المصدر نفسه ١١/ ٢٩٨.

(٩) من الحنابلة الذين قدح فيهم الخطيب، ابن بطة وقد رد عليه ابن الجوزي. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٢٢). ويقول ابن الجوزي عن الخطيب =

حين حكى عن أحد فقهاء بغداد قوله عن أحمد: «إيش نعمل بهذا الصبي، إذا قلنا: لفظنا بالقرآن مخلوق، قال: بدعة، وإذا قلنا: غير مخلوق، قال: بدعة؟». وانتقده ابن الجوزي عندما قال عن أحمد بن حنبل: سيِّد المحدِّثين، وعن الشافعي تاج الفقهاء، فلم يذكر الإمام أحمد بالفقه[١].

أما تاج الدين السبكي الشافعي فيرى أن الحنابلة هم الذين تحاملوا على الخطيب، و«ابتلي منهم بوضع أكاذيب عليه، لا ينبغي شرحها»[٢]. في حين ذهب هنري لاوست إلى القول بأن الخطيب المنشق عن الحنابلة حمل حقداً عليهم، وعداوة لهم، أظهرهما في كتابه «تاريخ بغداد»[٣]. ودافع عنه يوسف العش عندما قرر أن الخطيب لم يخص الحنابلة بالذم[٤] دون غيرهم من الطوائف، إذ التزم في كتابه «تاريخ بغداد»، بمنهج أهل الحديث[٥]. فذكر عن المترجَمين كل ما انتهى إليه من «مشهور مآثرهم، وأحسابهم، ومستحسن أخبارهم»، وتعرَّض لبيان «حالهم، وما حُفظ فيهم من الألفاظ عن أسلاف أئمتنا الحفاظ من ثناء، ومدح، وذم، وقدح، وقَبول، وطرح، وتعديل، وتجريح»[٦].

= في ذمه للحنابلة: فقدح فيهم بما أمكن، وله دسائس في ذمهم. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٦٨).

(١) نفس المصدر ٨/ ٢٦٩.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٣٤.

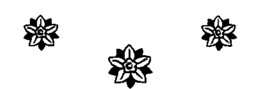
(٣) IBN Taimiya: op cit - p: 12.

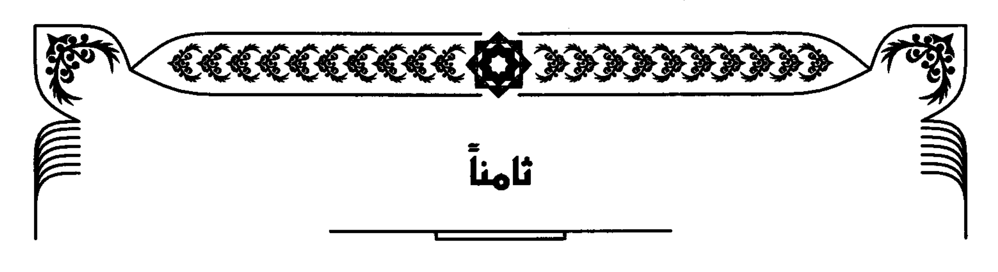
(٤) روى الخطيب أخباراً عن أبي حنيفة تحط من مكانته، وقد تصدَّى محمد زاهد الكوثري للرد عليه فيما رواه عن أبي حنيفة في كتابه «تأنيب الخطيب». (يوسف العش: المرجع السابق ص٣٧، ٣٨).

(٥) نفس المرجع ص٢٤٦.

(٦) نفس المرجع ص٢٤٠.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها، هي أن الخطيب البغدادي تخلّى عن الحنبلية عن اقتناع، فلم يُثنه أذى الحنابلة له، والتحق بالشافعية طواعية، فانضم بذلك إلى الحنابلة الذين خالفوا أصحابهم، وأثاروا فيهم نزاعات داخلية.





ثامناً

النزاع داخل الحركة الحنبلية

عرفت الجماعة الحنبلية خلافات داخلية، بين عامي (٢٤١ و٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١٧٠٦م)، كانت في معظمها نزاعات فردية محدودة الأثر. منها أن أبا الحسن التميمي (٣٧١هـ/ ٩٨١م) عارض معظم أصحابه في خصومتهم للأشعري الذين حاولوا قتله، ولم يسايرهم، وحمى الرجل في بيته[١]. واستمرت أسرته في صحبة الأشاعرة بعد وفاته[٢]، فلم يؤد ذلك بالحنابلة إلى مخاصمة التميميين وإقصائهم عن جماعتهم.

وعندما ألَّف القاضي أبو يعلى الفراء كتابه «إبطال التأويل» أنكر عليه أبو محمد التميمي الحنبلي (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، ما دوَّنه فيه، واعتبره إساءة إلى الحنبلية. وانحاز إلى الأشاعرة في اعتراضهم على أبي يعلى، وانتقده انتقاداً لاذعاً وساخراً[٣]. لكن ذلك لم يتحول إلى انقسام في طائفتهما، وبقي اختلافهما اختلافاً علميّاً أثرى مذهبهما.

وحين تُوفي علي بن توبة العكبري الحنبلي (ت٤٣١هـ/ ١٠٦٨م)،

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٦/ ٣٣٢.

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣٩٠.

(٣) قال أبو محمد التميمي الحنبلي، عند وفاة القاضي أبي يعلى: «لا رحمه الله، فقد بال في الحنابلة البولة الكبيرة، التي لا تغسل إلى يوم القيامة». صلاح الدين الصفدي: المصدر السابق ٣/ ٨٦٤.

تنازع الحنابلة في الصلاة على جنازته[١]. فامتنع غالبيتهم عن الصلاة عليه، بحجة أنه دل على رجل حنبلي اختبأ عنده في فتنة البساسيري عام (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) خوفاً على نفسه وأهله[٢]. وبعد أخذ ورد، حُسم الخلاف بأن تولى أحدهم أمر المتوفى[٣].

وتعرَّض الحنابلة لأزمة داخلية في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، عندما أظهر أبو الوفاء ابن عقيل[٤] (٥١٣هـ/ ١١١٩م) تأويله لبعض الصفات، وتلقيه الكلام سرّاً عن شيخَي المعتزلة: ابن الوليد، وابن التبان، فأنكروا عليه وحاولوا منعه من الاتصال بالمعتزلة[٥]. لكنه واصل اجتماعه بهم خفية[٦]، فكان يختبئ في بيت صديق له[٧].

ثم اشتدت مطاردتهم له، حين اطلعوا على كتب ألَّفها[٨] عظَّم فيها المعتزلة، وترحّم فيها على الصوفي الحسين الحلاج[٩]، واعتذر له،

---

(١) George Makdisi: Autographe DIARY - VOL: 19 - 1ere partie - 1957 - p: 14.

(٢) IDEM - VOL19 - 1ERE PARTIE - 1975 - P: 14.

(٣) IDEM - VOL19 - 1ERE PARTIE - 1975 - P: 14.

(٤) ألَّف جورج مقدسي كتاباً، عن ابن عقيل، وتوسع في قضية ابن عقيل وأصحابه، تحت عنوان: Ibn Aquil et Resurgence de LISLAME Traditionaliste.

(٥) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ط. دمشق، ١/ ١٧٤.

(٦) نفس المصدر ١/ ١٧٣.

(٧) يعرف بمعالي الحائك. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٤). وكان ابن عقيل يعتقد أن عدم تلقيه الكلام، يحرمه علماً نافعاً. (ابن رجب: المصدر السابق ١/ ١٧٣).

(٨) عندما مرض ابن عقيل، أعطى كتبه لصاحبه معالي الحائك، الذي كان يلوذ به، وطلب منه حرقها إن هو توفي، لكن الحائك اطلع على الكتب فوجد فيها تعظيماً للمعتزلة، والحلاج، فأوصلها إلى الحنابلة، ومنهم الشريف أبو جعفر. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٤).

(٩) ذكر ابن الجوزي، أن لديه كتاباً بخط ابن عقيل، صنَّفه في شبابه، ومدح فيه =

وفسَّر أسراره[1] عام (٤٦١هـ/١٠٦٨م). فأفتوا بهدر دمه[2]، وضيَّقوا عليه، وبثُّوا عيوناً لمراقبته[3]، وتتبُّع أخباره[4]، فهرب واختفى خوفاً من القتل[5].

ولم يوقف ابن عقيل نشاطه، وظل يتنقل خفية داعياً لأفكاره بين الشباب، ويروِّج بينهم أن شيخه ابن التبان يقول: «إن لله ولداً»[6]، فلما سمع به قال: «لعن الله ابن عقيل فإنه كذب عليَّ»، ولا يعتقد ذلك إلا كافر[7]. وفي هذه المرحلة ألَّف ابن عقيل كتاب «النصيحة»[8]، دعا فيه إلى مذهبه، وبفضله تمكن من نيل تأييد جماعة من الحنابلة تأثرت به[9]. وفي ذلك الكتاب يقول ابن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م) عن

= الحلاج، وتأول أقواله، وفسَّر أسراره، واعتذر له. (ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٤) وقد جعل لويس ماسينيون، أبا الوفاء بن عقيل من بين الحلاَّجيين (Louis Massignon: op cit - Vol: 2 p: 494).

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٥٤.

(٢) كالشريف أبي جعفر، وقد وافقه كثير من الحنابلة. (ابن قدامة المقدسي: المصدر السابق ص٣).

(٣) كان ابن البناء الحنبلي، من المعاصرين لفتنة ابن عقيل، وكان حريصاً على تتبع أخباره من أولها إلى آخرها، وقد سجل بعضها في يومياته. انظر: George Makdisi: Autographe Diary - VOL: XVIII - 1956 - 2eme partie - p: 247.

(٤) انظر: IBID: VoL: XVIII - 1956 - 2eme partie - p: 247 et VOL: XIX - 1957 - 1ere PARTIE - P: 21.

(٥) ابن قدامة المقدسي: المصدر السابق ص٣، وابن رجب: المصدر السابق ١/ ١٧٤.

(٦) George Makdisi: OP CIT vol: xvii - 1956 - 2eme partie - p: 247.

(٧) George Makdisi: OP CIT vol: xvii - 1956 - 2eme partie - p: 247.

(٨) يرى ابن قدامة المقدسي، أن كلام ابن عقيل، في فترة محنته، لا يحتج به. (تحريم النظر ص٢، ٣).

(٩) نفس المصدر ص٨.

نفسه: إنه كان متعجباً من تكفير الأئمة لابن عقيل، وهدر دمه[١]، لكنه ما إن اطلع على كتابه: «النصيحة»، حتى تبين له أن الكتاب فضيحة، كشفت انحراف صاحبها[٢].

وساهم المعتزلة في تحريض ابن عقيل، ودفعه إلى تحدِّي أصحابه الناقمين عليه، فجاء به أحدهم يُعرف بابن البسري إلى مسجد للحنابلة ببغداد[٣]، وحدثت بداخله فتنة بين المؤيدين له والمعارضين له، لم يذكر ابن البناء تفاصيلها[٤].

ويرى الشيخ أبو الحسن الندوي أن أبا الوفاء ابن عقيل يُعتبر نموذجاً للشباب المتأثرين بالمعتزلة، الذين يرون أن هؤلاء: «يمتازون بدقة النظر، واتساع الفكر والتحقيق، وأن آراءهم، وما وصلوا إليه من نتائج علمية أقرب إلى العقل»[٥]. وكان من بين الذين يحبُّون الظهور، والتفوق على الأقران، ويظهرون الاعتزال تطرُّفاً»[٦].

وبعدما أمضى ابن عقيل سنوات[٧] متحدِّياً لأصحابه، قرَّر وضع حدٍّ لمحنته التي شقَّت صفَّ الحنبلية[٨]. فاتجه مع جماعة من رفاقه إلى

---

(١) ابن قدامة المقدسي: نفس المصدر ص٣.

(٢) نفس المصدر ص١.

(٣) George Makdisi OP CIT vol:XIX - 1957 - 1ere partie - p: 21.

(٤) IBID: VOL: XIX - 1957 - 2ere partie - p: 21.

(٥) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص١٤٦.

(٦) المصدر نفسه ص١٤٦.

(٧) ربما لو كان أبو منصور بن يوسف(ت٤٦٠هـ) حيّاً ما كان للفتنة أن تدوم خمس سنوات، ولا تبلغ حدَّتها التي بلغتها، نظراً لمكانة الشيخ بين الحنابلة والناس، ولنفوذه الروحي والمادي على ابن عقيل. (انظر: ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ٢٤٥).

(٨) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٨.

ديوان الخلافة عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م)، وأعلن توبته عمَّا صدر منه، وأكد أن الحلاج قُتل على كفره بإجماع علماء عصره[١]. ثم اعترف بخطيئته، وأشهد الحاضرين على ما أقرَّ به[٢]. ثم انتقل إلى رئيس الحنابلة الشريف أبي جعفر، فوجده في مسجده بنهر معلى[٣]، مع خلق كثير، فتصالح معه، واعتذر له[٤]، وكتب بخطه نصَّ توبته، وقال فيه: «إنني أبرأ إلى الله تعالى من مذاهب المبتدعة، والاعتزال وغيره، وصحبة أربابه، وتعظيم أصحابه، والترحُّم على أسلافهم، والتكثُّر بأخلاقهم. وما كنت علَّقته، ووُجد بخطي من مذاهبهم وضلالاتهم، فأنا تائبٌ إلى الله ﷻ من كتابته وقراءته، وأنه لا يحل لي كتابته، ولا قراءته، ولا اعتقاده»[٥]. ثم استغفر الله، وأقرَّ بخطئه، وشهد أمام الله والملائكة والناس، أنه تاب بدون إكراه من أحد[٦]، فإن عاد إلى ما كان عليه، فعلى الخليفة أن يطبِّق ما توجبه الشريعة، ثم وقَّع الحاضرون على وثيقة التوبة[٧].

فما الذي دفع ابن عقيل إلى التوبة، وإنهاء محنته بعدما صبر عليها خمس سنوات؟ لم يذكر معظم المؤرخين الذين تناولوا قضيته سبباً لتوبته[٨]. لكن ابن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) روى أن ابن عقيل

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يقع بالجانب الشرقي من بغداد. (أحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٣).

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٠٦، وابن قدامة: المرجع السابق ص٤.

(٥) ابن قدامة: المرجع السابق ص٥، ٦.

(٦) نفس المصدر ص٦.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٥٤ وما بعدها. وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٠٥، ١٠٦، وابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٧٤ وما بعدها. أما أبو الحسين ابن أبي يعلى فاكتفى بالإشارة إلى ابن عقيل باختصار شديد دون ذكر أخبار فتنته. انظر: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٩.

ركب سفينة، وسمع شاباً يقول: «تمنيت لو لقيت هذا الزنديق ابن عقيل، حتى أتقرب إلى الله تعالى بقتله وإراقة دمه»[1]. فخاف وغادر الزورق، واتصل برفاقه ليعلن توبته[2]. في حين يرى جورج مقدسي أن أبا الوفاء ابن عقيل تاب وكتب شهادته على نفسه ليسترجع حريته بعدما طارده أصحابه مدة خمس أعوام[3].

وأقول: قد يكون ابن عقيل أنهى محنته لإحساسه بالذنب، فيما حدث بين طائفته من نزاع واقتتال، ولخوفه على نفسه من القتل، ولتخلُّصه من الانبهار الذي غشيه بالاعتزال ورجاله[4]، إلى جانب رغبته في استرداد حريته المصادرة، بعد ما ضاق ذرعاً بالحصار المفروض عليه.

---

(١) ابن قدامة: المصدر السابق ص٣.

(٢) نفس المصدر ص٤.

(٣) ابن عقيل، الفنون، مقدمة المحقق ص٢٩.

(٤) ربما كان لرد ابن التبان المعتزلي، على ابن عقيل، وتكفيره إياه، أثره في تحوُّل ابن عقيل عن الاعتزال ورجاله. ويُذكر أن ابن عقيل لم يقطع اتصاله ببعض المعتزلة، فكان يحضر مجالسهم، وقد ذكر في كتابه «الفنون»، أنه حضر مجلساً ناقش فيه الحاضرون مسألة الهداية، وكان ممن شارك فيها ابن التبان، وقال عنه: «. . شيخ معتزلي متقدم إليهم، بالجانب الغربي، يعرف بابن التبان، في الكرخ بمجلس عقد ببعض دروبها». (كتاب الفنون ١/ ٢٤٠).
ويلاحظ أن ابن عقيل ذكر ابن التبان بصيغة توحي بأنه لا يعرفه، وهو من شيوخه الذين أخذ عنهم الكلام، لكنه استحسن كلامه وقال فيه: «وحقق فصلاً مليحاً» (المصدر نفسه: ١/ ٢٤٠). فلماذا لم يُظهر أنه يعرفه كما قال عن أبي يعلى الفراء حين تعرَّض له: «أخبرنا شيخنا القاضي الإمام أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء بالإجازة، وهي عندي عضة من سماعي عنه كثير»؟ (نفس المصدر ١/ ٥٦). ربما منعه من ذلك، خوفه من اتهام الحنابلة له بمدح المعتزلة، وموالاتهم، أو بغضه للاعتزال ورجاله.

ورغم ابتعاده عن المعتزلة، فإنه لم يتمكَّن من التخلص من آثارهم في فكره، فبقي متذبذباً في اعتقاده، فمرة ينفي الصفات الخبرية، ويوجب تأويلها تأثراً بهم، ومرة أخرى يثبتها، ويرد على نفاتها ويحرم تأويلها، انتصاراً لأهل الحديث(١).

وهناك أمرٌ آخر تجدر الإشارة إليه، هو أن ابن عقيل ظلَّ متمسِّكاً بالحنبلية، رغم ما أصابه على يد أصحابه، فلم يحاول الانضمام نهائيّاً إلى المعتزلة، أو إلى الشافعية ليجد الحماية والحرية لدى هؤلاء كما وجدها الخطيب البغدادي (ت٤٨٢هـ/ ١٠٥٩م)، وأبو الفتح الحمامي (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م) حين تخلَّيا عن مذهب أحمد بن حنبل، والتحقا بالأشاعرة(٢)، وقد منعه عن ذلك إيمانه الصادق بمذهبه؛ لأنه عندما اتصل بالمعتزلة، كان يرغب في الاطلاع على ما عندهم لينتفع به، وليس ليلتحق بهم(٣). فهو شديد الحب للطائفة الحنبلية، معتقداً أنها الفرقة المحقة الخالية من البدع(٤).

وتُعد فتنة ابن عقيل، أخطر حادثة أحدثت أزمةً داخلية في الجماعة الحنبلية خلال القرن (الخامس الهجري/ ١١م)(٥). فأحدثت في الحنابلة

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩، هامش ص٤٤٤.

(٢) كان ابن الحمامي حنبليّاً، فنقم عليه الحنابلة أشياء «لم تحتملها أخلاقهم الخشنة، فانتقل وتفقَّه على الشاشي والغزالي، ووجد أصحاب الشافعي على أوفى ما يريده من الإكرام، وجعلوه مدرِّساً في المدرسة النظامية.. وكان شديد الذكاء والفطنة». (ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٤١). لاحظ كيف يفقد الحنابلة بتصرفاتهم طاقات علمية مبدعة. وانظر: ابن كثير: البداية ١٢/ ١٩٤.

(٣) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٧٣.

(٤) نفس المصدر ١/ ١٨٤.

(٥) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 328.

تصدُّعاً، كاد أن يعصف بوحدتهم. حتى أن المؤرخ الحنبلي ابن البناء المعاصر لها لم يرو تفاصيل حوادثها، وكان يكتفي بالدعاء لطائفته بقوله: «.... والله سبحانه يزيل الاختلاف بين الأصحاب، ويؤلِّف الكلمة، ويعزَّ السُّنَّة وأهلها، أبداً إن شاء الله»[١].

وقد ساهم المعتزلة، وبعض الهاشميين في تعميق الشقاق بين ابن عقيل وأصحابه، لدفعهما إلى المزيد من المواجهات الدامية[٢]. لكن الحنابلة تمكَّنوا بعد سنوات من النزاع، من وضع حدٍّ لتلك الفتنة التي تركت آثاراً عميقة في فكر أبي الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) وسلوكه[٣]. وبيَّنت أن الحركة الحنبلية لم تكن تتمتع بوحدة مذهبية تامة، ولا بتجمُّع كامل الانضباط والانصهار، لكن ذلك لم يوهن من قوتها وعزيمتها في نشر فكرها، ومنازلة معارضيها.

واستنتاجاً مما ذكرناه في هذا الفصل ـ عن النزاع الطائفي بين الحنابلة وخصومهم في بغداد ـ يتبين منه أنهم ـ أي: الحنابلة ـ دخلوا في نزاعات متعددة الجبهات، مع المعتزلة، والشيعة، والصوفية، والشافعية الأشاعرة، فأكسبتهم خبرة واسعة في حرب الشوارع، وأظهروا خلالها حرصاً شديداً على الانتصار لمعتقداتهم، وإصراراً على مقارعة معارضيهم. ومكَّنتهم من فرض أنفسهم كطرف أساسي لا يستهان به في أية تسوية اجتماعية يراد تحقيقها إنقاذاً للبلد من أزماته.

وقد تزعَّمتهم في صداماتهم مع طوائف المجتمع ثلاث جماعات

---

(١) George Makdisi: Autographe Diary - VOL: 19 - 1ere partie - 1957 - p: 23.

(٢) IBID - VOL: 19 1ere partie - 1957 - p: 21 et seq.

(٣) انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١٢/٩٨، وابن رجب: المصدر السابق ١/ ١٧٤.

حنبلية رئيسية، وهي: المروزية[١]، والبربهارية[٢]، والفرَّائية[٣]، وأما الصمدية فهي تجمُّع سلفي ضمَّ أهل الحديث والحنابلة معاً.

وتمكَّنوا بفضل نشاطهم الدؤوب في الدعوة إلى السلفية من استقطاب عناصر سُنِّية، تعاونوا معهم وتزَّعموهم في نزاعهم مع الشيعة والمعتزلة[٤].

وتبيَّن أيضاً أن حركتهم لم تكن حركة نخبوية ضيقة، مقتصرة على فئة منهم، بل كانت مفتوحة لكل الحنابلة، على اختلاف مستوياتهم المادية والمعنوية[٥]، إلى جانب العوامِّ المتعاطفين معهم. وقد تقوَّت حركتهم ـ التي تنامت بشكل كبير في القرن (الخامس الهجري/ ١١م) ـ من مصدرين أساسيين:

أولهما: شدة تمسُّكهم بمذهبهم، وحرصهم على نشره.

وثانيهما: نفوذهم السياسي في عهد الخليفتين السلفيين القادر بالله،

---

(١) نسبة لأبي بكر المروزي الحنبلي (ت٢٧٥هـ)، وكان من الذين أنكروا على الطبري أموراً، وترك من بعده جماعة انتسبت إليه، وواصلت معارضتها للطبري ولغيره، وقد تزعمها في الربع الأول من القرن (الرابع الهجري)، أبو محمد البربهاري. (انظر: ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٦٢، ١٨٢).

(٢) نسبة لأبي محمد البربهاري، رئيس الحنابلة في زمانه، وقد سبق الحديث عنه مراراً.

(٣) نسبة للقاضي أبي يعلى الفراء، وقد خلفه في تزعم الجماعة الشريف أبو جعفر. وقد سبق بيان ذلك.

(٤) George Makdisi: Ibn Aquil - pp: 317 - 318.

(٥) أشهر علماء الحركة الحنبلية الذين تزعموها، أبو بكر المروزي، وأبو محمد البربهاري، وأبو يعلى، والشريف أبو جعفر. وأبرز أغنيائها: أبو منصور بن يوسف، وابن جرادة، وابن رضوان، أما العوام، فهم كثيرون جدّاً، وهم الذين خاضوا الفتن الطائفية التي سبق ذكرها.

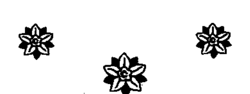
والقائم بأمر الله فيما بين: (٣٨١ ـ ٤٦٧هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٧٥م).

كما أنهم ظلموا ابن جرير الطبري وآذوه، ولم يحترموا فيه شيبته وعلمه. وإن كان هو أيضاً لم يُنصف إمامهم، وسبَّ طائفتهم برمَّتها دون استثناء. لكنهم من جهة أخرى افتقدوا طاقات علمية مبدعة، حين ضيَّقوا على بعض أصحابهم كالخطيب البغدادي، وابن الحمامي، فالتحقا بالشوافع. أما ابن عقيل فقد رجع إليهم، بعد خمس سنوات من المطاردة.

وهم قد وجدوا في مواقف إمامهم أحمد المتشدِّدة من طوائف عصره، مستنداً لهم في خصوماتهم مع المعارضين لهم، وإن كان أحمد بن حنبل مسالماً في تعامله مع الناس والسلطة.

وقد ساهم الحنابلة مع غيرهم من الأشاعرة، والشيعة، والمعتزلة، في إذكاء التعصُّب المذهبي، وتفريق أبناء المجتمع الواحد من جهة.

ويتحمل علماء هؤلاء مسؤولية التحريش، وإثارة الفتن في بغداد، التي أنهكتها الحروب الأهلية المدمرة من جهة أخرى. وكان عليهم جميعاً أن يعملوا على حقن الدماء، وإيثار الصالح العام عن مصالحهم الطائفية الضيقة. وأن يُسخّروا أقلامهم للتقريب بين وجهات النظر في القضايا الفقهية، والمذهبية المثارة في حياة بغداد العلمية.





الفصل الرابع

نشاط الحنابلة التعليمي والعلمي في بغداد بين سنتي (٢٤١ ـ ٥٠٠ هجرية)

أولاً: من نشاط الحنابلة التعليمي في بغداد.

ثانياً: انتشار الفكر الحنبلي في بغداد وخارجها.

ثالثاً: مواقف الحنابلة من قضايا عصرهم الفكرية.

رابعاً: تراث الحنابلة العلمي في بغداد.



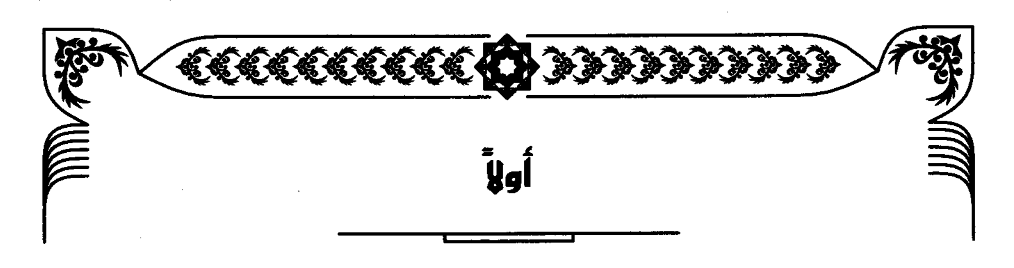
نشاط الحنابلة التعليمي والعلمي في بغداد

(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

تجلَّى نشاط الحنابلة التعليمي والعلمي ببغداد في جوانب متعددة ومتنوعة، كإنشاء المؤسسات التعليمية، وممارسة التربية والتعليم، ونشر فكرهم في بغداد وخارجها، والمشاركة في مناقشة القضايا الفكرية المتنوعة التي شغلت أهل العلم في المشرق الإسلامي خلال القرون: الثالث، والرابع، والخامس للهجرة.

وقد أثمرت جهودهم العلمية إنتاج ثروة علمية متنوعة ذات طابع حنبلي في غالب الأحيان.





أولاً

من نشاط الحنابلة التعليمي في بغداد

تمثَّلت مؤسَّسات التعليم والعلم الحنبلية، في المساجد أوَّلاً[1]، إذ لم يعرف الحنابلة المدارس الحديثة إلا في نهاية القرن (الخامس الهجري/ ١١م، أو بداية السادس/ ١٢م)[2]؛ لأن المصادر لم تُحدد سنة بناء أول مدرسة حنبلية، وهي مدرسة أبي سعد المُخرمي[3] (ت٥١٥هـ/ ١١١٩م) بباب الأزج[4].

وقد بلغ عدد مدارسهم في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، إحدى عشرة مؤسسة[5] معظمها مدارس مسجدية[6]، منها: مدرسة القاضي

---

(١) كان الحنابلة من المتشددين في رفض الدراسة في المدارس الحديثة، فكانوا يرون أنه من شرف الرجال عدم تلقيهم العلم في المدارس خارج المسجد، وظل بعضهم بعد شيوع المدارس الحديثة يحتفظ بالتدريس في المسجد وفي المدرسة (جورج المقدسي: رعاة العلم مجلة الأبحاث مج ١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥١٠، ٥١١).

(٢) حاول جورج مقدسي تحديد سنة البناء، لكنه لم يهتد إلى تحديدها (نفس المرجع مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٣١٥).

(٣) تولى إدارة هذه المدرسة بعد أبي سعد تلميذه عبد القادر الجيلي الصوفي الحنبلي الشهير (ت٥١٦هـ). (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٢٨).

(٤) انظر: نفس المصدر ٤٢٨/١٩، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٤٨، وابن رجب: المصدر السابق ١/ ٢٠٠.

(٥) جورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦٧م)، ٤/ ٥٠٠.

(٦) أكرم ضياء العمري: موارد الخطيب البغدادي ص١٢٨.

أبي يعلى، ومدرسة الشريف أبي جعفر[١]، ومدرسة ابن جرادة[٢]، وتقع كلها بالجانب الشرقي من بغداد[٣]. ومنها مدرسة سكة الخرقي بالقسم الغربي منه[٤]، أما مدارس الطوائف السنِّيَّة الأخرى، فكان منها خمسٌ للأحناف[٥] كمدرسة أبي حنيفة[٦]، وثمانٍ للشافعية[٧]، كالنظامية[٨]التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك، وهي أهم مدرسة عرفتها بغداد، في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[٩].

ولم تكن للحنابلة مؤسَّسات تعليمية[١٠] تنفق عليها الدولة في

---

(١) أكرم ضياء العمري: المصدر نفسه ص١٢٨.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب مج ٢، ٣/ ٤٠٧، ٤٠٩.

(٣) انظر: ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٦٣، وجورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٣١٤، وأحمد سوسة: المرجع السابق ص٧٢.

(٤) جورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٣١٤.

(٥) أكرم ضياء العمري، المرجع السابق ص٢٣، وجورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٠.

(٦) أنشأها السلطان السلجوقي ملك شاه (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م). (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٤٢).

(٧) أكرم ضياء العمري: المرجع السابق ص٢٣. وجورج مقدسي: المرجع السابق مج ١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٠.

(٨) ربما كانت دار العلم التي بناها الوزير أبو نصر، هي أول مدرسة وقفت على الفقهاء قبل النظامية بزمن طويل. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣١٢).

(٩) أمر نظام الملك ببنائها عام (٤٥٧هـ)، وفتحت عام (٤٥٩هـ)، وأول من درس بها أبو نصر بن الصباغ الشافعي. (ابن كثير: المصدر السابق ص٥٥). وخصِّصت للشافعية دون غيرهم من السُّنَّة، ومن عيوبها أن الدرس الواحد كان يقسم بين اثنين، لكل مدرس نصف الوقت. (جورج مقدسي: المرجع السابق مج١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٣٢٠). وكان نظام الملك يبعث بين الحين والآخر بالأشاعرة ليدرسوا فيها. (نفس المرجع، مج ١٤، ٤/ ٥٠٤).

(١٠) وجدت إلى جانب المدارس في القرن (٤هـ/ ١٠م)، الأربطة، وكانت بدايتها =

القرون (الثالث والرابع والخامس للهجرة/ ٩ و١٠ و١١م)[١]، بل اعتمدت في تمويلها على وصايا المتوفّين[٢]، وتبرعات الأفراد. فكان أبو منصور الخياط (ت٤٩٩ هجرية/ ١١٠٥م) يعلم الأطفال مجاناً، وينفق عليهم من ماله[٣]. وساهم أبو منصور ابن يوسف في إقامة منشآت علمية، وآثر التكتُّم عن الظهور[٤]، مع الإنفاق على طلابها، ومدرِّسيها، والاهتمام بأمورها، والتحمُّل لمؤنهم[٥].

= مخصَّصة للعبادة. (ابن تيمية: الخلافة والملك ص٤٧). ثم أصبح معظمها يشتغل بالعلم أكثر من المدارس. (حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي في بغداد، مطبعة الإرشاد، (١٩٦٥م)، ص٤٧). ويرى جورج مقدسي أنه لم يكن للحنابلة أربطة في عصر ابن عقيل (٤٣١ ـ ٥١٣هـ). (George Makdisi: IBN Aquil - p: 381). لكن يبدو أن الحنابلة كانت لهم أربطة زمن ابن عقيل؛ لأن ابن أبي الحسن الهكاري الذي عاش في القرن (الخامس الهجري)، (ت٤٨٦هـ)، أقام عدة أربطة، وهو كان على اعتقاد الحنابلة في الأصول. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٤٥).

وذكر جورج مقدسي أيضاً أنه لم يعثر على إشارة لوجود خان للحنابلة في القرن (٥هـ). (جورج مقدسي: رعاة العلم، مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥٢٢). لكن ابن البناء أشار إلى خان كان يملكه ابن رضوان في القرن (الخامس الهجري/ ١١م). George makdisi: Autographe - vol - 19. 2eme Partie - 1957 - p: 283.

(١) أصبح لهم في القرن (السادس الهجري/ ١٢م)، مدارس تنفق عليها الدولة، كالتي أنشأها لهم الوزير الحنبلي ابن هبيرة (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، لأهل باب البصرة (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٢٤٥).

(٢) نفس المصدر ١٢/ ٤١.

(٣) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ١١٩.

(٤) جورج مقدسي: رعاة العلم مج ١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٤٨١.

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/ ٤٣٤.

وقد ارتبط حجم حلقات[1] التدريس، بشهرة المعلم[2]، فكانت مجالس القاضي أبي يعلى (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) تكتظ بالحاضرين، حتى يحتاج إلى ثلاثة مبلِّغين عنه ليسمعوهم[3]. وكان الناس يقبلون على دروس أحد علماء الحنبلية حتى يضيق بهم جامع المنصور[4].

واقتصرت مدارس الحنابلة كغيرها من مدارس السُّنَّة على تعليم العلوم الشرعية من قرآن وعلومه[5]، وحديث ومصطلحه، وفقه وأصوله، دون المعارف العقلية[6]، مع التركيز على تدريس مذهب الإمام أحمد، لتخريج الفقهاء المتخصِّصين فيه[7].

وقد اشتهر من الحنابلة مدرِّسون كثيرون، كأبي بكر المروزي (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وأبي داود السجستاني[8] (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وأبي بكر الخلال (ت٣١١هـ/ ٩٧٣م) الذي كانت له حلقات علم دائمة بجامع المنصور[9].

ويُعد ابن حامد (ت٣١١ هـ/ ١٠١٢م) معلم الحنابلة وفقيههم في النصف الثاني من القرن (الرابع الهجري/ ١٠م)[10]، وممن تخرج على

---

(١) ذكر جورج مقدسي، أن حلقات المحدثين كانت أكبر من حلقات الفقهاء على العموم. (مؤسسات العلم الحنبلية مج١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٢٨٩).

(٢) المصدر نفسه: مج ١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٢٨٩).

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٠.

(٤) نفس المصدر ٢/ ٧.

(٥) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج٢، ٣/ ٤٠٦.

(٦) George makdisi: l'islame hanbalisant - R.E.I - Vol 19 - 1974 - p: 238 et Seq.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠٩.

(٨) عن ذينك المدرسين، انظر: ابن كثير ١١/ ٥٤.

(٩) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٧.

(١٠) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٤٩.

يده القاضي أبو يعلى الفراء[1] (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، الذي يعتبر ألمع شخصية علمية حنبلية عرفها القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[2]. وقد تتلمذ عليه طائفة من كبار علماء وأعيان الحنابلة، منهم: الشريف أبو جعفر[3] (ت٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م)، وأبو الوفاء ابن عقيل[4] (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م). ويعد أبو منصور الخياط (ت٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) أكثر هؤلاء جميعاً، ممارسة للتدريس، فتفرَّغ له، وامتهنه نحو ستين عاماً[5].

وتعود اهتمامات الحنابلة بالتربية والتعليم، إلى القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، فكانت مجالسهم غالباً ما تضيق بالحاضرين[6]. وقد تعلم على يدهم العوام، وأبناء الأمراء في بغداد وخارجها[7]. وتركزت حلقاتهم[8] التربوية والتعليمية في جوامع بغداد الثلاثة الرئيسية[9] وهي:

---

(١) هو الذي مهد للحنابلة في القرن (الخامس الهجري/ ١١م). (نفس المصدر ١٢/ ١٩٤ وما بعدها).

(٢) نفس المصدر ١٢/ ٩٤.

(٣) نفس المصدر ١٢/ ١١٩.

(٤) نفس المصدر ١٢/ ١٨٤.

(٥) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج٢، ٣/ ٤٠٥.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) ذكر جورج المقدسي أن حلقات أصحاب الحديث كانت أكبر من حلقات الفقهاء في غالب الأحيان. (مؤسسات العلم الحنبلية مج١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٢٨٩)، ولعل سبب ذلك هو أن حلقات المحدثين أكثر تأثيراً في العوام من الفقه، لما فيها من ترغيب وترهيب، أما الفقه فيغلب عليه الجفاف والتدقيق في المسائل.

(٩) عن نشاط الحنابلة، وجوامع بغداد، انظر: George Makdisi: autographe diary 1er partie: vol: XIX - 1957 -p: 285.

وقسَّم أبو يعلى الفراء المساجد قسمين: مساجد سلطانية، وهي الجوامع والمشاهد، ويتولى الخليفة رعايتها ويعيِّن أئمتها. (أبو يعلى الفراء: الأحكام =

جامع المدينة ـ المنصور ـ بالجانب الغربي من بغداد[1]، وجامع الرصافة ـ المهدي ـ، وجامع القصر ـ الخليفة ـ وهما بالقسم الشرقي من المدينة[2]. وكان الخليفة يتولى تعيين وعاظ تلك الجوامع وأئمتها[3]. وقد تحصَّل أبو داود السجستاني على إذن من السلطة، لتعليم الحديث في كامل جوامع بغداد[4].

واشتغل غلام ثعلب (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) بالتربية والتعليم، فكان يؤدِّب أبناء الأمراء[5] ويدرِّس العوام، ولا يسمح لأحد السماع منه حتى يقرأ جزءاً من فضائل معاوية ابن أبي سفيان[6].

وذاع صيت ابن سمعون الزاهد الحنبلي (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) بالوعظ والكلام في الخواطر والإشارات، حتى أصبح لأهل العراق فيه اعتقاد كبير[7]، ولهم به غرام شديد[8]. وخاطب بتوجيهاته التربوية خواصَّ الناس[9] وعامتهم، ولم يكن يأخذ منهم عطاء[10].

= السلطانية ص٧٨). ومساجد عامية، بناها العوام في شوارعهم وقبائلهم، وليس للخليفة أن يعترض على أئمتها. (نفس المصدر ص٧٨).

(١) جورج مقدسي: المرجع السابق مج ١٤، (١٩٦١م)، ٣/ ٢٨٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو يعلى الفراء: المصدر السابق ص٧٨.

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٥٢.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ١٨/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٦) المصدر السابق ١٨/ ٢٣١.

(٧) يعتقدون فيه الولاية والكرامات والمكاشفات (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٢٣).

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٠٤.

(٩) طلبه الخليفة الطائع لله ذات يوم، فلما وقف بين يديه، أخذ في وعظه حتى أبكاه. (ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٣٢٣).

(١٠) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٥٧ وما بعدها.

واشتهر القاضي أبو يعلى الفراء (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) بتمكنه من الخطابة والوعظ والإرشاد، فأقبلت عليه الجماهير بأعداد غفيرة[١]. وكان يحذرهم من الاختلاط بأهل الدنيا والنظر إليهم، ويحثُّهم على طلب العلم، والسير مع الصالحين[٢].

واتخذ رزق الله التميمي الحنبلي مقبرة الإمام أحمد مجلساً للوعظ، فيحضره كثير من الناس للسماع منه[٣]. واختار مدرسٌ حنبليٌّ آخر مكاناً بعيداً ليلقي دروسه على تلاميذه، وحين طُلب منه الاقتراب ليسهل المجيء إليه، امتنع بحجة أنه شخصيّاً كان يأتي ذلك الموقع ليأخذ الحديث من أهله[٤]. فعل ذلك ليشعرهم أن العلم يؤتى إليه، ولا يصبر على مشاقه إلا المخلصون في طلبه.

وكان أبو منصور الخياط (ت٤٩٩هـ/ ١١٥٠م) إماماً، ومربِّياً في مسجد الثَّري الحنبلي ابن جرادة[٥]، ويُعتبر أشهر معلمي بغداد الذين تخصَّصوا في تعليم العميان القرآن الكريم، في دار الخلافة مع الإنفاق عليهم لوجه الله[٦]. وقيل أن عددهم بلغ سبعين ألف ضرير[٧]، وقد خَطّأ المؤرخان ابن رجب البغدادي وابن العماد الحنبلي من ادَّعى أن راوي الخبر ربما غلط في تقدير عدد المكفوفين الذين علّمهم، وإنما قصد سبعين نفساً[٨]. ثم قرَّرا أن رقم سبعين ألف صحيح؛ لأن أبا منصور

---

(١) قدَّرهم ابنه أبو الحسين ابن أبي يعلى بآلاف الحاضرين، المصدر السابق ٢/ ٢٣٠.
(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٢٢.
(٣) نفس المصدر ٢/ ٤٤٢.
(٤) نفس المصدر ٢/ ٧٤.
(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب مج٢، ٣/ ٤٠٧.
(٦) نفس المصدر مج٢، ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧ وابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ١١٩.
(٧) المصدرين السابقين نفسهما.
(٨) المصدرين السابقين نفسهما.

الخياط ظل أكثر من ستين عاماً يعلِّم القرآن الكريم، فكيف يبلغ من أخذ عنه القرآن سبعون نفساً، في مدة تزيد عن ستين سنة[١]؟!.

ورغم هذا الاعتراض الوجيه، فإن عدد سبعين ألف يبقى مبالغ فيه أيضاً. فهل يقدر أبو منصور بإمكانياته الفردية، تعليم ما يزيد عن ألف أعمى كل عام لمدة ستين عاماً، مع رعايتهم والإنفاق عليهم[٢]؟. لا شك أنه علّم الكثير من هؤلاء، لكن ليس في استطاعته تعليم ذلك العدد الكبير. وهل وُجد هذا العدد الكبير من العميان في بغداد؟؟!.

ولم يقتصر دور علماء الحنابلة التعليمي على الوعظ والتدريس، بل تعداه إلى الرد على أسئلة المستفتين بالمشافهة والمراسلة. فكان أحدهم كلما فرغ من الصلاة في المسجد، أقبل عليه المصلُّون ليفتيهم في مختلف قضايا حياتهم اليومية[٣]. وكان القاضي أبو يعلى يبعث بجواباته إلى مكة والمدينة، وإلى المدن المجاورة لبغداد، ردّاً على الرسائل التي تصله من تلك الأقاليم وغيرها[٤].

والحنابلة في نشاطهم التعليمي والتربوي، كانوا يقتفون أثر إمامهم أحمد بن حنبل، الذي حثَّ على تعليم الجاهل وتربية الناس، لتخليصهم من أمراضهم النفسية والاجتماعية[٥]؛ فساهموا بذلك في توعية

---

(١) ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق مج٢، ٣/٤٠٧. وابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/١١٩.

(٢) من الصعب قبول ذلك العدد، حتى وإن فرضنا أن أبا منصور الخياط علَّم العميان، وغيرهم من الصبيان بمساعدة آخرين له في دار الخلافة، أو كان مشرفاً على تعليم هؤلاء.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/١٤٦.

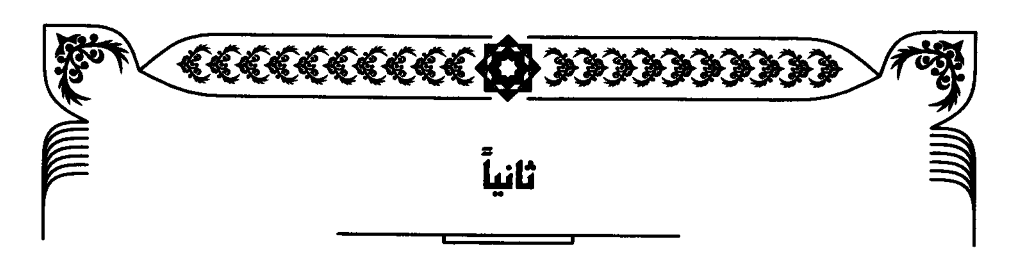
(٤) ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، بيروت، دار الكتب العربي، بدون تاريخ، مج٢، ٤/٤٠.

(٥) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/٣٧٣.

الجماهير، ورفع مستواهم الديني والمعرفي[1]، وتمكنوا من كسب قلوبهم ونشر فكرهم في المجتمع.



(١) كان لعلماء الحنابلة، أعمال إيجابية أخرى؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتنفير من التقليد، والحث على الاجتهاد. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن جهة أخرى، كانت لطائفة منهم عدة سلبيات، كالمساهمة في التحريض على الفتن، وتشويه صورة الإسلام في العقول لما روَّجوه من آثار مكذوبة عن الرسول ﷺ، إلى جانب إظهار الولاء المطلق للعباسيين وتبرير أوضاعهم السيئة. وهذا أمر سبق أن بيناه، فلا نعيد توثيقه هنا.



ثانياً

انتشار الفكر الحنبلي في بغداد وخارجها

تجذَّر الفكر الحنبلي وتأصَّل في بغداد أيام أحمد بن حنبل[1]، ثم عرف من بعده حركة نشطة استهدفت جمعه وتدوينه ونشره، (خلال القرنين: الثالث والرابع الهجريين/٩ ـ ١٠م)[2]. وفي القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، اكتمل المذهب[3] الحنبلي، وحقق انتشاراً واسعاً، بفضل فقهائه الذين تولوا القضاء، ووعَّاظه الذين كسبوا القلوب[4]، وأثريائه الذين نصروه بأموالهم[5]، ورجاله الذين دافعوا عنه بحماس[6]، وبفضل نفوذ أتباعه القوي في عهدي الخليفتين القادر بالله (٣٨١ ـ

(١) عندما توفي أحمد بن حنبل، ترك من خلفه أصحابه وولديه، عبد الله وصالح، وهم الذين تولوا نشر مذهبه في حياته ومن بعده.

(٢) سبق الكلام عن تدوين مذهب أحمد بن حنبل.

(٣) يعد القاضي أبو يعلى ألمع شخصية علمية شهدها القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، وهو الذي مهَّد فروع مذهب الحنابلة (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٩٤، ٩٥).

(٤) أشهرهم ابن سمعون (ابن خلكان: المصدر السابق ٤/ ٣٠٤)، والقاضي أبو يعلى الفراء كان يحضر مجالسه آلاف الناس من مختلف شرائح المجتمع (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٩٤، ٩٥).

(٥) كأبي منصور بن يوسف، وابن جرادة وابن رضوان، وقد سبق أن أشرنا إليهم.

(٦) كأبي محمد البربهاري وأتباعه، والشريف أبي جعفر ورفاقه، وعن ذلك انظر: نفس المرجع ص١١٥.

٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣٠م)، والقائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م) اللَّذَين مكَّنا له في دولتهما، وأيَّداه تأييداً مُؤزَّراً[١] في وقت فقد فيه المعتزلة والشيعة الدعم السياسي[٢]، وكان أمر الأشعرية ما يزال ضعيفاً[٣].

ويعتقد المستشرق جولد تسيهر أن الأشعرية[٤] حققت انتصاراً في بغداد، على حساب المعتزلة والحنابلة في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[٥]. وخالفه المستشرق جورج مقدسي الذي يرى أن الانتصار المحقَّق، كان لصالح الحنبلية والسلفية حين دحرتا الاعتزال، وقهرتا الأشعرية[٦].

والواقع التاريخي يُؤيد ما ذهب إليه جورج مقدسي، فقد تمكَّنت الحنبلية ومعها أصحاب الحديث، من السيطرة على بغداد طيلة القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، سيطرةً تكاد تكون تامَّة، إلا في فترة محدودة أيام الوزير السلجوقي نظام الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) عندما رفع من شأن

---

(١) حين أصدر الاعتقاد القادري القائمي، بما يوافق اعتقاد الحنابلة، وجعلاه مذهباً رسمياً للدولة، ومن جهة أخرى قمعا خصوصاً الحنابلة، وأصحاب الحديث، وعن ذلك انظر: نفس المرجع، ص١٤٥ وما بعدها.

(٢) في عهديهما لُعنت الأشعرية والمعتزلة والشيعة، وقد سبق بيان ذلك. و قد كان اعتقادهما موجهاً أساساً ضد هؤلاء (George Makdisi: Ibn Aquil - p: 308).

(٣) سبقت الإشارة إلى ذلك وتوثيقه.

(٤) يرى هنري لاوست أن الأشعرية تحولت إلى مدرسة في القرنين: (٤ و٥ الهجريين)، لكنها كانت أبعد ما تكون من استقطاب أئمة المسلمين وحصولهم على إجماعهم حولها، وقد وجد من المالكية والشافعية ممن أعلن أنه على مذهب أحمد بن حنبل، ومن أنصاره في مجال العقيدة، وفي المقابل، وجد كثير من الشافعية من أيّد الأشعرية ونصرها بقوة. (Ibn Taimiya - op. cit - p: 15).

(٥) جورج مقدسي: رعاة العلم مج١٤، (١٩٦١م)، ٤/ ٥٠٥.

(٦) المصدر نفسه.

الأشعرية دون غيرها من طوائف البلد[1].

وقد صاحب ازدهار فكر الحنابلة في بغداد، انتشار واسع له خارجها على أيدي دعاته النشطين، فأدخله أبو الفرج الشيرازي[2] (ت٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م) إلى القدس ودمشق[3]. ومكَّن له عبد الوهاب بن جلبة (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) بحران[4] حين تولى قضاءها[5]. ونقله أبو الحسن الآمدي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) إلى مدينة آمد[6]، فتمذهب به جماعة من أهلها[7].

وتمكَّن مذهب الحنابلة من استقطاب غالبية سكان أصفهان، على حساب مذهب الشافعية والأحناف والشيعة[8].

---

(١) سبق بيان ذلك وتوثيقه.

(٢) كان من تلاميذ القاضي أبي يعلى، سكن بغداد ثم غادرها إلى القدس ثم دمشق، وكانت له هناك مناظرات كثيرة مع الأشاعرة في مجالس السلاطين (انظر: ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٤٧ وما بعدها).

(٣) المصدر نفسه ١/ ٤٧.

(٤) تقع على طريق الموصل والشام، وهي مدينة قديمة. ياقوت الحموي: معجم البلدان مج ٢، ص٢٣٥.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٨٧.

(٦) مدينة قديمة وهي من أكبر المدن، وتقع على نهر دجلة (ياقوت الحموي: المصدر السابق ١/ ٥٦).

(٧) ظل الحنابلة يشكلون غالبية سكان أصبهان، حتى جاء السلاجقة، ونظام الملك، فضعف أمرهم هناك (مصطفى جواد: في التراث العربي، حققه: محمد جميل شلش، وعبد الحميد العلوجي، بغداد، دار الحرية للطباعة، (١٩٧٥م)، ص٢٣٣). وزعم مصطفى جواد أن الحنابلة كانوا من أسباب وجود الإسماعيلية في أصبهان، نظراً لسياستهم الاستبدادية هناك. (نفسه ص٢٣٣). ويرى كذلك أن الحنابلة كانوا من عوامل وجود العنصر العربي بأصبهان؛ لأن مذهبهم أقرب إلى طبيعة المزاج العربي. (نفس المرجع ص٢٢٨).

(٨) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٤٧، ٢٤٨.

ونصره عبد الله الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) نصراً مُؤزَّراً بمدينة هراة التي تحوَّلت إلى معقل حصين للحنبلية[١]. وأوصله القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) إلى أقاليم عديدة من الدولة العباسية بفضل تلاميذه الذين عيَّنهم قضاة خارج بغداد، ورسائله التي كان يرسلها إلى المستفتين[٢] من أصفهان، وتنيس، وميافارقين ومكة[٣].

وحين ساد فكر الحنابلة في بغداد اتخذته الجماهير معتَقَداً لها[٤]، وانتسبت إليه طوائف البلد[٥]. وبتأثير منه أصبح العلماء يرجعون إلى النصوص الشرعية، ويبحثون عن التأويل من خلالها، بالجمع وردِّ المتشابه إلى المحكم، وهو ما يعرف بتفسير القرآن بالقرآن، والحديث بالحديث[٦]. كما كان له دور كبير في محاربة التقليد المذهبي، والتنفير منه، والدعوة إلى الاجتهاد والحث عليه[٧]. ويرى المستشرق جورج مقدسي أن مذهب الحنابلة حقق أكبر انتصار له عندما تبنته الدولة العباسية، وصار مذهباً رسميّاً لها[٨]. وهذا لم يتحقق فعلاً إلا في عهدي الخليفتين القادر بالله والقائم بالله، في الأصول دون الفروع[٩].

وقد صاحبت انتشار الفكر الحنبلي مظاهر سلبية، شوَّهت صورته حين وُجد من أتباعه من ذمَّ النظر العقلي، ومطلق الكلام[١٠]، فانتهى

---

(١) عن ذلك انظر: ابن رجب: الذيل ١/ ٦٦.

(٢) سبق ذكر ذلك وتوثيقه.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٠٥.

(٤) كلود كاهن: المرجع السابق ١/ ٢٦٤، ٢٦٥.

(٥) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٣٧.

(٦) عبد العزيز الأهل: شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص٣٣٢.

(٧) سبق التطرق إلى التقليد والاجتهاد.

(٨) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 308.

(٩) سبقت الإشارة إلى ذلك.

(١٠) يرى ابن تيمية أن الخلل دخل هؤلاء، من تقبُّلهم نصوصاً غير صحيحة، =

الأمر ببعضهم إلى تعطيل الفكر والتمسُّك بالأحاديث التي لا تصلح للاحتجاج، كالضعيفة والموضوعة[1]. فزاد ذلك من تطرف خصومهم الأشاعرة، في استخدام العقل، والبُعد عن النص والاقتراب من المعتزلة[2].

وقد ساير الحنابلة في حياتهم الفكرية تطورات عصرهم فأسَّسوا المدارس[3]، وتوسَّعوا في تأليف الكتب[4]، ووُجدت في مذهبهم بعض آثار الاعتزال والأشعرية[5]، والتصوف[6] وأهل الكتاب[7]. لكنهم كانوا أكثر الطوائف اتفاقاً، وأقلُّها تنازعاً لكثرة تمسُّكهم بالسُّنَّة والآثار[8]، التي ميَّزتهم عن غيرهم من فئات المجتمع، في مواقفهم من قضايا عصرهم الدينية والكلامية المثارة في زمانهم.

= ومن سوء فهمهم لها، حتى أنهم يقولون القولين المتناقضين. (ابن تيمية: المصدر السابق ص٢٢، ٢٣).

(١) المصدر نفسه ص٢٣.

(٢) جلال موسى: نشأة الأشعرية ص٢٠٢.

(٣) سبق الكلام عن مدارس الحنابلة.

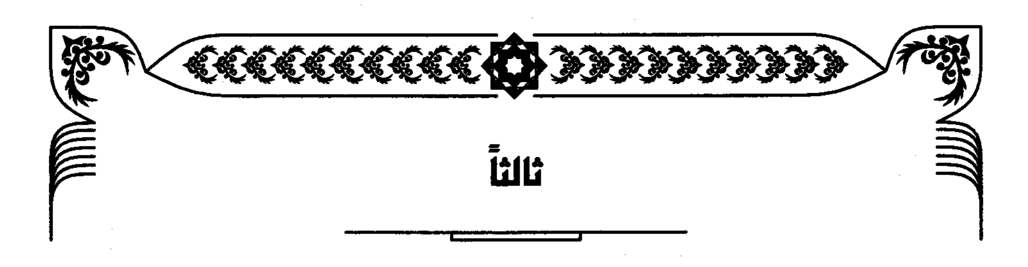
(٤) عبد العزيز الأهل: المرجع السابق ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٥) تأثر ابن عقيل ببعض أفكار المعتزلة (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، هامش ص٤٤٤)، وتأثر أبو يعلى ببعض ما قاله الأشاعرة، وتابعه ابن عقيل (ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ١٢/٢). وحتى المعتزلة كان لهم دور في دفع بعض الحنابلة إلى التطرف في أقوالهم. (زهدي جار الله: المرجع السابق ص٢٣٢).

(٦) كان التصوف في بغداد ألصق بالشافعية من غيرهم من الطوائف، لكن وُجد من الحنابلة من أخذ به وتنافس فيه. (مصطفى جواد: المرجع السابق ص٥٥٢، ٥٥٣).

(٧) جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي ص١٢٣.

(٨) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٣٧.



ثالثاً

مواقف الحنابلة من قضايا عصرهم الفكرية في بغداد

شهدت بغداد حياة فكرية نشطة فيما بين[١] (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م) أثيرت خلالها قضايا علمية عديدة، في الكلام، والعقائد، والفقه، وكان فيها للحنابلة مواقف متميزة، وواضحة، **أذكر منها ما يأتي**:

أوّلها: تحديد مفهوم أهل السُّنّة

ظل مصطلح أهل السُّنَّة، واضح المعالم فترة طويلة من الزمن، مقتصراً على أصحاب الحديث والأثر، مقابل الشيعة والمعتزلة[٢]، فلما ظهرت الأشعرية في القرن (الرابع الهجري/ ١٠م)[٣]، حدث خلاف بين الناس، وتجاذبوا ذلك الاسم[٤].

والحنابلة وأهل الحديث يعتقدون أنهم على مذهب أهل السُّنَّة، الذي فصَّله الاعتقاد القادري الصادر عن الخليفة القادر بالله[٥]، ردّاً على خصومه من المعتزلة، والشيعة والأشاعرة[٦]. وقال فيه ابن القزويني

(١) يتبين ذلك جليّاً، فيما يأتي من خلال القضايا التي أثيرت في المجتمع.
(٢) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: منهج الأشاعرة في العقيدة ص١٥.
(٣) لكنها لم تنتشر، إلا في القرن (الخامس الهجري/ ١١م).
(٤) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: المرجع السابق ص١٥.
(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٧.
(٦) ابن الجوزي: المصدر السابق ٨/ ١٠٩ وما بعدها.

الحنبلي (ت٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م): «هذا قول أهل السُّنَّة، وهو اعتقادي وعليه اعتمادي»[١].

وأعلن القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، أنه على معتقد الطائفة السنِّية الناجية المنصورة إلى يوم القيامة[٢]، وتبرَّأ من الانتساب إلى الجهمية، والمشبهة، والأشعرية[٣].

وأنكر أبو الوفاء ابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) دعوى الأشاعرة موافقتهم للإمام أحمد[٤]، ثم اشتد في انتقادهم بقوله لهم: «. . . وموَّهتم على الناس بأنكم من أهل السُّنَّة، وأهل الحق، وتسمَّيتم بذلك، وما أبعدكم عن هذه التسمية»، مع تكذيبهم بنص القرآن[٥].

وجعل ابن تيمية أبا الحسن الأشعري ومتقدِّمي أصحابه من أهل السُّنَّة، لكنه عدَّ متأخري الأشعرية من المخالفين لمذهب السلف القريبين إلى الاعتزال والفلسفة[٦]. وسبب ذلك أنهم يقدِّمون العقل على الشرع عند توهّم التعارض[٧]، ويؤوِّلون بعض الصفات الخبرية، كعلوِّ الله، واستوائه

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٨.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٠٨.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٢٠٩.

(٤) George Makdisi: Quatre Opusculés - B.E.O Tome: XXIV - 1971 - p: 73.

(٥) حين أنكروا تكلم الله تعالى باختياره ومشيئته، فهم يعتقدون أن كلام الله قديم، قائم بذاته، تكلم بالقرآن في الأزل، ولا يقدر على التكلم بمشيئته حاليّاً!! لذلك رماهم ابن عقيل بتكذيب نص القرآن: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ (IBID - Tome: XXIV - 1971 - p: 91). ويرى ابن عقيل أن الأشاعرة يقدِّمون رِجْلاً نحو الاعتزال فلا يتجاسرون، ويؤخِّرون أخرى نحو أصحاب الحديث ليستتروا فلا يتظاهرون. (IBID - Tom - 1971 - p: 39).

(٦) ابن تيمية: موافقة صريح المعقول ٢/ ٩.

(٧) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: المرجع السابق ص٣١.

على العرش[1]، عكس السلف الذين لا يرون تعارضاً بين العقل والنقل، وإذا تُوهِّم التعارض قُدِّم النقل[2]، ويكرهون الخوض في علم الكلام[3].

وأما الأشاعرة فهم أيضاً يعتقدون أنهم على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة[4]، ويصفون الحنبلية بالابتداع والتجسيم[5]، وقد انتهى الأمر بالطائفتين إلى تبادل تهم التكفير والتضليل[6].

واختلف الباحثون المعاصرون اختلافاً بيِّناً في تحديد من يمثِّل أهل السُّنَّة، فألحق محمد زاهد الكوثري الحنابلة بالحشوية، وجعل الأشاعرة من السُّنَّة[7]. ويرى مصطفى الشكعة «أن لقب أهل السُّنَّة أُطلق أولاً على جماعة الأشاعرة»[8]، ثم اتسعت دائرته ليشمل أصحاب أبي حنيفة،

---

(١) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: نفس المرجع ص٥٣.

(٢) ناصر بن عبد الكريم العقل: مجمل أصول أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة، ط١، البليدة، دار ابن تيمية ص٨.

(٣) انظر: نفس المرجع ص١٠. وسفر عبد الرحمٰن الحوالي: المرجع السابق ص٥١.

(٤) قال السبكي عن الأشاعرة: «هم أعيان أهل السُّنَّة، ونصَّار الشريعة، انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية، والرافضة، وغيرهم». وقرر أن من طعن فيهم، فقد طعن في أهل السُّنَّة، ويجب على ولي أمر المسلمين تأديب وردع من فعل ذلك. (السبكي: طبقات الشافعية ٣/٣٧٦). وذكر أحمد أمين أن السبكي قسم الطائفة السنية إلى ثلاث فئات: أولها: أهل الحديث، ويعتمدون على النص، والثانية: الأشاعرة والماتريدية وهم أهل النظر، والثالثة: الصوفية، ويعتمدون على الكشف والوجدان. (ظهر الإسلام ط٣، مكتبة نهضة مصر، (١٩٦٤م)، ٤/٩٤).

(٥) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٣، وما بعدها.

(٦) انظر: ابن رجب الذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٧، وابن عساكر المصدر السابق ص٣١٣ وما بعدها.

(٧) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٩.

(٨) مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، القاهرة، دار القلم، (١٩٦١م)، ص٢٦٩.

ومالك، والشافعي، وأحمد[1]. وقسّم محمود صبحي السنِّيِّين إلى: سلف وهم أهل الحديث، وإلى خلف، منهم الأشاعرة[2]. وأشار إلى أن الأشعرية كانت أشد الفرق إصراراً على الانتساب إلى السُّنَّة؛ لتُطمئن الناس على أن مذهبها ليس مستحدثاً[3].

وفرّق الباحث علي أبو ريَّان بين السلف والأشاعرة[4]، وشجب كلَّ محاولة للربط بينهما[5]. وأدخل الشيخ سفر عبد الرحمٰن الحوالي الأشاعرة في مفهوم السُّنَّة إذا استُخدم مقابلاً للشيعة، وأخرجهم منه إذا ضُيِّق معناه[6]، وجعلهم من أهل القبلة فقط[7]. واتفق الباحثان سامي النشار، وأحمد أمين على أن الأشعرية التحقت بجماعة السُّنَّة بعد انتساب إمامها إلى أحمد بن حنبل[8]. وأما الباحث ناصر عبد الكريم العقل فيعتقد أن مصطلح أهل السُّنَّة والجماعة، لا يصدق إلا على أصحاب الحديث؛ لأنهم هم الذين كانوا على نهج النبي ﷺ وأصحابه[9].

---

(١) مصطفى الشكعة: المصدر نفسه ص٢٦٩.

(٢) محمود صبحي: في علم الكلام ٢/ ١٧.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٧.

(٤) يرى علي أبو ريان: أنه يمكن التقريب بين السلف والأشاعرة، لو كان للأشاعرة كتاب الإبانة وقسم من المقالات. أما وقد تمسَّك أتباعه بنسبة مؤلفاته إليه، فلا بد من شجب كل محاولة للربط بينهما. (علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ص٢٢٣).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: المرجع السابق ص١٦.

(٧) نفس المرجع ص١٧.

(٨) انظر: سامي النشار: المرجع السابق ١/ ٤٨٩، وأحمد أمين: المرجع السابق ٤/ ٩٤.

(٩) عبد الكريم العقل: المرجع السابق ص٦.

والصحيح هو أن الواقع التاريخي يشهد بأن أهل السُّنَّة ظهروا منذ صدر الإسلام مقابل الشيعة والخوارج[1]، قبل ظهور الأشعرية بقرون[2]. كما أن الحنابلة كانوا في مقدمة أهل السُّنَّة، في صراعهم مع طوائف بغداد منذ أيام الإمام أحمد إلى القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[3]. وهم يرون أنهم الفرقة الناجية المنصورة، وكفَّروا الأشاعرة[4]، والشيعة[5]، والمعتزلة[6]، والجهمية[7]؛ لأن هؤلاء ابتعدوا عن نهج السلف الصالح حين أنكروا الصفات الخبرية كعلو الله[8]، وحبَّذوا الاشتغال بالكلام، وعارضوا به نصوص الشرع[9].

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، ط٤، مكتبة نهضة مصر، (١٩٥٨م)، ٢/ ١ وما بعدها.

(٢) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: المرجع السابق ص٢٣.

(٣) ثبت ذلك من خلال تتبع حوادث الصراع المذهبي، بين الحنابلة وغيرهم من الطوائف مدة ثلاثة قرون.

(٤) والأشاعرة هم أيضاً كفَّروا الحنابلة، وقد تبادل الطرفان التكفير في فتنة ابن القشيري. (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٢٧).

(٥) يعتقد أبو محمد البربهاري أن الشيعة الإمامية، هم من أكْفَرِ أهل الأهواء، وذكر أنهم يعتقدون برجعة علي بن أبي طالب، ويدَّعون لأئمتهم معرفة الغيب. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٤٠).

(٦) كفَّر أهل الكلام من جهتهم، كل من لم يعرف العَرَض والجوهر، وأدلة النظر، وتوابعها. فمن لم يعرف ذلك فليس بمسلم ولا بمؤمن. وادَّعوا أن التابعين أمثال مالك بن أنس، لم يكونوا مسلمين، ولا مؤمنين. (القاضي أبو يعلى الفراء: المعتمد ص٢٧٥).

(٧) أبو الحسين ابن أبي يعلى: (المصدر السابق ٢/ ٣٧).

(٨) سفر الحوالي: المرجع السابق ص٦٣.

(٩) ابن مفلح: الآداب الشرعية ١/ ٢٣٥.

الموقف الثاني: يتعلق بقضية الاشتغال بعلم الكلام

ومفاده أن الحنابلة اختلفوا في حكم ممارسته، فاعتقد أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)[١] أن الكلام طريق موصل إلى الزندقة، والكفر، والشكوك، وأن الإمام أحمد لم يجادل، ولم يناظر، ولم يخاصم[٢]. وأعلن ابن القزويني الحنبلي (ت٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) أمام جمع من أصحابه أن الجدال بدعة، وأن المتكلِّمين على ضلالة[٣]. وذكر ابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) أن الصحابة ماتوا ولم يعرفوا الكلام، وأن طريقتهم أجود من طريقة المتكلِّمين[٤]، الذين انتهى بهم الأمر إلى الشبهات والشكوك[٥].

وفي مقابل هؤلاء قرر القاضي أبو يعلى، وأبو محمد رزق الله التميمي، مشروعية الكلام، وجواز المناظرة فيه[٦]، وتأليف الكتب للرد

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٣٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٩٦.

(٤) سأل رجل ابن عقيل، هل أقرأ علم الكلام؟. فرد عليه: أنت مسلم سليم، فما تفقد إن لم تعرف الجوهر والعَرَض؟ ثم قال له: «وإني أقطع أن الصحابة ﷺ ماتوا وما عرفوا ذلك، فإن رأيت طريقة المتكلمين أجود من طريقة أبي بكر وعمر، فبئس الاعتقاد، وقد أفضى علم الكلام بأربابه إلى الشكوك». (ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٠). وقال معتزلي لابن عقيل: «لا مسلم إلا من اعتقد وجود الله وصفاته على ما يليق به»، فرد عليه ابن عقيل: إن الرسول عليه الصلاة والسلام ما طلب ذلك من المسلمين، وقال للأمة: «**أين الله**؟ فأشارت إلى السماء، فقال: **إنها مؤمنة**»، ثم قال ابن عقيل: «القوم كانوا ينهون عن الجدال، والذي هو شُبه المتكلمين». (نفسه ١/ ٢٣٠).

(٥) المصدر نفسه ١/ ٢٣٠.

(٦) يرى ابن عساكر وابن تيمية، أن الحنابلة كانوا يعتضدون بالأشعرية في الكلام، للرد على المبتدعة، ومن رد عليهم من الحنابلة، تعلَّم على يد الأشاعرة، =

على المبتدعة[1]. وتمسَّكا بآثار رُويت عن أحمد بن حنبل، في تأييد ما ذهبا إليه[2]، وأشارا إلى أن المانعين احتجُّوا بأخبار منسوخة تراجع عنها الإمام أحمد[3].

والحقيقة هي أن كتاب «الرد على الجهمية والزنادقة» لأحمد بن حنبل، يُعتبر دليلاً ماديّاً على اشتغال إمام الحنابلة بالكلام، مما يضعف حجَّة الرافضين له مطلقاً، ويقوي جانب المجوِّزين له. وحتى أبو محمد البربهاري الساخط على الكلام فقد تأثر به في رده على المتكلمين، وفي تقريره لعقائد الحنابلة[4].

الموقف الثالث: يتعلق بقضية التنزيه والتجسيم في صفات الله

ومفاده: أن الخليفة الراضي بالله (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٤٠م) اتهم الحنابلة بتشبيه الله بصورهم[5]. ورماهم الأشاعرة ـ في خطابهم إلى

= فلم يزالوا كذلك، حتى حدثت فتنة ابن القشيري، حيث تفرَّقت الطائفتان. (ابن عساكر: المصدر السابق ص١٦٣). وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فالحنابلة مارسوا الكلام، وردُّوا على خصومهم منذ أيام أحمد بن حنبل. وأشهر الحنابلة الذين مارسوا الكلام وردُّوا على الأشاعرة، ابن شاقلا في القرن (٤هـ/ ١٠م). وأبو يعلى الفراء، وابن عقيل في القرن (٥هـ/ ١١م). وقد سبق توثيق ذلك.

(١) ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) اعترف الإمام أحمد أنه كان يأمر بالسكوت عن الكلام، ثم تراجع عن موقفه، بعدما اضطر إلى خوضه؛ لأن الحاجة داعية إليه، وأكد أن الجدال ثبت عن الرسل الكرام، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. (ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٣).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة ٢/ ١٩.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٠٨، ٣٠٩.

نظام الملك ـ باعتقاد التجسيم[1] في ذات الخالق؛ فجعلوا له قدماً، وأضراساً، ولَهاة[2].

وقد ردَّ الحنابلة على ما أُلصق بهم، بمواقف وأقوال لكبار علمائهم، فصرَّح أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) أن الله لا يوصف إلا بما وصفته النصوص الشرعية، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أولٌ بلا متى، وآخرٌ بلا منتهى[3]. وقرَّر أبو يعلى الفراء أن الخالق لا مثل له ولا شبيه ولا عديل، ولا يوصف بصفات المخلوقات الدالَّة على حدوثهم[4]. وأكد على أن البارئ ليس بجسم[5]، وأن مذهب الحنبلية حق بين باطلين[6]، وهدًى بين ضلالين؛ أي: «إثبات الأسماء والصفات

---

(١) يعتقد زهدي جار الله أن التطرف هو الذي أوصل الحنابلة إلى التجسيم. (زهدي جار الله: المرجع السابق ص٢٥٢). وقرر هنري لاوست أن مباحث الحنبلية في الألوهية، تشبيهية تجسيمية (Ibn Taiymia op cit - p: 12). ثم عاد في موضع آخر من مقدمته لكتاب السياسة الشرعية لابن تيمية، وأكد على أن مباحث الحنابلة في الألوهية لا تُعد تجسيماً، ويعتبر مذهبهم شديد التمسُّك بالتوحيد، كما جاء في القرآن والسُّنَّة. (IBID - P: 12). و يُذكر أن ابن الأهدل اليمني قسَّم الحنابلة من جهة الاعتقاد إلى ثلاث طوائف: الأولى: على المذهب السلفي، وتعتقد التنزيه، والثانية: مشبهة، تأخذ بظاهر الروايات وتمسك عن التأويل. والثالثة: تفرح بالتجسيم. (ابن الأهدل اليمني: المصدر السابق ص١٦٩).

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١١، ٣١٢.

(٣) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩.

(٤) أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ص٢١٢.

(٥) ذكر أبو يعلى الفراء أنه اختُلف فيمن قال: إن الله جسم لا كالأجسام، فقيل: إنه كافر، وقيل: فاسق؛ لأنه وصف الله بما لم يصف به نفسه ولا وصفه بها رسوله ﷺ، ولا أجمع عليها المسلمون. (المعتمد ص٢٧١، ٢٧٢).

(٦) اتُّهم القاضي أبو يعلى باتهامات شنيعة، وقد برَّأه منها ابن تيمية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

مع نفي التشبيه والأدوات»[1].

ويعتقد أبو علي الهاشمي الحنبلي (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) أن الله لا نظير له، ولا شبيه، ليس بجسم، ولا تماثله مخلوقاته[2]. وشهد أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) على أصحابه أنه لم يحفظ على أحد منهم تشبيهاً[3]، وإنما غلب عليهم الإيمان بظواهر الآيات والأخبار من غير تأويل[4] ولا إنكار[5].

وأما الأشاعرة فهم قد تشدَّدوا من جهتهم، في انتقادهم للحنابلة[6]، فوصفوهم بالحشْوية[7] والمبتدعة، والرعاع والمجسِّمة

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٠٩.
(٢) نفس المصدر ٢/ ١٨٣.
(٣) ذكر ابن عقيل أن الحنابلة اتُّهموا في عهد نظام الملك بالتشبيه، فكتب جواباً ردّاً على طلب الوزير نظام الملك، فكان مما كتبه أنه قال: نسألهم أولاً: إذا شهدوا لأحمد بالسُّنَّة والاتباع، فنحن على نهجه، كما أنتم على طريق جماعة نشهد بسلامتهم من البدعة. فإن قالوا: «إن أحمد لم يُشبّه، وأنتم شبَّهتم». قلنا لهم: الشافعي لم يكن أشعريّاً، وأنتم أشاعرة. (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ١٨٢، ١٨٣).
(٤) يقصد بالتأويل هنا كما يفهمه أهل الكلام؛ أي: نفي الصفات الإلٰهية وتعطيلها.
(٥) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ١٨٢، ١٨٣.
(٦) يرى ابن قيم الجوزية أن المتكلمين حين عجزوا عن الرد على أهل السُّنَّة، دفعهم حقدهم إلى إطلاق ألفاظ مستهجنة على مخالفيهم، كالمشبهة والمجسِّمة. (مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٣٦).
(٧) الحشْوية بإسكان الشين، وجوّز البعض فتحها، وهم جماعة سُمُّوا بذلك لحشوهم صفات التشبيه في مواضع التنزيه، وهم في الأصل جماعة كانت تجلس في حلقة الحسن البصري، فلما خالفوه قال: «ردُّوهم إلى حشى الحلقة». (ابن الأهدل اليمني: المصدر السابق ص١٦٠).
ويرى ابن تيمية أن مصطلح الحشوية أطلقه الزنادقة على أهل الحديث =

والمشبهة[1]. ويرى الشيخ ابن قدامة المقدسي أن هذه الألفاظ المستهجنة أطلقها المتكلمون لجذب العامة إليهم، وإبطال السُّنَّة والآثار[2].

وأما الشيخ ابن تيمية فقد اعترف بوجود جماعة مشبِّهة، انتمت إلى أحمد بن حنبل، حين ذكر أن التجسيم وُجد في الشافعية والأحناف، أكثر مما وُجد في الحنابلة[3]، ثم أكد على أن الحنبلية الصِّرفة بريئة من ذلك[4].

= والمتكلمين، ثم أطلقه المعتزلة على كل من يُثبِت الصفات كالكُلَّابية، والأشعرية، والكرَّامية، والفقهاء والصوفية. (نقض المنطق ص٧٤).
وقيل: أن هذا الاسم أُطلق على طائفة لا ترى البحث في الصفات، ويؤمنون بها مع اعتقادهم أن الظاهر غير مراد ويفوِّضون التأويل لله، لكن هذا مستحسن عليهم؛ لأنه هو مذهب السلف. (ابن تيمية: مناهج السُّنَّة النبوية ج٢، هامش ص٤١٥).
وذكر ابن تيمية أن المتكلمين يعيبون على أصحاب الحديث حشو القول لاحتجاجهم بالأحاديث الضعيفة والموضوعة التي لا تصلح لذلك، ولعدم فهمهم المعاني الصحيحة من الحديث الصحيح. وهذا موجود في بعضهم، حتى أنهم يقولون ـ أحياناً ـ القولين المتناقضين. فدخل عليهم الخلل من عدم صحة النقل، ومن عدم صحة الفهم، وهذا يصدق على بعضهم فقط. وأحياناً يتأولون تأويلات غير صحيحة، قد يكفِّرون بها أناساً من الأعيان ويضلِّلونهم، وتحتاج تلك التهم إلى التعزير. وذكر أنه رأى من بعض أصحاب الحديث عجائب ولم يورد أمثلة على ذلك. (نقض المنطق ص٢٢، ٢٣).
وفي المقابل ذكر ابن تيمية الفلاسفة والمتكلمين، فهم عنده «من أعظم بني آدم حشواً، وقولاً للباطل وتكذيباً للحق، وهم أكثر الناس شكّاً واضطراباً، وليس لهم إلا الجدل والاعتراض، وليس ذلك بعلم». (نفس المصدر ص٢٣، ٢٤).
أما لويس غارديه فقد حصر الحشوية في غلاة الحنابلة. (جورج قنواتي، ولويس غارديه: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة: صبحي الصالح، وفريد جبر، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين ١/ ١٠٣).

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٣١٢، ٣١٣.
(٢) ابن قدامة المقدسي: تحريم النظر ص٤٢، ٤٣.
(٣) ابن تيمية: مجموعة الرسائل الكبرى ١/ ٤١٠.
(٤) المصدر نفسه.

ولا يرى الحنابلة في إثبات الصفات الإلٰهية تشبيهاً إلا إذا قيل: يد الله كيد الإنسان، أو سمعه كسمع البشر، أو بصره كبصر بني آدم. وأما الإقرار بها مع نفي مماثلتها لنعوت المخلوقات، فليس تجسيماً، وإنما هو تنزيه. وإلا كانت كل الطوائف التي وصفت الخالق بأي صفة كالعلم، والإرادة، والسمع، والقدرة، مشبِّهة[1]. لكن الأشاعرة يعتقدون وجوب تأويل الصفات الخبرية، كعلو الله، واستوائه على العرش[2]. ويصرُّون على اتهام الحنابلة بالتجسيم لإيمانهم بالصفات، وفق مفهومهم السابق[3]. ويرى الباحث عبد العزيز الأهل أنه من الكذب على الحنابلة، جعلهم من متوهِّمي التشبيه ودعاته[4]. وسبب ذلك هو أنهم أعلنوا مراراً نفي التهمة عن أنفسهم، وأفصحوا عن تصورهم لمعنى التشبيه والتنزيه، المغاير لما يفهمه منه خصومهم.

وتُرجع الأشعرية[5] سبب وقوع الحنبلية في التجسيم، إلى عدم

---

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢١١، ٢١٢.

(٢) سفر عبد الرحمٰن الحوالي: منهج الأشاعرة في العقيدة ص٥٣، وابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٣١١، ٣١٢.

(٣) اتَّهم زهدي جار الله الحنابلة بالتجسيم اعتماداً على أبيات شعرية لأحد الحنابلة، رأى فيها تجسيماً، وهي:

وإن كان تشبيهاً ثبوت صفاته ... على عرشه إني إذاً لمجسم
وإن كان تنزيهاً جحود استوائه ... وأوصافه أو كونه يتكلم
فعن ذلك التنزيه نزَّهت ربنا ... بتوفيقه واللّٰه أعلى وأعظم

(المعتزلة ص٢٥٢).

وبمفهوم الحنابلة في الإثبات والتنزيه فإن هذه الأبيات، لا تقر التجسيم، عكس ما ذهب إليه زهدي جار الله.

(٤) عبد العزيز الأهل: شيخ الأمة ص٣٣٠.

(٥) يرى جولد تسيهر أن الأشاعرة التزموا في الكثير من الأحيان طريق المعتزلة ولم يكترثوا باحتجاجات أستاذهم الأشعري، واستمروا في التوسع في استخدام =

تأويلها[1] لآيات الصفات وأخذها على ظاهرها[2]. في حين يعتقد الحنابلة أن آيات الصفات يجب التسليم بها دون بحث فيه، فلا تُشبَّه[3]، ولا تُعطَّل[4]، ولا تفسَّر[5]، ولا تُرد كالجهمية، ولا تُجسَّم كالمشبهة[6]،

= التأويل، فراراً من التجسيم بعدما تبين لهم استحالة التوفيق بينهم وبين الحنابلة. (العقيدة والشريعة في الإسلام ص١١٠).

(١) بالمعنى الذي يقصده أهل الكلام. ويرى ابن قيم الجوزية أن الأسباب المؤدية إلى تأويل المتكلمين هي: القول المزخرف، وإطلاق الألفاظ المستهجنة على الحقائق. وإسناد المتأول تأويله إلى من له كبير شأن عند الأمة؛ لأن الناس يعظمون هؤلاء حتى أنهم يقدمون كلام الكبراء على كلام الله، بحجة أنهم أعلم منهم. (مختصر الصواعق المرسلة ١/ ٩٠).

(٢) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١١، ٣١٢.

(٣) يرى جولد تسيهر أن الحنبلية أخذت الصفات حرفياً على ظاهرها، وقاتلت انتصاراً لذلك الفهم، اعتقاداً منها أنه السُّنَّة. (العقيدة والشريعة في الإسلام ص٩٦). ورأيه هذا لا يصح، ولا يصدق على الحنابلة، ولم يُنصفهم، فهم أعلنوا مراراً أن صفات الخالق لا تشبه صفات مخلوقاته.

(٤) التعطيل هو نفي جميع الصفات عن الذات الإلٰهية، وهو عند ابن تيمية «أشر من التجسيم، فالمشبه يعبد صنماً، والمعطِّل يعبد عدماً، والممثِّل أعشى، والمعطِّل أعمى». (منهاج السُّنَّة النبوية ٢/ ٤٢٠). ويعتقد ابن القيم أن كل معطل مشبه. (مختصرالصواعق المرسلة ١/ ٣١). وكل من المعطل والمشبه لله بخلقه كافر. (الروح ص٣٥٤). ويرى الجويني أن الغلو في التنزيه أدى إلى التعطيل، والغلو في الإثبات أدى إلى التشبيه. (ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٥/ ١٨٦).

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٠٨.

(٦) تساءل ابن قدامة المقدسي، عن تهمة التشبيه التي أُلصقت بالحنابلة فقال: «...وإلا فمن أي وجه حصل التشبيه؟. إن كان التشبيه حاصلاً من المشاركة في الأسماء، والألفاظ، فقد شبَّهوا الله تعالى، حيث أثبتوا له صفات من السمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، مع المشاركة في ألفاظها». (تحريم النظر في كتب علم الكلام ص٤٠). وقال أيضاً: «...وإنما =

ولا تُحمل على التأويل والمجازات كالأشعرية[1]. وقد أوجز أبو الحسين ابن أبي يعلى معتقد طائفته في السكوت عن «لِمَ» في أفعال الله ﷻ، وعن «كيف» في صفاته[2].

والحنابلة ليسوا على درجة واحدة في إثبات الصفات[3]، فمنهم من بالغ في الأخذ به[4]. ومنهم من ابتعد عنه، ومال إلى تأويل الأشاعرة[5]. ومنهم من توسَّط بين الفئتين السابقتين[6]. وهم أقل طوائف بغداد تنازعاً لكثرة تمسُّكهم بالسُّنَّة والآثار[7].

= يحصل التشبيه والتجسيم، ممن حمل صفات الله ﷻ، على صفات المخلوقين في المعنى، ونحن لا نعتقد ذلك، ولا ندين به، بل نعلم أن الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وإن صفاته لا تشبه صفات المحدثين، وكل ما خطر بقلب أو وهم، فالله ﷻ بخلافه، ولا شبيه له، ولا نظير، ولا عدل، ولا ظهير. (نفس المصدر ص٤٣).

(١) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢١٠.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٢٦.

(٣) ذكر ابن تيمية أن أهل الإثبات من المسلمين هم: الكُلَّابية، والأشعرية، وأهل الحديث، وجمهور الصوفية، والحنابلة، وغالب المالكية، والشافعية، والحنفية. وأما المبالغون في الإثبات فهم الغلاة من الشيعة وجهال أهل الحديث. (مجموع الفتاوى ٦/ ٥١). ويعتقد ابن تيمية أن المنهج السديد في مسألة الصفات هو إثبات كل ما أثبته الله لنفسه ونفي مماثلته بخلقه، ومن عطَّل صفاته، كان جاحداً ممثِّلاً لله بالمعدومات والجمادات، ومن شبَّهه بخلقه كان ممثِّلاً له، بالحيوانات، والصواب هو إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل. (الرسالة التدمرية، شركة الشهاب، (١٩٨٩م)، ص١٤).

(٤) مثل ابن حامد، وتلميذه القاضي أبو يعلى الفراء، لكن هذا الأخير كان أبعد عن الزيادة في الإثبات عن ابن حامد. (ابن تيمية مجموعة الفتاوى ٦/ ٥٢).

(٥) كالتميميِّين، أشهرهم: أبو محمد التميمي، مال إليهم بعض الأشاعرة؛ كالباقلاني، والبيهقي. (نفس المصدر ٦/ ٥٣).

(٦) نفس المصدر ٦/ ٥٥.

(٧) ابن تيمية: نقض المنطق ص١٣٦.

ولم يكن ابتعاد الحنابلة عن تأويل الصفات وتكييفها جموداً منهم، وإنما كان اتباعاً لإمامهم أحمد بن حنبل[(١)]، وحذراً «من الخوض في الغيوب التي أُشير إليها، بألفاظ لا يدرك العقل البشري حقائق كُنهها ما دامت لم توضع أمام العيون البشرية، وتحت المشاعر الدنيوية، التي تقيس المرئيات، والمحسوسات، قياسات تليق بمداركها الدنيا»[(٢)].

الموقف الرابع: يتعلق بقضية المقام المحمود

وحوله اختلف الحنابلة مع الشافعية في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. فقال الحنابلة: إن الله يُجلس رسولَه عليه الصلاة والسلام بجانبه على العرش. وقال الشوافع: إن الآية تعني الشفاعة العظمى يوم القيامة[(٣)]، فحدثت بين الجماعتين فتنة قُتل فيها خلق كثير[(٤)]. وكان أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) لا يحل بمجلس إلا ذكر فيه أنّ الله يُقعِد رسوله ﷺ معه على العرش[(٥)].

وألَّف القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) كتاباً في فضائل النبي عليه الصلاة والسلام، ذكر منها: إجلاسه على العرش[(٦)]. ثم سرد أسماء الحنابلة القائلين بذلك، كأبي داود السجستاني (ت٢٧٥هـ/

---

(١) يرى الإمام أحمد أن آيات الصفات، لا تؤوَّل وإنما تُمر كما جاءت، فالله حي لا كالأشياء، وشيء لا كالأشياء. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٦٥).

(٢) عبد العزيز الأهل: المرجع السابق ص٣٣٠.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٦٢.

(٤) حدثت عام (٣١٧هـ) بين جماعة أبي بكر المروزي الحنبلي، وبين عامة بغداد. (أبو الفداء: المصدر السابق مج١، ٣/ ٩٤). وكان الطبري قد أنكر على الحنابلة، اعتقادهم بالمقام المحمود، فوثبوا عليه ورموه بمحابرهم..

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٤٣.

(٦) ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد مج٢، ٤/ ٣٩.

٨٨٨م)، وإبراهيم الحربي (ت٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، وعبد الله بن أحمد (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٧م)، لكنه لم يورد اسم الإمام أحمد من بين الذين أشار إليهم[١].

وأما حديث إجلاس الرسول ﷺ على العرش[٢]، فقد رُوي بطرق كثيرة، كلها موضوعة حسب ما ذكره الشيخ تقي الدين ابن تيمية[٣]. وذكر الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) أن معظم المفسِّرين[٤] يعتقدون أن المقام المحمود، هو شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة[٥]. وذكر الحافظ ابن كثير أنه قد صح الحديث بأن معنى آية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، هو الشفاعة العظمى[٦]. وقد روى أحمد بن حنبل في مسنده عدة أحاديث في ذلك المعنى[٧]، منها أن الرسول ﷺ، فسّر الآية السابقة بقوله: «**المقام الذي أشفع لأمتي فيه**»[٨].

ويتضح مما سبق ذكره أن الحنابلة القائلين بإقعاد الرسول ﷺ على

---

(١) ابن قيم الجوزية: المصدر نفسه مج٢، ٤/ ٣٩.

(٢) ذكر ابن تيمية، أن حديث المقام المحمود، ثابت عن التابعي مجاهد (ت١٠٣هـ/ ٦٢٢م)، وليس هو حديثاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام لكن السلف تلقَّوه بالقَبول، ولم ينكروه. (درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٣٧).

(٣) المصدر نفسه ٥/ ٢٣٧.

(٤) تطرق ابن خزيمة لمسألة المقام المحمود في كتابه «التوحيد»، وأكد أن معنى آية المقام المحمود هو مرتبة الشفاعة، وذكر في ذلك عدة أحاديث تدعيماً لموقفه. (انظر: كتاب التوحيد ص٣٠٥، ٣٠٦).

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ط١، بيروت، دار الأندلس، (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م)، ٤/ ٣٤١.

(٦) ابن كثير: البداية ١١/ ١٦٢.

(٧) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٣٥.

(٨) نفس المصدر ٤/ ٣٤١.

العرش قد خالفوا أكثر أهل العلم[1]. وتركوا أحاديث عديدة صحيحة تُخالف موقفهم رواها البخاري، وأحمد، وابن خزيمة[2]، وتمسَّكوا بأخبار موضوعة انتصروا لها[3]، وعدّوا معارضيهم من الجهمية[4].

ويرى المستشرق جولد تسيهر أن دعاة إجلاس الرسول ﷺ على العرش، ربما تأثروا بما جاء في إنجيل مرقص[5]. في حين ظن خصومهم أن ذلك الفهم انتقاص من قداسة الألوهية، متأثرين بالمعتزلة، فقالوا: إن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى[6].

ولا يُستبعد أن يكون حديث الإقعاد على العرش، من أخبار أهل الكتاب؛ لأنه حديث موضوع[7]. لكن ليس للمعتزلة أي أثر في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] بالشفاعة؛ لأن السُّنَّة النبوية الصحيحة هي التي بيَّنت مراد الآية، وليس هؤلاء[8].

---

(١) انظر: ابن خزيمة: المصدر السابق ص٣٠٥، ٣٠٦، وابن كثير: المصدر السابق ٤/ ٣٤١.

(٢) ذكر ابن خزيمة في كتابه «التوحيد» عدة أحاديث، ص٣٠٥، ٣٠٦. والحنابلة في جهتهم يحتجون بكتاب التوحيد، لابن خزيمة، في مسألة الصفات. وقد قرأوه في صراعهم مع خصومهم على الناس. والحديث رواه البخاري في الصحيح ٦/ ٨٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر مج١، ٣/ ٩٤.

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ١٠.

(٥) هو من الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى، وينسب لمرقص أحد أتباع المسيح، وقيل إنه كتبه عام (٦١م). (رؤوف شلبي: أضواء على المسيحية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، (١٩٧٥م)، ص٤٢، ٤٣).
جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، مصر، بغداد، مكتبة المثنى ومكتبة الخانجي، (١٩٥٥م)، ص١٢٢.

(٦) نفس المرجع ص١٢٣.

(٧) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢٣٧.

(٨) انظر: البخاري: الصحيح ٦/ ٨٦، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٤١.

الموقف الخامس: يتعلق بقضية التقليد والاجتهاد

فقد تفشَّى التقليد المذهبي بين الناس في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، بشكل لم يُعهد من قبل[١]. فاطمأنوا إليه، وترسخ في قلوبهم[٢]. وادَّعى إمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ/ ١٠٨٤م) انعقاد إجماع المحققين على منع تقليد أعيان الصحابة، وأجمعوا على اتباع أئمة المذاهب الأربعة[٣].

وأما الإمام أحمد والمتقدِّمون من أصحابه، فقد ذمُّوا التقليد المذهبي[٤]، ونهوا عنه، اتباعاً للسلف[٥]. ولم يجدوا حرجاً في مخالفة بعضهم بعضاً، وفي رد التلميذ على أستاذه[٦]. وقد تنازع متأخِّرو الحنابلة في تمذهب العامي[٧]، فهل يُقلِّد إماماً واحداً[٨]، ويتبعه في كل ما ذهب

---

(١) تطرق ولي الله الدهلوي لمسألة التقليد في المجتمع الإسلامي، قبل القرن (الرابع الهجري/ ١٠م وبعده)، بطريقة شاملة ومركزة. فانظر تلك الدراسة في كتابه: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ص٦٨ وما بعدها.

(٢) نفس المرجع ص٩٣.

(٣) جابر فياض العلواني: أدب الاختلاف في الإسلام ص١٤٦.

(٤) عرّف القاضي أبو يعلى التقليد المذموم أنه قبول قول الغير بدون حجة. (أبو الحسين ابن أبي يعلى، المصدر السابق ص٣١). وقسَّم ابن القيم التقليد إلى نوعين: تقليد مذموم، ومتابعة محمودة، وتعني: متابعة السلف الصالح. (إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين ٢/ ٢٤٠).

(٥) المصدر نفسه.

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٢١.

(٧) كان العوام في القرون الأولى في الإسلام قبل فشو التقليد، يتلقون عن أهل العلم أمور دينهم التي لا خلاف فيها كمسائل الطهارة والصلاة والصيام، وإذا وقعت لهم فيها ما يدعوهم إلى الاستفتاء استفتوا العلماء دونما نظر إلى المذهب الذي يتمذهب به العالم الذي أفتاهم. (جابر فياض العلواني: المرجع السابق ص١٣٧، ١٣٨).

(٨) يرى ابن تيمية أن الله لم يأمر الأمة باتباع أربعة أشخاص دون غيرهم، ولا يقول =

إليه، أم لا[١]؟، فقال أكثرهم بعدم الوجوب[٢].

واشتُهر من الحنابلة علماء كثيرون مارسوا الاجتهاد، وحرصوا على التمسُّك بالدليل، حتى وإن خالفوا ما نصَّ عليه مذهبهم. فقالت جماعة منهم: إن النطق بالطلاق الثلاث مرة واحدة محرم وبدعة؛ لأن الكتاب والسُّنَّة يدلان على خلاف القائلين بالجمع[٣]، فخالفوا بذلك ما ذهب إليه إمامهم أحمد بن حنبل[٤]. وعارض عبد العزيز بن جعفر غلام الخلال

= ذلك عالم، وإنما هو كما يقال: أحاديث البخاري ومسلم، فالأحاديث التي رواها الشيخان في صحيحيهما قد صحَّحها من الأئمة ما شاء الله، فالأخذ بها بكونها قد صحَّت، لا أنها قول شخص معين. (بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص٦١). ويرى ابن تيمية كذلك أنه إذا اعتقد شخص أنه يجب على الناس اتباع عالم واحد من العلماء دون غيره فيجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. وغاية ما يقال في هذه المسألة أنه يسوغ أو يجب على العامي تقليد واحد لا بعينه من غير تحديد زيد ولا عمرو، ومن كان موالياً للأئمة محبّاً لهم، فيقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسُّنَّة، فهو محسن في ذلك، بل هو أحسن حالاً من غيره. (نفس المصدر ص٤٢).

(١) يقول ابن تيمية: «ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين ـ غير الرسول ﷺ ـ في كل ما يوجبه ويخبر به» (ابن تيمية: مجموعة الفتاوى ٢٠/٢٠٨). ويرى أيضاً أن اتباع شخص معين لمذهب عالم بعينه «للعجزه عن معرفة الشرع، إنما هو مما يسوغ له، وليس هو مما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق». (نفسه ٢٠/٢٠٨).

(٢) بدر الدين الحنبلي: المصدر السابق ص٦٠.

(٣) وجد من المالكية والأحناف، من قال برأي الحنابلة، بتحريم جمع طلاق الثلاث؛ لأنه بدعة، وبذلك خالف هؤلاء الأئمة الأربعة في تلك المسألة. (ابن تيمية: المصدر السابق ١١/٢). ويرى ابن تيمية أن أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم ليست حجة ولا إجماعاً باتفاق المسلمين، بل قد ثبت عنهم أنهم نهوا الناس عن تقليدهم، وأمروا بترك أقوالهم إذا وجد من الكتاب السُّنَّة، ما هو أقوى من آرائهم، والأخذ بما دل عليه النص. (نفسه ١١/٢٠).

(٤) المصدر نفسه.

(ت٣٦٣هـ/ ٩٧٣م) أستاذه أبا بكر الخلال في مسائل كثيرة، ولم يقلده فيها[١]. من ذلك قول الأول: إن الصلاة في الثوب المغصوب باطلة، في حين قال الثاني بصحتها في تلك الحالة[٢].

وكان أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) يعتقد أن التقليد مرض يفتك بالأمم[٣]، لذلك اشتد في محاربته والنهي عنه[٤]، ومارس الاجتهاد بنفسه، رغم قلة زاده في السُّنَّة النبوية. وكان يقول: «الواجب اتباع الدليل، لا اتباع أحمد»[٥]. وانفرد بمسائل عديدة، خالف بها مذهبه[٦]. وحين شاع عن قاضي القضاة أبي الحسن الدامغاني (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) أنه لا يقضي إلا بما أفتى به أبو حنيفة، وكبار أصحابه[٧]، وأعلن بأعلى صوته غلق باب الاجتهاد[٨]، أنكر عليه ابن عقيل تعصبه، والتزامه في أقضياته بمذهب الأحناف دون غيره من المذاهب[٩]. واعتبر دعوته إلى التقليد فساداً وخروجاً عن الإجماع[١٠].

---

(١) أورد أبو الحسين ابن أبي يعلى في «طبقاته» مسائل عديدة خالف فيها غلام الخلال شيخه الخلال، من ذلك: أن الأستاذ قرر أن الكفر ملة واحدة، في حين مِلَل تلميذه: إن الكفر مِلل، وأيّده في ذلك القاضي أبو يعلى الفراء. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٢١ وما بعدها).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن عقيل: كتاب الفنون ٢/ ٦٠٤.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢١٠.

(٥) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٨٩، ١٩٠.

(٦) أورد ابن رجب بعض اختيارات ابن عقيل في كتابه الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٩٠.

(٧) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٢١٠.

(٨) وأعلن أيضاً أنه لم يبق على وجه الأرض مجتهد. (نفسه ٩/ ٢١٠).

(٩) المصدر نفسه ٩/ ٢١٠.

(١٠) المصدر نفسه.

وتصدَّى ابن عقيل لجماعة من الحنابلة[1]، دعت إلى تقليد الإمام أحمد، والتشبُّث بآرائه[2]. فاحتج عليها بأن الصحابة لم يسلكوا ذلك النهج[3]؛ لأن اختلافهم في مسائل الفقه، كان قائماً على الدليل، وليس على السابقة في الإسلام، أو الشجاعة والبلاء في الجهاد[4]. لذلك لم يساير أحمد بن حنبل الذين تقدَّموه في مذاهبهم، ولم يعتمد إلا على الحجة[5]. فخالف أحمد أبا بكر الصديق في مسألة الجد، فلم يجعله

---

(١) تصدَّى ابن قدامة المقدسي للرد على ابن عقيل، في كتابه تحريم النظر في كتب أهل الكلام، فرد عليه بعنف، ومما قاله فيما يخص التقليد: «. . . وعلى كلٍّ فهو ـ أي: ابن عقيل ـ قد نفّر من التقليد وأنكر حسن الظن بالمشايخ، فكيف يحسن الظن فيمن ينكر حسن الظن به؟، وكيف يقبل من ينهى من قَبول قول غيره؟ وينبغي لنا أن نقبل قوله في نفسه فيُساء الظن به ولا يقبل قوله في غيره». وذكر أن ابن عقيل قال: إن الأحمق من اغتر بأسلافه، وسكن إلى مقالة أشياخه بتقليدهم من غير بحث عن مقالاتهم. ثم عَدّ الموفق كلام ابن عقيل سُمّاً رديئاً. (تحريم النظر ص٩). ويبدو أن ابن قدامة لم يفرق بين المتابعة العامة لمنهج السلف في استنباط الأحكام وبين تقليدهم في الفقه بغير دليل، وهذا هو الذي حرَّمه السلف. (ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٢/ ٢٤٠).

(٢) أوجب ابن حامد قَبول كل ما رُوي عن أحمد؛ لأن الذين نقلوا عنه أمناء، أثبات فيما رووه. وأكد على أنه لا تُعل رواية وإن انفردت، ولا تُنفى عنه وإن غَرُبت، ولا تنسب إليه مسألة رجوع حتى يقوم الدليل عليها. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٧٤). ويرى أبو الحسين ابن أبي يعلى أن الإجابات والردود التي وردت عن الإمام أحمد هي بمثابة ما نقل عن الرسول ـ ﷺ ـ من المرويات لا تسقط موجباتها إلا بنص واضح بالنسخ أو التخفيف والتيسير. وأكد أنه إذا ثبت القول عن أحمد فلا يرد إلا باليقين. (نفس المصدر ٢/ ١٧٦). وقوله هذا باطله أكثر من صوابه، وفيه غلوٌّ كبير، لا يقوله فقيه راسخ في العلم.

(٣) ابن عقيل: كتاب الفنون ٢/ ٦٠٥.

(٤) نفس المصدر ٢/ ٦٠٢.

(٥) المصدر نفسه.

كالأب، ووافق زيداً في هذه القضية، «فلو كان قد نظر إلى رتبة التقدم والسبق، لكان اتباعه للصديق أولى من زيد، فلما لم يفعل ذلك اتباعاً للدليل دون التفضيل للأشخاص، وجب الآن النظر في الأدلة في عصرنا دون تعظيم المشايخ، اقتداء بالسلف من آدم إلى الآن»[(١)].

ويُعد القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) أكبر مجتهدي الحنابلة في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)[(٢)]. وقد تركت دعوته إلى نبذ التقليد آثارها الحميدة في تلاميذه الكثيرين[(٣)]. كمحفوظ الكلوذاني (ت٥١٠هـ/ ١١١٦م)، وابن عقيل[(٤)] (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م)، وهما قد خالفا أحمد بن حنبل في مسائل عديدة، منها: تحريم أكل لحم الزرافة، وعدم اشتراط الترتيب في الوضوء[(٥)].

وذكر الشيخ محمد أبو زهرة أن الشافعية والأحناف هم الذين دعوا إلى غلق باب الاجتهاد، في حين عارضهم الحنابلة[(٦)]، الذين حثوا على

---

(١) ابن عقيل: نفس المصدر ٢/ ٦٠٦.

(٢) ابن كثير: البداية ١٢/ ٩٤، ٩٥.

(٣) انظر: عبد القادر أبو فارس: المرجع السابق ص٣٠٠ وما بعدها.

(٤) كان ابن الجوزي من أكثر الناس تأثراً بابن عقيل في الدعوة إلى الاجتهاد، ونبذ التقليد، فكان يقول: «وإن جماعة من أصحابنا لهم أقوال في الأصول، ولا أعتقدها، إذ لا أصول لها، فلا يحل فيها التقليد». (George makdisi: Quatre Opuscules - p: 65).

(٥) عبد القادر أبو فارس: المرجع السابق ص١٩٦.

(٦) يُعد عبد الرحمٰن بن منده من فقهاء الحنابلة المجتهدين الأحرار الفكر، فقد أنكر ما اشتهر عن الإمام أحمد في تفسيره لحديث: **«خلق الله آدم على صورته»**، وبيَّن بطلان تلك الرواية في كتابه الرد على الجهمية. (ابن رجب: المصدر السابق، ط١، القاهرة، ١/ ٢٩). وكان أحمد قد أنكر على من فسَّر الحديث السابق بأن معناه، أن الله خلق آدم على صورة آدم، وجعل من اعتقد ذلك، جهمياً، ثم قال: «وأي صورة كانت لآدم قبل خلقه». =

البحث والنظر[1]، سيراً على نهج الأئمة ـ أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد ـ الذين اتفقت مواقفهم على نبذ التقليد، والدعوة إلى الاجتهاد، والالتزام بنصوص القرآن، والسُّنَّة الصحيحة[2]. ثم ذكر أن الحنبلية، تعتقد بعدم جواز خُلُوِّ أي عصر من المجتهدين[3]، وتعجبت من غياب المجتهد المطلق[4] في المتأخرين رغم وفرة المرويات، ويسر وسائل الاستنباط عن السابق[5].

= (أبو الحسين ابن أبي يعلى المصدر السابق ٢/ ١٣١).
وأصل الحديث هو: «**إذا قاتل أحدكم، فليتجنَّب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته**». (رواه مسلم وغيره. مسلم: الصحيح ٤/ ٢٠١٦)، ويرى ابن خزيمة أن حرف الهاء في «**على صورته**» لا تعود إلى الله وإنما تعود إلى الذي ضرب، وقد نهى الرسول ﷺ عن ضرب الوجه؛ لأن الله خلق آدم على تلك الصورة، وتشبيه ذلك بوجه الله هو ضلال. (كتاب التوحيد ص٣٨).
ويرى أيضاً أنه ربما أضاف الصورة إلى الرحمٰن كإضافة الخلق إلى الله، وأما الأثر الذي يقول: «إن الله خلق آدم على صورته، وطوله ستون ذراعاً»، فالمقصود أن الله خلق آدم على صورته الأولى، حيث طوله ستون ذراعاً؛ لأن الله لا يمكن أن يشبه خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. (نفس المصدر ص٤١).
والأمر الذي يجب التأكيد عليه هو أنه يجب الإنطلاق دائماً فيما يتعلق بالصفات من نصوص التنزيه القطعية؛ كقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. فكل ما خالف ذلك فباطل.

(١) أبو زهرة: ابن حنبل ص٣٥٩.
(٢) ناصر الدين الألباني: صفة صلاة النبي ﷺ ط١، الرياض، دار المعارف، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) ص٤٥، وما بعدها.
(٣) أبو زهرة: أصول الفقه ص٣٩٢.
(٤) هو الذي يستخرج الأحكام من الكتاب، والسُّنَّة، والقياس، وباقي أصول الفقه، بدون تقليد لأحد، وهو الذي يرسم لنفسه مناهج الاستنباط. وعن مراتب الاجتهاد انظر: أبو زهرة: أصول الفقه ص٣٨٩.
(٥) نفس المرجع ص٣٩٢. وأبو زهرة: ابن حنبل ص٣٥٩.

والحنابلة ـ بذلك الموقف الداعي إلى الاجتهاد ـ يكونون قد شجَّعوا على حرية الفكر الصحيح، وساهموا في العمل على مقاومة التعصب المذهبي الذي أفسد الفكر والعقول من جهة؛ وسعوا لشحذ الأذهان، وتفجير الطاقات، وإثراء الفقه الإسلامي، ليساير احتياجات المجتمع المتجددة من جهة أخرى.

الموقف الأخير ـ السادس ـ: يتعلق بقضية التسعير

وقد مرَّت ببغداد فترات عصيبة فيما بين سنتي (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م) قلَّ فيها الغذاء، وارتفعت فيها الأسعار ارتفاعاً فاحشاً[(١)]. فأصبح فيها الناس في أمس الحاجة إلى فقهاء لإصدار فتوى، بجواز تدخل الدولة للحد من غلاء أثمان السلع الاستهلاكية الضرورية. **فما الذي فعله الحنابلة؟.**

يعتقد الإمام أحمد بن حنبل: «أن الغلاء، والرخص من فعل الله سبحانه»[(٢)]. ويرى أبو يعلى الفراء أنه «لا يجوز أن يُسعَّر على الناس الأقوات، ولا غيرها في رخص وغلاء»[(٣)]. ووافقه على فتواه معاصره القاضي الماوردي الشافعي[(٤)] (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

---

(١) عرفت بغداد سنوات عديدة ارتفعت فيها الأسعار، وعن ذلك انظر: (ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٧٧، ٣٨١، ٤٦٥، ٥٢٨، ٦٠١، وابن كثير: البداية ١٢/ ٣٤، ٥٦، ٦١، ٦٨، ٨٨، ٨٩). وهنالك سنوات قليلة رخصت فيها السلع منها: عام (٤٤٧هـ)، عمَّ فيها الرخص مناطق كثيرة. (ابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ٨٨).

(٢) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٦٩.

(٣) الأحكام السلطانية ص٢٨٧.

(٤) قرر الماوردي أنه لا يجوز التسعير في الأقوات ولا غيرها، في رخص ولا غلاء. (الماوردي: الأحكام السلطانية، ط٢، مصر، شركة ومطبعة البابي الحلبي، (١٩٦٦م)، ص٢٥٦). وكان القاضي أبو يعلى أخذ عبارة الماوردي كما هي ودوَّنها في كتابه الذي جعل له نفس عنوان كتاب الماوردي. وقد حقق =

وقد منع غالبية فقهاء الحنابلة، والشافعية، والأحناف التسعير مطلقاً[1]، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن الله هو المسعِّر، القابض، الباسط، الرزاق، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحد منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال**»[2]. فلو كان جائزاً لفعله الرسول عليه الصلاة والسلام[3]، وقالوا: إن التسعير هو تقييد لحرية التصرف في الملكية، ونظر في مصلحة المشتري دون البائع[4].

وأجاز المحقق ابن قيم الجوزية ـ ومن قبله الإمام مالك ـ التسعير في الأقوات في فترات الغلاء[5]. وأجازه ابن تيمية في حالات الاحتكار إذا أراد به التجار الإضرار بالناس[6]. فيجب في هذا الظرف إلزامهم

= عبد القادر أبو فارس، كتاب أبي يعلى «الأحكام السلطانية»، وقارنه بكتاب الماوردي، فانتهى إلى أن الماوردي أسبق في تأليف كتابه من أبي يعلى، وجعله على مذهب الأحناف والشوافع، والمالكية، فجاء أبو يعلى وجعل كتابه على مذهب الحنابلة ليكمل الفراغ الذي تركه الماوردي. (أبو فارس: المرجع السابق ص٥٢٦). والكتابان متشابهان في العرض والتفريع، وبهما فصول متطابقة في الأفكار حتى أنه يصعب التفريق بينهما. (نفس المرجع ص٥٠١). ولا يُعرف سبب ظاهر دفع الماوردي إلى إغفال مذهب الحنابلة رغم أنهم من أهل السُنَّة، ويمثلون غالبية سكان بغداد، في حين أن المالكية عددهم بها قليل جداً بالمقارنة إلى عدد الحنابلة.

(١) أبو فارس: المرجع السابق ص٤٨٤.

(٢) ابن ماجه: السنن ٢/٧٤١.

(٣) أبو فارس: المصدر السابق ص٤٨٦.

(٤) المصدر نفسه ص٤٨٥، ٤٨٦.

(٥) المصدر نفسه ص٤٨٦، وابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مطبعة المدني، القاهرة ص٣٥٥. ويوسف القرضاوي: الحلال والحرام في الإسلام، دار البعث، قسنطينة ـ الجزائر، (١٩٨٤م)، ص٢٠٩.

(٦) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢٨/١٠٥، ويوسف القرضاوي: المرجع السابق ص٢٠٩.

بالتسعير «الذي هو إلزام للعدل الذي ألزمهم الله به»[١].

ويرى الشيخ يوسف القرضاوي أن حديث منع التسعير يشير إلى قانون العرض والطلب في الظروف العادية، فالتدخل في حرية الأفراد ـ في هذه الحالة ـ ظلم لهم[٢]. أما إذا تدخلت عوامل غير طبيعية للتلاعب بالأسعار: «فمصلحة المجموع هنا مقدمة على حرية بعض الأفراد، فيباح التسعير استجابة لظروف المجتمع أو لحاجته، ووقاية له من المستغلين الجشعين»[٣].

فالمانعون للتسعير حرَّموه اعتماداً على حديث وحيد مرتبط بالظروف الاقتصادية العادية، ولم يتناولوه في ضوء قواعد الإسلام العامة في الحلال والحرام[٤]. ولا في أحوال اجتماعية متأزمة كما فعل الذين جوَّزوه. وعليه فيمكن القول: إن المعاناة التي عاناها أهل بغداد، في ظل كثرة الفتن، وقلَّة الأقوات، وغلاء الأسعار، كانت كافية على حمل فقهاء الحنابلة على الترخيص بالتسعير، لكنهم لم يفعلوا ذلك، وهم الذين كانوا قد أجازوا الابتعاد عن الخلافة الراشدة، التي أوجبها فقههم، دفعاً للضرر، وحقناً للدماء[٥].

ويتضح من تتبع مواقف الحنابلة من قضايا عصرهم، أنهم ساهموا في تنشيط حياة بغداد العلمية بما طرحوه من آراء في مختلف المسائل العلمية، وبما أنتجوه من مؤلفات وفق منهاجهم السلفي الذي اشتهروا به.

---

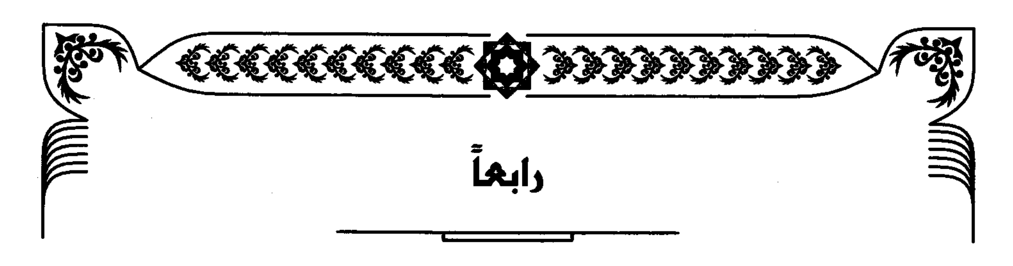
(١) ابن تيمية: المصدر نفسه ص٢٠٩.

(٢) نفس المرجع ص٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) منها قاعدة: الضرورات تبيح المحظورات. وعنها وعن باقي القواعد، انظر: يوسف القرضاوي: المرجع السابق ص١٧ وما بعدها.

(٥) انظر: ابن تيمية: الخلافة والملك. باتنة، شركة الشهاب، بدون تاريخ ص٢٨، ٤٧.



رابعاً

تراث الحنابلة العلمي في بغداد

(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

اقتصر أصحاب أحمد بن حنبل في غالب الأحيان[١] على تدارس ما تركه إمامهم من مصنفات[٢]. غير أن تلاميذهم أكثروا من تأليف الكتب (في القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م وما بعدهما)، فشمل إنتاجهم علوماً عديدة[٣]، كالفقه، والكلام، والأدب، والطب[٤]. وكان ابن البناء الحنبلي (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) أكثرهم تأليفاً فرُوي أن مؤلفاته قاربت الخمسمائة كتاب[٥].

وقد ضاع الكثير من تراث الحنابلة العلمي، من جرَّاء ما حلَّ ببغداد من فتن وكوارث مدمِّرة عبر تاريخها الطويل[٦]. من ذلك أن القاضي أبا

(١) يعتبر إبراهيم الحربي (ت٢٨٥هـ/ ٨٨٨م) من أوائل الحنابلة الذين مارسوا التأليف، فألف غريب الحديث، ودلائل النبوة، وسجود القرآن. (عبد العزيز الأهل: المرجع السابق ص٣٤٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ذكر ابن عقيل أن الحنابلة لم يدققوا في العلوم الغامضة، ودققوا في الورع، وأخذوا ما ظهر من العلوم، وتركوا ما وراء ذلك. فعدَّ مصطفى الشكعة ذلك الأمر من قبيل السلبية الفكرية. (مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة ص٨٨٦).

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٠٥.

(٥) عبد العزيز الأهل: شيخ الأمة أحمد بن حنبل ص٣٤٥.

(٦) سبق أن أشرنا إلى فتن بغداد. وأعظم ما أصابها كان يوم أسقطها التتار عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) ألَّف سبعة وخمسين مصنَّفاً، لم يبق منها إلا القليل، وبعضها ناقص[(١)]. وكتب ابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) موسوعة الفنون في نحو ستمائة مجلد[(٢)]، فلم يصلنا منها إلا جزءان[(٣)]. وما يزال كثير من ذلك الإنتاج، مخطوطاً، أكثره كان موجوداً في المكتبة الظاهرية بدمشق[(٤)]. وقد غطى إنتاجهم العلمي مجالات عديدة، **نذكر منها تسعة:**

أولها: يتعلق بأصول الدين وعلم الكلام

يعد الإمام أحمد هو أول من كتب في العقائد من الحنابلة في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة»[(٥)]. ثم توسع أتباعه من بعده في ذلك المجال، فألف أبو بكر الخلال كتاب «السُّنَّة»، وهو أشمل مصنف جمع أقوال أحمد بن حنبل في أصول الدين[(٦)]. وكتب أبو محمد

---

(١) أبو فارس: المرجع السابق ص١٨٦.

(٢) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٨٨، ١٨٩.

(٣) عثر عليهما، جورج مقدسي في المكتبة الوطنية بباريس، ونشرهما، وعن ذلك انظر مقدمتي الجزء الأول والثاني.

(٤) أشار أسعد طلس إلى أن المكتبة الظاهرية بدمشق كانت تحتوي على العشرات من مؤلفات الحنابلة، معظمها لم يطبع. (ابن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد، تحقيق: أسعد طلس، المعهد الفرنسي، بدمشق، بيروت، (١٩٤٣م)، ص١٥، ١٦).
ومن تلك المخطوطات رؤوس المسائل للشريف أبي جعفر، والانتصار في المسائل الكبار، من تأليف: أبي الخطاب الكلوذاني.
Henri Laoust: le Henbahisme - R.E.I - Vol: 1 - 1959 - pp: 102 - 103.

(٥) سبقت الإشارة إلى مؤلفات أحمد بن حنبل.

(٦) ابن تيمية: كتاب الإيمان، حققه: حسين أبو يوسف الغزال، ط١، بيروت، دار إحياء العلوم، (١٩٨٤م)، ص٢٩١.

البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) رسالة «شرح السُّنَّة في اعتقاد السلف»[١].

وصنف أبو إسحاق بن شاقلا الحنبلي (ت٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) مؤلفات كثيرة في علم الكلام ضاعت كلها[٢]، إلا مقاطع من كتاباته مبعثرة في بطون الكتب[٣].

وألَّف القاضي أبو يعلى (ت٤٥٨هـ/ ١٠٥٦م) «المعتمد في أصول الدين»، و«مختصر المعتمد»، و«الرد على الأشعرية»[٤]، و«الرد على الكرَّامية»، و«الرد على الباطنية»، و«الرد على المجسِّمة»[٥]، و«الرد على ابن اللبان»، و«إبطال التأويلات لأخبار الصفات»، و«مختصر إبطال التأويلات»، ولم يصلنا من هذه الكتب إلا القليل كـ«المعتمد في أصول الدين»[٦] وقد نشره حديثاً الباحث وديع زيدان عام (١٩٧٣م)[٧].

وصنَّف أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) «الإرشاد في أصول الدين»، و«نفي التشبيه»[٨]، و«الانتصار لأهل الحديث»، و«مسألة في الحرف والصوت»، وكتاب «الفنون»[٩]، ضمّنه مباحث أصولية كلامية عديدة[١٠]. وقد نشر له جورج مقدسي كتابين: «الجدل»، و«الرد على

---

(١) كتابه هذا منشور ومتداول بين أهل العلم.

(٢) Daniel Jimaret: Théories de l'acte Humain dans l'école hanbatile - Tome: XXIX - 1977 - p: 162.

(٣) انظر أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ١٢٨ وما بعدها.

(٤) أبو فارس: المرجع السابق ص٢٦٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) طبعته دار المشرق ببيروت، وقد نال به محققه وديع زيدان الدكتوراه بتوجيه من جورج مقدسي. انظر: مقدمة الكتاب.

(٨) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ١٨٨.

(٩) المصدر نفسه ١/ ١٨٨، ١٨٩.

(١٠) انظر على سبيل المثال: ١/ ٢٤٠.

الأشاعرة العزال»[1].

وصنَّف عبد الله الأنصاري الصوفي الحنبلي الهروي (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) كتاب «ذم الكلام وأهله»[2]، وقد تأثر فيه بطريقة المحدِّثين، وكان أحياناً يسترسل في التعبير عما يجول في خاطره[3].

ومن مصنفات الحنابلة التي وصلتنا في العقائد وعلم الكلام: رسالة في معنى الإيمان، بعثها الإمام أحمد بن حنبل إلى صديقه أبي عبد الرحيم الجزجاني احتفظ ببعضها ابن تيمية في كتاب «الإيمان»[4]، وفيها رد على المرجئة في موقفهم من الإيمان[5].

ومنها: «رسالة الإصطخري»، عن عقيدة أحمد بن حنبل، رواها عنه، وهو أحد أصحابه، وجيرانه[6]. وتعرَّض فيها لمسائل عقائد أهل السُّنَّة، كالإيمان، والقدر، ورد فيها على مخالفيه من الفرق[7].

---

(١) الأول: نشره في نشرة الدراسات الشرقية: B.E.O - Tome: XX - 1967 - pp: 206 - 119 تحت عنوان: Le livre de dialectique d'Ibn Aquil، والثاني: نشره في نفس المجلة وعنوانه: Quatre Obscules de Ibn AquiI sur le Coran - B.E.O - Tome: XXXIV - 1971.

(٢) ما يزال مخطوطاً. ناصر الدين الألباني. صفة صلاة النبي ص٢٠٤، والسبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٧٢.

(٣) أكرم ضياء العربي: دراسات تاريخية ص١٤١.

(٤) ص: ٢٩١.

(٥) هذه الرسالة جاءت كرد على رسالة بعثها أبو عبد الرحمٰن الجزجاني، وابتدأ أحمد رسالته بقوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، أحسن الله إلينا وإليك، في الأمور كلها، وسلَّمنا وإياك من كل شر برحمته، أتاني كتابك تذكر فيه ما تذكر من احتجاج من احتج من المرجئة، واعلم رحمك الله أن الخصومة في الدين ليس من طريق أهل السُّنَّة. . . .». (ابن تيمية: كتاب الإيمان ص٢٩١).

(٦) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ١/ ٢٤.

(٧) المصدر نفسه.

ورسالة اعتقاد الإمام أحمد[1]، حدّث بها أبو الفضل بن عبد الواحد التميمي (ت٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)، وتناول فيها قضايا الصفات، والإيمان، وخلق القرآن، والخلافة[2]، وهي أكثر دقة وعمقاً وتحليلاً من رسالة الإصطخري[3].

ومنها: اعتقاد أبي بكر بن أبي داود السجستاني (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، جاء في قصيدة حائية من ثلاثة وثلاثين بيتاً[4]. حثَّ فيه على التزام منهج السلف، والبعد عن أهل البدع، وتطرق فيه لقضيتي القدر والإيمان[5].

وكتاب «شرح السُّنَّة»[6] ألَّفه أبو محمد البربهاري (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، فصّل فيه عقائد أهل السُّنَّة، كالإمامة، والصفات، والإيمان، والخلافة، والشفاعة، وفضل الصحابة، وردَّ فيه على الشيعة، والخوارج، والجهمية[7].

---

(١) ألحقه حامد الفقي بالجزء الثاني من طبقات الحنابلة. (نفس المصدر ٢/ ٢٩٣، وما بعدها).
ويرى ابن تيمية، أن هذا الاعتقاد رواه، أبو الفضل التميمي حسب فهمه هو، ليس بلفظ أحمد بن حنبل. (نقض المنطق ص١٣٧).

(٢) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) انظر: نفس المصدر ١/ ٢٤ وما بعدها، و٢/ ٢٩٣ وما بعدها.

(٤) أورد أبو الحسين ابن أبي يعلى، القصيدة بكاملها في طبقاته ٢/ ٥٣، ٥٤.

(٥) المصدر نفسه ٢/ ٥٣، ٥٤

(٦) توجد الرسالة في طبقات الحنابلة ٢/ ١٩، وما بعدها. وقد نشرها حديثاً، أبو ياسر خالد الردادي في طبعة متقنة، وحققها وزوَّدها بفهارس متنوعة. مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م). وقد أورد ابن بطة العكبري الحنبلي تلميذ البربهاري، معظم محتويات كتاب أستاذه شرح السُّنَّة في مؤلفه «الشرح والإبانة على أصول الديانة»، المعروف «بالإبانة الصغرى». (أبو محمد البربهاري: شرح السُّنَّة، تحقيق: أبو ياسر الردادي ص٣٩).

(٧) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٢٧ وما بعدها.

وتميَّز الكتاب بأسلوب التقرير، والوصف، لكنه لم يخلُ من مسحة كلامية، دلَّت على تأثر مؤلِّفه بعلم الكلام رغم محاربته له[1]. ويُؤخذ عليه تكراره للمسائل، وخلطه بين موضوعات العقيدة، والفقه، والآداب[2]، واحتوائه على أحاديث واهية، وضعيفة جدّاً[3].

وحوار في مسائل الاعتقاد[4]، دار بين ابن شاقلا الحنبلي (ت٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) ومتكلم معارض له، تركز على مسألتي التأويل والتشبيه[5]. وقد أظهر فيه ابن شاقلا براعة ومقدرة فائقتين في المناظرة[6]، لم تُعهد في غيره من الحنابلة المعاصرين له[7].

وكتاب «المعتمد في أصول الدين» للقاضي أبي يعلى الفراء؛ شرح فيه مذهب الحنابلة وأصحاب الحديث بتوسع، وردَّ فيه على الأشاعرة والمعتزلة والشيعة، وأبدى فيه كفاءة علمية عالية، في إلمامه بموضوعات الكتاب، وفي غزارة معلوماته، وتمكُّنه من الأسلوب الجدلي[8].

ورسالة اعتقاد أبي يعلى الفراء، جمعها ابنه أبو الحسين عن عقيدة

---

(١) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: نفس المصدر ٢/ ١٩.
(٢) أبو محمد البربهاري: شرح السُّنَّة ص٥١.
(٣) نفس المصدر ص٥٢.
(٤) أورده أبو الحسين ابن أبي يعلى بكامله في طبقات الحنابلة ٢/ ١٢٨ وما بعدها.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) انظر: نفس المصدر ٢/ ١٣٣ وما بعدها.
(٧) لم تذكر المصادر المتوفرة، شخصية حنبلية مارست الكلام، وبرعت فيه، كابن شاقلا في منتصف القرن (الرابع الهجري/ ١٠م). وكان ابن شاقلا من المكثرين للتأليف في علم الكلام.
Danial Gimaret: Op Cit - p: 162.
(٨) انظر مثلاً: ص٥١، ٥٤، ٦١، ٢٥٩.

والده[1]. وضمَّنها مجموعة مباحث في مسألة الصفات، والرد على الجهمية، والمشبهة، والأشاعرة، لنصرة الحنبلية التي صرَّح أنه يعتقدها، وهي عنده حق بين باطلين، وهدى بين ضلالين[2].

ورسالة اعتقاد أبي علي بن أبي موسى الهاشمي[3] (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)، وهي رسالة مختصرة قرر فيها كاتبها، مذهب الحنابلة وأصحاب الحديث، وردَّ فيها على خصومهم تلميحاً لا تصريحاً[4]، وطغى عليها أسلوب التقرير، وخلت من المناقشة والتحليل.

وآخرها كتاب «الرد على الأشاعرة العُزال وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال» لابن عقيل الحنبلي، صنَّفه ردّاً على الأشعرية في موقفها من القرآن وكلام الله[5]. وقد بدا فيه عنيفاً شديد اللهجة، في مهاجمته للأشاعرة، فبدَّعهم، وأخرجهم من الطائفة السُّنِّية[6]، في وقت اشتد فيه النزاع المذهبي، بينهم وبين الحنابلة[7].

---

(١) اعتمد في كتابه على مؤلفات والده. انظر: طبقات الحنابلة ٢/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢١٠.

(٣) أورده أبو الحسين ابن أبي يعلى، بكامله في طبقات الحنابلة ٢/ ١٨٣ وما بعدها.

(٤) انظر: نفس المصدر ٢/ ١٨٤، ١٨٥.

(٥) ذكر ابن عقيل عن الأشاعرة، أنهم يقولون عن القرآن: «إنما هو حكايته، وما أشرتم إليه عباراته. وأما القرآن، فهو قائم في نفس الحق، غير ظاهر، لإحساس الخلق».
George Makdisi: Quatre Opscules: p: 93.
وادَّعوا أن الله ما كلَّم موسى تكليماً، وإنما اضطره إلى معرفة المعنى القائم بالذات من غير أن يسمع صوتاً أو يفهم حرفاً... (IBID - P: 85).

(٦) IBID - p: 91.

(٧) رجَّح جورج مقدسي فترة تأليف الكتاب فيما بين: (٤٨٣ ـ ٤٩٩هـ). (IBID - p: 58)، وفي تلك الفترة كان الصراع قائماً بين الحنابلة والأشاعرة.

المجال الثاني: يتعلق بمؤلَّفات الحنابلة في الحديث النبوي

وقد اشتهر الحنابلة أكثر من غيرهم من الفرق الإسلامية بشدة تمسُّكهم بالسُّنَّة النبوية[1]. وألَّفوا فيها كتباً عديدة[2]، منها مسند الإمام

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٦٧.

(٢) يعتز الحنابلة بحديث كل رواة سنده حنابلة، يُعرف بحديث سلسلة الذهب، أورده ابن العماد الحنبلي بمتنه وسنده في شذرات الذهب، مج٣، ٥/ ٤١٥، ٤١٦. وقد اشُتهر الحنابلة أكثر من غيرهم من الطوائف الإسلامية بشدة تمسُّكهم بالسُّنَّة، حتى أصبح حبّهم رمزاً للتمسُّك بها. (الخطيب البغدادي: المصدر السابق ١٢/ ٦٧). وسلوكهم عَلَماً عليها. من ذلك أن الخليفة المطيع قدَّم للحنابلة أموالاً لبناء قبر على ضريح الإمام أحمد، لكنهم رفضوا بحجة أن ذلك العمل ليس من مذهبه. ونصحوه بالتصدق بذلك المال. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٥١). لكن الحنابلة تسلَّلت إليهم كثير من المظاهر الشركية، والابتداع في الدين تأثراً بطوائف بغداد الأخرى. من ذلك أن القاضي أبا علي الهاشمي الحنبلي قَبّل رِجل قبر أحمد بن حنبل، فسأله مرافقه رزق الله التميمي عن الدليل، فلم يجبه، وقال: «أحمد في نفسي شيء عظيم، وما أظن أن الله تعالى يؤاخذني بهذا». (نفس المصدر ٢/ ١٨٦). وحين توفي الشريف أبو جعفر لزم الناس قبره ليلاً ونهاراً مدة طويلة، وخُتمت على قبره ألوف الختمات. (نفس المصدر ٢/ ٢٤١). وكان أحد زهاد الحنابلة لا ينام إلا قليلاً، فإذا مشى نهاراً، وبيده محبرة أو إناء، كان النوم يغلبه فيسقط على الإناء أو المحبرة، فتُصاب جبهته. (نفس المصدر ٢/ ١٧٨). وكان أحدهم محبّاً للخلوة، فإذا خرج من خلوته أحس أن روحه تخرج عنه عندما يأكل، وينشغل عن الذكر عند الإفطار من الصوم. وهذا الرجل نسي أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفطر ويذكر الله. (نفس المصدر ٢/ ١٦٩). وكل ذلك صدر عن قوم يدَّعون أنهم يحاربون البدع، والشركيات، وهم واقعون فيها كذلك. (نفس المصدر ج٢، تعليق المُحقق، هامش ص٢٤١).

أحمد، ويُعد من أقدم مؤلَّفات الحديث، ومن أوثقها. وهو من جهة أخرى يُعتبر كتاب فقه احتوى على مبادئ مذهب الحنابلة[1].

ومنها أيضاً كتاب «السنن» لأبي داود السجستاني (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وقد عرضه على أحمد بن حنبل فاستحسنه[2]. وتداوله العلماء، وأثنوا عليه[3]. وقال فيه أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م): يكفي المجتهد معرفة أحاديث سنن أبي داود[4]. وقد أصبح كالمصحف بين أيدي أصحاب الحديث[5]. لكن مؤلِّفه روى فيه عن الضعفاء وسكت عنهم، وضمَّنه أسانيد منقطعة[6]. ومنها أيضاً كتاب «غريب الحديث» صنَّفه إبراهيم الحربي البغدادي (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وقد نُشر حديثاً في ثلاثة مجلدات[7].

وأما مؤلَّفات الحنابلة الحديثية التي لم تصلنا[8] فهي كثيرة، منها: «زوائد المسند»، ألَّفه عبد الله بن أحمد (ت٢٩٠هـ/ ٩٠٢م). وكان ما يزال متداولاً حتى القرن (العاشر الهجري/ ١٦م)[9]. وكتاب «السنن»، صنَّفه أبو بكر النجاد[10] (ت٣٤٨هـ/ ٩٥٩م). وكتاب «المسند»، صنفه أبو بكر

---

(١) محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة ص١٣١.

(٢) الذهبي: سير إعلام النبلاء ١٣/ ٢٠٩، وابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٥٥.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٥٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الذهبي: المصدر السابق ١٣/ ٢١٢.

(٦) نفس المصدر ١٣/ ٢١٥.

(٧) ناصر الدين الألباني: صفة صلاة النبي ﷺ ص١٩٣.

(٨) بناء على المصادر المتوفرة.

(٩) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، بيروت، المكتبة العصرية، (١٩٨٧م)، ٤/ ١٣٨.

(١٠) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٣٤.

أحمد بن جعفر الحنبلي[1] (ت٣٦٥هـ/ ٩٧٥م).

المجال الثالث: يخص مؤلّفات الحنابلة في الفقه وأصوله

وقد أكثر الحنابلة من التأليف في الفقه وأصوله. وتميز إنتاجهم بالغزارة والتنوع[2]، من ذلك: مسند أحمد بن حنبل، فهو كما أنه كتاب حديث، فإنه أيضاً كتاب أصول، فيُعدُّ أول مصنف في أصول الفقه الحنبلي[3]. ومنها كتاب «المختصر في الفقه»، صنَّفه الفقيه عمر بن الحسين الخرقي (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، وهو أشهر كتاب فقهي وصلنا في فقه الإمام أحمد بن حنبل. وقد شرحه كبار علماء المذهب، كأبي يعلى الفراء، والموفق بن قدامة المقدسي[4] (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م). وقد تناول فيه مؤلِّفه مختلف قضايا الفقه، من عبادات ومعاملات، وبلغت ألفين وثلاثمائة قضية[5].

ويُعد كتاب «السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد من أوسع المصنفات التي جمعت فقه الإمام أحمد وأصوله[6]. ويُضاف إليه مجموعة كتب أخرى ضمَّت أُقضيات أحمد وفتاويه، عُرفت بمسائل أحمد، وقد نُشر بعضها حديثاً. منها ما ألفه إسحاق المروزي (ت٢٥١هـ/ ٨٥٦م)، وإبراهيم ابن هاني[7] (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م)، وأبو داود السجستاني[8]. وخصَّص

---

(١) نفس المصدر ١/ ٢٨٣.

(٢) انظر القائمة التي أنشأها هنري لاوست وسامي الدهان، لمؤلفات الحنابلة، ضمن فهارس الجزء الأول للذيل على طبقات الحنابلة.

(٣) كما هو كتاب حديث، من جهة أخرى. (محمد ماهر حمادة: المرجع السابق ص١٣١).

(٤) Henri Laoust: Le Hanbalisme - R.E.I - Vol: 1 - 1959 - p: 6.

(٥) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٧٦.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) ناصر الدين الألباني: المصدر السابق ص٢٠٠.

(٨) ولتر باتون: المرجع السابق ص٢٧٤.

أبو الوفاء بن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) قسماً كبيراً للفقه المقارن، في موسوعته الفنون في شكل حوارات(١).

وأما مؤلَّفات الحنابلة الفقهية الضائعة(٢) فهي كثيرة، منها: «الجامع الكبير» في ثلاثين مجلداً لأبي بكر الخلال(٣) (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م). وكتاب «الشافي» في ثمانين جزءاً، ألَّفه غلام الخلال(٤) (ت٣٦١هـ/ ٩٧٣م). ومنها: «مصنَّفات أبي يعلى الفراء الفقهية»، وقد زادت عن ثلاثة عشر كتاباً(٥).

وقد كانت المكتبة الظاهرية بدمشق تحتوي على مخطوطات حنبلية كثيرة، منها كتاب «رؤوس المسائل» للشريف أبي جعفر البغدادي، تعرض فيه للمسائل المختلف فيها بين الإمام أحمد وغيره من الفقهاء(٦). وكتاب «الانتصار في المسائل الكبار»، و«التمهيد في أصول الفقه»، وهما للفقيه أبي الخطاب الكلوذاني البغدادي(٧) (ت٥١٠هـ/ ١١١٦م).

المجال الرابع: يخصُّ مؤلَّفات الحنابلة في تفسير القرآن وعلومه

ولم ينشر من إنتاج الحنابلة في «تفسير القرآن وعلومه» إلا القليل، منها كتاب «المصاحف» لمؤلفه أبي بكر بن أبي داود السجستاني (ت٣١٦هـ/ ٩٩٨م)، نشر حديثاً في عدّة طبعات، وقد جمع فيه مؤلفه كل

---

(١) انظر مثلاً: ١/ ١٩٩ و٢/ ٤٥١.

(٢) بناء على المصادر والمراجع التي أمكن الاطلاع عليها.

(٣) بدر الدين الحنبلي: مختصر فتاوى ابن تيمية ص٦١٤.

(٤) ابن كثير: البداية ١١/ ٢٧٨.

(٥) أبو فارس: القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية ص١٥٨، ١٥٩.

(٦) Hinri Laoust: Op. Cit Vol: 1 - 1959 - p: 102.

(٧) الثاني في حالة جيدة، يستحق النشر، IBID - Vol: 1 - 1959 - p: 103.

ما يتعلق بالمصاحف: كتابة، وجمعاً، ونطقاً وشكلاً. وصنَّف كتاباً آخر عنوانه: «غريب القرآن، المسمَّى بنزهة القلوب»[١].

وقد كان في المكتبة الظاهرية بدمشق تفسير للقاضي أبي يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م). وآخر صنفه الفقيه ابن البناء الحنبلي[٢] (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م). وصنَّف عبد الله الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) تفسيراً للقرآن الكريم باللغة الفارسية[٣]. وألَّف أبو داود السجستاني كتاب «الناسخ والمنسوخ»، ظل متداولاً حتى القرن (العاشر الهجري/ ١٦م)[٤]. وكانت لأبي الحسن المنادي (ت٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) مصنفات كثيرة في علوم القرآن جمع فيها بين الرواية والدراية، ولم يشتهر منها إلا اليسير، لشراسة أخلاقه[٥]. وصنَّف أبو بكر ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) عدة مؤلفات لم أعثر عليها[٦]، منها: «عجائب علوم القرآن»، و«الرد على من خالف مصحف عثمان بن عفان»[٧].

والمجال الخامس يتعلق بمصنَّفات الحنابلة في الحسبة والإرشاد

وقد أكثر الحنابلة الكتابة في مجال التربية والإرشاد[٨]، وجاءت كتاباتهم على شكل فتاوى، ورسائل، وكتب. منها رسالة الإمام أحمد

---

(١) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق ص١١٩.
(٢) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 234.
(٣) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٧.
(٤) السيوطي: المصدر السابق ٤/ ٢٩٣.
(٥) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢١٩.
(٦) بناء على المصادر المتوفرة.
(٧) الموسوعة العربية الميسرة ١/ ١٠.
(٨) عبد العزيز الأهل: المرجع السابق ص٣٤١.

إلى الخليفة المتوكل، وموضوعها مسألة خلق القرآن، جمع له فيها أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وآثاراً عن الصحابة والتابعين[1]. ومنها ردود وإجابات أبي يعلى الفراء، ردَّ بها على أسئلة وردت إليه من خارج بغداد، وقد أورد ابن قيم الجوزية نماذج من تلك الإجابات في كتابه «بدائع الفوائد»[2].

ومنها خطابات كثيرة كتبها أبو الوفاء ابن عقيل (ت٥١٣هـ/١١١٩م) وجَّهها إلى كبار رجال الدولة، منها: «مذكِّرة توجيه وإرشاد» للوزير أبي شجاع[3] (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م). ورسالة احتجاج وإنكار أرسلها إلى الوزير عميد الدولة ابن جهير (ت٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، حين ظهر منه ما يخالف الشرع[4]. وجواب توضيحي ووعظي أرسله إلى السلطان ملكشاه السلجوقي (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م)، عندما أفسدت

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١٠/ ٣٤٠.

(٢) من الأسئلة التي وردت إلى أبي يعلى من مكة وردّ عليها ثلاثة أسئلة: **السؤال الأول**: هل حركة اللسان بالقرآن قديمة؟. فأجاب: إن حركة اللسان محدثة، ولا يجوز القول أن حركة اللسان قديمة. (مج٢، ٤/ ٤٠١).

والسؤال الثاني: هل يقال أفضل الناس بعد الرسول ﷺ الخلفاء الأربعة، ثم طلحة، ثم الزبير إلى آخر المبشرين بالجنة؟. فأجاب: الأولى العطف في الخلفاء الأربعة بالواو؛ لأن (ثم) تستلزم الترتيب، وليس لنا نقل في ذلك. وعمر بن الخطاب أمر هؤلاء العشرة أن يختاروا منهم واحداً، ولم يعين. وذلك ظاهر التساوي، كما أن (ثم) تفيد الترتيب؛ أي: تقديم طلحة على الزبير، والزبير على عبد الرحمٰن. (المصدر نفسه مج٢، ٤/ ٤٠).

والسؤال الثالث: هل يجوز القول بأن الله يرحم الكفار؟ فقال: لا يجوز ذلك لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، و﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، لكن يقال: يخفف الله عذاب بعضهم: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، و﴿ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾. (نفس المصدر مج٩، ٤/ ٤١).

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٩٩٢.

(٤) ابن رجب: المصدر السابق ١/ ١٧٨، ١٧٩.

الباطنية عقيدته[1].

ومنها أيضاً: «مذكرة نصح وإرشاد» كتبها الفقيه ابن البناء الحنبلي (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، أرسلها إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ - ١٠٧٥م). ذكّره فيها بمسؤولياته تجاه رعيته، ونبّهه إلى ما يحدث من ظلم في دولته[2].

وكتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ألّفه القاضي أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، أوجب فيه الإنكار على المخالفين للشرع[3]. وهذا الكتاب كانت له مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق[4].

ويُلحق بمصنَّفات التربية والإرشاد التأليف في الأخلاق والتصوف، فلم أعثر على مؤلفات صوفية صنَّفها حنابلة استوطنوا بغداد[5]. لكن

---

(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٧٣، ٧٤.

(٢) George Makdisi: AUTOGRAPHE DIARY - Vol: 19 2eme Partie - 1957 - p: 225 et Seq.

(٣) جاء هذا الكتاب في ٢٩ فصلاً، وفي الفصل الثالث، أوجب فيه أبو يعلى، الإنكار على السلطان، إذا عطل الحدود، واستأثر بأموال الفيء والغنائم والأعشار. (أبو فارس: المرجع السابق ص١٨٦). مع عدم جواز شهر السيف عليه. (نفس المرجع ص١٨٩). وفي الفصل الخامس والعشرين، منع التسمي بملك الملوك، وملك الأملاك، وشاهنشاه. (نفس المرجع ص١٨٨).

(٤) نفس المرجع ص١٨٦ وما بعدها. كانت المخطوطة موجودة فيها قبل نقل مخطوطاتها إلى مكتبة الأسد. وهذا التنبيه يصدق على كل المخطوطات التي ذكرنا أنها كانت موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

(٥) عرفت بغداد متصوفة حنابلة، لكن عددهم قليل، كأبي الخطاب الصوفي المقرىء (ت٤٧٦هـ). (ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق ٢:٣/ ٣٥٣، وابن رجب: المصدر السابق ١/ ٥٩، ٦٠). وهو القائل:

فكن حنبليّاً تنج من كل بدعة فأحمد عند اللّه في الزهد أبرع

(ابن رجب: المصدر السابق ٢/ ٥٨). وكذلك علي بن بشار الصوفي. (أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٥٨).

وَجدتُ من كَتَبَ منهم في التصوف والصوفية في كتاباتهم العامة، كأبي الوفاء بن عقيل الذي ذمَّهم، وفضَّل المتكلمين عليهم[1]. وابن بطة العكبري هاجمهم في كتابه «الإبانة»، وبدَّعهم، وأنكر عليهم الرقص، والتصفيق، وتمزيق الثياب[2].

ويُعدُّ عبد الله الأنصاري الحنبلي[3] (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) أحد أقطاب الصوفية المسلمين، سكن هراة[4]، وكان كثير التردد على بغداد[5]. وألَّف طبقات الصوفية باللغة الفارسية، ترجم فيه لكبار المتصوفة كأبي القاسم الجنيد، والحلاج[6]. وصنَّف منازل السائرين، وقد نُشر حديثاً، وشرحه ابن قيم الجوزية في كتابيه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين»، وكتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين»[7].

المجال السادس: يخصُّ مؤلَّفات الحنابلة في التاريخ

كتب فيه الحنابلة مؤلَّفات كثيرة، لم يصلنا منها إلا القليل، كيوميات ابن البناء الحنبلي (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، سجَّل فيها حوادث

---

(١) ابن مفلح: المصدر السابق ١/ ٢٣٣.

(٢) Henri Laoust: La profission de Foi d'ibn Batta - p: 87, 88.

(٣) كان شديد البغض للأشاعرة، والمعتزلة، ويفرق بين مذهب الشافعي، ومذهب الأشعري. (ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق ١/ ٨٣). وهو القائل: مذهبُ أحمد، أحمد مذهب. (نفس المصدر ١/ ٦٦).

(٤) تقع مدينة هراة بإقليم خُراسان. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥/ ٣٤٦).

(٥) زار بغداد عام (٤٦٢هـ) وأكرمه الخليفة القادر، وزارها كذلك سنة (٤٧٤هـ)، وأطلق عليه الخليفة المقتدي لقب شيخ الإسلام. ابن رجب: المصدر السابق ١/ ٧٣.

(٦) S.D.E. Laugler: Khawaja Abdullah ansari - imprimie Catholique - Beyrouth - S.T - 1965 - p: 270.

(٧) الكتابان مطبوعان ومتداولان بين أهل العلم.

بغداد يوماً بيوم، وهو شاهد عيان فيما يروي[1]، لكنها ضاعت ولم يبقَ منها إلا قسم صغير[2].

ومنها كتاب «طبقات الحنابلة»، صنَّفه أبو الحسين ابن أبي يعلى الفراء (٤٥١ ـ ٥٢٦هـ/ ١٠٥٩ ـ ١١٣١م)، وهي أقدم ما وصلنا في تراجم الحنابلة، كتبه مؤلفه في مطلع القرن (السادس الهجري/ ١٢م)[3]، لكن كاتبه عاش القسم الأكبر من حياته في القرن (الخامس الهجري/ ١١م).

ودوّن أبو الوفاء ابن عقيل (٥١٣هـ/ ١١١٩م) مجموعة رسائل ضمَّنها كثيراً من الحوادث التي عاصرها، وهي بمثابة مذكرات شخصية. وقد استفاد منها أبو الفرج عبد الرحمٰن ابن الجوزي استفادة كبيرة، وأورد بعضها في كتابه «المنتظم»[4].

ويعتبر الفقيه أبو بكر الخلال (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م) أول من ألَّف في «طبقات الحنابلة»، لكن كتابه ضاع ولم يُعثر عليه، إلا على وريقات منه كانت في المكتبة الظاهرية بدمشق[5]. وقد اعتمد عليه من جاء بعده

(١) ابن عقيل: كتاب الفنون ج١، هامش ص٢٨.

(٢) كان ذلك القسم موجوداً في المكتبة الظاهرية، بدمشق، تحت رقم: مجموع ١٧، بخط المؤلف ذكر فيه حوادث بغداد المختلفة، طيلة ٣ أشهر من عام (٤٦٠هـ)، وسنة (٤٦١هـ) بكاملها. وقد استمر ابن البناء في كتابة يومياته حتى عام (٤٧١هـ). لكن لا تعرف السنة التي بدأ فيها تدوين يومياته. وقد قام جورج مقدسي بترجمة هذه اليوميات إلى اللغة الإنجليزية ونشرها مع النص العربي في نشرة الدراسات الشرقية والإفريقية.

Bulletin of the School of Oriental and African Studies - University of London - Vol: XVIII - 1950 - 9 - 31, 239 - 260, and Vol: XIX - 1957 - 13 - 48, 281 - 303, 443 - 456.

(٣) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 59.

(٤) انظر مثلاً: ٨/ ٤، ٧٣، ٧٥، وابن كثير: البداية ١٢/ ١٣٥.

(٥) Henri Laoust: le Hanbalisme - Tome: 1 - 1959 - p: 80.

من الحنابلة، في تدوين تراجمهم[١].

ومن المصنَّفات التاريخية الحنبلية التي لم أعثر عليها، ما كتبه ابن البناء الحنبلي، كالتاريخ وأخبار القاضي أبي يعلى، ومناقب الإمام أحمد، وأصحاب الأئمة الخمسة. وكذلك كتاب «التاريخ» ألفه أحمد بن حنبل، وكان ما يزال متداولاً حتى القرن (العاشر الهجري/ ١٦م)[٢].

ويتبيَّن من تتبُّع مصنفات الحنابلة في التاريخ فيما بين سنتي (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٦م). أن الذي وصلنا منه قليل جدّاً؛ لأن بعضها مفقود، والآخر ما يزال مخطوطاً. لذلك فإن معظم كتب التاريخ الإسلامي المطبوعة حديثاً ليست من مؤلَّفاتهم، إلا القليل منها ككتاب «المنتظم» لأبي الفرج بن الجوزي[٣]، الذي عاش في القرن (السادس الهجري/ ١٢م). وهو أقل انتشاراً بين الناس، بالمقارنة إلى «تاريخ الطبري»، أو «مروج الذهب» للمسعودي، أو «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، أو «العبر» لابن خلدون.

المجال السابع: يتعلَّق بمصنفات الحنابلة في الفكر السياسي

تناولت أغلب مؤلفات الحنابلة الفكر السياسي ـ خلال الفترة المدروسة ـ ضمن الكتابات العامة، في أصول الدين وفروعه[٤]، ما عدا «الأحكام السلطانية»[٥] الذي صنَّفه القاضي أبو يعلى الفراء، وهو أهم

---

(١) George Makdisi: Ibn Aquil - p: 59.

(٢) جلال الدين السيوطي: المصدر السابق ٤/ ٢٧٥.

(٣) ومنها كتاب ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، وقد عاش مؤلفه في القرن (الحادي عشر الهجري)، والكتاب مطبوع ومتداول.

(٤) انظر مثلاً: أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، ط. القاهرة، ١/ ٣٥.

(٥) يشبه هذا الكتاب الأحكام السلطانية الذي ألَّفه الماوردي. وعن ذلك انظر: أبو فارس المرجع السابق ص٤٩٩ وما بعدها.

كتاب متخصِّص في الفقه السياسي الحنبلي في القرن (الخامس الهجري)، تعرَّض فيه لمسائل مرتبطة بالخليفة والشعب، كالإمامة، ونصب الإمام، وواجبات الحاكم تجاه رعيته، وواجب الأمة نحوه[1]. وقد أولاه الحنابلة اهتماماً خاصّاً، واقتبسوا منه الكثير في مصنَّفاتهم، ويُعد أول كتاب صنَّفه حنبلي في الفقه السياسي الإسلامي[2].

وتطرق القاضي أبو يعلى لقضايا سياسية، أثارت الخلافات بين المسلمين في كتب أخرى، كـ«المعتمد في أصول الدين»، ركز فيه على موضوع الإمام والإمامة[3]، وتبرئة معاوية[4]، وردّ فيه على منتقدي خلافته من وجهة نظر حنبلية. وفي مؤلَّفه المخطوط: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، أسهب في دراسة علاقة الأمة بالحاكم[5]. كما تعرض أبو محمد البربهاري، في كتابه «شرح السُّنَّة» لمسائل سياسية عديدة، كالخروج على الخليفة، وحصر الإمامة في قريش[6].

المجال الثامن: يتعلق بمصنَّفات الحنابلة في الفكر الاقتصادي

تطرق الحنابلة إلى موضوعات الاقتصاد، في مؤلفاتهم العامة، ضمن مباحث الفقه الإسلامي[7]. كـ«المختصر في الفقه»، تناول فيه عمر بن

(١) الأحكام السلطانية، حقَّقه: محمد حامد الفقي، ط١، مصر، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحنبلي، (١٩٣٨م)، ص٣٨ وما بعدها.

(٢) أبو فارس: المصدر السابق ص٣٤٢.

(٣) أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ص٢٢٢. وما بعدها.

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٥.

(٥) أبو فارس: المرجع السابق ص١٨٦ وما بعدها.

(٦) انظر: أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢١، ٢٢.

(٧) تطرق عمر بن الحسين الخرقي، لمسائل اقتصادية عديدة، ضمن موضوعات الفقه الإسلامي الأخرى؛ كالديات، والطلاق، والنكاح. انظر: مختصر الخرقي في الفقه ص١٣٢، ١٥٢، ١٧٩.

الحسين الخرقي (ت٣٣٤هـ/ ٩٦٤م) البيوع[١]، والشركات[٢]، والمساقات[٣]، وإحياء الموات[٤]. وتعرَّض القاضي أبو يعلى في «الأحكام السلطانية» لمصادر دخل الدولة[٥]، والخراج[٦]، والمياه المستخرجة[٧]. وكتب أبو الوفاء ابن عقيل (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م) عن الاقتصاد ومسائله، عدة مباحث في موسوعته «الفنون»، كالتجارة[٨]، والتملك[٩].

وأُشير هنا إلى أني لم أعثر على كتاب خصَّصه الحنابلة لموضوعات الاقتصاد وقضاياه. وهم قد عالجوا مختلف مسائل الفقه الاقتصادية سواء في نظرتهم لمصادر الثروة وتوزيعها[١٠]، أو في تفسيرهم للظواهر الاقتصادية، عالجوها انطلاقاً من النصِّ الشرعي مباشرة، أو من الاجتهاد المستنبط من الشريعة وروحها[١١].

المجال الأخير ـ التاسع: يتعلَّق بمؤلفات الحنابلة في الأدب

يُعتبر أبو بكر ابن الأنباري (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) من كبار علماء اللغة العربية المتبحرين في نحوها وآدابها، وقد كتب فيها مؤلفات كثيرة،

---

(١) ص٢٢.
(٢) ص٩٧.
(٣) ص١٠٤.
(٤) ص١٠.
(٥) ص٩٩.
(٦) ص١٥٩.
(٧) ص١٩٧.
(٨) ابن عقيل: كتاب الفنون ١/ ١٩٩.
(٩) نفس المصدر ٢/ ٤٥١.
(١٠) انظر: أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص١٧٣، ١٩٨، ٢١٩.
(١١) انظر: نفس المصدر ص١٧٣. وأبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ٢٦٩.

كـ«الوقف والابتداء»[١]، و«المؤنث والمذكر»، و«شرح معلَّقة عنترة»[٢].
ويُعد كتابه «الأضداد» من أشهر ما أُلف في موضوع الأضداد، فيورد الكلمة ويعطي معناها، ثم يذكر معنى آخر لنفس الكلمة يكون ضدها، ويشرحها بشواهد من القرآن الكريم والشعر[٣]. كما يعتبر كتابه «شرح القصائد الطوال الجاهليات» أوسع شروح المعلقات وأوثقها، وعالج النص معالجة وافية، من ناحية اللغة والإعراب، والقراءات والنقد، والتاريخ. وقد زوَّده محققه عبد السلام هارون بفهارس، وهوامش متقنة وتحقيقات مفيدة[٤].

ويُعد أبو عمر الزاهد غلام ثعلب[٥] (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) من أشهر أدباء الحنابلة المتضلِّعين في اللغة وغريبها[٦]. وقد ذاع صيته في زمانه حتى قيل: «لم يتكلم في اللغة أحد من الأولين والآخرين بأحسن من كلام أبي عمر الزاهد»[٧]. وزادت مؤلفاته عن الستة والعشرين كتاباً[٨]، منها: «اليواقيت»، و«شرح الفصيح»، و«تفسير أسماء

---

(١) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ١٩٦.
(٢) الموسوعة العربية ١/ ١٠.
(٣) محمد ماهر حمادة: المرجع السابق ص١٨٢.
(٤) نفس المرجع ص٢٥١.
(٥) يرى عبد العزيز الراجوكوني الهندي، الذي نشر كتاب المداخلات، لأبي عمر الزاهد، أنه لم يجد وجهاً لتسمية غلام ثعلب بالزاهد. ثم ذكر أنه وجد من قال أنه زهد في الدنيا والآخرة. (عبد العزيز الراجوكوني: كتاب أبي عمر الزاهد، المداخلات، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٩، سنة (١٩٢٩م)، ١٠/ ٦٠٥). لكن ابن كثير ذكر أن غلام ثعلب كان زاهداً حافظاً. البداية ١١/ ٢٣١.
(٦) ابن كثير: المصدر السابق ١١/ ٢٣١.
(٧) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٨/ ٢٣٠.
(٨) عبد العزيز الراجوكوني: المرجع السابق مج٩، سنة (١٩٢٩م)، ١٠/ ٦١٢.

الشعراء»[1]، و«المداخلات»، وقد نشره حديثاً عبد العزيز الراجوكوني[2].

ومن أشهر شعراء الحنابلة في القرن (الخامس الهجري)[3]: السراج القارئ (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) المشهور بكتابه: «مصارع العشاق»[4]. دوّن فيه أشعاراً، وحكايات عن العشق وأهله بأسلوب عفيف[5].

وأُشير هنا إلى أنه توجد رسائل ومذكرات ومنشورات ذات أهمية تاريخية كبرى لم يكتبها حنابلة، لكنها مرتبطة بهم ارتباطاً وثيقاً، منها أربع رسائل:

أولاها: «منشور الخليفة الراضي بالله» (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٣ ـ ٩٤٠م)، أصدره في حق الحنابلة زجراً لهم، على إثر مشاغباتهم عام[6]

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، حقَّقه: إحسان عباس بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، ٤/ ٣٣٠.

(٢) في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٩، ج١٠، سنة (١٩٢٩م).

(٣) من شعراء الحنابلة في القرن (الثالث الهجري/ ٩م)، أبو بكر الصنوبري (ت٢٩٩هـ)، كان شاعراً لطيف الشعر، وقد أورد له ابن كثير قسماً من أشعاره. انظر: البداية ١١/ ١١٩.

(٤) للسراج كتب أخرى في غير الأدب منها: مناسك الحج، وكتاب الخرقي، والتنبيه، وحكم الصبيان. (انظر: ابن رجب: المصدر السابق، ط. القاهرة ١/ ١٠١، وابن كثير: المصدر السابق ١٢/ ١٦٨). ومن أشعاره قوله في مذهب الحنابلة:

فللّه رب الناس مذهب أحمد … فإن عليه ما حييت معولي
دعوه إلى خلق القرآن لما دعوا … سواه فلم يسمع ولم يتأول
ولا رده ضرب السياط وسجنه … عن السنَّة الغراء والمذهب الجلي

(ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة ١/ ٤١).

(٥) انظر: السراج القارىء: مصارع العشاق، بيروت، دار بيروت، (١٩٨٠م)، ١/ ٤ وما بعدها.

(٦) سبقت الإشارة إلى ذلك.

(٣٢٣هـ/ ٩٣٤م). وقد احتفظ به مسكويه، وابن الأثير[١]. ولم يورده الحنابلة في مؤلفاتهم[٢].

والثانية: «الاعتقاد القادري ـ القائمي»، كتبه القادر بالله (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م). انتصاراً لمذهب السلف، ثم تبنَّاه ابنه القائم بأمر الله من بعده[٣]. وقد اتخذه الحنابلة سنداً لهم في صراعهم مع الأشاعرة[٤]، وذكروه في كتبهم، ولم يورده الشافعية في مصنفاتهم[٥].

والثالثة: «محضر الأشاعرة إلى الوزير السلجوقي نظام الملك» (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، أبلغوه فيه ما جرى لهم مع الحنبلية، وحرَّضوه على زجرها[٦]، وقد احتفظ به ابن عساكر[٧]، في حين اكتفى الحنابلة

---

(١) يختلف المنشور الذي أورده مسكويه. (انظر: تجارب الأمم ١/ ٣٢٢). عن المنشور الذي احتفظ به ابن الأثير. (انظر: الكامل في التاريخ ٨/ ٣٠٨، ٣٠٩). فالذي ذكره مسكويه أكمل من الذي أورده ابن الأثير، وقد وجدتُ في نص ابن الأثير زيادات ذات مسحة كلامية جلية خلا منها منشور مسكويه، وفي النصَّين تحاملٌ سافر على الحنابلة وافتراء عليهم في بعض المسائل. (انظر: تجارب الأمم ١/ ٣٢٢، والكامل في التاريخ ٨/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) بناء على المؤلفات الحنبلية التي اطلعتُ عليها.

(٣) يرى جورج مقدسي أن الاعتقاد القادري سلفي حنبلي، موجَّه أساساً ضد المعتزلة، والأشاعرة والشيعة. (IBN Aquil - p: 308 et seq).

(٤) أبو الحسين ابن أبي يعلى: المصدر السابق ٢/ ١٩٧.

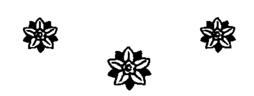
(٥) احتفظ به ابن الجوزي في المنتظم، عن طريق أستاذه محمد بن ناصر السلامي (ت٥٥٠هـ/ ١١٥٥م). الذي رواه بدوره، عن أبي الحسين ابن أبي يعلى صاحب طبقات الحنابلة. انظر: المنتظم ٨/ ١٠٩ وما بعدها. ولم أعثر عليه في كتب الطوائف السُّنِّية الأخرى.

(٦) المحضر مليء بالتهم والتعصب على الحنابلة، وقد وصفهم بشتى النعوت القبيحة. انظر: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص٣١٢ وما بعدها.

(٧) انظر الرسالة بكاملها في المصدر السابق نفسه.

بالإشارة إليه دون الاحتفاظ بالنصِّ كاملاً[1].

والرابعة: «جواب الوزير نظام الملك على خطاب الأشاعرة الذي أرسلوه إليه»[2]. وقد ذكره ابن الجوزي في المنتظم[3]، وانفرد به عن غيره من المؤرِّخين من الحنابلة والطوائف الأخرى[4].



---

(١) سبق ذكره.

(٢) سبق ذكره.

(٣) ذكر ابن كثير، ملخصاً لما جاء في رد نظام الملك، نقلاً عن ابن الجوزي. (انظر: البداية ١٢/١١٧).

(٤) لاحظ كيف أن المنشور الذي أصدره الراضي، زجراً للحنابلة، أورده خصوم الحنبلية في مؤلفاتهم دون الحنابلة. والاعتقاد القادري الذي نصر الحنابلة هم الذين احتفظوا به دون غيرهم من معارضيهم، والمذكرة التي أرسلها نظام الملك، الحنابلة هم الذين أوردوها في كتبهم. وقبل ذلك خطاب الأشاعرة إلى نظام الملك، احتفظ به الأشاعرة دون غيرهم، بناء على المصادر التي توفرت لديّ.

الخلاصة

ويُستنتج من دراستنا لتراث الحنابلة العلمي في بغداد[1] بين سنتي (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٩م)، أنه تراث غزير الإنتاج خاصة في العقائد والفقه[2]. ولم يصلنا من مصنَّفاتهم إلا القليل، فمؤلفاتهم التاريخية مثلاً ـ رغم كثرتها ـ فالموجود منها يسير جدّاً، كـ «يوميات ابن البناء»، و«طبقات الحنابلة» للحسين بن أبي يعلى، و«مذكرات

---

(١) هناك تراث علمي ألّفه حنابلة لم يسكنوا بغداد فيما بين: (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٥٨٨ ـ ١١٠٦م). من ذلك: كتاب الشريعة، ألفه أبو بكر الآجري (ت٣٦٠هـ). حققه: محمد حامد الفقي (ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م). وكتاب ابن بطة العكبري، الشرح والإبانة على أصول الديانة، حققه: هنري لاوست مع الترجمة الفرنسية للكتاب تحت عنوان (La Profission de Foi d'ibn Batta) طبعة المعهد الفرنسي بدمشق، عام (١٩٨٥). وهذا الكتاب هو الإبانة الصغرى. أما الإبانة الكبرى فلم يصلنا (Henri Laoust: le Hanbalisme - R - E - I - cahaier 1 - p: 92). وكان لكتاب ابن بطة أثر كبير، وبعيد المدى في علماء الحنابلة من بعده. (Henri Laoust: les premiers profissions - p: 31 - 32).

ومن مؤلفات عبد الرحمٰن بن منده (ت٣٩٥هـ): الرد على الجهمية، والرد على الأشعرية. (ابن رجب: المصدر السابق، ط. القاهرة، ج١ وص٢٩). والتوحيد ومعرفة أسماء الله تعالى، وقد نُشر منه حديثاً جزءان، الأول والثاني. (ناصر الدين الألباني: المرجع السابق ص١٩٦).

(٢) راجع: قائمة مؤلفات الحنابلة، بفهارس الجزء الأول، من الذيل على طبقات الحنابلة، طبعة دمشق.

ابن عقيل»[1]. وإن كانت كتبهم الأخرى هي أيضاً تُعد مصدراً ممتازاً من مصادر تاريخ الحركة الحنبلية[2]. وقد كانت معظم أعمالهم الفكرية استجابة لمتطلبات النزاع المذهبي الذي حدث بينهم وبين مختلف طوائف بغداد.

وختاماً لهذا الفصل ـ المتعلِّق بنشاط الحنابلة العلمي والتعليمي في بغداد من وفاة الإمام أحمد إلى نهاية القرن (الخامس الهجري/ ١١م) ـ يتبين منه أنهم أنشأوا أكثر من عشر مدارس حنبلية ذات صبغة سلفية. فدرَّسوا فيها مذهبهم، وتخرج منها كبار علمائهم الذين دافعوا عن مذهبهم، ونفوا عن طائفتهم تهمة التجسيم التي أُلصقت بهم، ونصروا عقيدتهم، وشرحوها وفق منظورهم الحنبلي.

وقد عرف فكرهم في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، نموّاً وانتشاراً واسعين لم يعهدهما من قبل، وبفضلهما اكتمل مذهبهم، وتأصَّل في بغداد وخارجها.

وتبين أنهم انفردوا عن غيرهم من طوائف أهل السُّنَّة، بالدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، واتباع الدليل، حتى وإن خالف ما نصَّ عليه

---

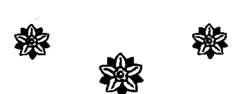
(١) كثيراً ما أشار ابن الجوزي إلى أنه نقل حوادث كثيرة، من مذكرات ابن عقيل، التي كتبها بخط يده. (انظر: المنتظم ٩/ ٤، ٤٨، ٤٩، ٨٥). ويُذكر أن أبا الحسين ابن أبي يعلى قد أشار في طبقاته إلى أن المؤرخين حملتهم عصبيتهم، على إغفال فضائل والده. (٢/ ٢٣٠). وهذا يدل على أن المؤرخين الذين قصدهم الرجل لم يكونوا نزهاء في التعرض لحوادث كان فيها للحنابلة دور بارز.

(٢) يُعد كتاب الفنون لابن عقيل، نموذجاً لتلك المصادر، وهو مصدر ممتاز لتاريخ الفكر الإسلامي عامة، والحنبلي خاصة في القرن (الخامس الهجري/ ١١م). لما فيه من أخبار غزيرة عن حياة بغداد العلمية. انظر: الفنون ج١ و ٢.

إمامهم أحمد بن حنبل. دعوا إلى ذلك في زمن أغلق فيه الشافعية والأحناف باب الاجتهاد.

واتضح أيضاً أنهم أكثروا من التأليف (في القرنين: الرابع والخامس الهجريين/ ١٠ ـ ١١م)، فشمل إنتاجهم علوماً عديدة، وقد طغى عليه الطابع المذهبي الحنبلي، استجابة للصراع الطائفي الذي خاضوه مع فرق بغداد المنازعة لهم. صنَّفوا تلك المؤلفات سيراً على نهج إمامهم أحمد بن حنبل، الذي ألَّف كتباً ردّاً على المعتزلة، والجهمية.

وأخيراً فقد تبين أنه لم يصلنا من تراثهم العلمي إلا القليل، بعضه نُشر حديثاً، وبعضه الآخر ما يزال مخطوطاً. وقد احتفظت لنا بعض المصادر التاريخية برسائل ومنشورات ذات أهمية كبرى في التأريخ للحركة الحنبلية في بغداد، **منها**: «منشور الراضي بالله»، و«الاعتقاد القادري»، و«خطاب الأشاعرة إلى نظام الملك»، و«رد نظام الملك على الأشاعرة»، و«مذكرات أبي الوفاء ابن عقيل».



الخاتمة

أظهر بحثنا هذا المتعلق بالحركة الحنبلية وأثرها في بغداد حقائق كثيرة، وتوصَّل إلى نتائج واستنتاجات هامة:

منها: أنه تبين أن الإمام أحمد بن حنبل ضلَّل معظم طوائف عصره ـ من خوارج، وشيعة، وجهمية، ومعتزلة ـ، وكفَّر المعتقدين بفكرة خلق القرآن، لكنه لم يصرِّح بتكفير الخلفاء القائلين بها. فحَملت هذه المواقف المتشددة في طياتها دعوة إلى العنف استند عليها أتباعه من بعده في نزاعهم مع خصومهم.

وهو لم يترك كتاباً جامعاً لمذهبه، بل تولى أصحابه بعد وفاته مهمة جمعه، وتدوينه، ونشره، حتى أوصلوه إلى حواضر عديدة من العالم الإسلامي قبل نهاية القرن (الثالث الهجري/ ٩م). كما أنه لم يستحسن الخوض في علم الكلام، لكنه مارسه لمصلحة شرعية ترجحت لديه. وكان مسالماً للخلفاء، لكنه عارض بعضهم، ورفض مسايرتهم، وصبر على أذاهم، وأيد الخروج على الظالمين منهم عند المقدرة على خلعهم من دون سفك للدماء.

واتضح من نشاط الحنابلة السياسي والاجتماعي، أنهم تخلَّوا عما قرَّره مذهبهم من وجوب إقامة الخلافة الراشدة، وتمسَّكوا بالاستثناء الذي يسمح به فقههم في جواز البعد عنها عند الضرورة، وجعلوه أصلاً لديهم في موقفهم من الخلافة العباسية. فبالغوا في مدحها، والذود عنها، ولم يحملوا السلاح للإطاحة بها، كما فعل الخوارج، والشيعة، والزنج،

والقرامطة. لكنهم سبَّبوا لها قلاقل ومشاكل استدعت تدخُّلها لردعهم.

واتضح أيضاً أنهم لم يشاركوا في الانقلاب السياسي على الخليفة المقتدر بالله عام (٢٩٥هـ/٩٠٧م) لإقامة خلافة حنبلية، يتولاها ابن المعتز، على ما ذهب إليه لويس ماسينيون.

وفي نشاطهم الخيري، قدَّموا للناس خِدْمات نافعة، كتعليمهم، والإحسان إليهم، والتصدق عليهم، والإشراف على مستشفى بغداد من جهة، وحملوا على عاتقهم مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفق منظورهم السلفي من جهة أخرى.

وتبيَّن من تتبُّع تطور الجماعة الحنبلية، أنها لم تكن ذات تجمع منضبط في حياة أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م). فهو وضع بذرتها فقط، لكن أصحابه من بعده هم الذين رعوها، ونصروها، وتحوَّلت على أيديهم إلى حركة منظمة لها أهدافها، وزعامتها، وأنصارها، قبل نهاية القرن (الثالث الهجري/ ٩م). وقد بلغت أوج قوتها في القرن (الخامس الهجري/ ١١م)، اعتماداً على قدرتها الذاتية أولاً، وعلى العناصر السنِّية المتعاطفة معها ثانياً، وعلى الدعم السياسي الذي تمتَّعت به نحو تسعين عاماً، على يدي الخليفتين السلفيين القادر بالله، وابنه القائم بأمر الله ثالثاً.

واتضح أن الجماعة الحنبلية لم تُوفق في السيطرة التامة على بغداد، وصَبْغها بالصبغة الحنبلية الصِّرفة. وأنها لم تكن ذات تأثير هام في الحياة الاقتصادية للبلد، ولم تهدف إلى تحقيق برنامج إصلاحي شامل لكل نواحي الحياة، لإعادة بناء الدولة والمجتمع على أُسس مذهبها الحنبلي السلفي. وأنها تبنت العنف وسيلة في منهاجها الدعوي مخالفة بذلك نهج إمامها أحمد بن حنبل المسالم. فبالغت هي في ممارسته ضمن جماعات منظمة نُسبت إلى مؤسِّسيها، كالمروزية، والبربهارية، والفرَّائية، والصمدية.

وأظهر بحثنا أن بعض المؤرِّخين تجنبوا التركيز على الجماعة الحنبلية في دورها الريادي ببغداد، وفي تزعُّمها للطائفة السنِّية في نزاعها مع خصومها، كالشيعة والمعتزلة والأشاعرة، رغبة منهم في طمس مآثرها. وقد تمكَّنت الجماعة الحنبلية من تجاوز أخطر أزمة داخلية ألَّمت بها وكادت أن تعصف بها، عندما انقسمت على نفسها بسبب محنة أبي الوفاء ابن عقيل، بين عامي (٤٦١ ـ ٤٦٥هـ/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٢م).

وتبيَّن من دراسة الفتن الطائفية التي خاضها الحنابلة مع خصومهم في بغداد، أنهم دخلوا في صراع مذهبي عنيف متعدد الجبهات، أكسبهم خبرة واسعة في حرب الشوارع، ومكَّنهم من استقطاب أصحاب الحديث من حولهم. وأن فئة من علمائهم كانت شديدة الحرص على إثارة الفتن تأييداً لمسائل فقهية خلافية، ونصراً لأحاديث موضوعة شوَّهت صورة الإسلام ولم تُفده، مخالفين في ذلك أحاديث صحيحة، وأكثر أهل العلم. وأنهم اشتهروا أكثر من غيرهم من طوائف البلد، بالتطرف والتعصُّب بسبب عاملين هما: شدة تمسُّكهم بمذهبهم، وميلهم إلى تنفيذه بالقوة من جهة، وكثرة معارضيهم الناقمين عليهم من جهة أخرى. مع أن الحقيقة هي أن خصومهم لا يقلُّون عنهم تعصُّباً، بل إن منهم من فاقهم تعصُّباً وعنفاً.

ومنها: أنه اتضح عدم ثبوت دعوى تحميل الحنابلة مسؤولية محنة الصوفية عام (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م)، ولم يثبت أنهم وقفوا بجانب الحسين الحلاج، على عكس ما ذهب إليه المستشرق لويس ماسينيون، وطه عبد الباقي سرور، وإنما سايروا أهل السُّنَّة في معارضتهم له وقتله.

وتبيّن أن الحنابلة انقسموا في موقفهم من أبي الحسن الأشعري إلى فئتين: الأولى ناصبته العداء وكفَّرته، والثانية قبلته، وآوته، وفي حمايتها حافظ أصحاب الأشعري على كيانهم مستترين بمذهب أحمد بن حنبل. وحين تغير حال الأشاعرة جاهروا بمعارضتهم للحنابلة، ونالوا منهم

لأول مرة في فتنة البكري عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م)، عندما استعانوا عليهم بالسلطة.

ولا يعود الشقاق بين الطائفتين الحنبلية والأشعرية إلى فتنة ابن القشيري سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) على ما ذهب إليه الشيخان ابن عساكر، وابن تيمية، وإنما يرجع إلى قبل ذلك بأكثر من عشرين عاماً. وقد أثار أخطر الفتن بين الجماعتين وعَّاظ أشاعرة غرباء عن بغداد دخلوها لنصرة مذهبهم. وقد أخفقت قيادات الحنابلة والشافعية، والشيعة والمعتزلة، في إيجاد صيغة توفيقية للتعايش السلمي بين أبناء البلد الواحد، وتجنيبه الفتن الطائفية المدمرة التي عصفت به، بل إن تلك القيادات ساهمت في تمزيقه، وإذكاء التعصب المذهبي بين أهله.

وفي مجال الحياة العلمية لبغداد بين عامي: (٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/ ٨٥٥ ـ ١١٠٩م)، تبين أن الحنابلة انفردوا عن غيرهم من أهل السُّنَّة، بالدعوة إلى الاجتهاد، ونبذ التقليد واتباع الدليل، حتى وإن خالف ما نصَّ عليه إمامهم أحمد بن حنبل، في وقت أعلن فيه الشافعية والأحناف غلق باب الاجتهاد في القرن (الخامس الهجري/ ١١م).

واتضح أن الحنابلة جعلوا مصطلح أهل السُّنَّة مقتصراً عليهم، وعلى أصحاب الحديث، وأخرجوا منه المعتزلة، والأشاعرة، والجهمية. ونفس الأمر فعله الأشاعرة، فجعلوا مصطلح أهل السُّنَّة مُقتصراً عليهم، وأخرجوا منه معارضيهم من الحنابلة وأهل الحديث. وكان لاختلاف الحنابلة مع الأشعرية في تحديد مفهومي التشبيه، والتنزيه، سبباً في سوء التفاهم واستحكام العداء بينهما.

وتبيّن أيضاً أن الجماعة الحنبلية لم تسلم من تأثر بعض علمائها بفكر المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة، لكنها تمكَّنت من احتواء ذلك، والمحافظة على سلفيتها وتماسكها وتنظيمها.

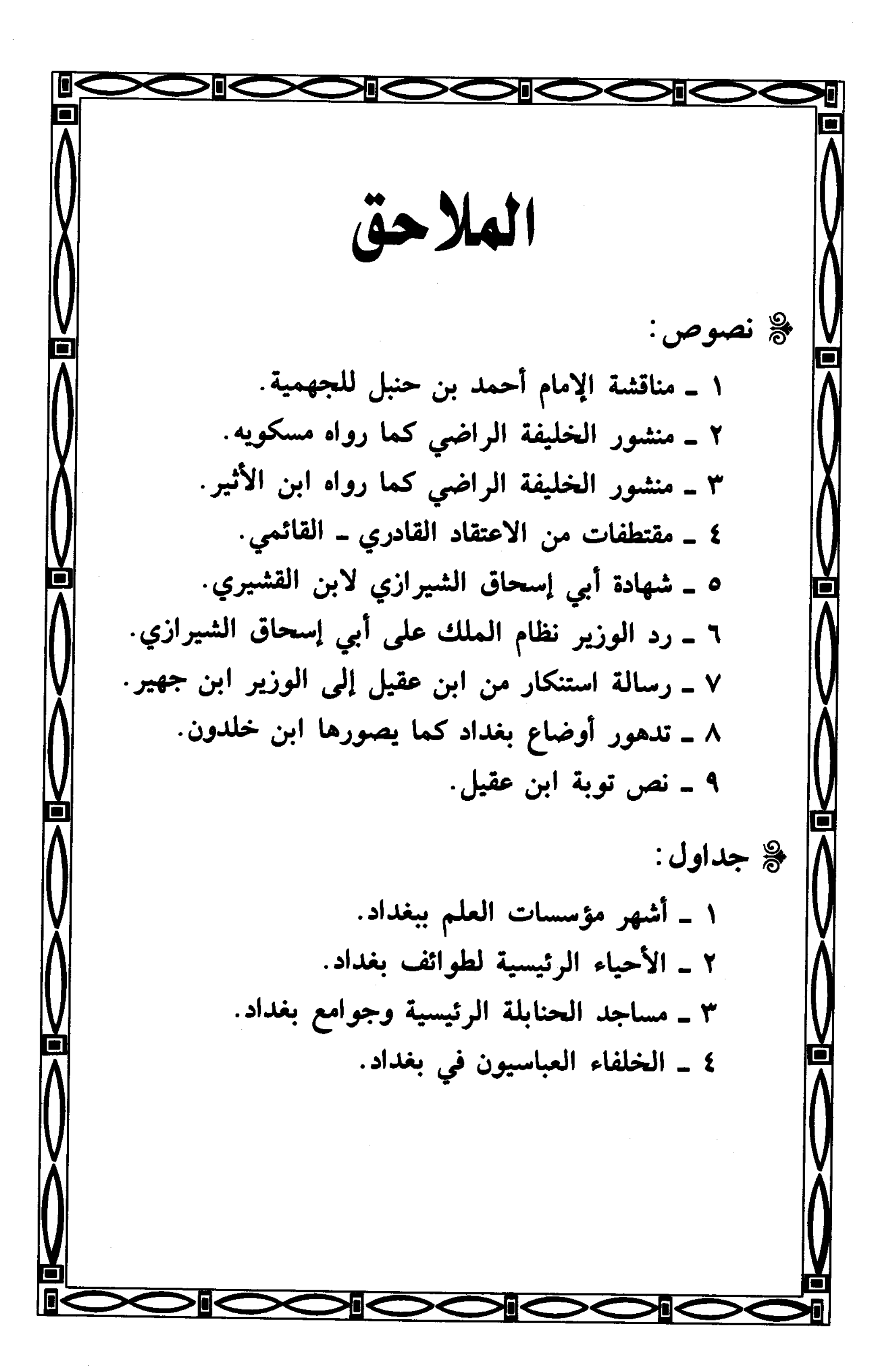
ومنها: أنه قد وصلتنا نصوصٌ تاريخية عديدة، كُتبت فيما بين عامي (٣٠٠ ـ ٥٠٠هـ/ ٩١٢ ـ ١١٠٦م)، لها أهمية كبرى في دراسة نشاط الحنابلة في بغداد. منها منشور الخليفة الراضي بالله، والاعتقاد القادري ـ القائمي، وخطاب الأشاعرة إلى الوزير نظام الملك، ورد نظام الملك على الأشاعرة، ورسائل ابن عقيل.

واتضح أيضاً أن معظم تراث الحنابلة العلمي قد ضاع، ولم يصلنا منه إلا القليل، بعضه نُشر حديثاً، وبعضه الآخر ما يزال مخطوطاً في مكتبات الشرق والغرب.

تمَّت الرسالة، ولله الحمد أوّلاً وأخيراً







الملاحق

❦ نصوص:

١ ـ مناقشة الإمام أحمد بن حنبل للجهمية.

٢ ـ منشور الخليفة الراضي كما رواه مسكويه.

٣ ـ منشور الخليفة الراضي كما رواه ابن الأثير.

٤ ـ مقتطفات من الاعتقاد القادري ـ القائمي.

٥ ـ شهادة أبي إسحاق الشيرازي لابن القشيري.

٦ ـ رد الوزير نظام الملك على أبي إسحاق الشيرازي.

٧ ـ رسالة استنكار من ابن عقيل إلى الوزير ابن جهير.

٨ ـ تدهور أوضاع بغداد كما يصورها ابن خلدون.

٩ ـ نص توبة ابن عقيل.

❦ جداول:

١ ـ أشهر مؤسسات العلم ببغداد.

٢ ـ الأحياء الرئيسية لطوائف بغداد.

٣ ـ مساجد الحنابلة الرئيسية وجوامع بغداد.

٤ ـ الخلفاء العباسيون في بغداد.



مناقشة الإمام أحمد بن حنبل للجهمية

يقول أحمد بن حنبل: «وإذا أردت أن تعلم أن الجهمي كاذبٌ على الله ﷻ، حين زعم أنه في كل مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، فقل له: أليس كان الله ولا شيء؟ فيقول: نعم، فقل له: فحين خلق الشيء خلقه في نفسه، أو خارجاً عن نفسه، فإنه يصير إلى أحد ثلاثة أقاويل: إن زعم أن الله تعالى خلق الخلق في نفسه كفر، حين زعم أن الجن والإنس والشياطين وإبليس في نفسه. وإن قال خلقهم خارجاً من نفسه، ثم دخل فيهم كفر أيضاً حين زعم أنه دخل في كل مكان وحش وقذر. وإن قال: خلقهم خارجاً من نفسه، ثم لم يدخل فيهم، رجع عن قوله كله أجمع، وهو قول أهل السُّنَّة.

وقلنا للجهمية حين زعمتم أن الله تعالى في كل مكان، قلنا: أخبرونا عن قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، كان في الجبل بزعمكم، فلو كان فيه كما تزعمون، لم يكن تجلَّى له، بل كان سبحانه على العرش، فتجلَّى الشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن رآه قط قبل ذلك.

وقلنا للجهمية: الله نور، فقالوا: هو نور كله، فقلنا لهم: قال الله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فقد أخبر جلَّ ثناؤه أن له نوراً، وقلنا لهم: أخبرونا حين زعمتم أن الله سبحانه في كل مكان، وهو نور، فلم يضئ البيت المظلم بلا سراج، وما بال السراج إذا دخل البيت المظلم يضيء، فعند ذلك تبيَّن للناس كذبهم على الله تعالى»[1].

---

(١) ابن قيم الجوزية: اجتماع الجيوش الإسلامية ص٩٧ و٩٨.

منشور الخليفة الراضي
كما رواه مسكويه(١)

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، مَن نافقَ بإظهار الدين، وتوثَّب على المسلمين، وأكلَ به أموال المعاهدين، كان قريباً من سخط ربِّ العالمين، وغَضَبِ الله، وهو من الضالين. وقد تأمل أمير المؤمنين أمر جماعتكم، وكشف له الخبرة عن مذهب صاحبكم (. . .)(٢) زين لحزبه المحظور، ويدلي لهم حبل الغرور. فمن ذلك تشاغلكم بالكلام في ربِّ العزة، تباركت أسماؤه، وفي نبيِّه، والعرش والكرسي، وطعنكم في خيار الأمة، ونسبكم شيعة أهل بيت رسول الله ﷺ إلى الكفر والضلال، وإرصادهم بالمكاره في الطرقات والمَحال. ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، والمذاهب الفاجرة، التي لا يشهد بها القرآن، ولا تقتضيها فرائض الرحمٰن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة صلوات الله عليهم، وتشنيعكم على زوَّارها بالابتداع. وأنكم مع إنكاركم ذلك، تتلفقون وتجتمعون لقصد رجل من العوام ليس بذي شرف، ولا نسب، ولا سبب برسول الله ﷺ. وتأمرون بزيارة قبره، والخشوع لدى تربته، والتضرع عند حفرته. فلَعَنَ الله ربّاً حملكم على هذه المنكرات ما أرداه، وشيطان زينها لكم ما أغواه.

---

(١) أصدره زجراً للحنابلة على إثر فتنة عام (٣٢٣هـ). وقارنه بالمنشور الذي رواه ابن الأثير.

(٢) بياض في الأصل.

وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به، لئن لم تنصرفوا على مذموم مذهبكم، ومعوجِّ طريقتكم، ليوسعنَّكم ضرباً، وتشريداً، وقتلاً، وتبديداً. وليستعملنَّ السيف في رقابكم، والنار في مَحالكم ومنازلكم، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فقد أعذر من أنذر، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكل وإليه ينيب»[١].



(١) أبو علي مسكويه: تجارب الأمم ١/ ٣٢٢، ٣٢٣.

منشور الخليفة الراضي
كما رواه ابن الأثير

«فمنه تارة أنكم تزعمون[1] أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال ربِّ العالمين، وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكف، والأصابع، والرِّجلين، والنعلين المذهَّبين، والشعر القطط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا[2]، تبارك الله عما يقول الظالمون والجاحدون، علوّاً كبيراً.

ثم طعنكم على خيار الأئمة، ونسبتكم شيعة آل محمد ﷺ إلى الكفر، والضلال.

ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة، والمذاهب الفاجرة، التي لا يشهد بها القرآن (...)[3]، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة، وتشنيعكم على زوَّارها بالابتداع. وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام، ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب

---

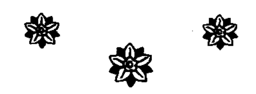
(١) لاحظ الاختلاف بين منشور مسكويه، ومنشور ابن الأثير من جهة البداية، فالأول أكمل.

(٢) هذه الأوصاف زيادات لم توجد في نص مسكويه، الذي هو أقدم من نص ابن الأثير. علماً بأن الحنابلة لا يصفون الله تعالى بذلك، وقد سبق بيان مذهبهم في الصفات. فالمنشور فيه افتراء مُتعمَّد على القوم.

(٣) بياض في الأصل، وهو عند مسكويه: «ولا تقتضيها فرائض الرحمٰن». تجارب الأمم ١/ ٣٢٣.

برسول الله ﷺ، وتأمرون بزيارته، وتدَّعون له معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء[1]. فلعنَ الله شيطاناً زيَّن لكم هذه المنكرات، وما أغواه.

وأمير المؤمنين يقسم بالله قسماً جهداً إليه يلزمه الوفاء به، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم، ومعوج طريقتكم، ليوسعنَّكم ضرباً، وتشريداً، وقتلاً، وتبديداً. وليستعملنَّ السيف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالِّكم»[2].



(١) هذان الوصفان لم يردا في منشور مسكويه.

(٢) ابن الأثير: الكامل: ٨/٢٠٨، ٣٠٩.

مقتطفات من الاعتقاد القادري ـ القائمي[1]

«. . . إن هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق، وكفر، وهو يجب على الإنسان أن يعلم أن الله ﷻ وحده لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. . وكان ربُّنا وحده لا شيء معه ولا مكان يحويه، فخلق كل شيء بقدرته، وخلق العرش، لا لحاجته إليه، فاستوى عليه كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة كما يستريح الخلق. وهو مُدبِّر السماوات والأرضين، ومُدبِّر ما فيها. . وهو السميع بسمع، والمبصر ببصر، يعرف صفتهما من نفسه لا يبلغ كُنهِهما أحد من خلقه، مُتكلِّم بكلام، لا بآلة مخلوق كآلة المخلوقين، لا يُوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيّه عليه الصلاة والسلام، وكل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله، فهي صفة حقيقية، لا مجازية. ويعلم أن كلام الله تعالى غير مخلوق، تكلَّم به تكليماً. . . ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقاً؛ لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به، فهو غير مخلوق، فبكل حال، متلوّاً ومحفوظاً، ومكتوباً، ومسموعاً، ومن قال أنه مخلوق على حال من الأحوال، فهو كافر حلال الدم، بعد الاستتابة منه.

ويجب أن يحب الصحابة من أصحاب النبي ﷺ كلهم، ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله ﷺ، وأن خيرهم كلهم وأفضلهم بعد

---

(١) عُرف بهذا الاسم نسبة إلى الخليفتين: القادر بالله وابنه القائم بأمر الله، وقد أصدرا اعتقادهما نصراً للحنابلة وأهل الحديث.

رسول الله ﷺ: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ويشهد للعشرة بالجنة ويترحم على أزواج رسول الله ﷺ. ومن سَبَّ عائشة فلا حظَّ له في الإسلام، ولا يقول في معاوية إلا خيراً»[1].



(١) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ١١٠، ١١١.

شهادة أبي إسحاق الشيرازي
لابن القشيري في فتنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)[١]

يقول أبو إسحاق الشيرازي: «... الأمر على ما ذكر في هذا المحضر، من حال الشيخ الإمام الأوحد أبي نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري[٢]، أكثر الله في أئمة الدين مثله من عقد المجالس، وذكر الله ﷻ بما يليق به من توحيده وصفاته، ونفي التشبيه عنه، وقمع المبتدعة من المجسِّمة والقدرية، وغيرهم. ولم أسمع منه غير مذهب أهل الحق من أهل السُّنَّة والجماعة، وبه أدين الله ﷻ، وإياه أعتقد، وهو الذي أدركتُ أئمة أصحابنا عليه، واهتدى به خلق كثير من المجسِّمة وصاروا كلهم على مذهب أهل الحق. ولم يبق من المبتدعة إلا نفرٌ يسير[٣]، فحملهم الحسد، والبغض، على سبِّه وسبِّ الشافعي وأئمة أصحابه، ونصَّار مذهبه، وهذا أمر لا يجوز الصبر عليه، ويتعين على المولى[٤] أعزَّ الله نصره، التنكيل بهذا النفر اليسير الذين تولَّوا كِبر هذا الأمر، وطعنوا في الشافعي وأصحابه[٥]؛ لأن الله ﷻ أقدره، وهو الذي

(١) جاءت ضمن خطاب الأشاعرة إلى الوزير السلجوقي نظام الملك، على إثر ما أصابهم على يد الحنابلة في فتنة ابن القشيري عام (٤٦٩هـ).

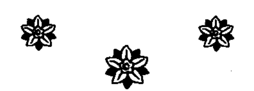
(٢) هو: ابن القشيري الذي تسبب في الفتنة.

(٣) يقصد الحنابلة. انظر: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص٣١٠.

(٤) يعني به: الوزير نظام الملك.

(٥) سبقت مناقشتنا للشيرازي في بعض ما قاله في المحضر.

برأ في هذا البلد بإعزاز هذا المذهب بما بني فيه من المدرسة التي مات كل مبتدع من المجسِّمة والقدرية غيظاً منها، وبما يرتفع فيها من الأصوات بالدعاء لأيامه. استجاب الله فيه صالح الأدعية، ومتى أهمل نصرهم لم يكن له عذر عند الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].



(١) ابن عساكر: المصدر السابق ص٣١٠.

ردُّ الوزير نظام الملك
على خطاب أبي إسحاق الشيرازي
في فتنة ابن القشيري (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)

يقول نظام المُلك: «وفيه وَرَدَ كتابك بشرح أطَلْتَ فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان، وقضية العدلة[١]، إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة. ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة، إلا لصيانة أهل العلم، والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة.

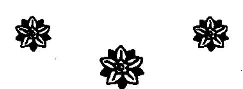
ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب، فليس إلا التقدم بسد الباب، وليس في المُكنة إلا بيان على بغداد ونواحيها، ونقلهم عن ما جرت عليه عاداتهم فيها، فإن الغالب هناك[٢]، وهو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحله معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السُّنَّة.

وكان ما انتهى إلينا، أن السبب في تجديد ما تجدد مسألة سئل عنها أبو نصر القشيري من الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه في

(١) هكذا في الأصل، ولعله العدل.

(٢) كان الشيرازي في شهادته السابقة قد وصف الحنابلة بالنفر اليسير، لكن نظام الملك اعترف أن الحنابلة يمثلون غالبية أهل بغداد.

معتقداتهم. والشيخ الإمام أبو إسحاق وفَّقه الله، رجل سليم الصدر سلس الانقياد، ويصغي إلى كل من ينقل إليه، وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه من سهولة يجتذبه[1]، والسلام»[2].



---

(١) هكذا في الأصل، اضطراب في الكلام.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٣١٢.

رسالة استنكار من ابن عقيل الحنبلي إلى الوزير ابن جهير[1]

يقول ابن عقيل: «لولا اعتقادي صحة البعث، وأن لنا داراً أخرى لعلِّي أكون فيها على حال أحمدها، لما بغضت نفسي إلى مالك عصري، وعلى الله أعتمد في جميع ما أورده بعد أن أشهده إني محبٌّ متعصِّب، لكن إذ تقابل دين محمد، ودين بني جهير، فوالله ما أزن هذه بهذه، ولو كنت كذلك، كنت كافراً، فأقول: إن كان هذا الخرق الذي جرى بالشريعة عن عَمد لمناصبة واضعها، فما بالنا نعتقد الختمات، ورواية الأحاديث، وإذا نزلت بنا الحوادث، تقدمنا مجموع الختمات والدعاء عقيبها. ثم بعد ذلك طبول، وسواني، ومخانيث، وخيال، وكشف عورات الرجال مع حضور النساء، إسقاطاً لحكم الله. وما عندي يا شرف الدين أن فيك أن تقوم لسخطة من سخطات الله، ترى بأي وجه تلقى محمداً ﷺ، بل لو رأيته في المنام مقطباً كان ذلك يزعجك في يقظتك، وأي حرمة تبقى لوجوهنا، وأيدينا، وألسنتنا عند الله، إذا وضعنا الجباه ساجدة.

ثم كيف نطالب الأجناد تقبيل عتبة، ولثم ترابها، ونقيم الحد في دهليز الحريم صباحاً ومساء على قدح نبيذ مختلف فيه، ثم تمرح العوام،

---

(١) كان ذلك عام (٤٨٨هـ)، عندما بنى الوزير ابن جهير سوراً للنساء وسمح للرجال بالتفرج عليهن.

في المنكر المجمع على تحريمه، هذا مضاف إلى الزنا الظاهر بباب بدر، ولبس الحرير على جميع المتعلقين والأصحاب.

يا شرف الدين اتق سخط الله، فإن سخطه لا تقاومه سماء ولا أرض، فإن فسدت حالي بما قلت، فلعل الله يلطف بي، ويكفيني هوائج الطباع، ثم لا تلومنا على ملازمة البيوت والاختفاء عن العوام؛ لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الإعظام لهذه القبائح، والإنكار لها والنياحة على الشريعة.

أترى لو جاءت معتبة من الله ـ سبحانه ـ في منام أو على لسان نبي إن لو كان قد بقي للوحي نزول، أو ألقى إلى رُوع مسلم بإلهام، هل كانت إلا إليك، فاتق الله تقوى مَن عَلِمَ مقدار سخطه، فقد قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء، ومداجاة المتموِّلين بدولتكم الأغنياء الذين خسروا الله فيكم، فحسَّنوا لكم طرائقكم، والعاقل من عرف نفسه، ولم يغيِّره مدح من لا يخبرها»[1].



(١) ابن الجوزي: المصدر السابق ٩/ ٨٥، ٨٦.

تدهور أوضاع بغداد
كما يصورها ابن خلدون

يقول ابن خلدون: «كانت مدينة بغداد قد احتفلت في كثرة العمران، بما لم تنته إليه مدينة في العالم، منذ مبدأ الخليفة فيما علمناه، واضطربت آخر الدولة العباسية بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعَّار والعيَّارون من الرها[1]. أعيا على الحكام أمرهم، وربما أركبوا العساكر لقتالهم، ويثخنون فيهم، فلم يحسم ذلك من عللهم شيئاً. وربما حدثت الفتن من أهل المذاهب، ومن أهل السُّنَّة، والشيعة من الخلاف في الإمامة ومذاهبها، وبين الحنابلة والشافعية وغيرهم، من تصريح الحنابلة بالتشبيه في الذات والصفات[2]، ونسبتهم ذلك إلى الإمام أحمد، وحاشاه منه، فيقع الجدال، والنكير، ثم يفضي إلى الفتنة بين العوام.

وتكرر ذلك منذ حجر الخلفاء. ولا يقدر بنو بويه، ولا السلجوقية[3] على حسم ذلك منها لسكنى أولئك بفارس، وهؤلاء بأصبهان، وبُعدهم عن بغداد. والشوكة التي تكون بها حسم العلل لإنفاقهم، وإنما يكون ببغداد شحنة تحسم ما خف من العلل، ما لم ينته إلى عموم الفتنة،

---

(١) هكذا في الأصل، ولعله يقصد مدينة الرها، التي تقع ما بين النهرين، الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٨١.

(٢) سبق مناقشة هذه المسائل.

(٣) بل كثيراً ما كان بنو بويه والسلاجقة، هم السبب في إشعال الفتن الطائفية، وقد سبق ذكر نماذج من ذلك.

ولم يحصل من ملوكهم اهتمام لحسم ذلك، لانشغالهم بما هو أعظم منه في الدولة والنواحي، وعامة بغداد أهون عليهم أن يصرفوا همتهم عن العظائم إليهم. فاستمرت هذه العلة ببغداد، ولم يقلع عنها إلى أن اختلفت جدتها، وتلاشى عمرانها، وبقي طراز في ردائها لم تذهبه الأيام[1].



(١) ابن خلدون: كتاب العبر، مج٣، القسم الثالث، ص٩٨٩.

نصُّ توبة ابن عقيل الحنبلي

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، يقول علي بن عقيل بن محمد: إني أبرأ إلى الله تعالى من مذاهب المبتدعة والاعتزال وغيره، ومن صحبة أربابه وتعظيم أصحابه، أو الترحم على أسلافهم، وما كنت علَّقته، ووُجد خطِّي به من مذاهبهم، وضلالاتهم، فأنا تائب إلى الله تعالى من كتابته، وأنه لا تحل كتابته، ولا قراءته، ولا اعتقاده. وإني علَّقتُ مسألة الليل في جملة ذلك، وإن قوماً قالوا: هو أجسام سود، وقلت: الصحيح ما سمعت من الشيخ أبي علي، وأنه قال: هو عدم، ولا يسمَّى جسماً، ولا شيئاً أصلاً.

واعتقدتُ في الحلاج أنه من أهل الدين، والزهد، والكرامات، نصرتُ ذلك في جزءٍ عملته، وأنا تائب إلى الله تعالى منه، وأنه قُتل بإجماع فقهاء عصره، وأصابوا في ذلك وأخطأ هو.

ومع ذلك فإنني أستغفر الله تعالى، وأتوب إليه من مخالطة المبتدعة والمعتزلة وغيرهم، ومكاثرتهم، والترحم عليهم، والتعظيم لهم، فإن ذلك كله حرام، ولا يحل لمسلم فعله، لقول النبي ﷺ: **«من عظَّم صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام»**[١].

وقد كان الشريف أبو جعفر ومن معه من الشيوح، والأتباع،

---

(١) لم أجده مرفوعاً، وإنما هو قول منسوب للفضيل بن عياض. أبو الحسين ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ٢/ ٤١.

وساداتي، وإخواني حرسهم الله، مصيبين في الإنكار عليّ لِما شاهدوه بخطي في الكتب التي أبرأ إلى الله تعالى منها. وأتحقق أني كتبتُ مخطئاً، وغير مصيب، ومتى حُفظ عليَّ ما ينافي هذا الخط، وهذا الإقرار، فلإمام المسلمين مكافأتي على ذلك بما يوجبه الشرع من ردع ونكال، وإبعاد وغير ذلك، غير مُجبر ولا مُكره[1]، وباطني وظاهري، يعلم الله في ذلك سواء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

وكتب يوم الأربعاء عاشر محرم، سنة خمس وستين وأربعمائة»[2].



(١) في الذيل على طبقات: «... فلإمام المسلمين، مكافأتي على ذلك، وأشهد الله، وملائكته، وأولي العلم، على ذلك غير مجبر ولا مكره..». طبعة الفقي ١/ ١٤٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٧٥، ٢٧٦.

أشهر مؤسسات العلم في بغداد[1]

(٢٤١ ـ ٥٠٠ هجرية/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

المدارس				دور الكتب العامة[2]	
الحنبلية		الشافعية، الحنفية، الشيعية			
الاسم	الموقع	الاسم	الموقع	الاسم	الموقع
مدرسة سكة الخرقي	ج ـ غ[3]	مدرسة أبي حنيفة	ج ـ ش	بيت الحكمة دار علم الشريف المرتضى	ج ـ غ ج ـ غ
مدرسة القاضي أبي يعلى	ج ـ ش[4]	مدرسة التاجية	ج ـ ش	دار علم مشهد أبي حنيفة	ج ـ ش
مدرسة ابن جردة	ج ـ ش	مدرسة الشاشي	ج ـ ش	دار علم غرس النعمة	ج ـ ش
مدرسة الشريف أبي جعفر	ج ـ ش	مدرسة دار العلم	ج ـ غ	دار كتب المدرسة النظامية	ج ـ ش
مدرسة المخرمي	ج ـ ش	مدرسة النظامية	ج ـ ش	دار كتب أبي نصر بن شابور	ج ـ غ
-	-	مدرسة السلطان ملكشاه	ج ـ ش	-	-
		المدرسة البهائية	ج ـ ش		
		المدرسة التشبيهية	ج ـ ش		

(١) انظر: أحمد سوسة: دليل خارطة بغداد ص٢٧٤ وما بعدها. وجورج مقدسي: مؤسسات العلم الإسلامية. في بغداد، مجلة الأبحاث، مج١٤، ج٣، سنة (١٩٦١م)، أو ج٤. وأكرم ضياء العمري: موارد الخطيب البغدادي، ص٢٣.

(٢) التي ينتفع بها كل الناس.

(٣) أي: بالجانب الغربي من بغداد.

(٤) أي: بالجانب الشرقي من بغداد.

الأحياء الرئيسية لطوائف بغداد[1]

(٢٤١ ـ ٨٥٥هـ/٥٠٠ ـ ١١٠٦م)

أحياء أهل السُّنَّة				أحياء الشيعة	
التي تغلب عليها الحنابلة		يسكنها الحنابلة والشافعية والأحناف			
اسم الحي	الموقع	اسم الحي	الموقع	اسم الحي	الموقع
باب البصرة	ج ـ غ[2]	باب الشعير	ج ـ غ	الكرخ	ج ـ غ
		قطيعة الربيع	ج ـ غ	نهر الدجاج	ج ـ غ
نهر القلائين	ج ـ غ	محلة الحربية	ج ـ غ	سوق الدقاقين	ج ـ غ
		محلة النصرية	ج ـ غ	نهر طابق	ج ـ غ
باب الأزج	ج ـ ش[3]	دار الدقيق	ج ـ غ	باب الدير	ج ـ غ
		سوق الثلاثاء	ج ـ ش	سوق السلاح	ج ـ ش
-	-	سوق يحيى	ج ـ ش	باب الطاق	ج ـ ش
		درب سليمان	ج ـ ش	-	-



---

(١) عن ذلك انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٤٤٨، وابن كثير: البداية ١٢/ ١٦٠. و George Makdisi: Ibn Aquil: p: 326.

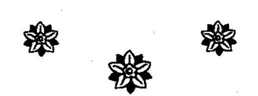
(٢) أي: الجانب الغربي من بغداد.

(٣) أي: الجانب الشرقي من بغداد.

مساجد الحنابلة الرئيسية وجوامع بغداد[1]

(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

مساجد الحنابلة في بغداد		جوامع بغداد	
الاسم	الموقع	الاسم	الموقع
مسجد سكة الخرقي	ج ـ غ[2]	جامع المدينة (المنصور)	ج ـ غ
مسجد ابن البقال	ج ـ غ		
مسجد ابن القواس	ج ـ غ		
مسجد القاضي أبي يعلى	ج ـ ش[3]	جامع الرصافة (المهدي)	ج ـ ش
مسجد درب الديوان	ج ـ ش		
مسجد ابن جردة	ج ـ ش		
مسجد أبي جعفر	ج ـ ش	جامع القصر (الخليفة)	ج ـ ش
مسجد ابن عقيل	ج ـ ش		
مسجد ابن أبي يعلى	ج ـ ش		



(١) انظر: جورج مقدسي: مؤسسات العلم الإسلامية في بغداد، مجلة الأبحاث، مج١٤، ج٣، سنة (١٩٦١م)، ص٢٨٨ وما بعدها. وابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠. ابن كثير: الهداية ١٢/ ١٢٥، ١٢٦.

(٢) أي: الجانب الغربي من بغداد.

(٣) أي: الجانب الشرقي من بغداد.

الخلفاء العباسيون في بغداد

(١٦٤ ـ ٥٠٠هـ/ ٧٨٠ ـ ١١٠٦م)

اسم الخليفة	مدة الخلافة	اسم الخليفة	مدة الخلافة	اسم الخليفة	مدة الخلافة
محمد المهدي	١٥٨ ـ ١٦٩هـ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م	المستعين بالله	٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م	الراضي بالله	٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م
موسى الهادي	١٦٩ ـ ١٧٠هـ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م	المعتز بالله	٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م	المتقي بالله	٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م
هارون الرشيد	١٧٠ ـ ١٩٣هـ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م	المهتدي بالله	٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م	المستكفي بالله	٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ ٩٤٤ ـ ٩٤٦م
محمد الأمين	١٩٣ ـ ١٩٨هـ ٨٠٩ ـ ٨١٣م	المعتمد على الله	٢٦٥ ـ ٢٧٩هـ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م	المطيع لله	٣٣٤ ـ ٣٦٣هـ ٩٤٦ ـ ٩٧٤م
عبد الله المأمون	١٩٨ ـ ٢١٨هـ ٨١٣ ـ ٨٣٣م	المعتضد بالله	٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م	الطائع لله	٣٦٣ ـ ٣٨١هـ ٩٧٤ ـ ٩٩١م
محمد المعتصم(١)	٢١٨ ـ ٢٢٧هـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م	المكتفي بالله	٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ ٩٠٢ ـ ٩٠٧م	القادر بالله	٣٨١ ـ ٤٢٢هـ ٩٩١ ـ ١٠٣١م
الواثق بالله	٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ ٨٧٢ ـ ٨٤٧م	ابن المعتز(٢)	٢٩٦ ـ ٢٩٦هـ ٩٠٨ ـ ٩٠٨م	القائم بأمر الله	٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م
المتوكل على الله	٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م	المقتدر بالله	٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ ٩٠٧ ـ ٩٣٢م	المقتدي بأمر الله	٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م
المنتصر بالله	٢٤٧ ـ ٢٤٨هـ ٨٦١ ـ ٨٦٢م	القاهر بالله(٣)	٣٢٠ ـ ٣٢٢ ٩٣٢ ـ ٩٣٤م	المستظهر بالله	٤٨٧ ـ ٥١٢هـ ١٠٩٤ ـ ١١١٨م

(١) هو الذي نقل عاصمة الخلافة إلى سامراء، شمال بغداد على نهر دجلة، ثم أعادها المعتمد إلى بغداد عام (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). انظر: أحمد سوسة خارطة بغداد، الملحق الأول.

(٢) ملك يوماً واحداً، ثم قتله المقتدر الذي عاد إلى السلطة.

(٣) كان قد ملك يومين في عهد المقتدر ثم خُلع، وعاد المقتدر إلى السلطة. ثم ملك بعد مقتل المقتدر.

ثبت المصادر والمراجع

المصادر

- **القرآن الكريم.**
- إخوان الصفا: **رسائل إخوان الصفا وخلَّان الوفاء**، بيروت، دار صادر، ودار بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- الأصفهاني، أبو نعيم (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م): **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): **المسالك والممالك**، حقَّقه: محمد جابر العال، سلسلة تراثنا، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن (ت٧٩٥هـ/ ١٢٠٠م):
  - ---- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ط٣، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٩٨٢م.
  - ---- **صفة الصفوة**، ط١ دمشق، دار الرفاعي، ١٩٧٠م.
  - ---- **تلبيس إبليس**، حقَّقه: محمد منير الدمشقي، مصر، مطبعة النهضة، ١٩٢٨م.
  - ---- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ.
- ابن أبي يعلى أبو الحسين (ت٥٢٦هـ/ ١١٣١م): **طبقات الحنابلة**، حقَّقه: محمد حامد الفقي، مصر مطبعة السُنَّة المحمدية، ١٩٦٣م.
- ابن مفلح، شمس الدين أبو عبد الله: **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، بيروت، دار العلم للجميع، ١٩٧٢م.
- ابن كثير عماد الدين (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
  - ---- **البداية والنهاية** ط٦، بيروت، منشورات دار المعارف، ١٩٨٥م.
  - ---- **تفسير القرآن العظيم**، ط١ بيروت، دار الأندلس، ١٩٩٦م.

- ابن تيمية تقي الدين (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م):
---- **مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الرباط، مكتبة المعارف، بدون تاريخ.
---- **الخلافة والملك**، باتنة شركة الشهاب، بدون تاريخ.
---- **نقض المنطق. صحَّحه محمد حامد الفقي**، القاهرة، مكتبة السُّنَّة المحمدية، بدون تاريخ.
---- **درء تعارض العلل والنقل**، حقَّقه: محمد رشاد سالم، ط١، السعودية، جامعة محمد بن سعود، ١٩٨١م.
---- **موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول**، حقَّقه: محمد محيي الدين عبد الحميد، وحامد الفقي، ط٢، القاهرة، مطبعة السُّنَّة المحمدية، ١٩٥٠م.
---- **كتاب الإيمان**، حقَّقه: حسين يوسف الغزال، ط١ بيروت، دار إحياء العلوم، ١٩٨٤م.
---- **الرسالة التدمرية**، باتنة، شركة الشهاب ١٩٨٩م.
---- **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، حقَّقه: محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
---- **مجموعة الرسائل الكبرى**، ط١، مصر، المطبعة العامرة الشرقية، ١٣٢٣هـ.
---- **منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، حقَّقه: ، محمد رشاد سالم، بيروت، مكتبة دار العروبة، بدون تاريخ.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م): **كتاب الزهد**، حقَّقه: محمد جلال شرف، بيروت دار النهضة العربية ١٩٨١م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م):
---- **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، مصر، مطبعة المؤيد والأداب، ١٣١٧هـ.
---- **بدائع الفوائد**، بيروت، دار الكتاب البربي، بدون تاريخ.
---- **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الجهمية والمعطلة**، مصر، مطبعة الإمام، بدون تاريخ.
---- **الروح**، حقَّقه: محمد إسكندر يلدا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م.

---- **إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين**، حقَّقه: محيي الدين عبد الحميد، ط٣، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٦٥م.

---- **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، اختصره محمد ابن الموصلي، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، بدون تاريخ.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٦م): **الاختلاف في اللفز والرج على الجهمية والمشبهة**، حقَّقه: محمد زاهد الكوثري، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن (ت٦٣٠هـ/ ١٢٢٢م): **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥م.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي (ت٥٧١هـ/ ١١٦٤م): **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، حقَّقه: محمد زاهد الكوثري، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.

- ابن رجب، عبد الرحمٰن الحنبلي (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٤م): **الذيل على طبقات الحنابلة**، حقَّقه: سامي الدهان وهنري لاوست، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م.

- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (١٠٨٩هـ/ ١٤٧٩م): **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، المكتب التجاري، بدون تاريخ.

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): **وفيات الأعيان**، حقَّقه: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ.

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): **صورة الأرض**، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م): **كتاب التوحيد**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

- ابن قدامة، موفق الدين المقدسي (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م):

---- **المغني**، بيروت، دار الكتاب، العربي، بدون تاريخ.

---- **تحريم النظر في كتب أهل الكلام**، تحقيق وترجمة، جورج مقدسي، لندن، ١٩٦٢م.

- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله (ت٣٠٠هـ/ ٩١٢م): **المسالك والممالك**، طبعة بريل، ١٨٨٩م.

- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد (ت٦٦٧هـ/ ١٨٦٩م): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، حقَّقه: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة ١٩٦٥م.
- ابن رشد، أبو الوليد الحفيد (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م): **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، بيروت دار الفكر العربي، بدون تاريخ.
- ابن خلدون، عبد الرحمٰن (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٥٧م.
- ابن عقيل، أبو الوفاء (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م): **كتاب الفنون**، حقَّقه: جورج مانسي، بيروت، دار المشرق، بدون تاريخ.
- ابن النجار، محمد بن محمود (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م): **ذيل تاريخ بغداد**، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م): **تتمة المختصر في أخبار البشر**، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٠م.
- أبو يعلى الفراء (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م): **الأحكام السلطانية**، حقَّقه: محمد حامد الفقي، ط١، مصر، شركة البابي الحلبي، ١٩٣٨م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م): **المختصر في أخبار البشر**، دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/ ٧٩٨م): **تثبيت الخراج**، ط٥، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٩٦هـ.
- بدر الدين، أبو عبد الله الحنبلي: **مختصر فتاوى ابن تيمية**، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- البربهاري أبو محمد (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م): **شرح السُّنَّة**، حقَّقه: أبو ياسر الردادي، المدينة المنورة، مكتبة الغرباء الأثرية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- الجهشياري أبو عبد الله محمد (ت٣٣١هـ/ ٩٤٢م): **كتاب الوزراء والكتاب**، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الخرقي، عمر بن الحسين (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م): **المختصر في الفقه ط٢**، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٦٤م.
- الخطيب أبو بكر البغدادي (ت٤٦٢هـ/ ١٠٥٧م): **تاريخ بغداد**، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- المحاسبي، الحارث بن أسد (ت٢٤٣هـ/ ٨٥٧م): **العقل وفهم القرآن**، حقَّقه: حسين القوتلي، ط٣، بيروت، دار الكندي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- الذهبي، شمس الدين (ت٨٤٨هـ/ ١٣٧٤م):
---- **سير أعلام النبلاء حقَّقه**: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.
---- **تذكرة الحفاظ**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
---- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، حقَّقه: علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ.
- الرازي، محمد بن أبي بكر (ت٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م): **مختار الصحاح**، ضبط وتخريج مصطفى البغا، ط٤، عين مليلة الجزائر، دار الهداية، ١٩٩٠م.
- السفاريني، محمد بن أحمد الحنبلي (١١٨٩هـ/ ١٧٠٤م): **لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية**، حقَّقه: محمد رشيد رضا، القاهرة، مطبعة المنار الإسلامية، ١٣٢٣هـ.
- السبكي تاج الدين (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٣م): **طبقات الشافعية الكبرى**، حقَّقه: محيي الدين عبد الحميد، ط٢، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٦٤م.
- السراج، أبو نصر الطوسي (ت٣٧٨هـ/ ٩٨٨م): **اللمع في التصوف**، حقَّقه: عبد الحليم محمود وعبد الباقي سرور، مصر، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠م.
- السراج القارئ (ت٥٠٠هـ/ ١١٠٦م): **مصارع العشاق**، بيروت، دار بيروت، ١٩٨٠م.
- السمعاني، أبو سعد (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م): **الأنساب**، حقَّقه: عبد الرحمٰن المعلمي اليماني، حيدر آباد، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٣م.
- السيوطي، جلال الدين (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م):
---- **تحذير الخاص من أكاذيب القصَّاص**، حقَّقه: محمد الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٢م.
---- **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٨٧م.
- الصفدي، صلاح الدين (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م): **كتاب الوافي بالوفيات**، حقَّقه: س. د. رينغ، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٩٥٩م.
- الصولي، أبو بكر (ت٣٣٧هـ/ ٩٤٨م): **أخبار الراضي بالله والمتقي لله**، مصر، مطبعة الصاوي، ١٩٣٥م.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٦٧م):
---- **تاريخ الأمم والملوك**، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩م.

---- **اختلاف الفقهاء**، حقَّقه: فريد ريك كرن، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

- الغزالي، أبو حامد (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م): **إحياء علوم الدين**، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- قدامة بن جعفر الكاتب (ت٣٢٠هـ/ ٩٣٢م): **نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، طبعة بريل، ١٨٨٩م.
- الكليني، يعقوب (ت٣٢٩هـ/ ٩٤٠م): **الأصول من الكافي**، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٢٨هـ.
- المقريزي أحمد بن علي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٤٢م): **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأخبار**، بيروت، دار العرفان، بدون تاريخ.
- مسكويه أبو علي (ت٣٤١هـ/ ١٠٣٠م): **تجارب الأمم**، حقَّقه: آمدروز، القاهرة، بدون ناشر، ١٩١٤م.
- المسعودي أبو الحسن علي (ت٣٤٦هـ/ ٨٥٧م): **مروج الذهب**، ط١، بيروت، دار، الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٢م.
- مؤلف مجهول: **كتاب العيون والحدائق في معرفة الحقائق**، حقَّقه: قمر السعيدي، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٧٢م.
- الماوردي، أبو الحسن علي (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م): **الأحكام السلطانية**، مصر، شركة البابي الحاجي، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
- الهجويري: **كشف المحجوب**، دراسة وترجمة وتعليق إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة عبد المجيد بدوي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.
- الصابي، إبراهيم بن هلال (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م): **كتاب الوزراء وتحفة الأمراء في تاريخ الوزراء**، حقَّقه: عبد الفتاح سراج، مصر، در إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.
- الهمذاني، محمد بن عبد الملك: **تكملة تاريخ الطبري**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦١م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت٦٢٨هـ/ ١١٤٤م):

---- **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر ١٩٦٨م.

---- **معجم الأدباء**، مصر، دار المأمون، بدون تاريخ.

- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): **تاريخ اليعقوبي**، بيروت، دار صادر، ١٩٧٠م.

- اليافعي المكي: **مرآة الجنان**، ط٢، بيروت، منشورات الأعلمي، ١٩٧٠م.

المراجع[1]

- أبو غدة، عبد الفتاح: **مسألة خلق القرآن وأثرها في الرواة**، بيروت، مكتبة المطبوعات الإسلامية، بدون تاريخ.
- أبو زهرة، محمد: **ابن حنبل**، مصر، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.
- أبو ريان علي: **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام**، دار الجامعات المصرية، ١٩٧٤م.
- الألباني ناصر الدين: **صفة صلاة النبي**، الطبعة الأولى الجديدة، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الأهل، عبد العزيز: **شيخ الأمة أحمد بن حنبل**، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٢م.
- أمين، أحمد: **ظهر الإسلام**، ط٣، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م.
- أمين، حسين: **تاريخ العرابي في العصر السلجوقي في بغداد**، العراق، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م.
- باتون ولتر ملفيل: **أحمد بن حنبل والمحنة**، ترجمة عبد العزيز عبد الحق، القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٨م.
- بارتولد: **تاريخ الحضارة الإسلامية**، ترجمة حمزة طاهر، طه، مصر، دار المعارف، ١٩٦٦م.
- بدوي، عبد الرحمٰن: **شخصيات قلقة في الإسلام**، ط٣، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٨م.
- بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة منير بعلبكي وأمين فارس، ط ٦، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤م.
- بشار قويدر: **دور أسرة البرامكة**، رسالة ماجستير، ١٩٥٥ـ ١٩٨٦م.
- البنا، جمال: **الإسلام والحركة النقابية**، بدون ناشر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- البيطار، أمينة: **تاريخ العصر العباسي**، دمشق، مطبعة مؤسسة الوحدة، ١٩٨٠م.

---

(١) سأذكر طائفة منها فقط.

- تسيهر، جولد:
---- **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف موسى، وعبد العزيز عبد الحق، وحسن عبد القادر، بيروت، دار الرائد العربي، بدون تاريخ.
---- **مذاهب الإسلاميين**، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة بغداد، مكتبة المثنى ومكتبة الخانجي، ١٩٥٥م.
- جابر، أبو بكر الجزائري: **العلم والعلماء**، باتنة، دار الشهاب، ١٩٨٥م.
- الجميلي، عبد الله: **في تاريخ الخلافة العباسية**، ط٢، الرباط، مكتبة المعارف، ١٩٨٤م.
- الجندي، أنور: **الإسلام وحركة التاريخ**، سلسلة الموسوعة العربية الإسلامية رقم ٥، ط١، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م.
- جواد، مصطفى: **في التراث العربي**، حقَّقه: محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥م.
- الخطيب، محمد عجاج: **السُّنَّة قبل التدوين**، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٦٣م.
- حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي**، ط٣، مصر، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٨م.
- حسن، محمد عبد الغني: **التاريخ عند المسلمين**، سلسلة كتابك، رقم ٣٢، مصر، دار المعارف، بدون تاريخ.
- حسين، أحمد: **تاريخ الإنسانية**، القاهرة، دار العليم، ١٩٦٥م.
- حمادة، محمد ماهر: **المصادر العربية والمعربة**، ط٥، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.
- الحوالي، سفر عبد الرحمٰن: **منهج الأشاعرة في العقيدة**، ط١، الجزائر، الدار السلفية، النعمان، ١٩٦٦م.
- الرايس، ضياء الدين: **الخراج والنظم المالية**، ط٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦١م.
- الدفاع، عبد الله: **العلوم البحتة في الحضارة العربية الإسلامية**، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.
- الدهلوي، ولي الله: **الإنصاف في أسباب الاختلاف**، حقَّقه: عبد الفتاح أبو غدة، ط٣، بيروت، دار النقاش، ١٩٨٣م.

- الدوري، عبد العزيز: **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري**، ط٢، بيروت، دار المشرق، ١٩٧٤م.
- الزفزاف، محمد: **التعريف بالقرآن والحديث**، طه، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٨٤م.
- سالم، عبد العزيز:
---- **التاريخ والمؤرخون العرب**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
---- **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، بيروت، دار الكتاب، بدون تاريخ.
- سابق، السيد: **فقه السُّنَّة**، ط٧، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.
- سوسة أحمد، وجواد مصطفى: **دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً**، العراق، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٩م.
- شرف، محمد جلال: **دراسات في التصوف الإسلامي: شخصيات ومذاهب**، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٤م.
- شعبان، محمد: **الدولة العباسية**، ط١، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.
- الشكعة، مصطفى:
---- **الأئمة الأربعة**، ط١، القاهرة، بيروت، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م.
---- **إسلام بلا مذاهب**، القاهرة، دار القلم، ١٩٦١م.
- شلبي، رؤوف: **أضواء على المسيحية**، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧٥م.
- صبحي، محمود: **في علم الكلام**، ج٢ الأشاعرة، ط٥، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.
- الصعيدي، عبد المتعال: **القضايا الكبرى في الإسلام**، ط٢، مصر، مكتبة الآداب، ١٩٦٠م.
- ظهير، إلٰهي إحسان: **الشيعة والسُّنَّة**، ط٣، القاهرة، دار الصحوة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- العلواني، جابر فياض: **أدب الاختلاف في الإسلام**، باتنة، دار الشهاب، ١٩٨٦م.
- العمري، أكرم: **موارد الخطيب البغدادي**، دمشق، بيروت، دار العَلم، ١٩٧٥م.

- العبادي، أحمد مختار: **في التاريخ العباسي والأندلسي**، ط٢، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.
- كاهن كلود: **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية**، ترجمة بدر الدين القاسم، ط١، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٧٢م.
- لاندو، روم: **الإسلام والغرب**، ترجمة منير بعلبكي، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- الندوي، أبو الحسن: **رجال الفكر والدعوة في الإسلام**، ط ٤، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م.
- النشار، سامي: **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ط٣، مصر، دار المعارف، ١٩٦٥م.

الدوريات

- بركات محمد سيد: **أبو الحسن الأشعري ومنهجه الوسطي**، مجلة المسلم المعاصر، فصلية تصدر ببيروت، العدد ٤٤، السنة الحادية عشر، شوال ذو القعدة، ذو الحجة، ١٤٠٥هـ.
- الراجوكوني، عبد العزيز: **كتاب أبي عمر الزاهد**، المداخلات، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج٩، ج١٠، سنة ١٩٢٩م.
- الزبيدي، محمد حسين: **الأسعار في العراق في العهد البويهي**، (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ ـ ١٠٥٨م) مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد ١١، ١٩٧٩م.
- شاخت، يوسف: **في تاريخ الفقه الإسلامي**، مجلة المشرق، العدد٢، مج٣٣، ١٩٣٥م.
- جورج مقدسي: **مؤسسات العالم الإسلامية**، بغداد، مجلة الأبحاث، ترجمة إحسان عباس، بيروت مج١٤، ج٣، سنة ١٩٦١م.

الموسوعات

- الموسوعة السياسية، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨١م.
- الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- دائرة المعارف الإسلامية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثاني
أثر الحنابلة السياسي والاجتماعي في بغداد
(من وفاة أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن الخامس الهجري)
(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

الفصل الثالث
النزاع المذهبي بين الحنابلة وطوائف بغداد
(من وفاة أحمد بن حنبل إلى نهاية القرن الخامس الهجري)
(٢٤١ ـ ٥٠٠هـ/٨٥٥ ـ ١١٠٦م)

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
نشاط الحنابلة التعليمي والعلمي في بغداد
بين سنتي (٢٤١ ـ ٥٠٠ هجرية)

الملاحق